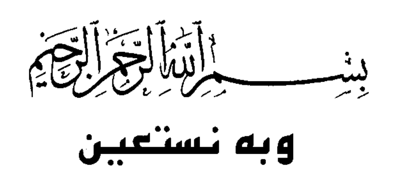


وبه نستعين

دراسات في الحضارة العربية الإسلامية

د. محمود عرفه محمود
كلية التربية الأساسية. الكويت

د. عبد الرحمن محمد العبد الغني
كلية الآداب. جامعة الكويت

د. نايف عيد السهيل
كلية التربية الأساسية. الكويت

مكتبة ابن كثير
الكويت

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ /١٩٩٧م

مكتبة ابن كثير
الكويت ـ حولي 32012 ـ ص.ب ١١٠٦
ت : ٢٦٣١٢٩٨ ـ فاكس : ٢٦٥٧٠٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

صدق الله العظيم

إهــداء

يهدي د. نايف السهيل
القسم الخاص به لروح السيدة
البارة والدته طيب الله ثراها

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وبعد ، فهذا الكتاب يتناول دراسات في الحضارة العربية الإسلامية ، يتجلى لنا فيه أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها ، وحضارة العرب قبل الإسلام ، والنظم الإسلامية التي تتجلى في النظم السياسية والإدارية والقضائية ، والحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، والحالة الاقتصادية في الدولة الإسلامية ، والعمارة والفنون الإسلامية ، والحياة الفكرية والثقافية ، وفضل الحضارة العربية الإسلامية على النهضة الأوروبية الحديثة .

يتناول **الفصل الأول** أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها ، فعرض لآراء العلماء والمفكرين حول مصطلح الحضارة ، والفرق بين الحضارة والمدنية ، وبين الحضارة والثقافة ، كما عرض هذا الفصل للأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية ، واختتم بالخصائص التي تفردت بها الحضارة الإسلامية وتميزت بها عن الحضارات الأخرى .

ويتناول **الفصل الثاني** مظاهر حضارة العرب قبل الإسلام ، على اعتبار أنها إحدى الركائز الأساسية لقيام وتكوين الحضارة الإسلامية ، فعرض للتعريف بأمة العرب ، والمعالم الأساسية لجغرافية الجزيرة العربية ـ موطن أكثر العناصر العربية التي شرفها الله تبارك وتعالى بالدعوة الإسلامية ، ثم عرض للمظهر السياسي للقبيلة العربية في بادية العرب ، والظواهر السياسية المتطورة التي تتجلى في الحكم من خلال مجالس الشيوخ وقيام التحالفات ، كما يعرض للحياة الاجتماعية التي يتبين من خلالها أن المجتمع العربي قبل الإسلام كان يتألف من طبقات صارمة لا تداخل بينها ، والأسرة العربية التي تعد من أهم

مظاهـر الحيـاة الاجتمـاعيـة ، كمـا يتـناول الحـياة الدينية من خـلال دراسة الديانات غير السماوية التي تتمثل في الوثنية والمجوسية وعبادة الجن والصابئة ، والديانــات السـمـاوية قبـل الإسـلام وهي اليـهودية والنصـرانيـة واختـتم هذا الفصل بالحنيفية .

أما **الفصل الثالث** فيتناول أهم نظم الحكم الإسلامية ، ويأتي في مقدمتها النظم السياسية والإدارية والقضائية ، فيتجلى في النظام السياسي قيام الخلافة الذي انفردت به الدولة العربية الإسلامية ، ونظام الوزارة ـ الذي تأثر قيامه بالنظم السـابقـة ، إلا أن هـذا النظام قـد تطـور في كنف الدول الإسـلامـيـة ، أمـا الـنظام الإداري في الدولة ، فـقـد وضـع الرسـول ﷺ اللبـنات الأولى لقـيـامـه ، ثم تطور كثيرا مع الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية ، كما يتناول هذا الفصل النظام القضائي الذي يتجلى في المبادئ والقيم التي تحقق معها القاعدة الخالدة : «إن العدل أساس الملك» ، فقدمت الحضارة الإسلامية للبشرية نظما قضائية تكفل العدالة للناس كافة .

ويتناول **الفصل الرابع** الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، فقد رافق قيام الدولة العربية الإسلامية وحركة الفتوحات الكبيرة نهضة عمرانية تمثلت في إنشاء العديد من المدن لاستقرار الجند واتخاذها قواعد عسكرية أمامية للاستمرار في عـملية الفتح ، وكان إنشاء المدن الجديدة يخضع لاعتبارات عديدة صارت نبراسا لسياسة الدولة الإسلامية في إنشاء المدن ، ويتناول هذا الفصل بالدراسة فـئـات المجتـمع الإسـلامي ، ودور المرأة في المجتـمع ، فـضـلا عن المؤسـسـات الاجتماعية ، ومظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية .

وأما **الفصل الخامس** فيختص بدراسة الحالة الاقتصادية في الدولة الإسلامية ، فيعرض لمواطن الثروة كالزراعة ومحصولاتها في بقاع العالم الإسلامي ، والصناعة وأشهر مراكزها التي يتجلى من خلالها مدى اهتمام

الخلفاء بالتنقيب عن المعادن واستخراجها لإقامة الصناعات المعدنية ، فضلا عن الصناعات الأخرى كالنسيج ومنتوجاته والزجاج وغيرها ، كما يهتم هذا الفصل بدراسة النشاط التجاري من خلال التجارة الداخلية ومراكزها ، وطرق التجارة المختلفة ، وموارد الدولة ومصروفاتها على اعتبار أنها تمثل الدعامة الرئيسية للنظام المالي الإسلامي ، فضلا عن المعاملات التجارية والمالية ونظمها المختلفة كالمقايضة والسفاتج والصكوك .

أما **الفصل السادس** فيختص بالعمارة والفنون الإسلامية ، التي يتجلى من دراستها عبقرية الفنان المسلم في مجالات العمارة وأقسامها كالمساجد والمدارس والقصور والقلاع والحصون ، والفنون التطبيقية التي يعد من أهمها الطرق الفنية لصناعة الخزف والنسيج والتحف الخشبية والمعدنية وزخارفها ، والتكوينات الزخرفية الإسلامية التي تفرد بها الفنان المسلم ، وطورها حتى صارت تتألف من التكوينات الهندسية ، والنباتية والكتابية ، والتكوينات بعناصر الكائنات الحية ، كما يعرض هذا الفصل لفن التصوير ومدارسه ، وفن الخط العربي الذي يتجلى فيه إبداع الفنان المسلم ، وقدراته التي استطاع من خلالها تحويل أحرف الهجاء العربية إلى عناصر وتراكيب زخرفية رائعة أكسبتها مزيدا من الحياة ومنحتها الجمال والبهجة .

وأما **الفصل السابع** فيتناول الحياة الفكرية والثقافية من خلال استعراض العلوم النقلية والعقلية التي تصدى لها علماء المسلمين فحذقوها وطوروها وتوسعوا فيها في اتجاهات شتى لخير البشرية ، فقد كانوا يوجهون العلم للخير واسعاد البشر ، ولم تقف عنايتهم عند حد العلوم الدينية ، بل امتدت الى سائر فروع العلم من فلك وطب وكيمياء وطبيعة ورياضيات وغيرها ، ذلك لأن العلم في القرآن الكريم يشمل علوم الدين والدنيا في سائر فروع العلم والمعرفة ، ويتجلى في هذا الفصل النهضة الفكرية الإسلامية التي شملت كل العلوم ،

فضلا عن استعراض مفصل لأعلام الفكر والثقافة الذين اسهموا بدور بارز في مختلف التخصصات العلمية ، وخاصة المنهج العلمي التجريبي ، مما كان له أكبر الأثر في الدور الحضاري الكبير الذي قدمته الحضارة العربية الإسلامية في مسيرة الحضارة الإنسانية .

وفي **الفصل الثامن** عولج باختصار فضل الحضارة العربية الإسلامية على النهضة الأوروبية الحديثة ، فالحضارة العربية الاسلامية التي تميزت بصفة العالمية قد اتجهت مسيرتها لجميع شعوب العالم ، تنتقل فوق الحواجز الجغرافية والحدود السياسية تحمل لواء العلم والمعرفة إلى كافة شعوب الشرق والغرب ، وقد استفادت أوربا من الإنجازات العلمية في الحضارة العربية الإسلامية فخرجت بذلك من ظلام العصور الوسطى إلى نور العلم الذي أضاء لها طريق الحضارة .

وعلى الله قصد السبيل ،

المؤلفون

دولة الكويت

رمضان المبارك ١٤١٧هـ

يناير ١٩٩٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها

د. محمود عرفه

تمهيد : مصطلح الحضارة

يرجع الفضل إلى العلامة ابن خلدون في توجيه اهتمام الباحثين نحو تناول مصطلح الحضارة بالدراسة والتحليل ، فهو يعد من الرواد الأوائل الذين تناولوا ظاهرة الحضارة وأصولها ومراحل تطورها في الفصل الخامس عشر من مقدمته الموسوم : «في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة»(١) .

لفظ الحضارة كما جاء في معاجم اللغة العربية(٢) ، مشتق من الحضر أي الإقامة في المدن حيث الاستقرار والتطور في كافة جوانب الحياة الإنسانية ، وهو يقابل كلمة بداوة التي تدل على حالة عدم الاستقرار بسبب حياة الحل والترحال ، والبعد عن عوامل العلوم والفنون والنشاط الإنساني من أجل التقدم والارتقاء ، كما استخدم الغرب لفظ حضارة **Civilization** اشتقاقا من كلمة مدينة **Civitas** ، أو من **Civilis** بمعنى مدني على اعتبار الدلالة المكانية حيث تزدهر الحياة عادة في المدن(٣) .

الواقع أن تخصيص مصطلح الحضارة بالدلالة المكانية واقتصاره على الاستقرار بالمدن فيه افتئات كبير على أهل البادية ، فالحضارة صفة من صفات

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٧٢ .

(٢) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ص١٨٠ .

مجد الدين فيروزابادي : القاموس المحيط جـ٢ ص١٠ .

الزبيدي : تاج العروس م٣ ص١٤٦ .

(٣) Encyclopedia Britannica vol. 4, p.657

الإنسان الفطرية[٤] ، وهي مصاحبة لوجوده الاجتماعي في المدينة أو البادية ، كما أن لكل مجتمع إنساني مجموعة من القيم الروحية وقواعد السلوك التي تنظم العلاقات بين أفراده ، وتتحكم في توجيه نشاطاتهم نحو الأفضل ، وعلى ذلك فلكل مجتمع مهما كانت بدائيته حضارته التي يتميز بها عن باقي المجتمعات البشرية الأخرى .

ليس أدل على ذلك من أن البادية نفسها خلقت بين العرب عادات اجتماعية كريمة منها حماية الجار والبسالة والمروءة وكرم الضيافة والوفاء ، وحب الحرية واحتمال الشدائد والدفاع عن الأرض ، كما بلغت اللغة العربية في أحضان البادية أوج مجدها في الفصاحة والإنتاج الأدبي شعرا ونثرا ، وظهرت روائع انتاجها في نواح ثلاث ، هي الأشعار والأمثال والقصص ، واشتهر عرب البادية شهرة عظيمة بالشعر ، إذ وجدت عبقرياتهم فيه حقلا خصبا للنمو والازدهار ، حتى صار من الأقوال المأثورة : «الشعر ديوان العرب» بمعنى أنه سجل حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم وتاريخهم وأنسابهم[٥] ، فضلا عن ذلك كان لأهل البادية تقاليد سياسية راسخة[٦] .

تناول المهتمون بدراسة الحضارة الإنسانية مصطلح الحضارة من جوانب مختلفة في محاولة لتفسير ما يرتبط به من المدنية والثقافة ، فيرى ول ديورانت أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي ، وهي تتألف من الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية وتطوير العلوم والفنون ، وهي تولد وتنمو بعيدا عن الاضطراب والقلق وتزدهر في جو من الأمن والاستقرار[٧] .

---

(٤) فؤاد زكريا : الإنسان والحضارة ص١٠-١١ .
(٥) محي الدين الألوائي : الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية ص٩٠ ، ٩١ .
(٦) انظر الفصل الثاني .
(٧) ول ديورانت : قصة الحضارة ، جـ١ص٤ .

ويرى مالك بن نبي أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها ، يقول : «وما الحضارات المعاصرة ، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلة إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن ، فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها»[٨] .

تبعا لذلك قال د .حسين مؤنس بأن الحضارة ثمرة جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المنشود للوصول إلى قلب الثمرة مقصوداً أو غير مقصود وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية[٩] .

أما الأستاذ أبو الأعلى المودودي فيقول : «إن الناس يظنون حضارة أمة من الأمم عبارة عن علومها ، وآدابها وفنونها الجميلة وصنائعها وبدائعها ، وأطوارها للحياة المدنية والاجتماعية وأسلوبها للحياة السياسية ، ولكن الحقيقة أن ليست كل هذه الأمور بالحضارة ذاتها ، وإنما هي نتاج الحضارة ومظاهرها ، وما هي بأصل الحضارة ، وإنما هي أوراق شجرة الحضارة وثمارها ، إذا صلح هذا فلا يجوز أن نحدد وزن حضارة وقدرها وقيمتها على أساس ما لها من هذه الصور الظاهرة ، وإنما علينا أن نتوصل إلى روحها ونتحسس أصولها»[١٠] .

أما الثقافة ، فيرى فريق من الباحثين أنها تعني التراث الحضاري الفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية ، الذي تمتاز به أمة وينسب إليها ، ويتلقاه الفرد من ميلاده حتى وفاته من ثمرات الفكر والعلم والفن والقانون والأخلاق[١١] ،

---

(٨) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص٥٢ .

(٩) حسين مؤنس : الحضارة ، ص١٣ .

(١٠) أبو الأعلى المودودي : الحضارة الإسلامية ، أسسها ومبادئها ، ص٦ .

(١١) أحمد جمال : محاضرات في الثقافة الإسلامية ، ص١٢ .

بينما يرى فريق آخر أنها مجموعة تعاليم فطرية مكتسبة بالسلوك ، إلا أن تيلور عرفها بأنها ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية وكل القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في الجماعة(١٢) .

ومن ناحية أخرى يرى مالك بن نبي أن الثقافة تعني الحذق والفطنة والتهذيب والتقويم وتنمية العقل والذوق والأدب ، وتنمية عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات(١٣) ، وأخيرا يرى الأستاذ شفشق(١٤) ، أنها مجموعة الأفكار والمثل والمعتقدات والعادات والمهارات وطرق التفكير ، وأساليب الحياة والنظام الأسري ، وتراث الماضي بقصصه ورواياته وأساطيره وأبطاله ، ووسائل الاتصال والانتقال وطبيعة المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الواحد .

يتجلى من عرض الآراء السابقة أن التصدي لتحديد معنى دقيق لمصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة يعد أمرا ليس باليسير ، للتداخل والارتباط في مدلولاتها ، فالآراء التي حاولت وضع حدود فاصلة بين هذه المصطلحات لم تصل إلى نتيجة حتمية ، وانتهى الأمر بها إلى الدخول في متاهات فلسفية عقيمة وصلت بأصحابها إلى نقطة البدء ، فالآراء القائلة بأن الحضارة تقتصر على التكوين الوجداني للمجتمع ، والمدنية تختص بالنشاط العقلي والمدني تتعارض مع الآراء التي تعرف الحضارة بأنها القيم والتطورات التي يتميز بها مجتمع عن آخر ، والتي تعتبر من خصائصه ومقومات تراثه الروحي والإنساني ، كما أن الآراء التي تذهب إلى أن الحضارة ظاهرة اجتماعية لا تخضع لسنن التطور الإنساني ، تتعارض مع الآراء التي تعتبر أن النشاط الإنساني هو الذي يعبر عن

---

(١٢) Encyclopedia Britannica vol.4, p.657

(١٣) مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ص١٦ .

(١٤) محمود شفشق : التربية المعاصرة ، ص٢٩ .

حضارة المجتمع في مختلف مجالاته ، كما يلاحظ من الآراء السابقة امتزاج الثقافة بالحضارة ، فامتزجت الأصول والإنجازات المعرفية بالاختراعات المادية في التعبير عن الثقافة .

الواقع أن الحضارة والمدنية تعدان بمثابة وجهان لعملة واحدة ، فقد اتسع مدلول الحضارة في العصر الحاضر ليشمل كل أنواع النشاط الإنساني من مادي وعقلي وروحي لأي مجتمع من المجتمعات ، أما الثقافة فهي ذاكرة الأمة ووسيلة أبنائها للاطلاع على تراث الأجداد للانطلاق به إلى مزيد من التقدم والارتقاء ، فضلا عن أهميتها في الدراسة الواعية لأفكار الأمم السابقة والمعاصرة ونظرياتهم وتجاربهم للبناء عليها واستكمال المسيرة الحضارية ، وعلى ذلك فتعد الثقافة بمثابة العنصر الرئيسي من أجل مزيد من التقدم الحضاري .

قصارى القول أن مصطلح الحضارة يطلق على كل ما يتصل بالنشاط الإنساني الإيجابي في المجالات المختلفة المعنوية والدينية الروحية والمادية من الوسائل والاكتشافات والابتكارات الصناعية والتجارب الكونية ، فضلا عن التراث التاريخي المتمثل في العقائد والقيم التي ترسم للحياة غاية مثلى ومغزى روحيا عميقا يؤدي إلى الرقي بالإنسان والوصول به إلى حياة مستقرة ، ذلك أن تاريخ البشر منذ أقدم العصور عبارة عن سلسلة من الحضارات بعضها يرتبط بأماكن معينة وعصور محددة ، وبعضها يرتبط بدول وحركات سياسية أو دينية ، وفي جميع الحالات تزداد أهمية الحضارة بما تقدمه من إضافة بناءة لمسيرة البشرية وما تأتي به من إسهام فعال في رقي الإنسان فكريا وروحيا ، ماديا وخلقيا .

أسس الحضارة العربية الإسلامية :

تعد الحضارة العربية الإسلامية من أعظم الحضارات التي عرفتها البشرية في العصور الوسطى ، التي ارتبطت بظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي ، ومن الضروري لكل مسلم أن يقف على الدور الحضاري الذي لعبته

الأمة الإسلامية في التاريخ الإنساني ، وتحرير العقول والشعوب من الخرافات والاستبداد ، وتوجيهها نحو عصر حضاري جديد ، لتجديد المعرفة ونهضة العلم ، واصطناع مناهج الملاحظة والتجربة ، إلى جانب ما أقامه المسلمون من تقدم عمراني وصناعي ، وممارسات اجتماعية لترقية الحياة في الشعوب المفتوحة .

يرى بعض المفكرين[١٥] تسمية هذه الحضارة بالعربية ، بدعوى أنها انطلقت من الجزيرة العربية بزعامة النبي العربي محمد ﷺ ، تحت راية القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، فضلا عن أن اللغة العربية هي أداة هذه الحضارة وأهم ما يميزها وتنفرد به عن الحضارات الأخرى ، وتحت لواء العروبة أسهم المسلمون وغير المسلمين في بناء هذه الحضارة ، ولا يملك الباحث أن ينكر دور العرب السياسي والثقافي في تأسيس هذه الحضارة لأن العرب أنفسهم قد عمروا البلاد التي فتحوها ، فصارت تدعى بعد ذلك بلادا عربية وسادت اللغة العربية معظم البلاد الإسلامية .

إلا أن دور العرب السياسي في قيادة الدولة الإسلامية لم يلبث أن نافسهم فيه أجناس أخرى ، ولم يعد نطاق الحضارة الإسلامية يقتصر على العرب وحدهم ، وإنما امتد إلى كافة المسلمين في الأقطار التي انتشر فيها الإسلام ، كما أن العرب صاروا بالإسلام أمة ذات حضارة لها سماتها وخصائصها التي تميزت بها ، بعد أن كان العرب مجهولين كأمة من الأمم ولم يرتفع شأنهم ولا اتسع ذكرهم إلا بابتداء الإسلام[١٦] ، فالإسلام هو الركن الأساسي وهو الأصل وحجر الزاوية في هذه الحضارة ، ولولا رسالة الإسلام ما كان للعرب ولا للغة العربية أن ينتشروا في هذه الأرجاء الشاسعة ، وأن يحققوا ذلك النجاح الرائع ،

---

(١٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب(مترجم) .
محمد إبراهيم الصيحي : الحضارة العربية وأثرها في أوربا ، مكتبة الوعي العربي .
ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ، بيروت .
(١٦) مختار القاضي : أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية ، ص١٠-١١ .

والعروبة لم تبلغ أسمى صورها وأنقى خصائصها إلا تحت مظلة الإسلام ، فالإسلام هو الذي أعطاها وجهها الحضاري الخلاق .

وعلى ذلك أطلق فريق من الباحثين(١٧) عليها اسم الحضارة الإسلامية باعتبار أن الإسلام هو دين الغالبية التي أسهمت بجهد في تقدمها ، ولأن الإسلام هو الذي أظل هذه الحضارة بظله وأمدها بما يؤكد ذاتها ويعطيها طابعها الخاص .

ولا يقلل من هذه الحقيقة الساطعة أن نطلق عليها تسمية الحضارة العربية الإسلامية لأنها قامت على دعامتين كبيرتين هما الإسلام والعروبة ، فلم تهبط الحضارة الإسلامية من السماء على فراغ في الجزيرة العربية ، وإنما جاء التشريع الإسلامي لإقامة هذه الحضارة على قواعد من الدين الإسلامي الحنيف لتهذيب وتصحيح الأساس الحضاري للعرب قبل الإسلام ، والانطلاق نحو آفاق جديدة ، فقد ولدت هذه الحضارة في حجر عربي ، والعرب هم الذين أخذوا بالأسباب وقاموا بنشر الإسلام في أقاليم العالم وبناء الدولة الإسلامية الكبرى .

ترجع أصول الحضارة الإسلامية إلى مقومات ثلاثة هي الدين الإسلامي ، وحضارة العرب قبل الإسلام ، وحضارات بعض الأمم السابقة :

١ ـ الدين الإسلامي :

الإسلام عقيدة وشريعة ، دين ودنيا ، فالعقيدة تتمثل في وحدانية الله سبحانه وتعالى ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، وعلى رأسهم النبي محمد ﷺ ، والإيمان بالبعث بعد الموت ، والثواب والعقاب في دار الخلود ، أما الشريعة فتعني الأحكام التي فصلها القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة باعتبارهما أهم مصادر التشريع الإسلامي ، وهي تهتم بتنظيم علاقة الإنسان بخالقه من

---

(١٧) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، (مترجم) .
محمد جمال الدين سرور : الحضارة الإسلامية في الشرق ، دار الفكر العربي .
حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية ، دار النهضة العربية .

خلال الفرائض والأوامر والنواهي ، والمعاملات بين الأفراد والأمم من خلال المبادئ السامية التي جاء بها الإسلام لتنظيم العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فصار لها أثر كبير في الارتقاء بالإنسان وتقدم البشرية ، ويقوم الأساس الأول على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

(أ) القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو الكلام المعجز المنزل على النبي محمد ﷺ المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ومن أسماء القرآن ، الفرقان ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[18] ، ويعني التفرقة بين الحق والباطل ، ومنها الذكر : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[19] ، ومنها التنزيل : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[20] .

أنزل الله تعالى القرآن بلسان عربي مبين ، وجاء فيه تقرير الحقائق ، والكشف عن الدقائق ، وبيان عظمة الخلق بقدرته تبارك وتعالى ، وقد أقسم الله على أن القرآن حق ، قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[21] .

وأقسم تبارك وتعالى في القرآن الكريم على أن الرسول ﷺ حق ، قال تعالى : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [22] ، وأمرنا بالإيمان بالثواب والعقاب ، والوعد

---

(١٨) سورة الفرقان : آية ١ .

(١٩) سورة الأنبياء الآية : ٥٠ .

(٢٠) سورة الشعراء : آية ١٩٢ .

(٢١) سورة الواقعة : الآيات ٧٥ـ٨٠ .

(٢٢) سورة يس : الآيات ١ـ٥ .

والوعيد ، فالقرآن العظيم هو المعجزة الكبرى الدالة على صدق الرسالة ، والدعوة العظمى من الله تعالى إلى التوحيد والإسلام .

إن سر عظمة القرآن الكريم تكمن في أن الله تبارك وتعالى تولى حفظه من التحريف والتبديل والتغيير ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٢٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٢٤) ، وتكمن في أن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى لفظا ومعنى ، لذلك عجز الخلق كلهم أن يأتوا مجتمعين بمثله أو حتى بآية من آياته المعجزة قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٢٥) .

وتكمن في أن ترتيب الآيات في السور(٢٦) بتوقيف منه ﷺ ، وبأمره إجماعا ، وترتيب السور توقيفي ، فكتبه الصحابة كما سمعوه من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئا أو أخروا شيئا ، أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذوه منه ﷺ ، وكان الرسول ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن ، على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا ، بتوقيف من جبريل عليه السلام إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية ، أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، ومنه يعلم أن أسماء السور توقيفية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾(٢٧) ، تتجلى أخص مراتب الإعجاز

---

(٢٣) سورة الحجر : آية ٩ .

(٢٤) سورة الأنعام : الآية ١١٥ .

(٢٥) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢٦) السور : طائفة من القرآن ، لها ابتداء وانتهاء ، مأخوذة من سور المدينة لارتفاع رتبتها كارتفاعه ، أو من السورة وهي المنزلة الرفيعة ، أو من التسور وهو العلو والارتقاء لارتفاعها بكونها من كلام الله تبارك وتعالى .

(٢٧) سورة القيامة : الآيات ١٧-١٩ .

القرآني في ترتيب السور والآيات ، فعلى الرغم من وضع آيات مكية في موضعها بالسور المدنية ، وآيات مدنية بالسور المكية ، إلا أن ذلك لم يخل بتركيب السور ورصانة اللفظ ، ونظمه وبيانه ووضوحه وشموله للمعاني العديدة الواسعة التي لا تزال تظهر عند التأمل والتفكير ، وذلك لأن القرآن كلام الله رب العالمين العليم الحكيم الرحيم .

لقد مس القرآن قلوب العرب بأسلوبه المعجز الساحر ، قبل أن تنزل آياته التشريعية ، ونبوءاته الغيبية ، ونظراته الكلية الكبرى إلى الكون والحياة والإنسان التي اشتملت على الجانب العلمي والجانب الفلسفي ، وهي التي تدل على أن علوم الكون ستظل جميعها في خدمة الإنسان للكشف عن آيات في الآفاق وفي الأنفس ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢٨) .

وقد ورد عن النبي ﷺ وعن أصحابه والتابعين حث المسلمين في كل العصور على أن يتخذوا من القرآن إماما يهتدون بهديه ، ويجتهدون في تعلمه وتفهم أسراره وتدبر معانيه ، إعمالا بقوله تعالى : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾(٢٩) .

وقد أيقظ القرآن الكريم الفكر الإنساني من رقاده ووجهه إلى العلم ، وفتح للعقول أبوابا من العلم سلك بها سبلا من المعارف لم يكن لها عهد بها من قبل ، فكانت نورا وهدى للناس في سائر العصور ، وصار المسلمون بدراسة هذه العلوم وتدوينها وتقرير أحكامها الرواد الأوائل في كل علم وفن .

على الصعيد الاجتماعي أراد الإسلام أن يحفظ على هذه الأمة اعتدالها وتوازنها ، وأن يجعلها وسطا في عقائدها وأخلاقها ، وعباداتها ومعاملاتها ،

---

(٢٨) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

(٢٩) سورة ص : آية ٢٩ .

فمهد لذلك بتصحيح أفكارها ودعوتها إلى ما يحييها[٣٠] ، ففي الأخلاق ترتكز على الرحمة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٣١] ، وفي العلاقات الاجتماعية ترتكز على الأخوة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣٢] .

على الصعيد السياسي منحت العقيدة الإسلامية الفرد مقياسا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة ، وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة ، وهي مع هذا الاستقلال الفردي ، لم تترك الجماعة فأبدعت لها فكرة الأمة ، وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحدود الوراثة ، فأصبح معنى الأمة قابلا للتطور مع الحوادث والظروف[٣٣] ، قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[٣٤] .

كما أن القرآن الكريم فيه بيان بالقواعد الأساسية التي يقوم عليها كل نظام في المعيشة الاقتصادية ، وهي القواعد التي يوافقها كل وضع سليم يأتي به الزمن من أوضاع الاقتصاد الكاملة التي يشهد بكمالها وصلاحها كل عقل سليم ، ولو اجتمع الخلق كلهم على سن نظم تماثلها أو تقاربها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

قصارى القول أن القرآن الكريم دون ريب المصدر الرئيس الذي رسم للمجتمع الإسلامي أسلوب معيشته وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، فهو الركيزة الأولى من ركائز الحضارة الإسلامية .

والأمة الإسلامية في العصر الحاضر لا سبيل لنهضتها وعزتها إلا إذا أسلمت قيادتها للقرآن الكريم تستمد منه الطريق إلى السعادة والقوة ، فلا نجاة ولا إنقاذ للأمة الإسلامية إلا بالقرآن .

---

(٣٠) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، ص٦٨ .
(٣١) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .
(٣٢) سورة الحجرات : آية ١٠ .
(٣٣) عباس العقاد : ما يقال عن الإسلام ، ص١٤٩ .
(٣٤) سورة الأنبياء : آية ٩٢ .

(ب) السنة النبوية :

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، والرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالته كان «قرآنا» حيا يسعى بين الناس ، إن الله اختاره ليتحدث باسمه ، ويبلغ عنه ، فالسنة هي وحي الله تعالى إلى الرسول ﷺ بالمعنى أو إقرار الله تعالى لما صدر من الرسول باجتهاده عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية كلاهما من مشكاة واحدة .

يقول الشيخ محمد الغزالي عن السنة : إن تطبيق القانون لا يقل خطرا عن صياغته وللقانون نص وروح ، والقرآن قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه ، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه ، وقد أعطى الله نبيه ﷺ حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه ـ في ذلك ـ لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه ، فطاعته هي طاعة الله ، قال عز وجل : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾(٣٥)

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٣٦) ، وأمر الله سبحانه وتعالى بتصديق كل ما جاء به الرسول ﷺ والعمل به وترك ما نهى عنه ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٣٧) .

السنة هي كل ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو صفة أو إقرار سواء كان قبل البعثة أو بعدها ، وصفاته عليه الصلاة والسلام هي عاداته في معاملته لزوجاته ولجيرانه ولأصحابه ولخدمه وحتى للحيوان ، وغير ذلك من أخلاقه وسجاياه ﷺ ، وأما إقراره عليه الصلاة والسلام فهو رضاه ﷺ عما يراه

---

(٣٥) سورة النساء : آية ٨٠ .

(٣٦) سورة النحل : آية ٤٤ .

(٣٧) سورة الحشر : آية ٧ ، محمد الغزالي : فقه السيرة ص٣٧ .

من فعل الصحابة أو قولهم ولا يعترض عليه ، ومما يدل على توجيه الله سبحانه وتعالى للمسلمين وأمره لهم بالأخذ بالسنة هو ما جاء في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(٣٨) ، وهو أمر بالاقتداء برسول الله ﷺ في كل شيء في العقيدة ، وفي الخلق والعبادة والمعاملة فهو عليه السلام أفضل وأحسن أسوة ، وصدق الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣٩) .

طبعت الحضارة الإسلامية بالطابع الإنساني بفضل اتباع تعاليم القرآن الكريم وتأسي المسلمين بسنة النبي ﷺ التي تتجلى في حب الخير والعمل الصالح والصدق في المعاملة ، والتسامح والرفق والحرص على العلم ، وغير ذلك من الشمائل العديدة التي جعلت من المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، ولما كانت السنة النبوية هي أحاديث الرسول ﷺ وأفعاله ، وهي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم ، فقد تكفلت السنة النبوية ببيان القرآن الكريم ، ولولاها لظل القرآن الكريم نصوصا يعجز البشر عن فهم معاني الكثير من آياتها وفهم المراد منها ، واستنباط أحكام وشريعة الإسلام منها بتفاصيلها المختلفة ، ففي كتاب الله تعالى الأصول العامة للأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات والأخلاق دون التعرض إلى تفصيلها والتفريع عليها إلا في القليل ، ففي القرآن الأصول الثابتة الصالحة لكل زمان ومكان ، لكنها مجملة ومطلقة وعامة تحتاج إلى ما يفصل إجمالها ويفرع على أصولها ويطبقها على وقائع حياة الناس المختلفة(٤٠) .

ففي مجال العبادات التي هي أركان الإسلام ، نزل الأمر بها بصورة إجمالية ، وتكفلت السنة النبوية ببيان كل الجوانب المتعلقة بها ، ففي الأمر بإقامة

(٣٨) سورة الأحزاب : آية ٢١ .

(٣٩) سورة الشورى : آية ٥٢ .

(٤٠) صديق أبو الحسن : دراسات في السنة النبوية الشريفة ص٢٩ .

الصلاة وإيتاء الزكاة ، والترغيب في التطوع فيهما ، لم يرد فيه بيان أوقات الصلاة بالتحديد والتفصيل بداية ونهاية ، ولا عدد ركعات كل صلاة ، ولا أركان وسنن كل ركعة ، وبيان الصلوات المفروضة والنافلة ، ولا كيفية الصلاة ، والطهارة لها ، ومبطلاتها ، كما لم تبين الآيات أنواع الأموال التي تجب فيها الزكاة ، ولا نصابها ، وأوقات إخراجها ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تكفلت السنة بتفصيل ما ورد مجملا في القرآن الكريم من شؤون الصيام ومناسك الحج والبيوع المختلفة ، وتشريعات الأسرة وأحكام الحرب والسلم ، كما بينت تفصيل تطبيق الحدود والأحكام الواردة في القرآن الكريم .

على الرغم من أن السنة النبوية تتجلى في التفريع على الأصول إلا أنها قد أتت بتشريعات كثيرة لم ترد في القرآن الكريم سواء في مجال العبادات أو المعاملات ، أو الأساليب ونظم الحياة وشؤون الأسرة ، ومن أمثلة ذلك السنن الرواتب مع الصلوات الخمس ، وصلاة التراويح وقيام رمضان ، وصلاة الاستخارة والجنازة وغيرها ، وسنن الزكاة ، والصيام ، كما جاءت بتحريم أكل كل ذي ناب من السباع ، ونكاح المرأة على عمتها أو ابنة أخيها وخالتها أو ابنة أختها ، وجاءت بقاعدة عامة أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب .

وكما حرص الإسلام على القرآن الكريم وسلامته من الضياع أو التحريف بالتبديل أو الزيادة فيه أو النقص منه ، حرص على حفظ سنة الرسول ﷺ بمعرفة كل ما صدر عنه ، وتحري الصحة والدقة فيها ، والتفقه فيها ، ثم الإذن بتدوينها والحرص على تبليغها ، فبلغت السنة رواية شفهية ، ورواية مدونة مكتوبة .

يتجلى أثر السنة النبوية الشريفة في الحضارة الإسلامية ، في الترغيب في العلم وتحصيل المعارف ، والترغيب في تبليغها ، فالعلم الصحيح هو مفتاح الإيمان وهو أساس النهضة والقوة ، وأساس الصلاح والإصلاح ، ولحرص الإسلام على بناء جوانب حضارة الأمة الإسلامية على أسس من العلم والمعرفة

نجد أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يحضان على تحصيل العلوم قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[41] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[42] ، وقال ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)[43] .

وكما جعل الإسلام طلب العلم فريضة ورغب فيه ، فقد أمر بتبليغ العلم ، وجعله واجبا شرعيا ، فغاية العلم أن ينتفع به من تعلمه ، ويبلغه إلى غيره لينتفع به الآخرون ، قال ﷺ : (من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة)[44] .

أمر الرسول ﷺ بكتابة أحاديثه وخطبه ورسائله وما تضمنته من أحكام وتفاسير لآيات القرآن الكريم ، فضلا عن التطبيق العملي لهذه الأصول والأحكام التي تمتاز بأنها محيطة بجوانب الحياة وأطوارها ، وبفضل النبي ﷺ وسنته طبعت الحضارة الإسلامية بالطابع الديني على أسس العقيدة الصحيحة والفطرة السمحاء التي أرادها الله سبحانه وتعالى لخير البشرية .

٢ ـ حضارة العرب قبل الإسلام :

كان للعرب قبل الإسلام حضارة زاهرة في شمال جزيرتهم وجنوبها لا تقل عن حضارة غيرهم من الأمم والشعوب ، وهي من الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية ، فقد كان العرب على علم بالتطورات الحضارية من خلال صلاتهم التجارية مع الأمم المتحضرة ـ والعرب هم الذين حملوا لواء الإسلام وأقاموا دولته ، وكانت لهم تقاليدهم وعاداتهم وفنونهم ومعارفهم التي

---

(٤١) سورة طه : آية ١١٤ .

(٤٢) سورة فاطر : آية ٢٨ .

(٤٣) سنن ابن ماجة : جـ١ ص٥٠ .

(٤٤) مسند الإمام أحمد : جـ٤ ص٥ الحديث ٧٥٦ .

اشتهروا بها ، فلا شك أن الحضارة العربية قبل الإسلام كانت بمثابة القاعدة التي ارتفع عليها البناء الإسلامي الحضاري(٤٥) .

٣ ـ التأثيرات الأجنبية :

لم تنم الحضارة الإسلامية التي قامت على الأساس العربي الإسلامي وتطورت بعيدا عن العلوم والفنون القديمة مثل الحضارات الأخرى التي تأثرت بغيرها من الحضارات المعاصرة لها والسابقة عليها ، ولا شك أن التأثيرات المتبادلة في هذا المضمار من أهم الأسس التي تزدهر خلالها الحضارات .

تأثرت الحضارة الإسلامية بمؤثرات أجنبية شرقية وغربية ، فالشرقية جاءت لها عن طريق الهند وفارس ، أما الغربية فوصلت إليها عن طريق الإغريق على وجه الخصوص .

لما فتح المسلمون بلاد الهند ، أصبحت الأقاليم المفتوحة جزءا من الدولة الإسلامية ، فانتقلت الحضارة الهندية إلى الإسلامية وأثرت فيها ، ونبغ كثير من علماء الهند في الحضارة الإسلامية وأسهموا بدور بارز فيها ، فمن بينهم أبو العطاء السندي ، وكان شاعرا ، وأبو معشر نجيح السندي صاحب المغازي ، كما اشتهر مفكه الهندي بالترجمة من الهندية إلى العربية(٤٦) .

كما وصل إلى المسلمين من علم الهند في الرياضيات حساب الغبار ـ الذي قام بتهذيبه وتبسيطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي ، كما أخذ المسلمون عن الهنود أرقام الحساب وهي من واحد إلى تسعة فضلا عن الصفر وهو دائرة صغيرة ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الأعداد العربية الحالية صورة متطورة من الأعداد الهندية القديمة ، يقول الأستاذ جورج يعقوب(٤٧) : «ومما هو جدير

---

(٤٥) نظرا لأهمية حضارة العرب قبل الإسلام فقد أفردنا لها فصلا قائما بذاته ، انظر الفصل التالي .

(٤٦) ابن النديم : الفهرست ص١٤٢ .

(٤٧) جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى ، ترجمة د .فؤاد حسن علي ص٢٥ـ٢٦ .

بالملاحظة أن الأعداد المستعملة في غرب العالم الإسلامي أقرب إلى تلك المستعملة في أوروبا من هذه التي نجدها في شرقه ، والسبب في ذلك أن القسم الغربي ظل محافظا عليها زمنا طويلا فأخلص للصورة الهندية الأصلية وحافظ عليها» .

لما كانت الهند قد ازدهرت في مجالي الطب والجراحة منذ القرن السادس قبل الميلاد ، فنقل المسلمون عن الطبيب كنكة الهندي ـ الذي اشتهر بالطب والفلك ، وله عدة مؤلفات منها كتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، كما كان لشهرتهم في هذا المجال أن استقدم يحيى بن خالد البرمكي ، الطبيب منكه الهندي لمعالجة الرشيد ، وقد نقل كتاب سسرد من الهندية إلى العربية وكتاب أسماء العقاقير الهندية ، وكتاب رأي الهند في أجناس الحياة وسمومها[٤٨] نقله عبدالله بن علي ، وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الأدوية[٤٩] .

وفي مجال الأدب نقل المسلمون عن الهند كتاب سندباد الكبير ، وكتاب سندباد الصغير ، وكتاب أدب الهند والصين وكتاب هابل في الحكمة ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب دبك الهندي ، وكتاب ساديوم ، وكتاب بيديا في الحكمة[٥٠] .

أما التأثيرات الفارسية ، فقد وجدت فيها العلوم الإسلامية أرضا خصبة للنمو والنضوج ، بعد أن قام ابن المقفع بدور عظيم في الترجمة والتأليف أثرى به الحضارة الإسلامية ، فضلا عن دور سيبويه والكسائي والفراء ، وطب وفلسفة ابن سينا ، قال ابن خلدون : «من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي ، وكان

(٤٨) ابن النديم : الفهرست : ص٤٢١ .
(٤٩) جورجي زيدان : التمدن الإسلامي ، جـ١ ص١٧٨ .
(٥٠) ابن النديم : المصدر نفسه ، ص٤٢٤ـ٤٢٥ .

صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده ، والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم ، وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام وأكثرهم عجم أو مستعجمون وعلماء أصول الفقه كلهم عجما ، وحملة علم الكلام . . .»[٥١] .

كانت أغلب الكتب التي نقلها المسلمون عن الفرس في الأدب ، خاصة الأدب القصصي والحكمة ، فمنها كتاب رستم واسفنديار ، وكتاب بهرام وشوس نقلها جبلة بن سالم وكتاب مزدك ، وكتاب التاج في سيرة انوشروان ، وكتاب الآداب الصغير وكتاب الآداب الكبير نقلها عبدالله بن المقفع[٥٢] ، ويعد كتاب ألف ليلة وليلة (هزارافسان) من أهم الكتب المترجمة عن الفارسية ، ومعناه ألف خرافة ، كما ترجم عبدالله بن المقفع كتاب الشاهنامة (خداي نامه) أي كتاب السادة ، وقد نظمها بالفارسية أبو القاسم الفردوسي من ستين ألف بيت من الشعر ، يحكي فيها رؤية الفرس للسلطان محمود الغزنوي ، وبها قسم عن تاريخ الدولة الساسانية ، وقصة دارا والاسكندر المقدوني ، فضلا عن قسم الخرافات والأساطير[٥٣] .

أما عن العلوم العقلية الفارسية التي نقلت إلى العربية وأثرت في الحضارة الإسلامية فمنها كتاب كناش تيادروس ، أما في الفلك فكانت للفرس أرصاد للكواكب ومذاهب في حركاتها المختلفة ، فمن ذلك المذهب الذي ألف عليه أبو معشر جعفر بن محمد البلخي زيجه الكبير ، كما ألف الفرس كتبا جليلة في أحكام النجوم منها كتاب في صور درجات الفلك ينسب إلى زردشت وكتاب التفسير وغيرها[٥٤] .

---

(٥١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٥٤٠ـ٥٤٢ .

(٥٢) جورجي زيدان : التمدن الإسلامي ، جـ٣ ص١٧٦ .

(٥٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ص٤٧ .

(٥٤) صاعد بن أحمد : طبقات الأمم ص٢٤ـ٢٥ .

لما كان الفرس أمة ذات حضارة قديمة ، فقد نبغوا في العمارة والفنون ـ وكانت لهم عناصر فنية تميز الفن الفارسي خاصة في هذا المجال ـ التي أثرت في فنون العرب المعمارية ، فالعمارة الفارسية تميزت بعنصر القنطرة التي ظهرت في العهد الفرثي ، كما تميزت بالأقواس التي يعلو بعضها البعض على واجهات القصور وفي الجدران المحيطة بالإيوانات ، يظهر ذلك في طاق كسرى بالمدائن ، ويتجلى أثر الفن الفارسي في مساجد الفرس في المآذن مخروطية الشكل ، التي تبدو قليلة الارتفاع المكسوة بالميناء وهي ذات رواق واحد في أعلاها ـ كما تميزت المساجد الفارسية بالأبواب العظيمة التي تنتهي بأقواس مفلطحة ، وقد زينت بالرسوم المختلفة من الخارج وبخاصة النباتات ، مثال ذلك مسجد همذان(٥٥) .

يتجلى تأثير فن التصوير والزخرفة الفارسي في تصاوير الرجال والحيوانات والمغنيات والنسخ المصورة من مقامات الحريري ، والصور الخاصة بملوك العرب والفرس والملكات والقادة وأعاظم الرجال الموجودة بمكتبة الاسكوريال ـ ويرجع أغلبها إلى عهد الخليفة المستنصر الفاطمي(٥٦) ، وانتشرت الزخارف في كثير من المنشآت الفنية ، ولا تزال السجادة العجمية آية من آيات الفن الفارسي في الصباغة والزخرفة(٥٧) .

كان اليونان أمة عريقة في الفنون والآداب والعلوم والفلسفة ، وظهر فيها العلماء العظام الذين انتشر علمهم في أقطار الشرق ، وكان للاسكندرية دور بارز في نشر الحضارة اليونانية مما كان له أثره في الحضارة الإسلامية فقد تم الاتصال بينهما في عهد خالد بن يزيد بن معاوية ـ الذي جلب كتب الكيمياء من الاسكندرية وأمر بترجمتها لأنه كان مولعا بهذا العلم ، يقول صاحب الفهرست : «وكانت صناعة الكيمياء متقدمة في الاسكندرية فاستقدم (خالد بن

---

(٥٥) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ٤ ص٢٤٧ .

(٥٦) لوبون : حضارة العرب ، ص٥٠٨ـ٥٠٩ .

(٥٧) مختار القاضي : أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية ، ص٤٨ .

يزيد) منها ماريانوس ـ وهو راهب رومي وطلب إليه أن يعلمه صناعة الكيمياء ففعل ، ثم كلف رجلا اسمه اصطفان القديم فنقلها له إلى اللغة العربية»[٥٨] ، كما كان خالد بن يزيد أول من ترجم كتب الإغريق في النجوم والطب والفلك[٥٩] ، وكان عمر بن عبدالعزيز قد اتخذ ابن ابحر طبيبا خاصا وهو طبيب اسكندراني .

يرجع أثر الطب اليوناني في الطب العربي إلى طائفة الأطباء المشهورين الذين قدموا من جنديسابور إلى البلاط العباسي ، وكانوا قد أصبحوا أثرياء مشهورين مما شجع الأطباء الآخرين على اتباعهم ، وقد ألف الأطباء مع علماء مرو كتبا كثيرة منها كتاب التذكرة ، وكتاب قوى الأدوية المفردة على الحروف ، وكتاب دغل العين وكتاب الأقربازين وقوى الأطعمة ، وقد انتقل الطب الإغريقي إلى الحضارة الإسلامية عن طريق الأطباء الذين انتقلوا من المدن الإغريقية إلى الإسلامية ، فمن بينهم أبو زكريا يحيى بن ماسوية ـ وكان قد ترأس مدرسة الطب والبيمارستان في جنديسابور ثم ترأس بيمارستان بغداد .

كما كان ثابت بن قرة من مدرسة حران من الذين نبغوا في الطب والنجوم ، وانتقل إلى بغداد وعمل في خدمة المعتضد بالله العباسي ونقل هذه العلوم إلى العربية ، وقد استعان الأطباء اليونان بحنين بن اسحاق ـ وهو من نصارى الحيرة في ترجمة كتب الطب والفلسفة ، فلما أراد المأمون نقل الكتب الفارسية إلى العربية عين حنينا مراجعا على المترجمين[٦٠] .

ليس أدل على أثر علوم اليونان في الحضارة الإسلامية ، من الكتب الكثيرة التي تم نقلها إلى العربية والتي أوردها ابن النديم في كتابه الفهرست ومن أهمها

---

(٥٨) الفهرست : ص٣٤٠ .

(٥٩) الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ١ ص٢٦ .

(٦٠) مختار القاضي : أثر المدنية الإسلامية ، ص٦٠ .

كتب أبقراط ، ومنها كتاب الفصول ، وكتاب الكسر ، وكتاب المعرفة التي نقلها حنين بن إسحق ، وكتاب عهد ابقراط الذي نقله إلى العربية حبيش الأعصم ، وكتاب الأمراض الحادة الذي نقله عيسى بن يحيى(٦١) .

كما نقلت كتب جالينوس ومنها كتب التشريح ، وكتب الأدوية التي نقلها حبيش الأعصم ، وكتب علل الأعضاء ، والعلل والأمراض ، وكتاب الحميات ، وكتاب تدبير الأصحاء التي نقلها حنين وابنه اسحق ، كما نقل اصطفان بن باسيل كتاب الأدوية المستعملة للورياسيوس ، وكتاب الحشائش وملحقه في الدواب ، والسموم لديسقوريدس نقله حنين بن اسحق ، وكتاب علل العين وعلاجاتها ، وكتاب الصغار والحيات والديدان لاسكندروس لفيلفريوس نقله إلى العربية أبو الحسن الحراني(٦٢) .

فضلا عما سبق نقلت كتب السياسة والفلسفة والأدب لأفلاطون وأرسطو ، كما نقل كتاب السماع الطبيعي لأرسطو ترجمة أبو روح الصابي ، وكتاب السماء والعالم نقله ابن البطريق وراجعه حنين ، وكتاب الحروف أو الإلهيات نقله اسحق بن حنين ، ويحيى بن عدي ، وكتاب المرآة نقله الحجاج ابن مطر(٦٣) .

هكذا كان لحركة الترجمة التي بدأت في زمن الأمويين ، وبلغت أوجها في عهد المأمون ، أثره البالغ في نقل العلوم اليونانية إلى اللغة العربية ، فانتقل الفكر اليوناني القديم وعلومهم إلى المسلمين .

قصارى القول أن الحضارة الإسلامية قد تأثرت بالحضارات السابقة عليها شأنها في ذلك شأن الحضارات الراقية التي تتأثر وتؤثر في بعضها البعض إلا أن

---

(٦١) ابن النديم : الفهرست ، ص٣٩٣ .

(٦٢) ابن النديم : المصدر نفسه ، ص٤٠٠ـ٤٠٢ .

(٦٣) ابن النديم : المصدر نفسه ، ص٤٠٣ـ٤٠٨ .

هذه الحضارة قد تميزت بالقيم والمثل العليا ، فقد التقت الحضارة الإسلامية بالتقاليد المختلفة للأقاليم التي انضوت تحت لواء الإسلام ، فقضت على ما يخالف تعاليم الإسلام ، وهذبت التقاليد الأخرى حتى تتمشى مع الفكر الإسلامي الذي كان له أبلغ الأثر في تكوينها وجعلها حضارة عربية إسلامية .

خصائص الحضارة العربية الإسلامية :

إن الرؤية الحضارية للدور الرائد الذي لعبته التجربة الإسلامية في التاريخ الحضاري للإنسانية يحتم على المفكر المسلم أن ينظر إلى حقيقة الحضارة الإسلامية من خلال خصائصها التي تفردت بها بعد انتهاء عهد التكوين واستقلالها عن مصادرها الأولى التي كان لها دورها في تأسيسها ، مع التأكيد على عدم انقطاع الصلة بينها وبين هذه المصادر التي ساهمت في إثراء الحضارة الإسلامية .

١ ـ حضارة العلم والإيمان :

العقيدة الإسلامية هي أساس البناء الحضاري الإسلامي ، وهي العقيدة الخالدة التي تنفرد بالوحدانية الكاملة الخالصة لله تبارك وتعالى لا تشرك به شيئا والتي تؤمن بأنبياء الله جميعا وكتبه لا تفرق بين أحد من رسله ، وتهتدي بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

الإيمان هو جوهر الحضارة الإسلامية والإيمان بالله هو قاعدة الدين وأهم الأصول الاعتقادية والعملية ، والإيمان في الإسلام لا يتعارض مع العقل وإعمال الفكر ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى

﴿ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٦٤] ، فهي حضارة تعتبر أن العلم ضرورة من ضرورات الحياة ، وأنه السبيل للتمسك بجوهر الدين ومبادئه ، وأن المعرفة هي أساس الحضارة وازدهارها ، وتتجلى عظمة اهتمام الإسلام بالعلم في أن سورة اقرإ ـ أول سورة نزل بها الوحي على الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٦٥] ، فأكد الله تبارك وتعالى على أهمية العلم في تكرار «اقرأ» أي الأمر بتحصيل المعارف في هذه السورة العظيمة ، كما جعل الله سبحانه وتعالى للعلماء منزلة خاصة على نحو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[٦٦] ، وقال رسول الله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء»[٦٧] ، مما يتبين لنا الدور الرائد الذي أولاه الإسلام للعقل الإنساني لكي يقوم بدوره في عمارة الحياة ، وجاء التحول الحضاري الضخم على أيدي المسلمين كثمرة للعقلية التي صاغها الإسلام ، ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تؤدي دورها الشامل ، في تكوين الحضارة الإسلامية[٦٨] .

والإيمان في الحضارة الإسلامية لا يدعو إلى التواكل وترك العمل ، بل الحضارة الإسلامية تحث على العمل والكفاح ، لأن العمل في الإسلام مرتبط بالإيمان قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٦٩] ، ذلك أن الله تبارك وتعالى زود الإنسان بطاقات جسدية

---

(٦٤) سورة الرعد : الآيات ٣ ـ ٤ .
(٦٥) سورة العلق : الآيات ١ ـ ٥ .
(٦٦) سورة المجادلة : آية ١١ .
(٦٧) أخرجه أبو داود والترمذي .
(٦٨) عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، ص٦٣ـ٦٤ .
(٦٩) سورة التوبة : آية ١٠٥ .

وعقلية خلاقة ، فبالعقل يفكر وبالجسد يعمل ، وللإنسان في الأنبياء الأسوة الحسنة ، فنوح عليه السلام كان نجارا ، وداود كان حدادا ، والأنبياء جميعا اشتغلوا برعي الغنم ، والعبادة لا تمنع أو تعطل الإنسان عن العمل ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ﴾(٧٠) .

وتنفرد الحضارة الإسلامية باستقاء نظمها وتشريعاتها وقوانينها من القرآن الكريم ، الكتاب السماوي الأوحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو النبع الفياض الذي تنهل منه الحضارة الإسلامية حيويتها وقوتها ، ففيه أسس نظم الحكم والإدارة والاقتصاد والحرب فضلا عن القيم ومكارم الأخلاق ، فلا خير في علم دون خلق وصدق الله العظيم في قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾(٧١) .

٢ ـ حضارة إنسانية :

قامت الحضارة الإسلامية وتطورت بالإنسان ومن أجل رقي الإنسان وتقدمه ، فهي تستهدف خير الإنسان في الدنيا والآخرة والرحمة به والحفاظ على كرامته ، والنهوض بمستواه الروحي والفكري والاجتماعي والاقتصادي ، ومن أجل ذلك اهتم الإسلام بالإنسان الذي فضله الله سبحانه وتعالى وجعل له منزلة خاصة بين مخلوقاته بطاقاته العقلية والنفسية والحسية، وسخر له سائر مخلوقاته ، وأمره بالهدى والطريق المستقيم ، فأرسل إليه الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين واستمر هذا الوحي الإلهي إلى أن تم واكتمل برسالة الإسلام ورسوله ﷺ .

ففي ظل شريعة الإسلام سعد الإنسان بمساواة اجتماعية قل أن عرف التاريخ لها مثيلا ، فقد أعلن الإسلام المساواة بين البشر جميعا ، وأبطل كل

---

(٧٠) سورة الجمعة : آية ١٠ .

(٧١) سورة الأنعام : آية ٣٨ .

الفوارق التي تميز بين الناس ، فلا قيود ولا استثناءات ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[72] ، وقال ﷺ : «الناس لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح»[73] ، وهذا المبدأ السامي سبقت به الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية التي لم تعرفه إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، تلك هي الحرية التي قررتها الشريعة في أروع صورها ، فقررت حرية التفكير وحرية الاعتقاد وحرية القول .

ومن ناحية أخرى هناك بعض الأحكام الخاصة باستقرار المجتمع الإنساني التي جاءت بها الشريعة الإسلامية قد تعرضت للارتياب والاتهام من خصوم الإسلام ، ثم لم تجد البشرية بدّاً من اللجوء إليها ، تحقيقاً للعدل ورفعاً للظلم والضرر عن الأفراد والمجتمعات ولعل من أبرزها ، مبدأ الطلاق الذي اضطرت دول الغرب كافة إلى الاعتراف به ، وآخرها الدولة الكاثوليكية (ايطاليا) بعد عقد مؤتمر لاهاي سنة ١٩٦٨ ، الذي أوصى بإعداد معاهدة الاعتراف بالطلاق ، والتفريق القانوني على المستوى الدولي[74] ، والمبدأ الثاني هو الربا ، الذين زعموا أن عجلة الحياة الاقتصادية لا تدور إلا به ، حتى قام كبار الاقتصاديين في الغرب بنقض هذه الفكرة من أساسها باسم العلم والاقتصاد لا باسم الدين ، فقد قرر العالم الاقتصادي البريطاني الشهير «كينز» أن المجتمع لا يصل إلى العمالة الكاملة إلا بالقضاء على سعر الفائدة ، ومنها أيضا الادعاء القائل أن تعدد الزوجات سبب للتأخر الحضاري لأنه مدعاة لاحتقار المرأة وطريق إلى البطالة وكثرة العاطلين ، الواقع أن إباحة التعدد يعلي من كرامة المرأة التي تعامل كزوجة ويكون لها ولأولادها كل الحق في الحياة السعيدة الكريمة بدلا من اتخاذها خدنا

---

(٧٢) سورة الحجرات : آية ١٣ .

(٧٣) رواه البخاري .

(٧٤) جمال الدين عطية : مدى الحاجة إلى موسوعة الفقه الإسلامي ، ص١٤٥ .

لمجرد قضاء الشهوة ، ولم يحدث أن التعدد كان سببا في البطالة ، وإنما منع التعدد هو الذي أفرز كثيرا من الأمراض الاجتماعية المستعصية ، فمنها كثرة عدد اللقطاء ، وانتشار الفسق والمجون ، وكثرة الشاردات من البنات ، وعدد الولادات السرية ، والزيجات العرفية ، وأطفال الأرصفة والشوارع ، الأمر الذي حدا بالعالم الاجتماعي تومس ، أن يصف الدواء : «وهو الإباحة بأن يتزوج الرجل أكثر من واحدة . . حتى يزول البلاء وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الأوروبي على الاكتفاء بواحدة»[٧٥] ، وتعقيبا على ذلك يقول الدكتور ايزكوانساباتو : «إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوروبية ، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتا»[٧٦] .

الإنسان هو محور الحضارة الإسلامية ـ فالإنسان مخلوق بقدرة الله سبحانه وتعالى وحكمته وعلمه ، وهو الذي أوحى إليه بمعطيات الحضارة الإسلامية ، فالتقت الفطرة الإنسانية بالوحي الإلهي الذي يشكل لب الحضارة الإسلامية ، مما يدل على أن الحضارة الإسلامية قامت على أساس سوي قويم بوحي من السماء ، وفيها دليل أكيد على أنها الحضارة التي يمكن أن تحقق للإنسان الرخاء والتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة[٧٧] .

يقول ول ديورانت في معرض حديثه عن فضل القرآن الكريم على الإنسان[٧٨] : «وقد كان له الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضّهم على اتباع القواعد الصحيحة ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقوة ، وحسّن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء

---

(٧٥) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص١٩١ـ١٩٣ .

(٧٦) يوسف القرضاوي : شريعة الإسلام ، ص٩٢ـ٩٣ .

(٧٧) إبراهيم الكروي : المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، ص١٢ـ٢٢ .

(٧٨) ول ديورانت : قصة الحضارة ، جـ١٣ ص٦٨ .

الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم ، ولقد علّم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها بلا شكوى ولا ملل ، وبعثهم إلى التوسع توسعا كان أعجب ما شهده التاريخ كله» .

إن الإنسان المسلم في العصر الحاضر يعيش فترة الجمود الحضاري لأن الدفعة القرآنية قد وهنت وانغمس الإنسان المسلم في التخلف الحضاري الغربي بكل ما تحمله من انهيارات سياسية وأخلاقية واقتصادية نتيجة لضعف العقيدة في النفوس(٧٩) ، ولكي يتخلص من هذا الجمود الفكري ويتحقق له الإصلاح والترقي يجب عليه أن يبدأ خطوته الأولى بنفسه إعمالا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(٨٠) .

٣ ـ حضارة تقدمية متطورة :

الإسلام يحث الإنسان على الأخذ بكل ما هو جديد طالما أنه لا يتعارض مع روح الدين ومثله وآدابه ، والإسلام هو خاتم الأديان فلا شك أن الحضارة التي قامت على أساسه حضارة تقدمية متطورة تستطيع أن تواكب التطور البشري ولا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة ، وتستطيع أن تفصل في القضايا المتجددة في هذا المجتمع البشري ، فاجتهد المسلمون في مواجهة متغيرات الحياة اجتهادا واسعا استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى لإعمال العقل والتفكير والتأمل في كل ما خلق الله فإن العقل الراجح والقلب المتفتح هما سبيل التقدم والارتقاء ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٨١) .

---

(٧٩) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص٥٤ـ٦٠ .
(٨٠) سورة الرعد : آية ١١ .
(٨١) سورة الزمر : آية ٩ .

القرآن الكريم يحث العقل الإنساني على التفكير والعمل للوصول إلى المعرفة التي تدفع إلى الخلق والإبداع والتدبر وهي وسائل الحضارة وسبل التقدم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾[٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[٨٣] .

كما يحث على تعاطي الأسباب وترك الارتجال والعشوائية ، لأن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط العلمي للمستقبل ، وهو لا يتعارض أو يتنافى مع التوكل على الله ، ومن قرأ سيرة النبي ﷺ وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته ، ويهيىء له أسبابه مقدرا كافة الاحتمالات ، واضعا ما أمكن من الاحتياطات مع أنه كان خير المتوكلين على الله ، وفي القرآن الكريم قصة نبي الله يوسف عليه السلام الذي وضع مشروع التخطيط المستقبلي للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاما بما ألهمه الله سبحانه وتعالى عن الأزمة الغذائية التي سوف تصيب المنطقة كلها ، تتجلى الخطة في قوله تعالى : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[٨٤] .

ومن ناحية أخرى فتح الإسلام باب الاجتهاد لاستنباط الأحكام لما لا نص فيه والتي تتمشى مع تطور المجتمع الإنساني ، وذلك عن طريق القياس الصحيح أو اعتبار المصلحة المرسلة والاستحسان ، وقد وضع لذلك الضوابط المحكمة حتى لا تضيع الأصول ، فهناك منطقة محرمة لا يدخلها الاجتهاد ، وهي منطقة

---

(٨٢) سورة الروم : آية ٢٢ .

(٨٣) سورة النحل : آية ٨٩ .

(٨٤) سورة يوسف : الآيات ٤٧-٤٩ ، جريدة القبس العدد ٨٤٧٠ .

القطعيات من الأحكام ، مثل فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمحرمات ، وتحديد أنصبة المواريث ، وأما المنطقة الأخرى المفتوحة للاجتهاد البشري فهي منطقة الظنيات من الأحكام الشرعية العملية من خلال الأخذ بفحوى النص وإشارته وروحه ، دون الوقوف عند ظاهر النص وحرفيته(٨٥) .

الإسلام ترك للعقل البشري حرية الإبداع والابتكار واستغلال خيرات الكون التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان ، ولم يقيد حرية السلوك الإنساني في هذا المجال ، لكنه وضع الضوابط التي تحكمه لحماية الإنسان والنفس البشرية ذاتها من الانحرافات المنافية للفطرة ، لكي يساهم كل فرد في المجتمع الإسلامي من أجل خير البشر .

انطلق المسلمون يعملون في أمن وطمأنينة في إطار الضوابط الأخلاقية الراقية والمثل العليا التي جاء بها الإسلام ، فأبدعوا وخلفوا لنا تلك الثروة الكبيرة من العلوم والفنون والآداب ، التي ما تزال معلما بارزا من معالم الحضارة الإسلامية ، ومصدرا هاما من مصادر التطور الإيجابي ، ومثلا يقتدي به أبناء الأمة الإسلامية على مر العصور .

٤ ـ حضارة أصيلة خالدة :

ترجع أصالة الحضارة الإسلامية وقوتها واستمرارها إلى أنها قامت على أساس الشريعة الإسلامية التي أرادها الله سبحانه وتعالى لخلقه أجمعين منذ آدم ونمت وازدهرت في ظل الإسلام دين الفطرة ، فالإسلام هو ما جاء به النبيون من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

جاء على لسان نوح قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٨٦) ، ولما أرسل الملائكة إلى لوط ـ عليه السلام ـ قالوا :

---

(٨٥) يوسف القرضاوي : شريعة الإسلام ، ص٢٣ .

(٨٦) سورة يونس : آية ٧٢ .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(87) ، ومن دعاء إبراهيم عليه السلام ما جاء في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(88) .

ولما حضر يعقوب عليه السلام الموت استحلف أبناءه واستوثق منهم ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(89) .

كما كانت دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ بعد أن تمت رسالته ما جاء في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(90) . وقال موسى لقومه : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾(91) .

ليس أدل على أن الإسلام هو الدين الحق والأصل وإن أنكر الجاحدون هو اعتراف فرعون عندما أدركه الغرق كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(92) .

---

(٨٧) سورة الذاريات : آية ٣٦ .
(٨٨) سورة البقرة : آية ١٢٨ .
(٨٩) سورة البقرة : آية ١٣٣ .
(٩٠) سورة يوسف : آية ١٠١ .
(٩١) سورة يونس : آية ٨٤ .
(٩٢) سورة يونس : آية ٩٠ .

كانت دعوة سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ، وكان قول ملكة سبأ لما رأت ملك سليمان : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٩٣] .

كما أعلن الحواريون ـ أنصار السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام إسلامهم ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[٩٤] ، ولما أحس السيد المسيح منهم الكفر قبيل وفاته ورفعه إلى السماء ، جمعهم واستوثق منهم بأغلظ الأيمان ألا يحيدوا عما جاء به وهو الإسلام قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٩٥] .

لما كان الإسلام هو دين الفطرة الذي اختاره الله للإنسان على مر العصور والأزمان ، فمن الطبيعي أن تكون الحضارة المؤسسة على هذا الدين حضارة خالدة دائمة حتى تقوم الساعة ، وحتى يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها وما عليها ، بذلك يتحقق للإنسانية أقصى ما تطمح إليه من الرقي والتقدم على أسس سليمة .

إن هذا التوافق الذي جاء به الإسلام مع فطرة الإنسان ، هو الذي جعل الحضارة الإسلامية صالحة للتطبيق في أي بقعة من بقاع الأرض ، والواقع التاريخي يزد هذه الحقيقة تأكيدا ، فقد وسعت هذه الحضارة الناس في كل مكان وصلت إليه ، رغم اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم وتعدد أجناسهم ولغاتهم ، واستطاعت هذه الشعوب أن تطور حياتها معنويا وماديا تطويرا واضحا في

---

(٩٣) سورة النمل : الآيتان ٣١ ، ٤٤ .

(٩٤) سورة المائدة : آية ١١١ .

(٩٥) سورة آل عمران : آية ٥٢ .

ظلها ، وترتقي رقيا كبيرا فمراكز الحضارة في مشارق الأرض ومغاربها تقف شامخة شاهدة على أثر الحضارة الإسلامية في ازدهار وتقدم أبناء هذه الشعوب .

٥ ـ حضارة تسامح وسلام :

بدأت دولة الإسلام في المدينة كنموذج فريد لصورة المجتمع الجديد بعد الهجرة حيث انطفأت في ظل العقيدة الإسلامية ـ نار العداوة بين أهل المدينة ، وكان للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أثره البالغ في إذابة الحواجز بين القحطانيين والعدنانيين ، وحل الوئام بين العربي والعجمي ، وانمحت الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، وبين المتحضرين والبداة ، وأصبح مسجد الرسول ﷺ في المدينة ، يضم جنسيات متباينة ، اجتمعت على الحب والعقيدة ، ولم ينل من هذه المحبة والأخوة اختلاف الجنس واللون والقبيلة والطبقة(٩٦) .

كان للتسامح الذي اتسمت به الفتوحات الإسلامية أن رضيت الشعوب المفتوحة بسيادة الفاتحين ، واعتنق كثير منهم الإسلام ، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية وكان العدل والمساواة بين الرعية دستور المسلمين السياسي ، وترك الفاتحون الناس أحرارا في معتقداتهم وأموالهم .

استطاع الإسلام أن يتغلغل إلى النفوس كدين وأسلوب للحياة والتفكير ودستور أخلاقي ، وأن يصبح ظاهرة حضارية فريدة في وقت قصير بالنسبة لنشأة وارتقاء الحضارات ، وذلك بالمحبة والسلام ، يقول جوستاف لوبون : «لقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تنتشر ولا تفرض بالقوة ، فلم ينتشر الإسلام بالسيف ، بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب . وقد أحجم الخلفاء عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه ، وعرفوا كيف كانوا يبتعدون عن إعمال السيف لمن لم يسلم ، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب

---

(٩٦) سليمان الخطيب : أسس مفهوم الحضارة الإسلامية ص٢١٣ .

وعاداتها»[٩٧] ، وقال روبرتس : «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى ، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم تركوا من يرغبون فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية[٩٨] . قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٩٩] .

كان لطبيعة الإسلام الرائقة ، والروح الطيبة التي نظر بها لأهل الذمة والتسامح معهم أثره الكبير في تلك الإسهامات الجادة التي قاموا بها في بناء الحضارة الإسلامية ، وهم يعيشون في أمن وطمأنينة في كنف الدولة الإسلامية .

شهد بعض المنصفين بذلك التسامح الذي اختصت به شريعة الإسلام ، يقول برنارد لويس : «لقد نجح الإسلام ، حيث فشلت المسيحية في مزج الإيمان العميق بالتسامح الديني ، الذي لم يشمل فقط غير المسلمين من الأديان الأخرى ، بل شمل هذا التسامح حتى الهراطقة والكفار»[١٠٠] .

منح الإسلام الحرية الفردية ، والمساواة الإنسانية ، والسلام الاجتماعي لكل الشعوب التي تم فتحها ، فنعمت البلاد والأقاليم التي عاشت في ظل الإسلام بقدر من السلام لم تعرفه في تاريخها ، حتى أطلق بعض المستشرقين على ذلك الوضع مصطلح السلم الإسلامي "Pax Islamica"[١٠١] .

هكذا كان لطبيعة التسامح والسلام التي اتسمت بها العقيدة الإسلامية ، أن انضوى تحت لواء الإسلام أفراد وجماعات من مختلف الأجناس والأنساب واللغات والأوطان بكامل حريتهم ، وتعاونوا جميعا في منظومة رائعة في تقدم وازدهار الحضارة العربية الإسلامية .

---

(٩٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص١٢٨-١٣٠ .

(٩٨) انظر هامش كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون ص١٢٨ ، ص٦٠٥ .

(٩٩) سورة النمل : آية ١٢٥ .

(١٠٠) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ، تعريب نبيل صبحي ، ص٨٣-٨٤ .

(١٠١) سعيد عاشور : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص٢١ .



الفصل الثاني

حضارة العرب قبل الإسلام

د. محمود عرفه

أمة العرب :

العرب أمة من الناس سامية الأصل (نسبة إلى ولد سام بن نوح) منشؤها جزيرة العرب ، وكلمة عرب لغويا تعني فصح وأعرب الكلام بينه ، ومنها عرب الاسم العجمي أي نطق به على منهاج العرب ، وتعرب أي تشبه بالعرب ، والعاربة هم صرحاء خلص[1] .

يطلق لفظ العرب على قوم جمعوا عدة أوصاف لعل من أهمها أن لسانهم كان اللغة العربية وأنهم كانوا من أولاد العرب وأن مساكنهم كانت أرض العرب وهي جزيرة العرب[2] .

يختلف العرب عن الأعراب ، فالعرب هم أهل الأمصار والقرى ، والأعراب هم سكان البادية ، غير أن العلامة ابن خلدون استعمل لفظي العرب والأعراب بمعنى واحد ، فاستخدم لفظ العرب في وصفه طبائع الأعراب ومعايشهم ، فهم الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون برعي الإبل ، ويتخذون من الخيام مساكن لهم ، ويظعنون من مكان لآخر حسب مقتضيات حياتهم ، وحياة أنعامهم التي يتوقف معاشهم عليها ، وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار[3] .

قال رسول الله ﷺ في التعريف بالعرب «يا أيها الناس ، إن الرب واحد ،

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز ، القاهرة ١٤٠٠هـ ص ٤١١-٤١٢ .

(٢) الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، القاهرة ١٩٢٤ ، جـ١ ص٧٧ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٤٩-١٥٢ .

والأب واحد ، وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي» .

العرب شعب قديم ، قدم الأجناس البشرية الأولى ، فقد وجد اسم العرب على أقدم النقوش المصرية القديمة ، وذكر اسمهم على النقوش الفارسية أيضا بمعنى الإمارات العربية التي كانت تنزل غربي الفرات ، كما نجد عنهم إشارات كثيرة في النقوش الآشورية .

فمن أقدم النقوش المصرية الباقية عرفت كلمة (عامو) ومعناها البدو أو الآسيويون - وهي تشير إلى الأعراب البدو ، الذين كانوا ينزلون حول مصر كما كانت بلاد العرب الجنوبية على اتصال وثيق مع بلاد النوبة(٤) .

لما كانت بلاد العرب الشرقية تقع على حدود العراق ، فقد عرف سكانها القدماء - وهم السومريون والبابليون جيرانهم العرب - خاصة أن بلاد عمان كانت المورد الرئيسي للنحاس السومري ، وقد وجدت إشارات كثيرة عن بلاد العرب والشعب العربي على تمثال من حجر الديوريت للملك نارام - سن (حوالي ٢٤٠ ق .م) وهو حفيد سرجون - أول ملوك السومريين(٥) .

أما عن النقوش الآشورية فقد ذكر اسم العرب في نص كلمات الملك الآشوري شلما نصر الثالث - الذي قاد حملة ضد ملك دمشق الآرامي وحلفائه من العرب سنة ٨٥٤ق .م ، قال فيه : «قرقر مدينته الملكية ، أنا دمرتها أنا أبدتها ، أنا حرقتها بالنار مع ١٢٠٠ عربة حربية ، ١٢٠٠ فارس ، ٢٠٠٠٠ جندي لآرام دمشق ، ١٠٠٠ لجندبو العربي»(٦) ، وإلى جانب ذلك وردت فقرات غير قليلة في التواريخ الآشورية القديمة تشير إلى العلاقات العربية الآشورية .

---

(٤) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب - عصر ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٤٠ .
(٥) محمد مبروك نافع : المرجع نفسه ص ٤٢ .
(٦) محمد مبروك نافع : المرجع نفسه ، ص ٤٣ .

يذكر مؤرخو الفرس ، أن قمبيز بن دارا مؤسس الامبراطورية الفارسية مر بشمال بلاد العرب سنة ٥٢٥ ق .م ، فعقد حلفا مع أهلها وهو في طريقه لغزو مصر[٧] .

كان اسم العرب ـ الذي ذكر في مواضع كثيرة من التوراة ، يقصد به شيوخ شمال بلاد العرب وصحراء بلاد الشام ، يتضح ذلك من عبارة «ملوك بلاد العرب» التي وردت في سفر أرمياء[٨] .

أما مؤرخو اليونان والرومان القدامى ، فقد أطلقوا اسم العرب على سكان الجزيرة العربية كلها ، بينما يضيف هيرودوت (ت٤٢٥ ق .م) إليها فلسطين وشبه جزيرة سيناء[٩] .

كذلك وجدت ألقاب الملوك القدماء على النقوش العربية القديمة وقد أضيف إليها لفظ (عربي) ، فوجد في آثار العصر السبئي في جنوب الجزيرة العربية ، نقش يقول : «أنا ملك حضرموت العرب» ، إلى جانب أن أبرهة ـ حاكم اليمن من قبل نجاشي الحبشة ، أطلق اسم العرب في نقشه ، على أهل اليمن وسائر الجزيرة العربية[١٠] .

كما اكتشف اسم العرب منقوشا على الآثار العربية الشمالية للدلالة على اتساع السلطان والنفوذ ، فقد عثر على أقدم الكتابات المدونة في موضع «النمارة» ـ وهو الحرة الشرقية من جبل الدروز ، على شاهد قبر ملك عربي يدعى امرؤ القيس ، ويرجع تاريخ النقش إلى سنة ٣٢٨م ، ويتألف من خمسة أسطر يقول فيها :

---

(٧) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، المجمع العلمي العراقي ، جـ١ ص١٧ـ١٨ .
(٨) الكتاب المقدس : سفر أرمياء ٢٥ :٢٤ .
(٩) جواد علي : المرجع نفسه ، جـ١ ص٢٧ .
(١٠) جواد علي : المرجع نفسه ، جـ٢ ص١٤٢ .

١ ـ هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي نال التاج .

٢ ـ وملك الأسدين ونزار وملوكهم . وهزم مذحج بقوته .

٣ ـ وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وملك معدا .

٤ ـ واستعمل أبناءه على القبائل ـ وكلهم فرسان للروم في القوة .

٥ ـ هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ليسعد ولده .

والتاريخ المدون على النص السابق بتقويم بصري ، يقابل ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨م(١١) ، وللنص أهمية تاريخية كبيرة ، فهو أول نص عربي شمالي يرد فيه اسم ملك عربي ، يجمع الجمع ويؤلف بين القبائل ويعين نفسه ملكا عليهم ـ وصاحب القبر هو امرؤ القيس بن عمرو ـ أحد ملوك الحيرة .

مما تجدر الإشارة إليه أن المؤرخين اليونان استعملوا لفظ سراقينوس (Sarakinos) للدلالة على اسم شعب كان يسكن بلاد الشام أو شبه جزيرة سيناء ، ثم توسعوا في استعماله حتى شمل كل الشرقيين وصار اسم (Saracens) وهو تحريف للفظ اليوناني السابق ، يطلق على جميع العرب والشرقيين بلا استثناء ، وفي العصور الوسطى أطلق على العالم الإسلامي(١٢) .

جغرافية الجزيرة العربية :

جزيرة العرب قطر عظيم تبلغ مساحته نحو مليون ميل مربع وتقع في الركن الجنوبي الغربي لقارة آسيا .

يطلق العرب على بلادهم اسم «جزيرة العرب» تجاوزا لأن البحار والأنهار تحيط بها من جميع الجهات ، فيحدها من الشرق الخليج العربي ، ومن الجنوب البحر العربي ، ويحدها البحر الأحمر (القلزم) من الغرب ، بينما يكمل الفرات

---

(١١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٣ ص١٩١ـ١٩٢ .

(١٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٩ ، جـ١ ص٣ .

الحد الشرقي والشمالي الشرقي ، وبذلك تكون بلاد الشام والبادية التي تمتد بين العراق والشام وبادية سيناء قد دخلت كلها في حدود جزيرة العرب بادخال نهر النيل ليكمل الحد الغربي ، ويصب في البحر المتوسط (بحر الروم) الذي يمثل الحد الشمالي الغربي ، وهذا التحديد هو الذي أورده الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب»(١٣) ، أما الجغرافيون فيطلقون على بلاد العرب اسم «شبه الجزيرة العربية» بإخراج بادية الشام وشبه جزيرة سيناء منها ، إلا أن طبيعة الأرض الجيولوجية تحتم ضمهما ، لأنهما تمثلان أجزاء هامة لا يمكن فصلها عن الطبيعة الصحراوية لسائر بلاد العرب(١٤) .

يتألف سطح الجزيرة العربية من هضبة تشبه الصحراء الافريقية في اتساعها وسهولها القاحلة الرملية والصخرية ، التي تتخللها بقاع يندر فيها النبات فهي عبارة عن أرض واسعة تنحدر تضاريسها من الغرب متجهة نحو الشرق ، وهي مرتفعة غربا ، حيث تكثر الجبال المرتفعة التي يتراوح ارتفاع قممها بين عشرة آلاف قدم وثلاثة آلاف قدم ، ومن أشهرها جبال السراة(١٥) ـ التي تمتد من أقصى شمال الجزيرة حتى جنوبها موازية لساحل البحر الأحمر ، وتعرف المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال السراة وبين ساحل البحر الأحمر باسم «تهامة» ـ وتعني الأرض المنخفضة ، لأنها تنحدر انحدارا شديدا ، وسواحلها المطلة على البحر يصعب رسو السفن فيها لخلوها من المرافئ الصالحة ، ولوجود الشعب المرجانية الكثيفة على طول شواطئها(١٦) ، وسميت تهامة بذلك لشدة حرها وركود ريحها .

تمتد نجد بين الحجاز والعروض ، وهي هضبة عظيمة الارتفاع تتراوح

---

(١٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ ، ص٤٧ .

(١٤) O'leary: Arabia Betore Muhammad, London 1927, p.5

(١٥) ياقوت : معجم البلدان ـ بيروت ١٩٧٩ م جـ٣ ص٢٠٤ .

(١٦) جورج فضلو : العرب والملاحة في المحيط الهندي (مترجم) مكتبة الانجلو بمصر ص٢٥ .

الارتفاعات فيها بين ستة آلاف قدم وأربعة آلاف قدم ، وتقع في قلب جزيرة العرب ، ويحدها من الغرب جبال السراة ، وقد سميت نجدا لارتفاع أرضها[17] ، وتفصل سلسلة جبال الحجاز بين نجد وتهامة [18] ، وهي تمتد من خليج العقبة (آيلة) في الشمال حتى تصل إلى عسير في الجنوب ، وسميت حجازا لأنها تحجز بين تهامة ونجد .

كذلك تمتد سلسلة أخرى من الجبال المختلفة الارتفاع في جنوب جزيرة العرب وتتراوح ارتفاعاتها ما بين العشرة آلاف قدم إلى أربعة آلاف قدم وتتخللها وديان كثيرة ، ويتميز الجبل الأخضر من بينها بارتفاعه الشاهق الذي يبلغ نحو ٩٩٠٠ قدم ، ولما كان هذا الجبل يقع على الساحل الشرقي لعمان ، فهو بذلك يختلف عن السمة الطبيعية للجهات الشرقية من الجزيرة التي تتميز بأرضها المنخفضة[19] .

يقسم جغرافيو العرب جزيرتهم بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام هي ، تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن ، وقد عرضنا للثلاثة الأولى منها ، أما العروض فتشمل اليمامة وعمان والبحرين . وكانت اليمامة تسمى جو والقرية ، فسميت باليمامة نسبة إلى أشهر مدنها ، أما البحرين ، فتمتد من البصرة شمالا حتى عمان جنوبا ، وقد سميت عروضا لاعتراضه اليمن ونجد والعراق[20] ، وتمتد اليمن من نجد إلى البحر العربي جنوبا وبحر القلزم (الأحمر) غربا ، وتتصل من الشرق بحضرموت وعمان ، وتقع في الركن الجنوبي الغربي لجزيرة العرب وكان القدماء يطلقون عليها اسم الأرض الخضراء والبلاد السعيدة **Arabia Felix** ، ويجمل الهمداني أقوال الإخباريين العرب عن أقسام

---

(١٧) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص٢٦٢ .
(١٨) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣ ، جـ٤ ص٢٤٦ .
(١٩) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ١ ص١٥٨ .
(٢٠) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ٤ ص١١٢ .

جزيرتهم بقوله : «فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها ، وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب في أشعارها وأخبارها ، تهامة ـ الحجاز ـ نجد ـ العروض ـ اليمن ، وذلك أن جبل السراة ـ وهو أعظم جبال العرب وأذكرها ، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف الشام ـ فسمته العرب حجازا لأنه حجز بين الغور وتهامة[٢١] . . وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحارى إلى أطراف العراق نجدا . . وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض . . وما يلي ذلك اليمن»[٢٢] .

تعتبر جزيرة العرب من أشد البلاد جفافا وحرارة ، ذلك أنه على الرغم من كون البحر يحيط بها من ثلاث جهات إلا أن هذه المساحات من الماء لم تستطع التقليل من حدة ارتفاع الحرارة في تلك الأجزاء الواسعة النادرة الأمطار ، فدرجة الحرارة في داخل الجزيرة العربية مرتفعة عادة ولا تهبط في الصحراء إلى أقل من ٤٣م نهارا و٣٨م ليلا[٢٣] ، فالجو البحري لم يتغلب على ظاهرة الجفاف لأنه لا يكاد يصل إلى أواسط الجزيرة العربية بسبب مقاومة الرياح السموم الشديدة الحرارة التي تمنعه من التغلغل إلى داخل الجزيرة .

على الرغم من مواسم الجفاف التي تصيب جزيرة العرب بصورة شبه دائمة ، إلا أنه توجد بعض الوديان التي يسيل في بعضها الماء عند سقوط الأمطار ، كما توجد بعض الجداول لكنها غير صالحة للملاحة ، فهي إما قصيرة سريعة الجريان شديد ة الانحدار ، وإما ضحلة تجف بعد وقت قصير .

أما أكثر المناطق التي حبتها الطبيعة بالأمطار الموسمية فهي اليمن[٢٤] ـ

---

(٢١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بيروت ١٩٧١ ، جـ٢ ص٤٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٥ ص٦ .
(٢٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص٤٧ ـ ٤٨ .
(٢٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص١٤ .
(٢٤) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ، ص٢١ .

فتسقط عليها الأمطار المنتظمة التي تصلح لاستغلالها في الزراعة ، ويلاحظ أن التربة في اليمن وعسير دائمة الخضرة حيث تمتد إلى نحو مائتي ميل من الساحل ، وعلى ذلك فالزروع والثمار تتركز في الجنوب ، لجفاف الهواء وملوحة التربة وكثرة الصخور في الجهات الأخرى من سطح الجزيرة العربية .

المظهر السياسي للقبائل العربية في بادية العرب :

كانت القبيلة هي وحدة النظام السياسي التي ينتمي إليها ويقدسها العربي قبل الإسلام ، والقبيلة أسرة كبيرة تتكون من أبنائها الذين يؤمنون بالانضمام إليها ويحترمون عرفها المتفق عليه فيما بينهم ، ويتعصبون لها ويدافعون عنها ويبذلون في سبيلها كل غال ونفيس ، ويرجع ذلك إلى الشعور الجارف نحو القبيلة ، والأسرة الكبيرة التي تفتخر ويزهو كل فرد فيها بالانتماء إليها والاندماج مع إخوانه فيها .

يختلف الانتماء إلى القبيلة عن الانتماء العام للجنس أو الأمة ، فالأول يحمل في طياته شعورا أقوى بكثير من الآخر لأن المسألة مسألة أبوة أو أخوة أو عمومة ، يقول ابن خلدون : «اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم ، مثل عشير واحد أو أهل بيت أحد أو أخوة بني أب واحد»(٢٥) .

كان للعصبية القبلية أثر فعال في حفظ التوازن بين القبائل العربية في بادية العرب ، وفي صيانة حقوق أفرادها وكرامتهم وكيانهم ، ذلك أن سلطان العصبية كان قويا وله دور هام في الدفاع عن القبيلة والتصدي لأعدائها ، فكل أبناء القبيلة المتعصبين لها كانوا يتضامنون من أجل الدفاع عن شرف الأسرة الكبيرة وسمعتها وحمايتها من العدوان ، يقول ابن خلدون : «ولا يصدق

---

(٢٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٣١ .

دفاعهم (أبناء القبيلة) وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنه بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم»[26] ، فالجميع كانوا يقدسون قبيلتهم بدرجة تفوق الميول والاختلاف العقائدي ، فمكانتها عند أبنائها كانت أقوى وأعلى من الإيمان الديني .

على الرغم من أثر العصبية القبلية في حفظ التوازن بين القبائل العربية في بادية العرب ، إلا أنه كان يشوبها التعصب الأحمق ـ البعيد عن التعقل في مواجهة الأزمات والمسائل الخطيرة التي قد تنشأ بين القبائل ، فالأعصاب دائما ملتهبة تنتظر من يشعلها لأتفه الأسباب ، والعصبية تقف حائلا أمام العدالة لأن شعار القبيلة هو «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ، وقد ظهر الأثر السيئ للعصبية عند لقاء المسلمين بالمشركين في القتال ، فلعبت العصبية دورها في ارتداد بعض أبناء الأسرة وانضمامهم إلى ذويهم من المشركين ، ذلك أن بعض أفراد العشيرة الواحدة كان يحارب في صفوف المسلمين ، بينما البعض الآخر مع المشركين ، وقد نهى الإسلام عن ذلك بشدة في قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[27] .

كان يتربع على قمة القبيلة الشيخ أو السيد ، أو كما كان يلقب في بعض الممالك بالملك أو الأمير[28] ، كان شيخ القبيلة يجب أن يتصف بالشجاعة والجود والكرم والغنى وسداد الرأي والتجربة وكبر السن ، وإلى جانب ذلك كان على شيخ القبيلة أن يتحلى بأصالة النسب إلى القبيلة ، فلم يكن من المعقول أن يتولى أمر القبيلة ورئاستها إلا أحد أبنائها من ذوي الخبرة والقدم ورجاحة العقل ،

---

(٢٦) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٢٨ .

(٢٧) سورة المجادلة : آية ٢٢ .

(٢٨) استعمل هذا اللقب عند مملكتي الحيرة والغساسنة جريا على عادة الفرس والروم ، أنظر ، محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص٣٥-٣٦ .

ذلك أن سيد القبيلة كان يختار بقوة عصبيته وكثرة أبنائه وأتباعه في القبيلة ، يقول ابن خلدون : «وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية ، فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم ، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع»[٢٩] ، وفضلا عن ذلك كان لشخصية سيد القبيلة أثر بالغ في قوة القبيلة وبقائها أو في ضعفها وفنائها ، فنجد قبيلة تظهر فجأة فتجتاح القبائل الأخرى وتتزعمها بقوة رئيسها ، ونجد قبيلة تذبل وتنهار لأن زعيمها ضعيف الشخصية فتضعف قبيلته بضعفه وتتصدع وينتهي أمرها[٣٠] .

على الرغم من تولي رئاسة القبيلة أكبر أبناء سيدها بعد وفاته ، إلا أن زعامة القبيلة لم تكن وراثية بالضرورة ، لأن استيفاء الشروط وتوفر الصفات الخاصة بتلك السيادة كان يتقدم على مسألة الوراثة وقد عبر عن ذلك عامر بن الطفيل أحد سادات العرب بقوله[٣١] :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر ... وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة ... أبـي اللـه أن أسمـو بـأم ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتقي ... أذاها وأرمي من رماها بمنكبي

كان سيد القبيلة يضطلع بعدة مهام ، لعل من أهمها قيادة القبيلة في الحرب وتقسيم الغنائم ، واستقبال الوفود وعقد التحالفات وإقامة الضيافات ودفع الديات باسم القبيلة ، كما كان يقضي في مسائل الزواج والطلاق ، ويفصل في قضايا النزاع على الماء والكلأ ، فضلا عن بذل النفس والنفيس في سبيل وحدة القبيلة وتماسكها ورفعة شأنها على الدوام .

---

(٢٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٣٢ .
(٣٠) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٤ ص٢١٥ .
(٣١)المسعودي : مروج الذهب ، جـ١ ص٣٢٦ .

أما حقوق رئيس القبيلة فكانت تتمثل في احترام رأيه وتوقيره ، والامتثال لرأيه وطاعته في الحروب ، كما كان يستولي على ربع الغنيمة والصفايا ، فضلا عن الحكم والنشيطة والفضول ، يقول عبدالله بن عنمة الضبي في رثاء بسام بن قيس ـ سيد شيبان[٣٢] :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[٣٣]

لم يكن لشيخ القبيلة سلطة مطلقة على أبنائها ، إنما كان سلطانه معنويا مستمدا من قوة عصبيته وكثرة أتباعه في القبيلة ، فكان هناك مجلس القبيلة ، الذي يتألف من أقوى زعماء البطون والعشائر ، وله سلطة الفصل في الأمور الهامة التي تمس حياة القبيلة ومصير أبنائها .

كان مجلس القبيلة يضم أيضا الخطيب[٣٤] ـ لسان القبيلة الذي ينبري للدفاع عنها ، والشاعر الذي يمدح أبناءها ويهجو أعداءها ويتغنى ببطولاتها ، ولذلك كانت القبيلة تفخر بنبوغ شعرائها ، وتعتز بهم وتتغنى بأشعارهم التي كانوا يعتقدون أنها وحي يوحى به إلى الشاعر فعبروا عن ذلك بقولهم (شيطان الشاعر)[٣٥] ، وبلغ من تأثير الشعراء على أبناء القبيلة ، أن الواحد منهم كان يستطيع أن يلهب الشعور ويذكي نار العصبية ، فالشعر الخاص بالفخر والحماسة والرثاء والهجاء كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحروب التي دارت بين العرب قبل الإسلام ، وكان لمكانة الشاعر بين أبناء القبيلة أن الرجل إذا كان شاعرا شجاعا كاتبا راميا أطلقوا عليه اسم «الكامل»[٣٦] .

---

(٣٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٥ ص٢١٣ .

(٣٣) المرباع : ربع الغنيمة ، الصفايا : ما يصطفيه سيد القبيلة من خيار الغنائم ، الحكم : ما يستولي عليه الفارس المبارز قبل لقاء الجيشين فالحكم فيه لسيد القبيلة ، النشيطة : ما يصيبه الجيش قبل لقاء العدو ، الفضول : ما فضل بعد توزيع الغنيمة ولا يقبل القسمة .

(٣٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، جـ١ ص٢١٤ .

(٣٥) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٦ ص٣٤١ .

(٣٦) جواد علي : المرجع نفسه ، جـ٤ ص٢١٧ .

وإلى جانب الخطيب والشاعر كان هناك الكاهن والعراف ، فكان لكل قبيلة كاهن أو عدة كهان تلجأ إليهم لاستشارتهم في الأمور العظيمة ، فهم يعتقدون أن للكاهن تابعا من الجن يطلعه على كل شيء في الحاضر والمستقبل ، إلى جانب قدرته على دفع الأذى عن شخص ، وتوجيه الشر إلى آخر يراد إيذاؤه ، وكان لاعتقاد أبناء القبائل بأن ما يصدر عن الشاعر والكاهن هو ضرب من ضروب الوحي الذي يأتيهم بطريق الآلهة المتصلين بها ، أن زعموا بأن الوحي الذي يوحى إلى سيدنا محمد ﷺ هو من قبيل الكهانة وقول الشعر ، فنزلت الآيات البينات : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣٧) . أما العراف فكان في منزلة أقل من الكاهن لأنه لا يوحى إليه بشيء ، بينما هو على درجة عالية من الذكاء والتفرس في التجارب والأمور ، فهو يعرف الأشياء عن طريق الفراسة والقرائن وذلك برؤيته الثاقبة لنبرات الأصوات وملامح الأشخاص وحركاتهم عند التكلم ، ومن أشهر عراف القبائل العربية ، رباح بن عجلة ـ عراف اليمامة ، والأبلق الأسدي عراف نجد(٣٨) ، وكان القصاص ـ أحد أعضاء مجلس القبيلة البارزين فهو يقص على أبناء القبيلة قصص البطولة والشرف ليحمسهم ويشجعهم على مواجهة الأعداء والتصدي لهم وعلى الصبر في القتال ، أما عموم مشيخة القبيلة فكان يتألف من زعماء العشائر والبطون وكبار مشايخهم من ذوي التجربة والكفاية الذين يضطلعون بالفصل في مسائل المواريث والديات والمنازعات والمناوشات التي قد تثار بين أفراد القبيلة .

كان مجلس القبيلة يجتمع في النادي(٣٩) ، وهو المكان الذي كان يجلس

---

(٣٧) سورة الحاقة : الآيات ٣٨ـ٤٣ .

(٣٨) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص٢١١ـ٢١٢ ، المسعودي : مروج الذهب ، جـ١ ص٤١٥ـ٤١٧ .

(٣٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٥ ص٢١٠ .

فيه القوم ويقضون في أمورهم ، وكان هذا المجلس يجتمع كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، فلم يكن له وقت محدد لانعقاده ، على أن القبيلة كلها كانت تتجمع تحت لواء واحد في حالة الاستعداد للحرب مع قبيلة أخرى ، ويظل مجلس القبيلة منعقدا بصفة دائمة من أجل التجهيز للقاء العدو ، ولإغراء القبائل الأخرى بالانضمام إليها لتتقوى بهم ، وهنا يتجلى المظهر السياسي للقبائل العربية في حالة الحرب ـ حيث يشعر أفرادها بحاجتهم إلى التضامن والتماسك ونبذ الخلافات الداخلية فيما بينهم ، فالتكتل ضرورة من أجل القوة والبقاء ، ولذلك تكتلت القبائل في كتل كبيرة هي الأحلاف(٤٠) .

وفي ذلك يقول البكري : «فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلافات والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع وغلبة بعضهم على البلاد واستضعاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز وحالف القليل منهم الكثير»(٤١) ، فالمناذرة كانوا يتحالفون مع بعض القبائل للاستعانة بهم على الغساسنة ، وكذلك كان يفعل هؤلاء للاستعانة بهم على المناذرة ، كما جرت عادة القبائل الضعيفة قليلة العدد أن تلجأ إلى القبائل الكبيرة تلتمس منها العون والمساعدة ، فدخلت بعض قبائل بادية العرب في كنف ورعاية دولة حمير ببلاد اليمن(٤٢) .

كانت الأحلاف تمثل العصبية الكبيرة التي تشمل القبائل والعشائر المتحالفة بالنسب أو الجوار(٤٣) ، وهي المجتمع القبلي الكبير الذي تنصهر فيه القبائل من أجل المؤازرة والحماية والدفاع المشترك ، فبمجرد انعقاد الحلف يرتبط

---

(٤٠) الحلف : من كلمة الحلف بمعنى اليمين ـ الذي كان يقسمونه في عهدهم ـ وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو دم ـ ويقولون الدم الدم ، الهدم الهدم ، انظر ، الجاحظ : كتاب الحيوان ، جـ٤ ص٣ .

(٤١) البكري : معجم ما استعجم ، جـ١ ص٥٣ .

(٤٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ، دار الفكر العربي ، ص١٢ .

(٤٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص١٢٩ .

مصيرها وكيانها ووجودها بالمتحالفين معها ويصير لزاما التضامن في الحروب والتعاون ، فالكل دائما متأهب لتلبية نداء حليفه[٤٤] .

على الرغم من كون الزواج يمثل إحدى العلاقات الاجتماعية ، إلا أنه كان أحد المظاهر السياسية للقبيلة العربية قبل الإسلام ، ذلك أن المصاهرة بين القبائل والعشائر المختلفة كان بمثابة عقد الأحلاف بينها ، إذ يؤدي إلى تقاربها وتآلفها وارتباط مصيرها ببعضها البعض ، لذلك كان زعماء القبائل والعشائر يهتمون اهتماما كبيرا باختيار زوجاتهم من الأسر الكبيرة ومن القبائل القوية ليحصلوا بذلك على سند قوي في الكيان السياسي .

كان من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية قبل الإسلام حلف الرباب الذي انعقد بين خمس قبائل هي ضبة وثور وعكل وتميم وعدي[٤٥] ـ وحلف الأحلاف الذي انعقد بسبب الخلاف بين بني عبدالدار وبين أبناء أعمامهم بعد وفاة قصي بن كلاب ، فتعاقد بنو عبدالدار مع بني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي بن كعب وتعاهدوا عند الكعبة على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا وسموا الأحلاف[٤٦] ، وكان من أهم الأحلاف التي ورد ذكرها كثيرا عند مؤرخي الإسلام ، حلف الفضول ـ الذي عقد بين تميم بن مرة وزهرة وهاشم بن قريش ، وتعاهدوا ليكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم وعلى ألا يخذل بعضهم بعضا ، فأطلقت قريش على هذا الحلف اسم حلف الفضول ـ الذي وصف بأنه أكرم حلف سمع به ، وأشرفه في العرب ، قال فيه رسول الله ﷺ : «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا لو دعيت به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يغر ظالم مظلوما»[٤٧] .

---

(٤٤) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ١ ص٣٣٦ـ٣٣٧ .
(٤٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٥ ص١٤١ .
(٤٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص١٣٧ ، المسعودي : مروج الذهب ، جـ١ ص٣٢٨ .
(٤٧) ابن هشام : المصدر نفسه ، جـ١ ص١٣٨ـ١٣٩ .

كانت بعض القبائل العربية تدخل في أحلاف ذات طابع خاص يختلف عن التحالفات القبائلية ، فحرصت بعض هذه القبائل على الدخول في رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة لها ، من أجل الدفاع والحماية والتصدي للاعتداءات الخارجية من القبائل المجاورة - فتحالف أمراء مملكة الحيرة مع الفرس ، وأقام الغساسنة تحالفا مع الروم في مقابل أن تقوم الممالك العربية بتأمين سلامة حدود تلك الدول من غارات الأعراب والعشائر - التي كثيرا ما سببت لها القلاقل وعدم الاستقرار ، ولا شك أن اتفاقيات الدفاع المشترك بين الدول الكبرى وبين زعماء القبائل العربية كانت تعود بالنفع على تلك الدول ، إذ أدت لها خدمات جليلة فسهلت لها أمر ضبط الأعراب وإجهاض غاراتهم والسيطرة عليهم ، كما وفرت عليها مهمة التصدي للبدو وتعقبهم ، ومن ناحية أخرى أدت هذه الأحلاف إلى زيادة الفرقة والنزاع والخصومة بين العرب - بعضهم البعض ، مما كان له أسوأ الأثر في قيام الحروب بينهم وضعفهم جميعا لصالح الدول الكبرى ويعلق الدكتور جواد علي - على ذلك بقوله : «وما كان في وسع الحبش ولا الفرس الاستيلاء على العربية السعيدة لولا هذا الانقسام الداخلي المؤسف والنزاع بين الرؤساء»(٤٨) .

لما جاء الإسلام قضى على العصبيات القبلية ، وبخاصة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فرأي أن يعنى بالوسائل التي ينظم بها الحياة في المدينة ، لأنه أصبح زعيم جماعة من العرب لهم صفة سياسية بجانب تبليغ الرسالة .

قام الرسول ﷺ بتنظيم صفوف المهاجرين والأنصار وتوكيد وحدتهم ، فآخي بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة ، كما أذن لفقراء المسلمين بالمدينة - الذين ليس لهم منازل ولا عشائر أن يبيتوا في المسجد وهم الذين عرفوا بأهل الصفة .

---

(٤٨) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج١ ، ص ٢٢٧ .

وضع الرسول ﷺ نظاما للعلاقات بين الأنصار وهم المسلمون من الأوس والخزرج ، وبعض مشركي هاتين القبيلتين ، فضلا عن اليهود والمهاجرين ، وذلك لتحقيق الوحدة السياسية للأمة الإسلامية الناشئة ، فكتب كتابا بين المهاجرين والأنصار ، كما عاهد اليهود وأقرهم على دينهم وأقوالهم ليطمئن إلى جوارهم وذلك من خلال الشروط التي أوردها ابن هشام في السيرة النبوية(*) :

١ - التوكيد على أن المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة من دون الناس .

٢ - اشترط التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية فالمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس .

٣ - فتح الطريق للراغبين من اليهود في الإسلام ، وما يترتب عليه من اكتسابهم حقوق المسلمين ، ولهم النصر والأسوة .

٤ - تقرير حرية الاعتقاد لليهود لمن رغب البقاء على دينه .

٥ - فض الخصومات والمنازعات يكون مرده إلى الله وإلى رسوله ﷺ .

٦ - العلاقات الخارجية مع قريش ، اشترط الكتاب ألا تجار قريش ولا من نصرها .

٧ - التزام كل جماعة بالمدينة الانفاق على نفسها خلال صد الأخطار الخارجية ، وأن على المسلمين نفقتهم ، وعلى اليهود نفقتهم ، وأن بينهم جميعا النصر على من حارب أهل الصحيفة .

٨ - يقرر الكتاب حرمة المدينة ، ومنذ ذلك صارت المدينة تتمتع بما لمكة من حرمة .

وبذلك وضع الرسول ﷺ اللبنات الأولى لتنظيم العلاقات السياسية للأمة الإسلامية ، التي جعل منها أمة موحدة سياسيا ، بعد أن كان العرب شعوبا

(*) ابن هشام ـ السيرة النبوية ، ج٢ ، ص ١١٩ ـ ١٢٣

وقبائل متفرقة متناحرة لا ينظمهم نظام معين ، ولا يجمع شتاتهم دستور ولا ميثاق .

المجتمع والحياة الاجتماعية قبل الإسلام

١ ـ طبقات المجتمع :

كان المجتمع العربي قبل الإسلام يتألف من طبقات ثلاث تأثرت في تشكيلها بالحالة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والأصل الذي ينتمي إليه أصحاب كل طبقة ، فكان هناك الطبقة العليا وتضم الصرحاء الخلص الأحرار أبناء القبيلة[٤٩] ، الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب العريق والجد المشترك وهم أصحاب المنزلة الرفيعة ويتمتعون بالسيادة والحرية والأمان في ظل حماية القبيلة ، وكان أبناء الطبقة العليا هم أصحاب الأموال الذين تتركز في أيديهم الثروات الطائلة ، فمنهم السادة التجار ، وأصحاب الإقطاعيات الكبيرة في المدن والمناطق القابلة للزراعة ، كما كان أثرياء البادية يملكون ألوفا من الإبل فضلا عن مساحات كبيرة من مناطق الرعي ، وقد أثر التغلغل المادي في نفوس أصحاب هذه الطبقة وظهرت آثاره في الديات ، فبينما كانت دية الحر الشريف تصل إلى الخمسمائة والألف من الإبل[٥٠] ، كانت دية غيره من أتباع الطبقات الأخرى لا تكاد تصل إلى نصف قيمة ما تبلغه دية الحر العريق .

أما الطبقة المتوسطة فكانت تتألف من صغار التجار وأصحاب الاقطاعيات المحدودة ورؤساء الحرف المختلفة في درجة أقل من السادة الكبار أصحاب الطبقة العليا اجتماعيا واقتصاديا ، لذلك ارتبطوا بهم وداروا في فلكهم ، ومنهم أيضا الخلعاء وهم الذين نبذتهم قبائلهم لتصرفاتهم الشائنة وخروجهم على تقاليدها

---

(٤٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٥ ص٢٢٩ .

(٥٠) ابن عبد ربه : المصدر نفسه ، جـ٥ ص١٤٨ .

ويرجع انتماؤهم إلى هذه الطبقة إلى أنهم كانوا صرحاء عريقو النسب فقلت درجتهم الاجتماعية بعد خلعهم وانضمامهم لقبائل أخرى ذلك أن الخليع يلحق بعشيرة من غير قومه يستجير بأحد رجالها فيجيره ويحميه ويصير له ما لسائر أفراد العشيرة من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات .

كما أن العتقاء ينتمون إلى هذه الطبقة أيضا ، والمعتق كان عبدا ، فصار بالعتق حرا ، فارتقى من الطبقة الدنيا إلى المتوسطة بينما لا يرتقي إلى العليا لعدم توفر صلة النسب العربي الحر الأصيل ، ولما كانت غالبية المعتقين لا يجدون سبيلا للعيش بعد حصولهم على حريتهم لأن المعتق لم يكن ليستطيع العيش منفردا في مجتمع الصحراء القاسي ، فكان يظل تابعا لمعتقه على رضاً منه ، كذلك كان المستجيرون من غير الخلعاء ينتمون إلى أبناء هذه الطبقة ، وكان الجوار يتم بلمس الخيمة أو الاحتماء بها في البادية وبدخول البيت في المدن ، وقد ظلت الإجارة معمولا بها في الإسلام بعد أن أبقى على هذا التقليد الرفيع من تقاليد العرب وأكد عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(٥١)

كانت الطبقة الدنيا هي طبقة السواد الأعظم من الفقراء المعدمين والأرقاء وهم القوة المنفذة لرغبات السادة والآلات اللازمة لحركة الحياة في الصحراء وسد حاجات المجتمع في المجالات الاقتصادية المختلفة ، وكان الأسر هو المورد الأساسي لتزويد القبائل بالعبيد ، وذلك أن بعض التجار الجبارين قد تخصص في الحرابة المسلحة لجلب العبيد إلى الأسواق لتحقيق الأرباح الطائلة ، فضلا عن جلب العبيد والإماء من سواحل افريقيا لبيعهم للسادة الأثرياء ، بينما كان الرقيق الأبيض يجلب من بلاد الفرس والروم عن طريق الشام والعراق ، وكان أبناء

---

(٥١) سورة التوبة : آية ٦ .

هذه الطبقة محرومين من كافة الحقوق الآدمية مع تحملهم لمسئوليات والتزامات شاقة وذلك في ظل ظروف لاآدمية وحياة ملؤها المذلة والمهانة ، وكانوا يشتغلون بالحرف التي يأنفها العربي فمنها الحجامة والنجارة والحدادة والخدمة بالمنازل حيث الاحتطاب والطهي والطحن والخبز وجلب علف الماشية والرعي والنظافة(٥٢) .

لما كان أبناء هذه الطبقة معدمين لا يملكون شيئا ولا يجدون حتى قوت يومهم لذلك ارتبطت حياتهم ومقدراتهم بسادتهم بتبعية مطلقة تجلت في الاعتقاد الديني والإيمان الروحي ، وقد صور القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾(٥٣) .

٢ ـ الأسرة العربية :

لم تقتصر أنواع الزواج والطلاق التي شاعت في الجزيرة العربية قبل الإسلام على العرب وحدهم ، بل عرفت عند كثير من الشعوب السامية الأخرى(٥٤) ، ولم تكن بعض الزيجات الشاذة التي تواترت أخبارها في المصادر العربية مرحلة بدائية في طور السلم الاجتماعي البشري ، كما يزعم بعض علماء الاجتماع(٥٥) ، وإنما كان الدافع لها يرجع إلى بعض الأوضاع الاجتماعية والأحوال الاقتصادية فضلا عن أثر الطبيعة الصحراوية(٥٦) ، فكانت ظاهرة استثنائية فرضتها ظروف خاصة .

---

(٥٢) قال عنترة بن شداد : العبد لا يعرف الكر وإنما يعرف الحلاب والصر ، والحلب لينا من الآخرين ، انظر المرتضى : أمالي المرتضى ، ص٥٦ـ٥٧ .

(٥٣) سورة الأحزاب : آية ٦٧ .

(٥٤) Rivers: Social Organization, p.15

(٥٥) Lowie: Primitive Society, p.46 Rivers: Op,. cit., p.43

(٥٦) Ellwood: The Psychology of Human society, p.214

أ) الزواج :

كان الزواج السائد في المجتمع العربي قبل الإسلام هو ذلك النوع الطبيعي الذي يتمشى مع الحاجات الاجتماعية الأساسية للإنسان وقد أقره الإسلام بعد أن قام بتهذيبه ووضع الضوابط التي تحكمه ، ويعد زواج البعولة أو تعدد الزوجات أكثر أنواع الزواج شيوعا في الجزيرة العربية ، وكان مباحا عند مختلف الشعوب وعند كافة الأديان ولا يزال زواج البعولة معمولا به عند معظم القبائل البدائية في أفريقيا ، يقول الرحالة (Lowie) : نظام تعدد الزواجات بلا عدد محدود ما تزال قبائل أفريقيا الهمجية تمارسه ويتوقف عدد الزوجات عندهم على مكانة الرجل في القبيلة ، فقد يتزوج خمسا أو عشرا أو عشرين أو حتى ستين في الوقت الذي يعتبر زعيم قبيلة الأمازون جميع نساء القبيلة زوجاته[٥٧] .

على الرغم من انتشار زواج البعولة بين العرب إلا أن كثيرا منهم اتخذ زوجة واحدة بسبب ضيق ذات اليد أو لاشتراط الزوجة الأولى ذلك عند العقد عليها ، وعلى الرغم مما كان يسببه زواج البعولة من عبء مادي على الرجل إلا أن تعدد الزوجات كانت له ضرورة اجتماعية من أجل زيادة النسل وكثرة الذرية للتباهي والتفاخر بالحرث والنسل ، وقد أقر الإسلام هذا النوع من الزواج مع تحريم الجمع بين أكثر من أربع زوجات ، واشترط في ذلك وجوب العدل بينهن أو اتخاذ زوجة واحدة . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[٥٨] .

كذلك عرف زواج الشغار في بلاد العرب وهو يقوم على المبادلة فيزوج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته بدون مهر ويدل هذا النوع

---

(٥٧) Lowie: Primitive Society, p.39

(٥٨) سورة النساء : آية ٣ .

من الزواج على مدى ولع العرب بالتجارة وحبهم للبيع والشراء ، فالمبادلة هي أبسط أنواعها وكانوا يعتبرون الفتيات من البنات والأخوات رأس مال يمكن بحسن استخدامه أن يزيد الأموال أو المكانة الاجتماعية ، فقد كان يترتب عليه عقد التحالفات والانتساب إلى عشيرة تتمتع بمنزلة رفيعة بين القبائل .

كان زواج المقت أو الزواج بالميراث من أنواع الزواج عند العرب قبل الإسلام ، وفيه يتزوج الابن الأكبر زوجة أبيه المتوفى ، على اعتبار أنها جزء من الميراث للحفاظ على ثروة الأسرة والعشيرة ومن بينها الزوجة والأولاد ، وكان الوريث إذا كره نكاح زوجة أبيه نصب نفسه وليا عليها فيمنعها من الارتباط بغيره حتى وفاتها(٥٩) ، قال البخاري : «إن الرجل إذا مات كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها»(٦٠) وتدل تسميته بزواج المقت على عدم انتشاره ، لأنه كان ممقوتا عند الأغلبية(٦١) .

وكان يعرف أيضا بالنكاح العضل ، لأن الوارث يحق له أن يعضلها أي يمنعها من الزواج وكان الرجل يطرح ثوبه على الأرملة لإثبات حقه في أن يمتلكها ضمن الميراث ، ويقابل ذلك خلع النعل إذا تنازل الوارث عن حق نكاحها ، وظل زواج المقت قائما حتى حرمه الإسلام ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾(٦٢) كما حرم القرآن الكريم نكاح زوجة الأب تحريما مطلقا لقوله تبارك وتعالى :
﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾(٦٣) .

---

(٥٩) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ٥ ص٩٤ .
(٦٠) القسطلاني : إرشاد الساري جـ٥ ص٢٨٨ .
(٦١) الألوسي : بلوغ الأرب ، جـ٢ ص٥٢ .
(٦٢) سورة النساء : آية ١٩ .
(٦٣) سورة النساء : آية ٢٢ .

كذلك عرف في بلاد العرب زواج الرهط أو زواج المشاركة وهو تعدد الأزواج وهو يختلف عن الشيوعية الجنسية التي انتشرت بين أفراد بعض القبائل البدائية لأنه كا ن يفرض التزاما ويوجب حقوقا يلتزم بها المشاركون في المرأة ، وهذا النوع كان نادرا في جزيرة العرب وإنما فرضته بعض الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، فمن ذلك قلة عدد النساء وبخاصة عند القبائل التي شاع عندها عادة وأد البنات وكان الأزواج جميعا متساوين في الحقوق الزوجية ، إلا أن الأبوة الرسمية كانت تحددها المرأة نفسها(٦٤) .

وكما كان يجتمع الأخوة على الزواج من امرأة واحدة ، كان الرجل يجمع بين الأختين أو أكثر في وقت واحد ، وقد حرم الإسلام هذا النوع كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٦٥) .

كان النكاح بالأسر من أشهر أنواع الزواج المعروف عند العرب ، ذلك أن السبي كان أحد الأغراض الأساسية من الحروب والغارات وكانت المرأة المأخوذة بالسبي تعرف بالنزيعة لانتزاعها من أهلها وفصلها عنهم ، وقد أحل الإسلام سبايا الحروب وجعلهن ملك يمين ووضع الضوابط المنظمة لذلك ، فكانت الأسيرة لا تباع ولا تفتدى بمجرد ظهور حملها وكان ولدها يولد حرا ويرث أباه ، بينما كان العرب في الجاهلية لا يورثون الهجين(٦٦) .

ومجمل القول أن الإسلام قد حرم الأنواع المختلفة من الزيجات الشاذة في آية جامعة من سورة النساء ، فقال عز من قائل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ

---

(٦٤) Smith: Kinship and Mariage, p.145

(٦٥) سورة النساء : آية ٢٢ .

(٦٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٣ ص٢٩٧ .

ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[٦٧] .

ومما يجدر ذكره أن أنواع المحرمات التي تضمنتها الآية الكريمة لم تكن في إجمالها شائعة عند العرب في الجاهلية مثل الزواج من الأمهات أو البنات إنما أشار إليها القرآن الكريم لأنها كانت متبعة عند بعض الشعوب الأخرى وقد وردت في الآية الكريمة لأن الدين الإسلامي أرسل للناس كافة ولم يقتصر على العرب والقرآن الكريم يخاطب الناس جميعا في كل زمان ومكان .

(ب) الطلاق :

كان العرف العربي يعترف للرجل بحق تسريح زوجته ، وكانت أشهر صيغ الطلاق «حبلك على غاربك» ، أي خليت سبيلك ـ أو يقول الرجل فارقتك أو سرحتك أو عودي إلى أهلك أو ارجعي إلى أبيك أو الحقى بأبيك ، وكان الطلاق يصبح بائنا إذا تكرر ثلاث مرات في فترة زمنية معلومة ، وكثيرا ما كان الرجل يسرح زوجته مرة أو مرتين ثم يستردها فيضطرها بذلك للارتباط به لأجل غير محدود ، وذكر المؤرخون أن العرب أوجدوا ما يعرف بالمحلل ، وهو الرجل الغريب يعقد على المطلقة ثم يطلقها بعد العقد مباشرة لإعادتها[٦٨] إلى الزوج الأول وكان هذا التحايل مذموما عندهم ، فأطلقوا على المحلل «التيس المستعار» ، وقد أقر الإسلام الطلاق ثلاث مرات ولا تحل لزوجها حتى تنكح زوجا غيره . قال تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ

---

(٦٧) سورة النساء : آية ٢٣ .

(٦٨) البيهقي : السنن الكبرى ، جـ ٧ ص ٢٠٧ .

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٦٩) .

يعد الظهار من أشهر أنواع الطلاق ـ الذي انتشر بين العرب قبل الإسلام ، وذلك بأن يشبه الرجل زوجته بمحرم عليه تأبيدا ، كأن يقول لها أنت علي كظهر أمي أو أختي أو عمتي ، فيقع بذلك الظهار وقد نهى الإسلام عن الظهار وأوجب الكفارة على من ظاهر امرأته ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ ﴾(٧٠) .

أما طلاق الإيلاء فكان يعني تحديد فترة زمنية للفراق بين المرء وزوجه لا يقترب منها خلالها ، وكان إيلاء العرب قبل الإسلام السنة والسنتين فجعله الإسلام أربعة أشهر ، قال عز وجل : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٧١) .

وكان هناك طلاق الخلع وذلك بأن تفتدي الزوجة نفسها على مال تدفعه إلى الرجل مقابل تخليه سبيلها ، وجرت عادتهم أن يكون هذا التعويض مساويا لقيمة المهر الذي سبق أن قدمه الزوج ، ومن ناحية أخرى كانت الزوجة تتعرض في بعض الأحيان إلى إهمال الرجل فلا يراجعها ولا يطلقها ، ويظل مفارقا لها

---

(٦٩) سورة البقرة : آية ٢٢٩ـ٢٣٠ .

(٧٠) سورة المجادلة : آية ٢ ـ ٤ .

(٧١) سورة البقرة : آية ٢٢٦ ـ ٢٢٧

حتى ترضيه بدفع شيء له وهو ما يعرف بالطلاق العضل وكان الرجل ينكح المرأة الشريفة الثرية ، ثم يفارقها حتى توافقه على شيء يطلبه وإلا عضلها[٧٢] ، وقد نهى الإسلام عن ذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[٧٣] .

على الرغم من أن الطلاق كان من حق الرجل إلا أن بعض النسوة كان لهن هذا الحق ومن بينهن سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجية وعاتكة بنت مرة ، وفاطمة بنت الخرشب الانمارية[٧٤] ، وكانت المرأة تتخذ وسيلة رمزية لتعبر بها عن فصم عرى الزواج ، فتقوم بتحويل فتحة الخيمة المؤدية إلى خدرها إلى الناحية المضادة ، حتى إذا جاء الزوج ووجد الباب موصدا فهم المراد ، وكانت المرأة المطلقة تترك دار سكناها وتعود إلى عشيرتها والحي الذي تنتمي إليه ، ذلك أن المرأة كانت تظل مرتبطة بعائلتها الأصلية طيلة فترة زواجها بأواصر قوية وهو ما يعبر عنه المثل العربي «الزوج يوجد ، والولد يولد ولا عوض عن الأخ» .

ومن الجدير بالذكر أن المرأة المطلقة لم يكن لها عدة قبل الإسلام فأنزل الله تبارك وتعالى الأمر بها للمحافظة على نقاء الدماء والأنساب قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾[٧٥] .

---

(٧٢) البيهقي : السنن الكبرى ، جـ٢ ص٢٣٠ .
(٧٣) سورة البقرة : آية ٢٣١ .
(٧٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني ، جـ١٦ ص١٠٢ .
(٧٥) سورة الطلاق : آية ١ .

الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام

١ ـ الديانات غير السماوية :

(أ) الوثنية :

كانت الأصنام تمثل في معتقد عابديها قوى عليا يجب تقديسها ، وكان صانعوها يحاولون إعطاءها أشكالا أسطورية ، ويحرصون على بنائها من الأحجار الطبيعية القديمة المتوارثة عن الأجداد ، وبخاصة من حجارة البراكين أو من بقايا النيازك لظنهم أنها مرسلة إليهم بفعل قوى خفية خارقة .

يرى الإخباريون أن أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام واتخذ الأصنام هو عمرو بن لحي الخزاعي ـ الذي كانت له السيادة على الكعبة في مكة ، وكان الصنم هبل أول صنم جاء به عمرو من البلقاء(٧٦) ببلاد الشام بعد عودته من رحلة إلى هناك للاستشفاء ، فقدم به مكة ونصبه عند الكعبة(٧٧) ، وكان هبل من خرز العقيق على صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة فجعلت له قريش فيما بعد يدا من ذهب ، وله خزانة للقربان وحاجب يقوم بخدمته(٧٨) .

كان من أشهر الأصنام التي حظيت بالتعظيم والتقديس عند العرب قبل الإسلام اللات والعزى ومناة ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾(٧٩) ، واللات عبارة عن صخرة مربعة بيضاء بالطائف ، أقامت لها ثقيف معبدا تقدم فيه الذبائح ، أما العزى فكانت شجرة بوادي نخلة إلى الشرق من مكة عندها سدنة من بني صرمة بن

---

(٧٦) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ص٦٣ .
(٧٧) الكلبي : الأصنام ص٦٠ ، الصنم كان يتخذ من الصخر ونحوه ، والوثن ما كان من غير صخر .
(٧٨) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ص٦٨ ـ ٧٠ .
(٧٩) سورة النجم : آية ١٩ـ٢٠ .

مرة ، وقد عبدها كثير من القبائل ، وبخاصة باهلة وخزاعة ومضر وغطفان وكنانة فقد كانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكان العرب إذا فرغوا من حجهم وطوافهم حول الكعبة لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ويعكفون عندها يوما[٨٠] ، ومناة صخرة أقيم لها معبد في قديد على ساحل البحر الأحمر (القلزم) بين مكة ويثرب وكانت مقدسة عند الأوس والخزرج ، فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده ولا يرون لحجهم تماما إلا بذلك[٨١] .

كان من أقدم الأصنام التي امتدت عبادتها من أيام نوح عليه السلام ، تلك التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾[٨٢] .

اتخذت قبيلة كلب من قضاعة الصنم ودا معبودا لها ، وكان تمثالا لفارس محارب قد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء ، وسواع حجر عبده بنو هذيل ابن مدركة في رهاط ـ من أرض ينبع على مقربة من يثرب ، وكان بنو لحيان سدنته الذين يقومون على رعايته[٨٣] ، أما يغوث فكان معبودا بأرض مذحج باليمن وهو على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس عبدته همدان وخولان وانتشرت عبادته بخيوان من أعمال صنعاء باليمن[٨٤] ، وأما نسر فقد اتخذته حمير معبودا لها ، وكان موضعه بأرض سبأ وكان على هيئة الطائر المسمى

(٨٠) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ص ٧٤ .

(٨١) الكلبي : الأصنام ، ص ١٤ ـ

(٨٢) سورة نوح : الآيات ٢١ـ٢٤ .

(٨٣) ياقوت : معجم البلدان ، . جـ ٥ ص ٣٦٨ .

(٨٤) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ ٥ ص ٤٣٨ .

باسمه ، ولم تقتصر عبادته على العرب الجنوبيين بل انتشرت عبادته في شمال جزيرة العرب حيث وجدت صور له منحوتة على الصخور في أعالي الحجاز[٨٥] .

كذلك كان للقبائل العربية عدة أصنام اختصتها بالرعاية والتقديس فمنها إساف ونائلة ، وكان إساف ملاصقا للكعبة ونائلة في موضع زمزم وكانوا يطوفون حولهما ويذبحون عندهما .

أما الصنمان مجاور الريح ومطعم الطير ، فقد وضعهما العرب عند الصفا والمروة ، فكان الناس يهرولون سعيا بينهما في مواسم الحج .

وفضلا عن الأصنام الكبرى التي اتخذتها القبائل العربية آلهة يعبدونها من دون الله ، اتخذ أهل كل دار في دارهم صنما صغيرا ، فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره وإذا قدم منه ، وكان يؤثرها على نفسه فيقدم إليها أعز ما يملك ، ويتودد إليها بكل غال ونفيس في سبيل إرضائها معتقدا أنها سوف تجلب له السعادة والهناء وتمنع عنه الشرور والأخطار وتمن عليه بالخير الوفير والبركات .

(ب) عبادة الجن :

كان عبدة الجن يعتقدون أن المواضع التي تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن ، وتختار الجن الأماكن الموحشة المقفرة[٨٦] ، والمواضع المظلمة ومواطن الموتى في القبور ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[٨٧] وكانت عبادة الجن تتجسد عندهم في اتقاء شرها لاعتقادهم

---

(٨٥) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ٥ ص٨٨ .
(٨٦) المسعودي : مروج الذهب ، جـ١ ص٤٠٢ .
(٨٧) سورة سبأ : آية ٤١ .

أنها أرواح خبيثة مؤذية ، وجعل معتنقو عبادة الجن بينها وبين الله نسبا ، لزعمهم أنها أرواح غير منظورة تقدر على الإتيان بأعمال خارقة ، وأنها آلهة تتصاهر فيما بينها ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾[88] .

حاول العرب قبل الإسلام التخلص من الأرواح الخبيثة والتغلب عليها وطردها باستعمال الأشياء التي تنفر منها الجن في اعتقادهم ومنها عظام الموتى والأحجار المقدسة ، كذلك كانوا يستغيثون بعظيم الجن لاتقاء شرهم ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[89] .

(جـ) المجوسية :

انتقلت المجوسية[90] ـ عبادة النار ـ من بلاد الفرس إلى بلاد العرب عن طريق حليفتهم الحيرة ، وقد اجتذبت نفوس العرب إلى عبادتها اعتقادا منهم أنها واسطة بين الله وبين الإنسان وأنها من جنس الآلهة النورية[91] ، وانتقلت المجوسية من الحيرة إلى أرجاء جزيرة العرب من خلال القوافل التجارية والأسواق فضلا عن الجاليات الفارسية التي أقامت في المدن العربية الكبرى .

صار للنار شأن كبير في تحالفات العرب وروابطهم فإذا عقد حلفٌ بين قبيلتين أحضروا نارا واتفقوا على اليمين ، ثم أقسموا على النار وألقوا عليها ملحا وكبريتا ، وكانت نار التحالف تعرف بالهولة أو المهولة[92] . كما عرفت عندهم

(٨٨) سورة الصافات : آية ١٥٨ .

(٨٩) سورة الجن : آية ٦ .

(٩٠) المجوس : كلمة معربة : أصلها فارسي قديم وهو مجوش وهي اسم جمع مفردها مجوس ، انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ٨ ص٩٨ .

(٩١) المسعودي : مروج الذهب ، جـ١ ص٤٧٠ .

(٩٢) الألوسي : بلوغ الأرب ، جـ١ ص١٦٢ـ١٦٦ .

أنواع أخرى من النار هي نار الغدر وتوقد لإعلان غدر شخص بآخر ليحذره الناس ، أما نار السلامة فكانت توقد للقادم من سفره عند عودته سالما غانما[٩٣] ، كذلك نار الطرد توقد للدعاء على شخص لا يراد عودته ، ونار السلم توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط ولمن عضه الكلب لكي لا ينام الشخص فيشتد به الأمر ويؤدي إلى الهلاك[٩٤] .

(د) الصابئة :

كانت الصابئة من بين الديانات التي انتشرت في بلاد اليمن وحران وأعالي العراق ـ ويعبد أتباعها النجوم والكواكب وبخاصة التي كانت تهديهم في أسفارهم ، ولأثرها في تعاقب الليل والنهار ـ كما عبدوها لاعتقادهم أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة ، وأن كل ما يحدث في قدرهم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله فعظموها وقدموا إليها القرابين[٩٥] .

كان للشمس مكانة عظيمة عند عرب الجنوب ، كما عبدوا القمر والزهرة فلما رأوها تختفي بالنهار وفي بعض أوقات الليل ، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها فكانوا يسجدون لها من دون الله قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[٩٦] .

كما عبدت قبائل لخم وخزاعة وبعض بطون قريش نجما اسمه الشعرى بعد أن أدخل عبادته جزء بن غالب بن عامر بن الحرث الخزاعي

---

(٩٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ١ ص٢٠٩ .
(٩٤) القلقشندي : المصدر نفسه ، جـ١ ص٢٠٩ .
(٩٥) المسعودي : مروج الذهب ، جـ١ ص٤٦٢ .
(٩٦) سورة فصلت : آية ٣٧ .

المكنى أبو كبشه ، فلما بعث النبي ﷺ وخالف قريشا في عبادتهم قالوا له ابن أبي كبشة لمخالفته لهم مخالفة أبي كبشة لهم في عبادة آلهتهم ، وقد نهاهم الله تبارك وتعالى عن عبادة ذلك النجم في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾(٩٧) .

٢ ـ الديانات السماوية :

(أ) اليهودية :

انتشرت اليهودية في جهات متفرقة من بلاد العرب ومنها خيبر ويثرب ووادي القرى وفدك وتيماء(٩٨) ، ويرجع ظهور اليهودية في جزيرة العرب إلى هجرة الجماعات اليهودية التي حدثت بعد اصطدامهم بالقيصر تيتوس وهدمه الهيكل سنة ٨٠م ، وازدادت تلك الهجرة على عهد القيصر هادريان سنة ١٣٢م(٩٩) ، إلا أن أقدم الهجرات اليهودية تعود إلى عهد الملك بختنصر الذي ولي بابل سنة ٦٠٦ق .م فقد نقل معه كثيرا من اليهود إلى بابل وعاشوا هناك وتكاثروا .

كانت منطقة يثرب المركز الرئيسي لليهودية في جزيرة العرب فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان أحد أودية يثرب ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور(١٠٠) ، ثم جاء بعدهم بنو قينقاع وبنو زعورا وبنو عكرمة وبنو ثعلبة ، وكان في يثرب قبل هجرة اليهود إليها كثير من البطون العربية من قبائل بني الحرمان وبني مرثد وبني سليم وبني غسان .

كان اليهود يعيشون متكتلين مستقلين ووجهوا اهتمامهم إلى النواحي الاقتصادية ، فاحترفوا التجارة والزراعة وبعض الحرف مثل الصياغة ، وكانوا

---

(٩٧) سورة النجم : آية ٤٩ .

(٩٨) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، جـ١ ص٢١٣ .

(٩٩) O'Leary: Arabia Before Muhammad, p.173

(١٠٠) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ص٢٣٤ .

يقرضون الأموال بالربا الفاحش لجيرانهم العرب ، وكانوا يعيشون في حماية سادة القبائل يؤدون لهم إتاوة كل عام مقابل حمايتهم لهم .

انتقلت اليهودية إلى بلاد اليمن على يد تبان بن أسعد أبي كرب[(١٠١)] أحد ملوك الحميريين التي اعتنقها على يدي حبرين من أحبار اليهود هما كعب وأسد من بني قريظة[(١٠٢)] ، وكان لليهود في جزيرة العرب أماكن للعبادة تعرف بالكنيس ، وكانت أماكن عبادتهم تعرف أيضا بالمحاريب ، وعرف رجال الدين عندهم بالأحبار والربانيين ، والحبر هو العالم الصالح وهو أحد رجال «الفروشيم» ، وهم شيعة اليهود[(١٠٣)] ـ الذين أقسموا على أنفسهم مراعاة النصوص الدينية ، أما الربانيون فهم العلماء الراسخون في العلم والدين ـ الذين لم يأخذوا أجورا على أعمالهم لذلك كانوا يتمتعون بحرمة عظيمة في المجتمع ، وكان على الناس طاعتهم وعدم مخالفة أمرهم وإلا خالفوا شريعة الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[(١٠٤)] .

على الرغم من يقين اليهود بقرب ظهور نبي مرسل من رب العالمين ، ومفاخرتهم بذلك الأوس والخزرج إلا أنهم أنكروا نبوة الرسول ﷺ وكفروا به بل وقاموا بتحريض قريش وغطفان وغيرهم من المدافعين عن الشرك والغارقين في الوثنية على محاربة الإسلام دين التوحيد ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم

(١٠١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٢ ص٥٢ .
(١٠٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ١ ص٢٤٤ .
(١٠٣) إسرائيل ولفنسون : اليهود في بلاد العرب ، ص٢٠ .
(١٠٤) سورة المائدة : آية ٤٤ .

مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[١٠٥] .

(ب) النصرانية :

دخلت النصرانية بلاد العرب وانتشرت فيها بالتبشير على يد النساك والرهبان ، الذين كانوا يرافقون البدو الأعراب ، وعاشوا معهم في الخيام فعرفوا بأساقفة الخيام وأساقفة أهل الوبر ، وكان لإتقان المبشرين كيفية التأثير ووسائل الإقناع والمنطق فضلا عن براعتهم في مداواة بعض الأمراض ، أن تمكنوا من ضم بعض سادات القبائل والأعراب إلى الدين الجديد ، وبذلك ضمن المبشرون مساعدتهم وحمايتهم فعاشوا في كنفهم في أمن وسلام وأخذوا في نشر دينهم في أنحاء جزيرة العرب .

أنشأ النصارى في جزيرة العرب كثيرا من الأديرة[١٠٦] ، وقد انتشرت في أماكن عديدة من بلاد العراق وبلاد الشام وفي بعض نواحي الحجاز ونجد وجنوبي جزيرة العرب وشرقها[١٠٧] ، وذلك كوسيلة من وسائل التبشير ونشر ديانتهم ، فقد أعدوا الأديرة للقوافل التجارية ليجد فيها التجار كل وسائل الراحة ، كما كانت تمتلىء بالخمور والنبيذ الذي كان يتم صنعه على أيدي الرهبان أنفسهم وأثناء اللهو والشراب ، كان الرهبان يلعبون دورهم في التعريف بدينهم والتبشير بالنصرانية .

كانت الشام تمثل المعقل الأول الذي وطدت فيه المسيحية أقدامها للعلاقات المباشرة والوطيدة مع قياصرة الروم الذين اتخذوا من النصرانية دينا رسميا لامبراطوريتهم ، كذلك وجدت النصرانية لها أرضا خصبة عند أهالي

(١٠٥) سورة البقرة : آية ٨٩ .
(١٠٦) الدير : أصل الدار ، والجمع ديار وأديرة ، والديار ، والديراني هو صاحب الدير وهو الموضع الذي تسكنه الرهبان ، انظر ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ص٤٩٥ .
(١٠٧) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ٢ ص٤٩٥-٥٤٣ .

الحيرة على الرغم من تبعيتها للفرس ، إلا أن الأكاسرة لم يكن يهمهم نشر المجوسية بين أتباعهم لاعتبارها ديانة خاصة بالفرس فلم تهتم الامبراطورية الفارسية بنشر النصرانية بين الموالين لها ، وكان لاتصال بلاد الحجاز بالحيرة وبلاد الشام عن طريق التجارة أن دخلت النصرانية إلى هذه البلاد .

دخلت النصرانية اليمن على يد أحد المبشرين واسمه فيميون ، على أن مركز قوة المسيحية قد ظهر بالفعل في بلاد اليمن في القرن الرابع الميلادي ، كما أرسل الامبراطور قسطنطين الثاني (٣٣٧-٣٦١م) سفارة مسيحية إلى الجنوب برئاسة ثيوفيلوس الذي نجح في إنشاء كنيسة في ظفار وأخرى في عدن[١٠٨] ، كما كانت نجران من أهم مواطن النصرانية في بلاد العرب التي اشتهرت بإنشاء أكبر الكنائس وأفخمها - التي عرفت بكعبة نجران - كذلك صار لنجران نظام سياسي ديني خاص ، فكان يتولى شؤونها رؤساء على أعلى مستوى ، وهم : الأسقف وهو إمامهم وصاحب مدارسهم الدينية[١٠٩] ، والعاقب وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم والمختص بتنظيم القوافل .

(جـ) الحنيفية :

كان هناك طائفة من العرب أحجمت عن الديانات غير السماوية كما أنها لم تجد في اليهودية ولا النصرانية الوحدانية الخالصة لأنهما فسدتا بالشرك وتحولتا بفعل الأتباع من ديانتين سماويتين خالصتين لذات الله وحده لا شريك له ، إلى ديانتين أرضيتين بعبادة الإنسان مع خالق البشر ، سبحانه عما يشركون قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١١٠] ،

(١٠٨) لويس شيخو : النصرانية وآدابها ، جـ١ ص٥٥٠ .
(١٠٩) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ٢ ص, ١٥١
(١١٠) سورة التوبة : الآيتان ٣٠-٣١ .

والشرك يتعارض مع التوحيد ـ روح الأديان ـ وأصل العقائد التي جاء بها جميع الأنبياء والمرسلين ومن بينهم موسى وعيسى عليهما السلام ، فكلما فسدت دعوة بالشرك أرسل الله نبيا جديدا يعيد البشرية إلى التوحيد ، ومن أجل ذلك تعدد الأنبياء والمرسلون .

عرفت هذه الطائفة بالحنفاء لقوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ ﴾(١١١) ، وكان الحنفاء يقضون أيامهم ولياليهم في تأمل الكون الذي يعيشون فيه ، وتجنبوا فعل المنكرات التي اعتاد عليها العرب ، فاعتزلوا الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تنحر على الأوثان واعتنقوا الدين الحنيف ـ دين إبراهيم عليه السلام الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١١٢) .

وفي وسط هذا الخضم الهائل من التخبط الديني والفراغ الروحي ظهر الإسلام في بلاد العرب التي شرفها الله بنبيه سيدنا محمد ﷺ مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فبعثه بالهدى ودين الحق ليهدي البشرية جمعاء إلى سواء السبيل ، إلى التوحيد الخالص لذات الله سبحانه وتعالى ، وينقذ ها من الشرك والضلال ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(١١٣) .

(١١١) سورة الحج : آية ٣١ .
(١١٢) سورة آل عمران : آية ٦٧ .
(١١٣) سورة الإخلاص .



الفصل الثالث

النظم السياسية والإدارية والقضائية

د. نايف السهيل

النظام السياسي في الحضارة العربية الإسلامية :

أولا : الخلافة :

الخلافة نظام سياسي انفردت به الدولة العربية الإسلامية ، وذلك من دون ما سبقها أو لحق بها من الدول[1] . وقد ظهرت الحاجة إلى هذا النظام بعد انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه في الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ، حيث أصبحت الدولة العربية الإسلامية بحاجة إلى من يخلف الرسول ﷺ في إدارة دفة الحكم وحماية ونشر الدين الإسلامي الحنيف .

والخلافة لغة مصدر «خلف» ، أي بقي بعده ، ومن ثم سمي من جاء بعد الرسول ﷺ خليفة له . أما الخلافة إصطلاحاً ، تعني رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ[2] .

وعرف ابن خلدون[3] الخلافة بأنها «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا» .

كما يروى الماوردي[4] ، أنها «خلافة النبوة (النبي) في حراسة الدين وسياسة الدنيا» .

---

١ ـ العدوى والسهيل ، الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت ص١٠٦ .
٢ ـ حكمت عبدالكريم ، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ـ دار الشروق ـ عمان ص٧١ .
٣ ـ ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ص١٩١ .
٤ ـ الماوردي ، الأحكام السلطانية ص٣ .

لذا فإن الظروف الدينية والسياسية في الدولة العربية الإسلامية التي نتجت عن وفاة الرسول ﷺ ، اضطرت كبار رجالات الدولة إلى عقد اجتماع في «سقيفة بني ساعدة» ، حيث بدأ الأنصار[١] ، ولحق بهم كبار المهاجرين[٢] ، أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ، واشتركوا في المناقشة مطبقين بذلك مبادئ النظام السياسي الإسلامي ، حيث قال تعالى : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٣] وقد احتدمت المناقشات في اجتماع «سقيفة بني ساعدة» بين المهاجرين والأنصار ، حول من يتولى شئون المسلمين بعد الرسول ﷺ . وبدأ كل طرف يحاول اقناع الطرف الآخر بأحقيته بهذا المنصب ، وانحصر الأمر بين «سعد بن عبادة» ـ سيد الخزرج ـ مرشح الأنصار ، وأبي بكر الصديق مرشح المهاجرين في السقيفة .

وقد حسم الموقف أخيرا ، عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بأن قال لأبي بكر :

«أبسط يدك يا أبا بكر» ، ولما بسط أبو بكر يده ، بايعه عمر وهو يقول : «ألم يأمرك النبي ﷺ بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ، فأنت خليفة رسول الله ، فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله ﷺ منا جميعا» . وبايع أبو عبيدة بن الجراح أبا بكر قائلا له : «إنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار . وخليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك»[٤] .

وبايع الحاضرون بعد ذلك أبا بكر عدا سعد بن عبادة ، وهذا الامتناع لا يبطل اختيار أبي بكر الصديق لأنه يندرج ضمن «نظام الشورى» ، كما أن الغالبية

---

١ ـ الأنصار ، هم من اعتنق الدين الإسلامي من قبائل الأوس والخزرج من سكان المدينة .
٢ ـ المهاجرون ، هم من هاجر مع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة .
٣ ـ سورة الشورى : الآية ٣٨ .
٤ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ص٦٨ .

العظمى أيدت مبايعة الصديق . واشتهرت هذه البيعة باسم «بيعة الخاصة» لقلة عدد الحاضرين في السقيفة . وفي صباح اليوم التالي ذهب أبو بكر إلى المسجد ، فبايع الناس أبا بكر «بيعة العامة» بعد بيعة السقيفة «الخاصة» ، ثم خطب أبو بكر ، حيث قال : «أما بعد أيها الناس فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[1] .

لذا فإن اختيار أبي بكر الصديق ليخلف الرسول ﷺ في أمور الدين الإسلامي وقيادة الدولة العربية الإسلامية ، جاء نتيجة حتمية لما توافر بشخص الصديق من دوافع وميزات خاصة أدت إلى هذا الاختيار من أبرزها : «السبق إلى الإسلام ، انه صاحب الرسول ﷺ في الغار ، وقد جعله الرسول ﷺ يصلي بالناس نيابة عنه إذا ما تخلف عن تأدية الصلاة لأي سبب كالمرض مثلا ، إضافة إلى التضحيات الكثيرة التي قدمها أبو بكر في سبيل الدعوة الإسلامية» .

وبدأ خليفة رسول الله ﷺ - أبو بكر - يرسم السياسة الجديدة للدولة العربية الإسلامية ، حيث التزم بنهج الرسول ﷺ في توطيد أركان «الشورى» بالدولة العربية الإسلامية ، موضحا العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتطبيق ما جاء بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ، واستشارة «أهل الحل والعقد» ، كما أقر مبدأ المساواة القائم على العدالة الاجتماعية ، وحرص على حماية الدولة من المخاطر الداخلية والخارجية التي تهددها ، وحث على الجهاد في سبيل الله .

---

١ - السيوطي ، المرجع السابق ص٦٩ والطبري ، تاريخ الرسل والملوك جـ٢ ص٢٠٣ .

ويعد اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ إيذانا بقيام نظام سياسي جديد في الدولة العربية الإسلامية هو نظام «الخلافة»[1] وقد استنبط الفقهاء ، الشروط الواجب توافرها لتقلد منصب الخلافة من اجتماع سقيفة بن ساعدة والتي من أهمها : الدين ، والعلم ، والعدالة ، وسلامة الحواس ، والكفاية ، والعقل ، والذكورة ، بمعنى ألا تعقد الإمامة لامرأة ، والشجاعة ، وأخيرا النسب القرشي ، وهو الشرط الذي اختلف الفقهاء في الاجماع عليه ، لأنه بسبب الخلافة والشروط الواجب توافرها ، دبت الفرقة وزاد الشقاق واشتد الصراع بين المسلمين ، مما أدى إلى انقسام المسلمين إلى مذاهب وفرق ، كانت لها آراء متباينة في مسألة «النسب القرشي» والتي من أبرزها :

- **السنة** : حيث اشترطوا النسب القرشي إضافة إلى تطبيق مبدأ «الشورى» لاختيار الخليفة .

- **الشيعة** : اشترطوا النسب القرشي أيضا ، لكنهم حصروا الحق بالخلافة بذرية علي بن أبي طالب وفاطمة . وهذا ما يسمى «بالنص والتعيين» . مع ملاحظة أنهم لم يعترفوا بخلافة بني أمية .

- **الخوارج** : لم يشترطوا توافر النسب القرشي ، بل أنهم قالوا بحق كل مسلم بتقلد منصب الخلافة إذا توافرت به بقية الشروط . ويلاحظ أيضا أنهم لم يعترفوا بخلافة بني أمية .

المرجئة : لم يعارضوا حكم بني أمية ، وأخروا الحكم على صحة تقلد بني أمية الخلافة من عدمه إلى يوم القيامة ، ولم يشترطوا النسب القرشي .

المعتزلة : هم أتباع واصل بن عطاء ، لم يشترطوا النسب القرشي ، وركزوا على «العدل» حيث أنهم اشترطوا أن يكون الخليفة عادلا .

---

١ ـ العدوى والسهيل ، المرجع السابق ص١٠٧ .

الإباضية : هم أتباع جابر بن زيد الأزدي ، لم يشترطوا وجوب النسب القرشي ، ووضعوا الكثير من الشروط الواجب توافرها بالمرشح للخلافة ، كما أنهم قالوا بعزل الخليفة إذا انتفت عنه الشروط .

ويلاحظ من هذه الحوادث ، التي تتابعت في الدولة العربية الإسلامية والتي من أهمها : انتقال الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، واختيار أبي بكر الصديق خليفة له ما يلي :

١ ـ لم يرشح الرسول ﷺ أيا من الصحابة لخلافته . وربما كان السبب خوف الرسول ﷺ أن يعتقد الناس بأن خليفة الرسول ﷺ يخلفه في النبوة . وربما أن الرسول ﷺ ترك حرية اختيار خليفته ، لتتمم عن طريق «الشورى» التي وردت في القرآن الكريم .

٢ ـ ظهور نظام جديد مستحدث وهو «نظام الخلافة» حيث تميزت به الحضارة العربية الإسلامية دون غيرها من الحضارات الإنسانية الأخرى . التي كانت لها أنظمة مغايرة من أهمها «الامبراطورية» و«الملكية» .

٣ ـ أصبحت الخلافة هي المؤسسة القيادية العليا في الدولة العربية الإسلامية . لذا أصبح الخليفة هو صاحب السلطة العليا وله كل الحقوق المشروعة والتي أباحها الشرع مثل الطاعة ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[1] . مقابل ذلك فإن عليه الكثير من الواجبات التي يجب عليه تأديتها ، ومن أهمها ، حماية الدولة العربية الإسلامية وحراسة حدودها ، ومراعاة مصالح المسلمين وغيرهم من المقيمين . والاهتمام بكل الأمور المادية بالدولة ، إضافة إلى حراسة الدين الإسلامي والعمل على نشره . أي الاهتمام بالأمور الدينية . لذا فإن الخلافة تتعلق بكل ما يتصل بالأمور الدينية والأمور الدنيوية .

١ ـ سورة النساء ، الآية ٥٩ .

٤ ـ بسبب الصراع على «الخلافة» ، ظهرت الكثير من المذاهب والفرق الإسلامية ، مما أدى إلى انشقاق الصف الإسلامي ، وظهور الكثير من المذاهب والفرق الإسلامية .

٥ ـ تطبيق مبدأ «الشورى» في اختيار الخليفة والذي يشترط أخذ «بيعة الخاصة» من «أهل الحل والعقد» وبعد ذلك «بيعة العامة» من عامة جماهير الشعوب الإسلامية . ويأتي ذلك تطبيقا لمبادئ القرآن الكريم و«أمرهم شورى بينهم» وكذلك اتباع سنة الرسول الكريم والذي سبق وأن حصل على «بيعة أولى» و«بيعة ثانية» قبل تقلده مهام الرئاسة في الدولة العربية الأسلامية .

ومن خلال تتبع مسيرة «الخلافة» في الدولة العربية الإسلامية ، نستطيع تقسيم عصور الخلافة الإسلامية استنادا إلى تطبيق شروطها ، لأن البعض طبقها تطبيقا صحيحا كما هو الحال في عصر الخلفاء الراشدين . والبعض الآخر لم يعمل على تطبيق كل شروط الخلافة الإسلامية كما فعل بنو أمية والعباسيون بعدهم .

عصر الخلفاء الراشدين (١١ ـ ٤٠هـ) :

بدأ هذا العصر منذ تقلد الخليفة أبي بكر الصديق مهام السلطة في الدولة العربية الإسلامية واستمر بخلافة الخليفة عمر بن الخطاب ومن بعد الخليفة عثمان بن عفان ، وأخيرا الخليفة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم جميعا ـ فخلافة الخلفاء الراشدين الأربعة هي الخلافة الصحيحة التي اتبعت والتزمت بكل المبادئ التي تقررت في نظام الخلافة وقواعدها في سقيفة بن ساعدة[١] . فجميعهم التزم بكتاب الله (القرآن الكريم) ، واتبعوا السنة النبوية العطرة في جميع أقوالهم وأفعالهم ، واعترفوا برقابة الأمة وهذا يتضح من استشارة «أهل

---

١ ـ العدوى والسهيل ، المرجع السابق ص١٠٩ .

الحل والعقد» ، وطبقوا مبدأ الشورى في الحكم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[1] . كما أن جميع بيعاتهم صحيحة لأنها جاءت تطبيقا لمبدأ «الشورى» الذي تم إقراره . فالخليفة أبو بكر جاء للخلافة بعد أن تشاور «أهل الحل والعقد» بسقيفة بني ساعدة ، وتلاه الخليفة عمر بن الخطاب ، بعد أن رشحه أبو بكر وهو على فراش الموت ، ولم ينفرد أبو بكر بهذا القرار بل أخذ برأي من حضره بالمدينة من «أهل الحل والعقد» ، وبعد ذلك حصل عمر بن الخطاب على بيعة العامة . أما بالنسبة لاختيار عثمان بن عفان ، فقد تجلى فيه نظام الشورى ، حيث رشح عمر بن الخطاب ستة من الصحابة لخلافته - بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي - وهم علي ابن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام[2] . وقد انحصر الأمر أخيرا بين علي وعثمان ، وتولى عبدالرحمن بن عوف مسألة الاختيار التي انتهت بمبايعة عثمان بن عفان ، الذي حصل على بيعة أهل الحل والعقد ، وبعد ذلك مبايعة جموع المسلمين له وكان ذلك في المحرم سنة ٢٤ هـ . أما آخر الخلفاء الراشدين فهو ، علي بن أبي طالب الذي اختاره «أهل الحل والعقد» وجموع المسلمين ، وكان ذلك في السنة الخامسة والثلاثين للهجرة . وانتهى عهد الخلفاء الراشدين سنة ٤٠ هـ بمقتل علي بن أبي طالب ، على يد عبدالرحمن بن ملجم الخارجي .

خلافة بني أمية وبني العباس :

استطاع معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ ، مد نفوذه إلى كافة أرجاء الدولة العربية الإسلامية ، وبدأ بتغيير المبادئ والأنظمة التي تقررت في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، والتي انتهجها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . فأدخل أنظمة جديدة غيرت التقنين الصحيح للخلافة التي أصبحت ملكا وراثيا وأهم التغيرات الجديدة ما يلي :

---

١ - سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
٢ - السيوطي ، المرجع السابق ص١٣٤ .

أولا : إقرار نظام «ولاية العهد» ، وهذا النظام الجديد أدخله معاوية بن أبي سفيان حينما عين ابنه يزيد وليا للعهد حتى يتقلد الخلافة من بعده .

ثانيا : إقرار مبدأ الأمر الواقع المستند إلى القوة في اختيار الخليفة(١) ، وقد حل هذا المبدأ محل «أهل الحل والعقد» ، وهذا الأمر الجديد أوقف العمل بنظام «الشورى» .

ثالثا : تقديم السياسة على الدين(٢) ، فقال ابن طباطبا «وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ مصروف الهمة إلى تدبير أمر الدنيا ، يهون عليه كل شيء إذا انتظم أمر الملك»(٣) على العكس من خلافة الراشدين ، حيث ذكر ابن طباطبا عن دولة الخلفاء الراشدين بهذا الشأن «واعلم أنها دولة لم تكن من طراز الدنيا ، هي بالأمور الدنيوية والأحوال الأخروية . . .»(٤) .

رابعا : إقرار الشارات والعلامات للدلالة على الخلافة ، بدلا من البساطة التي كانت شعار الخلافة على عهد الراشدين(٥) . حيث أدخل معاوية بن أبي سفيان السرير (كرسي العرش) والمنبر(٦) ، ونظام المقصورة .

خامسا : نقل مقر الخلافة إلى مركز وجود الأتباع والأنصار ، فنقل معاوية مقر الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق . كما نقل بنو العباس سنة ١٣٢ هـ مقر الخلافة إلى بغداد التي تمركز بها أنصارهم . ونقل المماليك مقر الخلافة إلى القاهرة ، وأخيرا نقلها العثمانيون إلى استانبول في عهد سليم الأول (١٥١٧م) ، وبقيت هناك حتى ألغاها نهائيا كمال أتاتورك سنة (١٣٤٢هـ ، ١٩٢٤م) ، أي بعد الحرب العالمية الأولى .

سادسا : إقرار مبدأ «التوريث في الحكم» وتحقيق المصلحة الخاصة على المصلحة العامة . حيث عين كل من الأمويين والعباسيين أقاربهم ليتقلدوا الخلافة

---

١ ـ ابراهيم العدوي ، النظم الإسلامية ، مكتبة الانجلو المصرية ص١٥٨ .
٢ ـ ابراهيم العدوي ، المرجع السابق ص١٥٨ .
٣ ـ ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص٩٨ .
٤ ـ ابن طباطبا ، المرجع السابق ص٦٥ .
٥ ـ ابراهيم العدوي ، المرجع السابق ص١٥٩ .
٦ ـ ابن خلدون ، المرجع السابق ص٢٦٠ .

بالتوريث ، واستمر الحكم الأموي ما بين سنتي (٤١ ـ ١٣٢هـ) ، أما العباسيون فقد استمروا بالحكم ما بين سنتي (١٣٢ هـ حتى إلغاء الخلافة) مع ملاحظة أن العباسيين استمروا في الخلافة اسميا فقط دون سلطة ، بسبب سيطرة البويهيين على زمام الحكم بالدولة العربية الإسلامية ما بين سنتي (٣٣٤ـ٤٤٧هـ) ، وتلاهم السلاجقة (٤٤٧ ـ ٥٩٠هـ) ، وبعدهم المماليك ، وأخيرا الدولة العثمانية ما بين (١٥١٧ـ١٩٢٤م) .

وأخيرا يلاحظ على الخلافة زمن بني أمية وزمن بني العباس أنها أصبحت «ملكا» أقرب منه «للخلافة» حتى أن الخليفة أبا جعفر المنصور العباسي قال : «إنما أنا سلطان الله في أرضه» وادعى بنو العباس بأن الخلافة «حق مقدس» لهم . وقد احتكر بنو أمية الخلافة قرابة قرن من الزمان ، وبنو العباس قرابة سبعة قرون ، وهذا فيه مخالفة صريحة لشروط الخلافة والتي لا يجوز توريثها . فقال ابن حزم : «لا خلاف بين أحد من أهل الإسلام في أنه لا يجوز التوارث في الخلافة»[١] .

ثانيا : الوزارة :

نظام الوزارة ، نظام سياسي ، قيادي ، وإداري . يأتي بعد الخلافة مباشرة من حيث الأهمية القيادية والسياسية . والواقع أن هذا النظام لم يكن من مستحدثات الحضارة العربية الإسلامية ، حيث انها نقلته من الدولة الساسانية التي كانت تحكم بلاد فارس قبل فتحها . كما عرف هذه النظام أيضا قدماء المصريين وبنو إسرائيل إضافة إلى الفرس .

وهناك آراء مختلفة ومتعددة للغويين بشأن اشتقاق لفظ الوزارة : فقيل أنه مشتق من (الوِزْر) أي الثقل ، لأن الوزير يحمل عن الخليفة أعباء الدولة ، كما في

---

١ ـ ابن حزم ، الفصل في الأهواء والملل والنحل جـ٤ ص١٦٧ (الوزارة) .

قوله تعالى ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾(١) . وقيل أن لفظ الوزارة مأخوذ من (الوَزَر) بفتح الواو والزاي ، وهو الملجأ والمعتصم ، الذي يلجأ إليه الخليفة ، إذا أراد الاستفسار عن أمور الدولة وأحوالها ، كما في قوله تعالى ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾(٢) . وقيل إن هذا اللفظ مشتق من (الأزر)(٣) بمعنى الظهر ، لأن الملك يقوى بوزيره كما يقوى البدن بالظهر(٤) . كما في قوله تعالى ، على لسان موسى : ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾(٥) . كما قيل إن هذا اللفظ مشتق من (المؤازرة)(٦) ، وهي المعاونة لأن الوزير عون الخليفة يحمل عنه أعباء الحكم والسياسة . أما عن أصل هذا اللفظ ، فيقال إنه فارسي الأصل(٧) ، ويعني (كبير عمال الدولة) أو (رئيس رؤسائها ووزير وزرائها)(٨) . ولايهم أصل كلمة (الوزارة) إذا كان عربيا أم أعجميا . لأنه ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع . والدولة العربية الإسلامية لم تستخدم مصطلح (وزير) بصفة رسمية إلا سنة ١٣٢هـ (أي مع بداية الدولة العباسية ، التي تأثرت بالأنظمة الفارسية) . وعلى الرغم من ذلك فإن الدولة العربية الإسلامية منذ تأسيسها على يد الرسول ﷺ كانت بحاجة إلى من يساعد صاحب السلطة في إدارة دفة الحكم . لذا وجدنا أن الرسول ﷺ كان يستشير أبا بكر الصديق وغيره من الصحابة . كما أن أبا بكر استشار عمر بن الخطاب وكذلك عمر استشار عليّا وعثمان . أي أن هؤلاء الصحابة قاموا بمهام الوزير إلا أن أيا منهم لم يتقلد الوزارة بصفة رسمية ، لكن العارفين بأمور الوزارة الفارسية وأحوالها أطلقوا ـ بصفة غير رسمية ـ مصطلح

---

١ ـ سورة الانشراح : الآية ٢ و ٣ .

٢ ـ سورة القيامة : الآية ١١ و ١٢ .

٣ ـ توفيق اليوزبكي ، دراسات في النظم الإسلامية ، الموصل ١٩٨٨م ص٧٧ .

٤ ـ الماوردي ، الأحكام السلطانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٩م ص٢٠ .

٥ ـ سورة طه : الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

٦ ـ الماوردي ، المرجع السابق ص١٣ .

٧ ـ القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، المطبعة الأميركية ، القاهرة ١٩١٣م جـ٥ ص٤٤٨ .

٨ ـ محمد الشاعر ، الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى . دار المعارف . مصر ص٣٤

الوزير على أبي بكر بالنسبة للرسول ﷺ، وكذلك عمر بالنسبة لأبي بكر وعثمان وعلي بالنسبة لعمر بن الخطاب . وفي الدولة الأموية أيضا لم يظهر منصب الوزير بصفة رسمية إلا أن الأمويين استحدثوا منصب المستشار ، وكان الذي يتقلد هذا المنصب يتولى شئون الدواوين ، ويصبح مستشارا للخليفة ، وهذه الأعمال تتشابه وأعمال الوزير دون أن يتلقبوا بهذا اللقب . ومن أشهر المستشارين في الدولة الأموية «زياد بن أبيه» زمن معاوية بن أبي سفيان ، و«عبدالحميد الكاتب» زمن مروان بن محمد .

الوزارة زمن الدولة العباسية :

أول ما ظهرت الوزارة بصفة رسمية في الدولة العربية الإسلامية ، كان ذلك زمن الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ . وبسبب اعتماد بني العباس على الفرس في القضاء على دولة بني أمية ، أفسحوا لهم المجال في تقلد المناصب الكبرى ، التي كانت في العصر الأموي حكرا على العرب . وقد اقتبس العباسيون كثيرا من عادات الفرس وتقاليدهم وأنظمتهم في الإدارة والحكم(١) ، والتي من أهمها ، نظام الدواوين ونظام الوزارة .

لذا تم إدخال نظام الوزارة زمن الدولة العباسية ، وكان أبو سلمة الخلال أول وزير عينه الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح . ويذكر ابن خلكان ذلك بقوله : (لم يكن قبل أبي سلمة الخلال وزير أبي العباس السفاح من يعرف بهذا النعت ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها)(٢) .

شروط التعيين في الوزارة :

اشترط الفقهاء المسلمون ـ بوجه عام ـ شروطا يجب توافرها فيمن يتولى الوزارة أهمها :

أ ـ الأسلام الحق : أي يجب أن يكون الوزير مؤمنا بالشريعة الإسلامية . وقد هاجم بعض المفكرين من المسلمين الأوائل تقلد الذمي الوزارة .

---

١ ـ إبراهيم الكروي ، المرجع السابق ص٥٤ .
٢ ـ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ١٣١٠هـ ، جـ١ ص١٢٢ .

ب ـ الرجولة الراشدة : أي لا يعقد الوزارة لامرأة ، ويشترط الرشد أيضا .

جـ ـ عدم الاشتغال بالتجارة : يُحظر على الوزير الاشتغال بالتجارة ، وينبغي أن يتفرغ لعمله .

د ـ العدل : «إن العدل أساس الملك» ، فيجب أن يكون الوزير منصفا فيسلم الشعب من ظلمه وظم غيره .

هـ ـ الأمانة : أن يفي بما عليه ولا يختزن لنفسه ، ولا يتقبل الهدايا التي تعطى له بحكم منصبه وإلا كانت رشوة .

و ـ الكفاءة : وهي أن تترتب الأعمال على قواعدها السليمة ، ويجب أن تتوافر الكفاءة بشخص الوزير . وهناك شروط أخرى ، منها ، سلامة الحواس والأعضاء ، والشجاعة ، والنجدة المؤديان إلى الحفاظ على الدولة[1] . والحنكة والتجربة .

أقسام الوزارة ، ومهام وزير كل قسم :

ذكر الماوردي[2] ، أن فقهاء المسلمين قسموا الوزارة إلى قسمين :

أولا : وزارة التنفيذ :

وظهرت واضحة في العصر العباسي الأول ، ويطلق عليها الوزارة المقيدة ، وينفذ الوزير فيها ما يأمره به الحاكم فقط ، ويرجع لرئيس الدولة في كل صغيرة وكبيرة ، فهو منفذ وليس مفوضا . ولم يكن الوزير هنا إلا وسيطا بين الخليفة ورعيته[3] ومن أشهر وزراء التنفيذ ، خالد البرمكي وأبو أيوب المورياني ، ويحيى البرمكي .

---

١ ـ الماوردي ، قوانين الوزارة . تحقيق فؤاد عبدالمنعم ومحمد سليمان ، مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩١م ص٢٥ـ٣٠ .

٢ ـ الماوردي ، المرجع السابق ص٣٠ .

٣ ـ ابن طبابا ، المرجع السابق ص١٠١ .

ثانيا : وزارة التفويض :

ويطلق عليها أيضا الوزارة المطلقة ، ويكون فيها اختصاص الوزير شاملا لكل أمور الدولة التي فوضه بها رئيس الدولة بالتصرف والتنفيذ ، دون الرجوع للخليفة . وبرز هذا النوع من أنواع الوزارة في العصر العباسي الثاني بسبب ضعف الخلفاء وسيطرة الوزراء على كبار المهام في الدولة . ولم يبق للخليفة بعد ذلك إلا ولاية العهد وسلطة عزل من يوليهم الوزير[1] . ومن أشهر وزراء التفويض ، محمد بن رائق زمن الخليفة الراضي (٢٢٢ ـ ٣٢٩هـ) ، الذي لقب نفسه «بأمير الأمراء» وعلي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر .

وقد جعل الماوردي[2] ، أربعة فروق بين وزير التفويض ووزير التنفيذ :

١ ـ يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك من صلاحيات وزير التنفيذ .

٢ ـ يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتقليد الولاة وليس ذلك من صلاحيات وزير التنفيذ .

٣ ـ يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٤ ـ يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ[3] .

ويلاحظ على الوزارة زمن الدولة العباسية ما يلي :

١ ـ أن معظم الوزراء من الفرس .

---

١ ـ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم ، النظم الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ص , ١٢١

٢ ـ الماوردي ، المرجع السابق ص٢٦ و٢٧ .

٣ ـ الماوردي ، الأحكام السلطانية ص٢٧ .

٢ ـ هناك أسر فارسية معينة هي التي احتكرت منصب الوزارة لفترات طويلة مثل البرامكة وآل خاقان وآل فرات .

٣ ـ أعمال الوزارة في الدولة العربية الإسلامية سبقت العباسيين ، لكن بنو العباس هم أول من قرر قوانين الوزارة ، وجعلوها رسمية .

٤ ـ كان هناك صراع خفي وآخر علني بين الخلفاء والوزراء ، فإذا كان الخليفة قويا ومسيطرا على أمور الحكم فإن سلطة الوزير تقتصر على التنفيذ فقط . أما إذا دبّ الضعف في الخلافة فإن سلطة الوزير تزداد ، ويتحول من منفذ لأوامر الخليفة إلى متصرف ومنفذ دون الرجوع إلى الخليفة .

٥ ـ بعض الوزراء عملوا على تشديد قبضتهم على الدولة ، حتى أن بعضهم اتخذ ألقابا جديدة مثل «أمير الأمراء» ، و«السلطان» ـ زمن السلاجقة الأتراك ـ و«رئيس الرؤساء» . وهؤلاء فرضوا سيطرتهم على الدولة وعلى الخلافة أيضا ، حتى أن بعض الخلفاء كان أداة بيد الوزير يسيره كما يشاء . وبذلك تحول الوزير من مساعد للخليفة إلى مسيطر على الخلافة .

وأخيرا لا بد من ذكر آخر وزراء الدولة العباسية ، وهو الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، الذي اتهم في آخر أيامه بأنه هو الذي نصح الخليفة العباسي المستعصم بتسليم بغداد لهولاكو التتري سنة ٦٥٦هـ . وبذلك انتهى عصر القوة والمجد بكل من المؤسستين القياديتين في الدولة العربية الإسلامية وهما : الخلافة والوزارة[1] .

الوزارة زمن البويهيين (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ) :

دخل أحمد بن بويه مدينة بغداد ، وأسند إليه الخليفة المستكفي منصب «أمير الأمراء» ولقبه بلقب «معز الدولة» . وبلغت الدولة البويهية أوج عظمتها

---

١ ـ العدوي والسهيل ، المرجع السابق ص١١٥ .

في عهد عضد الدولة[1] . واسترد منصب الوزارة مكانته في زمن البويهيين ، بسبب حسن اختيارهم وزراءهم ممن أوتوا مكانة علمية ومقدرة إدارية . ومن أشهرهم ابن العميد والصاحب إسماعيل بن عباد اللذان حرصا على إقرار العدالة وإدارة أمور الدولة باقتدار[2] .

الوزارة زمن السلاجقة (٤٤٧ ـ ٥٥١هـ) :

استمرت سيطرة الوزراء على الدولة في العصر السلجوقي . وقد لمع في هذا العصر الوزير المشهور «نظام الملك» ، الذي ألف كتاب «سياسة نامة» ، وهو الذي أدخل نظام المدارس في الحضارة العربية الإسلامية ، وابن هبيرة الذي دبر أمور الدولة وأحكم السيطرة عليها .

الوزارة عند الفاطميين (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ) :

عرفت الدولة الفاطمية نظام الوزارة ، وطبقته عمليا بعد دخولهم مصر . وقسم الفقهاء الوزارة زمن الفاطميين إلى قسمين :

١ ـ **وزارة السيف** : وتعني السلطة العسكرية . ويقابلها في الوقت الحاضر وزارتا الدفاع والداخلية .

٢ ـ **وزارة القلم** : وتعني السلطة المدنية للوزير . ومن الوزراء الفاطميين من تولى المنصبين ، فعرف باسم «ذي الرياستين» ، أي السيف والقلم معا ، كناية عن تقلد الوزير السلطات العسكرية والإدارية معا . وأشهر من تقلد الوزارة في بداية عهد الفاطميين ، يعقوب بن كلس ، وعُسلوج بن الحسن . وكان نفوذ الوزراء الفاطميين أشبه بنفوذ وزراء التنفيذ نتيجة لقوة نفوذ الخلفاء في بداية ظهور الدولة الفاطمية ، التي سرعان ما فقد خلفاؤها قوتهم وسيطرتهم على الدولة ، مما أدى إلى ظهور «الوزراء العظام» ، وتحولت

---

١ ـ عصام الفقي ، معالم التاريخ الإسلامي ، دار الفكر العربي ص٢٢٩ .

٢ ـ محمود إسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص٦٧ .

الوزارة إلى وزارة تفويض ، حيث سيطر الوزراء على الدولة الفاطمية ، وظهر ذلك واضحا زمن الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ) ، حيث تم تعيين بدر الجمالي ، ومن بعده ابنه الأفضل ، الذي تمتع بالسلطة المطلقة[١] .

الوزارة في الأندلس (١٣٨ ـ ٨٩٧ هـ) :

لم يكن لفظ الوزارة بالأندلس شائعا كما هو الحال في الدولة العباسية ، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة ، واسم الوزير أو ذو الوزارتين تارة أخرى . ولهذا يلاحظ أن الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس ، لم يُقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ، وإنما قصد به من يتولى الوزارة بمعناها المعروف[٢] . كما أورد ابن خلدون[٣] أن الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزراء . و«الحاجب» الذي أصبح يطلق عليه بعد ذلك «رئيس الوزراء» وهو الذي ارتبط عمله بالسلطان ، عين مجموعة من الوزراء أنيطوا بمهام محدودة هي مهام «الكُتاب» في الشرق الإسلامي . فعين وزيرا للمالية ، ووزيرا للبريد ، ووزيرا للرسائل ، ووزيرا لأحوال الثغور . . . وهكذا .

ولما ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ، ازداد نفوذ الحاجب وسيطر على كافة أمور الدولة . وأطلق على نفسه لقب «الأمير» ، ولقب «ذي الوزارتين» لمن ينوب عنه . وقد تقلد اليهود منصب الوزارة في الأندلس ومن أشهرهم يوسف ابن نغرالة في غرناطة[٤] .

خلاصة القول ، أن الدولة العربية الإسلامية ، كانت تطبق الوزارة من

---

١ ـ حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ص١٣٤ و١٣٥ .
٢ ـ حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ص٢٠٨ .
٣ ـ ابن خلدون ، المرجع السابق ص ٢٠٨ .
٤ ـ محمود إسماعيل ، المرجع السابق ص٦٩ .

الناحية العملية منذ عهد الرسول ﷺ ، ولكنها لم تأخذ الصفة الرسمية إلا زمن الدولة العباسية . وكان الصراع على أشده بين الخلفاء من جهة والوزراء من جهة ثانية . فإذا كانت الخلافة قوية ومسيطرة على الأمور نجد الوزارة منفذة فقط . أما إذا دب الضعف في الخلافة ، فإن الوزارة تفرض سيطرتها على الأمور في الدولة العربية الإسلامية . ولكن يجب معرفة أن كلا من «الخلافة» و«الوزارة» ساهمتا في بناء الحضارة العربية الإسلامية .

ثالثا : الامارة على البلدان :

وضع الرسول ﷺ نواة النظام الإداري في الدولة العربية الإسلامية ، وذلك في السنة التاسعة للهجرة وتحديدا في «عام الوفود» ، وهو العام الذي وفدت فيه الكثير من الوفود التي كانت تمثل جميع أرجاء الجزيرة العربية . واقتضى الأمر تقسيم تلك البلاد إلى وحدات كبرى يسهل تنظيم شئون أهلها ، وربطها مباشرة مع العاصمة الجديدة للدولة العربية الإسلامية في «المدينة المنورة» التي ضمت مكة المكرمة وتيماء ، والجند ، وبني كندة ، ونجران ، واليمن (صنعاء) ، وحضرموت ، وعمان ، والبحرين . وجرت عادة الرسول ﷺ أن يختار من بين الوافدين أصلحهم لتولي شئون «الامارة» التي ينتمي إليها الوفد[1] . ووضع الرسول ﷺ شروطا يختار على أساسها من يتولى شئون هذه الامارات ، من أهمها ، الشجاعة والعلم والعدل . ومن أشهر من عينهم الرسول ﷺ على الامارات ، عتاب بن أسيد على مكة ، والمهاجر بن أمية على صنعاء ، وزياد بن لبيد الأنصاري على حضرموت ، وعدي بن حاتم على طيء وبني أسد ، والعلاء بن الحضرمي على البحرين . وسمح لهم الرسول ﷺ بالإمامة في الصلاة ، والقضاء ، وجباية الصدقات والزكاة[2] .

---

١ ـ العدوي والسهيل ، المرجع السابق ص١١٦ .

٢ ـ ابن هشام ، السيرة . تحقيق السقا ، جـ٢ ص٥٠٠ .

وكـان يطلق على من تقلد الامارة لقب «العـامل» ، وهذا يدل على أن صاحبه لم يكن مطلق التصرف في شئون الولاية ، وأن عمله كان تنفيذا لأوامر الرسول ﷺ ، التي حددها بالناحية الدينية فقط ، وبمرور الزمن تطور لقب العامل إلى «الوالي» ثم إلى «الأمير» . أي أن بساطة طبيعة عمل «العامل» تطورت وأصبحت له سلطات واسعة شملت الأمور الدنيوية والدينية معا . وأصبح صاحب الولاية أكثر سلطانا . حتى أن بعض الولاة والأمراء لم يقنع بهذه الألقاب واتخذ لقب «الملك» ، كما فعل الملوك الأيوبيون في مصر وسوريا ، وبالغ بعضهم فأطلق على نفسه «ملك الملوك» . ولم يكتف حكام آخرون بلقب «ملك» أو «ملك الملوك» بل أخذوا لقبا أوسع سلطانا ونفوذا وهو لقب «سلطان»[1] ، ووضع تحت نفوذه مجموعة من الملوك ، مثل سلاطين السلاجقة .

الامارة في عهد الخلفاء الراشدين :

عندما تقلد أبو بكر الصديق الخلافة ، أقر عمال الرسول ﷺ في أعمالهم . وقسم الدولة العربية الإسلامية إلى ولايات حتى تسهل عملية إدارتها ، وعين على كل ولاية «واليا» يرتبط بالعاصمة مباشرة ، وهي مكة ، والطائف ، وصنعاء ، وحضرموت ، ونجران ، وجرش ، والبحرين[2] . وكانت مهمة الولاة إقامة الصلاة ، والفصل في الخصومات ، وجمع الزكاة والصدقات ، وإقامة الحدود . فهو والٍ وقاضٍ .

أما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد حدثت الكثير من التطورات على النظام الإداري في الدولة العربية الإسلامية ، بسبب اتساع الدولة وضمها

---

١ - أحمد شلبي ، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية جـ٣ السياسة والاقتصاد ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ص١٣٧ .

٢ - حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ص١٥٤ ومحمد الشاعر ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٤٤ .

الكثير من البلدان والأقاليم المجاورة مثل العراق وفارس وخراسان والشام وفلسطين ومصر وسجستان ومكران وطبرستان .

وقسمت الدولة زمن الخليفة عمر بن الخطاب إلى عدة ولايات أهمها ، مكة ، الطائف ، صنعاء ، الأهواز ، والبحرين ، وسجستان وكرمان ، (قسمت بلاد الشام) إلى : حمص ، دمشق ، وفلسطين . و(قسمت أفريقيا) إلى : مصر العليا ، مصر السفلى ، وغرب مصر[١] .

وكان الولاة في عهد عمر بن الخطاب من العرب لمقدرتهم على فهم أصول الشريعة وتعاليمها ، وكان عليهم أن يقيموا بالناس الصلاة ، ويقضوا بينهم بالحق ، ويجمعوا الزكاة ، والجزية والخراج[٢] .

وكان عمر يحاسب عماله (ولاته) واشتهر بأنه كان يسأل الرعية إذا وفدت عليه في موسم الحج عن الولاة ، وكانت العقوبة تصل إلى العزل . كذلك كان يحصي ثروة «العامل» قبل تقلده منصبه ، ويصادر ما استجد عليها إبان ولايتهم إذا عجز «العامل» عن إثبات مصدر هذه الأموال .

أما عهد الخليفة عثمان بن عفان ، فقد سار على نهج عمر وأضاف ولاية أذربيجان . لكنه اعتمد على أفراد البيت الأموي . وقد ضعفت الإدارة في النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته ، بسبب تغطرس الكثير من ولاة عثمان ، مما أدى إلى تذمر المسلمين في الكثير من الولايات . ونتج عن ذلك اغتيال الخليفة عثمان بن عفان . ولما تولى الخلافة علي بن أبي طالب ، رأى من واجبه أن يسرع بعزل الولاة الأمويين ، ولم يقبل نصيحة من نصحوه بتأجيل ذلك حتى يستقر له الأمر ، لكن عليا ولى بعض أقاربه بدلا عن ولاة بني أمية . مثل عبدالله بن العباس على البصرة ، وعبيدالله بن العباس على صنعاء ،

---

١ ـ حكمت فريحات ، مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص٧٧ .

٢ ـ صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٦م ص٣٠٨ .

وثمامة بن العباس على المدينة . لكنه راقب ولاته مراقبة شديدة مهما كانت صلة قرابتهم منه[1] . ولم يقبل معاوية بن أبي سفيان والي الشام ـ زمن عثمان ـ أن يُعزل ، وقد كان ذلك سببا رئيسا من أسباب الصراع المرير بين علي ومعاوية الذي انتهى بمصرع علي وتقلد معاوية زمام الحكم في الدولة العربية الإسلامية .

الولاية في العهد الأموي :

اتسعت الدولة الإسلامية زمن الأمويين لذلك تم تقسيم الدولة إلى عدد من الولايات الكبرى :

الولاية الأولى ، الحجاز واليمن وما بينهما من بلاد .

الولاية الثانية ، مصر العليا ومصر السفلى (بلاد النوبة) .

الولاية الثالثة ، فارس وكرمان وسجستان وكابل وخراسان وبلاد ما وراء النهر والسند وعُمان والبحرين والعراق وكان الوالي يقيم في الكوفة ويبعث عماله على هذه البلدان .

الولاية الرابعة ، بلاد الجزيرة (ما بين دجلة والفرات من أراضي العراق) ويتبعها أرمينية وأذربيجان .

الولاية الخامسة ، افريقية وتشمل سائر بلاد المغرب حتى المحيط الأطلنطي ، وجزر البحر الأبيض المتوسط والأندلس . ولم تكن هذه الولاية ثابتة الحدود .

وأشهر من تقلد الولايات الأموية ، زياد بن أبيه (البصرة) ، والحجاج بن يوسف الثقفي (العراق) ، وعثمان بن حبارة (الحجاز) ، وغيرهم أمثال محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير ، وقرة بن شريك وعبدالعزيز بن مروان (مصر) . وكان أساس التعيين هو الولاء ، وتمتع الولاة خلال عهد الأمويين

---

١ ـ أحمد شلبي ،المرجع السابق ص١٤٣ و١٤٥ .

بسلطات واسعة . حتى أن معظمهم ملأ الولايات جورا . كما يقول السيوطي[1] : «قال عمر بن عبدالعزيز ـ وكان الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وعثمان بن حبارة بالحجاز ، وقرة بن رشيك بمصر ـ : امتلأت الأرض ، والله جورا» .

الولاية في العهد العباسي :

تقلصت أعداد الولايات ـ التي كانت زمن الأمويين ـ بسبب استقلال بعضها مثل الأندلس وشمال افريقيا . كذلك بغداد التي أصبحت مقرا للخلافة زمن العباسيين مع تحويل دمشق إلى ولاية ، بعد أن كانت مقر الخلافة زمن الأمويين . ويلاحظ أيضا أن العباسيين نهجوا نهج الأمويين في تعيين الولاة ، فاشترطوا الولاء أولا . وكانت سلطة الولاة (الأمراء) محدودة في بداية عهد الدولة العباسية بسبب قوة الخلفاء . وكان خلفاء هذا العهد يحاسبون الولاة بدقة وحزم ويصادرون ما يرونه زيادة غير عادية من ثرواتهم[2] . وابتداء من عهد هارون الرشيد أخذت سلطة الولاة في ازدياد حتى أن بعضهم استبد بالسلطة واستقل عن الدولة العباسية في نهاية الأمر . مثل الأغالبة والأدارسة والدولة الرسمية والمدرارية بشمال افريقية ، والدولة الأموية بالأندلس والطولونيين والأخشيديين بمصر وظهر نظام جديد لولاة الدولة العباسية ، حيث يقيم الوالي ببغداد ـ مقر الخلافة ـ ويرسل من ينوب عنه للولاية ، لذلك استبد الظلم وعاد الأمر كما كان زمن ولاة بني أمية . وفي العصر العباسي استقلت عدة ولايات عن السلطة الحاكمة ببغداد . لذلك ميز الفقهاء ومن بينهم «الماوردي» بين نوعين من الامارة :

النوع الأول : الامارة الخاصة ، وتحددت صلاحيات «الوالي» أو «الأمير»

---

١ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص٢٢٣ .

٢ ـ أحمد شلبي ، المرجع السابق ص١٤٧ .

في إعداد الجيوش وحماية الولاية وسياسة الرعية ، ويعين مع الوالي من يتولى جمع الزكاة والصدقات . وفي حال وجود قاض فإنه يكون أولى من «الوالي» بالإمامة في الصلاة .

النوع الثاني : الامارة العامة ، وهي نوعان :

١ ـ **إمارة الاستيلاء** : وهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد قلده الخليفة إمارتها ، وفوض إليه تدبيرها وسياستها . أي أنها إمارة عن اضطرار ، وهي التي يأخذها الأمير ، «الوالي» ويقرها الخليفة ، وفيها يكون «الأمير» مستقلا بالأمور السياسية والإدارية ، ولكن المسائل المتعلقة بالدين تكون من اختصاص الخليفة ، ويجب على «الأمير» أن يحرس الأحكام الدينية والقوانين الشرعية ، ويبقى «الأمير» هنا مرتبطا بالعالم الإسلامي حتى يضفي الشرعية على سلطانه .

٢ ـ **إمارة الاستكفاء** : وتسمى أيضا إمارة التفويض أو التعيين ، ويتم التعيين وتقليد «الأمير» بعقد عن اختيار للخليفة وليست بعقد عن اضطرار . وإمارة الاستكفاء أو الاختيار تشمل سبعة مهام ، أوردها الماوردي[١] ، فيما يلي :

١ ـ تدبير الجيوش ، وترتيبهم في النواحي ، وتقدير أرزاقهم .

٢ ـ النظر في الأحكام ، وتقليد القضاة والحكام .

٣ ـ جباية الخراج ، وقبض الزكاة والخراج والصدقات وتوزيعها .

٤ ـ حماية الدين ، والدفع عن الحريم .

٥ ـ إقامة الحدود في حق الله .

٦ ـ الإمامة في الجمع والجماعات .

٧ ـ تسيير الحجيج .

---

١ ـ الماوردي ، الأحكام السلطانية ص٢٨ ومايليها .

فإن كان الإقليم أو الولاية ثغرا متاخما للعدو اقترن بها عمل ثامن ، وهو الجهاد وتقسيم الغنائم .

ويلاحظ على نظام الإمارة على البلدان والولايات ما يلي :

أ - بدأ هذا النظام زمن الرسول ﷺ ، واستمر بعد ذلك في الدولة العربية الإسلامية للحاجة إليه بسبب اتساع الدولة العربية الإسلامية .

ب - اختلفت الشروط الواجب توافرها في شخص «الأمير» أو «الوالي» من زمن لآخر .

جـ - أثر النظام السياسي على النظام الإداري في تقسيم الولايات والأقاليم .

د - اختلفت سلطة «الولاة» من عصر لآخر في الدولة العربية الإسلامية .

هـ - اختلفت صور الرقابة المالية والإدارية على الولاة في الأقاليم والولايات الإسلامية . من رقابة صارمة زمن الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب والعصر العباسي الأول إلى سلطة مطلقة بدون رقابة كما حدث زمن الأمويين وخلال العصر العباسي الثاني .

و - استبد بعض «الأمراء» بالولايات والأقاليم الإسلامية واستقلوا عن السلطة المركزية مما نتج عنه ما يسمى بـ«إمارة الاستيلاء» .

ز - تطور لقب من تقلد السلطة في الأقليم أو الإمارة من «العامل» إلى «الوالي» و«الأمير» و«الملك» و«ملك الملوك» وأخيرا «السلطان» .

النظام الإداري في الحضارة العربية الإسلامية

الكُتّاب والدواوين :

وضع الرسول ﷺ نواة عمل «الكُتّاب» في الدولة العربية الإسلامية بعد أن احتاج إلى من يتولى تدوين ما يوحى إليه ، وكذلك إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء في الجزيرة العربية وخارجها ليدعوهم إلى الإسلام . وأقدم من اشتغلوا كتابا للرسول الكريم ، علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وزيد بن ثابت[1] .

وسار الخليفة أبو بكر الصديق على نهج الرسول ﷺ ، وكان يكتب له عثمان بن عفان وزيد بن حارثة[2] .

وتجدر الإشارة إلى أن عهد الرسول الكريم لم تظهر به الدواوين ، لأنه كان بداية تأسيس الدولة العربية الإسلامية ، ولم تكن هناك وفرة مالية تحتاج إلى بيت للمال أو ديوان للجند لأن الجيش زمن الرسول ﷺ كان بسيطا وغير ثابت . وكذلك استمر الحال زمن الخليفة أبي بكر الصديق .

الكتابة والدواوين في عهد عمر بن الخطاب :

اتسعت الدولة العربية الإسلامية في نهاية عهد الخليفة أبي بكر الصديق وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وضمت الكثير من الأقاليم الجديدة مثل ، فارس والعراق والشام ومصر ، وجدت معطيات استدعت إيجاد حلول عاجلة . لأن الدولة أصبح لها جيش ثابت لأول مرة ـ لأنه في السابق كانت الدعوة للجهاد حتى إذا انتهى الجهاد عادوا إلى أعمالهم السابقة ـ كما أصبح للدولة

---

١ ـ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار بيروت للطباعة والنشر جـ ٢ ص٨٠ .
٢ ـ الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب ، ص١٥ .

موظفون ، يقومون بأعمال ثابتة ويأخذون عليها أجورا[1] . وأصبح هناك خراج وهو إيراد ثابت يرد إلى الدولة التي تقوم بعملية صرفه وتوزيعه ، وكذلك احتاجت قيادة الدولة لإرسال الكتب إلى الأقاليم الجديدة . . هذه المعطيات التي فرضت وجودها مع الحاجة إليها ، أدت إلى بناء نظام إداري في الدولة العربية الإسلامية يؤدي أعماله على أكمل وجه مستفيدا من النظم الفارسية والبيزنطية التي هذبتها الدولة العربية الإسلامية بما أضافته إليها من قيم ومبادئ إسلامية أدت إلى إقرار المساواة والعدالة الإسلامية . إذ سنّ الخليفة عمر بن الخطاب تشريعات ونظم ناجحة تمكن بفضلها من إدارة هذه الدولة المترامية الأطراف .

وعلى الرغم من أن عمل الدواوين من الناحية الفعلية كان موجودا زمن الرسول ﷺ ، إلا أن الدواوين بصفة رسمية لم تعرف إلا في عهد عمر بن الخطاب ، الذي قال عبارته المشهورة «دونوا الدواوين»[2] لتنظيم أمور المال وتسجيل أسماء الجند وتقدير أعطياتهم .

وكلمة «ديوان» ، فارسية الأصل ، كانت تعني السجل أو الدفتر الذي يكتب فيه ما يختص بشئون الإدارة ، ثم أصبحت تدل على المكان الذي يعمل فيه الكُتاب (جمع كاتب)[3] .

أقر عمر «نظام الدواوين» سنة ٢٠هـ ، واستخدم الكُتاب في الدواوين . وقد أنشأ ديواني «الجند» و«الخراج» :

ديوان الجند : يطلق عليه «ديوان الجند» أو «الديوان» فقط لشهرته بسبب أنه كان أكبر الدواوين وأولها تأسيسا في الدولة العربية الإسلامية ، وفيه تم

١ ـ أحمد شلبي ، المرجع السابق ص١٥٥ .
٢ ـ الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا والابياري وعبدالحفيظ شلبي ، مكتبة الحلبي وشركاه بمصر الطبعة الثانية ١٩٨٠م ص١٧ .
٣ ـ عبدالمنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٣٥ .

تسجيل أسماء المحاربين ـ الجند ـ وأسرهم حسب قبائلهم ، كما حدد رواتبهم ، التي كانت تصرف شهريا أو سنويا .

ديوان الخراج أو الجباية : لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء[1] . أي تُسجل في هذا الديوان الأموال الواردة من الزكاة والجزية والفيء والغنائم والخراج وغيرها من الموارد المالية لبيت مال المسلمين . مع تقدير اعطيات كل مسلم كما حددها الخليفة عمر بن الخطاب . فسجل بني هاشم حسب أقدمية إسلامهم ، وقرابتهم من الرسول الكريم ، كما سجل الأنصار مبتدئا بسعد بن معاذ وأقاربه من الأوس . . وهكذا . وأبقى عمر بن الخطاب على دواوين الخراج في فارس والعراق والشام ومصر . وظلت هذه الدواوين تستعمل لغاتها المحلية كالفهلوية الفارسية في فارس والعراق ، والرومية في بلاد الشام ، والقبطية في مصر ، واستمرت كذلك إلى خلافة عبدالملك بن مروان ، فنقل ديوان الشام إلى اللغة العربية[2] . ثم أتم ابنه الولد تعريب الدواوين الأخرى في الأقاليم الإسلامية .

ويلاحظ أن هذا الديوان اعتمد على «الإدارة اللامركزية» حيث كانت هناك العديد من الفروع في مختلف الأقاليم الإسلامية التي تم ربطها بالديوان الرئيس بمقر الخلافة . ولأهمية هذا الديوان كان صاحبه يُعين من قبل الخليفة مباشرة .

الدواوين زمن الأمويين والعباسيين :

تطورت النظم الإدارية والدواوين في العصر الأموي ، بسبب اتساع الدولة العربية الإسلامية ، وتطور الفكر الإداري بها ، واستخدمت دواوين جديدة تواكب هذا التطور . كما تأثر العباسيون بالنظم الإدارية الفارسية ، واستجدت

---

١ ـ الماوردي ، المصدر السابق ص١٧٥ ـ ١٧٧ .

٢ ـ الماوردي ، المصدر السابق ص٢٠٢ والشاعر ، المرجع نفسه ص٤٧ .

مستجدات كثيرة في الجهاز الإداري للدولة العربية الإسلامية زمن بني العباس ، لذلك استحدثت دواوين أخرى إلى جانب الدواوين التي عُرفت زمن الخلفاء الراشدين والأمويين .

ونستعرض أهم الدواوين التي ظهرت زمن الأمويين والعباسيين ، وما صاحبها من تطوير إداري :

ديوان الخاتم : أنشأه معاوية بن أبي سفيان ، ويرجع سبب إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية كتب لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم ليصرفها له «زياد» عامله على العراق ، فغير عمرو الكتاب وجعلها مائتي ألف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية : ما كتبت له إلا بمائة ألف درهم ، وكتب إلى زياد بذلك ، وأمره أن يأخذ المائة ألف درهم من عمرو[١] . ويتضح من ذلك الهدف من وراء إنشاء هذا الديوان وهو ضبط التزوير والتحريف والتزييف الذي قد يقع على الأوامر الصادرة عن الخليفة . ومهمة هذا الديوان تحزيم الكتب والرسائل بخيط وتُشمع بعد ذلك وتختم بخاتم صاحب هذا الديوان ، مع حفظ نسخة من هذه الكتب والرسائل والأوامر في الديوان للعودة إليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

أما في الدولة العباسية فقد كان يختم على الرسائل بخاتم السلطان ، وكان هذا الختم يُغمس في طين أحمر مذاب بالماء - يسمى طين الختم - ويطبع به على طرف السجل بعد طيه . واستمر هذا الديوان إلى أواسط الدولة العباسية ، حيث ألغي وتحولت أعماله إلى الوزراء .

ديوان الرسائل : نعرف أن الرسول ﷺ والخلفاء بعده ، تبادلوا الرسائل مع ملوك الممالك المجاورة ، ومع عمالهم وموظفيهم ، كما تبادل الولاة الرسائل مع

---

١ - الجهشياري ، المصدر السابق ص٢٤ .

بعضهم . وقد أحكم نظام التراسل في عهد الأمويين ، وأصبح له ديوان خاص في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان[1] . وأسماه القلقشندي «ديوان الإنشاء» . ويتولى هذا الديوان المكاتبات في الدولة ، ولا سيما إصدار النشرات والرسائل من الخليفة إلى جميع الجهات ، سواء إلى الدول المجاورة أو إلى الولاة في الأقاليم الإسلامية . وأشرف هذا الديوان فيما بعد على التنسيق بين مكاتبات الدواوين الأخرى ، وتنظيم النشرات والرسائل الخاصة بها أيضا[2] . وتطور العمل بهذا الديوان ، فتعددت اختصاصاته ، وكثر من يعملون فيه . فقد وجد فيه كتاب رئيسون يقومون بالكتابة والإنشاء ، وآخرون مساعدون يقومون بالتلخيص والتبييض . وأصبح لهذا الديوان منذ زمن مبكر «أرشيف» توضع فيه أصول كل ما يصدر عنه ، وله مشرف خاص اسمه «الخازن» . فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في ملفات تسمى «أضابير» ، توضع عليها بطائق تدل على محتوياتها ، ليسهل استخراجها[3] . واستمد هذا الديوان تقاليده من الأسس التي وضعها الكُتاب الذين تولوا تحرير الرسائل زمن الرسول ﷺ وعلى عهد الخلفاء الراشدين كذلك . وكانت صيغة الرسائل في العصر الأموي بليغة وقصيرة ، ومباشرة[4] . وكذلك كان الحال زمن العصر العباسي . ونظم هذا الديوان صيغ الرسائل سواء الصادرة عن الخلافة أو المتداولة بين ولاة الأقاليم . كما حدد المؤهلات الواجب توافرها في العاملين في الدولة . مثل إجادة القراءة والكتابة والخط ومعرفة الشعر ـ للكُتاب ـ والتمكن من اللغة العربية ، لأن ذلك يثري كتابة الرسائل والنشرات الرسمية . وكان الكثير من الكُتاب يعرف لغات أجنبية مثل الفارسية والتركية واليونانية . وقد ذكر القلقشندي في كتابه «صبح

١ ـ عبدالمنعم ماجد ، المرجع السابق ص٣٦ .
٢ ـ العدوي ، المرجع السابق ص١٢٧ .
٣ ـ عبدالمنعم ماجد ، المرجع السابق ص٣٦ و٣٧ .
٤ ـ العدوي ، المرجع السابق ص١٢٧ .

الأعشى» تفصيلات كثيرة عن آداب صاحب ديوان الرسائل واختصاصاته . ومن أشهر من تقلد هذا الديوان زمن الدولة الأموية عبدالحميد الكاتب زمن مروان بن محمد ، وسرجون النصراني زمن معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم . أما زمن الدولة العباسية فقد برز في هذا المجال خالد بن برمك[1] ، زمن أبي العباس السفاح ، ويحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد .

ديوان البريد : نشأ هذا الديوان على عهد معاوية بن أبي سفيان وفق الأصول الفارسية والبيزنطية ، ليكون أداة ربط بين مؤسسات النظام اللامركزي وعمالها في سائر أرجاء الدولة العربية الإسلامية[2] . فهو يقوم بربط الخلافة بالأقاليم الإسلامية وربط الأقاليم الإسلامية بعضها البعض إضافة إلى أنه يقوم بنقل وتوصيل الرسائل والكتب الرسمية إلى ملوك الدول المجاورة . ومعروف أن هذا الديوان يؤدي أعمالا حكومية فقط ولا يقوم بنقل وتوصيل الرسائل الخاصة . ويؤدي صاحب هذا الديوان أعمالا أخرى من أهمها تقديم التقارير الدورية عن أحوال الولايات والأقاليم الإسلامية حتى يطلع عليها الخليفة . وهذا العمل شبيه بالأعمال التي يقوم بها رجال المخابرات في الوقت المعاصر . لذلك فإن صاحب هذا الديوان يعين مباشرة من الخليفة ويشترط فيه الولاء التام ، إضافة إلى معرفة المسالك والممالك الإسلامية والمجاورة حتى يستطيع توصيل البريد بالسرعة المطلوبة . وكان لصاحب هذا الديوان «عيون» (مساعدون) يوافونه بكل جديد عن أحوال الأقاليم والولايات الإسلامية سواء أحوالها السياسية والاقتصادية وغيرها .

وينسب البعض أصل كلمة «بريد» إلى البيزنطيين ، ففي عهد قسطنطين الأكبر كان لصاحب البريد أعوان يسمونه باسم Veredarii (وهم نقلة الأخبار

---

١ ـ الجهشياري ، المصدر السابق ص٨٩ .

٢ ـ إبراهيم العدوي ، النظم الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ص١٢٧ .

الذين يركبون الخيل) ، وكانوا يمدونه بالأخبار[1] . ورجح البعض أن كلمة «بريد» فارسية معربة وأصلها الفارسي «بريده دم» ومعناها (المقصوص الذنب) ، لأن الفرس كانوا يستخدمون في نقل البريد «دواب مقصوصة الذنب» تميزا لها عن غيرها من الدواب . وقال البعض أن كلمة «بريد» عربية الأصل مشتقة من «برد» بمعنى «أرسل»[2] .

وكان للبريد في الدولة العربية الإسلامية وسائل متعددة لنقل البريد ، منها : الدواب وبخاصة الخيل والجمال ، فكان يقام له على الطرق أماكن ومحطات ، (عبارة عن قبة أو بيت توضع فيه الدواب) ، لاستعمالها في نقل البريد . ويستبدل عمال البريد بدوابهم دوابا مستريحة في كل محطة . وبلغ عدد الطرق في الدولة العباسية ٩٣٠ طريقا . وكذلك استعان المسلمون بالحمام الزاجل (حمام الرسائل) ، فكان أشبه ببريد الجو . واستخدموه بكثرة أثناء الحروب حيث نقلوا الأخبار بالشفرة[3] .

ديوان الطراز : استحدث هذا الديوان في العهد الأموي ، وأول إشارة له ذكرها الجهشياري[4] «وكان جُنادة بن أبي خالد يكتب لهشام على الطراز ، واسمه موجود على الثياب الهاشمية» . ومعروف أن هذا الديوان كان موجودا عند الفرس والروم ، إلا أن المسلمين لم يستخدموا الصور التي كانت تزين ملابسهم لتحريمها في الإسلام فاستعاضوا عنها بعبارات الفأل والدعاء والآيات القرآنية ، وكتابة الشهادتين ، وكذلك أسماءهم . ويقول ابن خلدون : «من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المُعدة للباسهم من الحرير أو الديباج . . بخيوط الذهب أو الخيوط

---

١ ـ J.Burkhardt: Die Zeit Constantins des Grossen 23 Aus.s.

٢ ـ العدوي ، الحضارة العربية الإسلامية ص١٢٩ .

٣ ـ عبدالمنعم ماجد ، المرجع السابق ص٣٩ .

٤ ـ الجهشياري ، المصدر السابق ص٦٠ .

الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ، ووضعه في صناعة نسيجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصد التنويه لمرتديها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ، وكان ملوك العجم قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم أو أشكال وصور معينة»[1] .

أي أن مهمة هذا الديوان ، الإشراف على مصانع انتاج الألبسة الرسمية والرايات ، وكان صاحب هذا الديوان يسمى «صاحب الطراز» ، وكان ينظر في أمور الصياغ والحاكة ، ويشرف على أعمالهم .

إضافة لهذه الدواوين ، ظهرت دواوين أخرى ساهمت في تسهيل إدارة الدولة العربية الإسلامية من أهمها «ديوان الصدقات» (للنظر في أمور الصدقات والزكاة ، وتوزيعها) . و«ديوان النفقات» (للصرف على الجيوش وتوفير الأموال لنفقات الجهاز الإداري» . و«ديوان المستغلات» (لإدارة ممتلكات الدولة) . . . الخ .

تعريب الدواوين : في عهد عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) تم الغاء العملات الأجنبية ، وتعريب الدواوين (جعل لغتها عربية) ، حيث كانت لغة الدواوين في فارس والعراق «الفارسية» ، وفي الشام «الرومية» ، وفي مصر «القبطية واليونانية» . أي أن الدواوين التي وجدت في البلاد المفتوحة والتي استخدمت لغاتها ، أبقاها خلفاء الدولة العربية الإسلامية على حالها ، وهي المختصة بالجباية وحساباتها . فظلت حتى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر بتعريب الدواوين . حيث يذكر الجهشياري : «وكان ينقل ديوان الشام

---

١ ـ ابن خلدون ، المقدمة ص٢٦٦ و٢٦٧ .

بالرومية ، لعبدالملك ولمن تقدمه ، سرجون بن منصور النصراني ، فأمره عبدالملك يوما بشيء ، فتثاقل عنه ، وتوانى فيه ، فعاد لطلبه ، وحثه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبدالملك لأبي ثابت ، سليمان بن سعد الخشني - وكان يتقلد له ديوان الرسائل - أما ترى إدلال سرجون علينا؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا إليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة؟ قال : لو شئت لحولت الحساب إلى العربية ، قال : فافعل ، فحوله»[١] وكان ذلك سنة ٨١هـ[٢] .

وفي عهد ولاية الحجاج بن يوسف للعراق ، تم تعريب ديوان الخراج . أما دواوين مصر فقد تم تعريبها زمن الوليد بن عبدالملك ، الذي سار على سياسة والده ، وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبدالله بن عبدالملك بن مروان سنة ٨٧ هـ[٣] .

أما دواوين فارس ، فقد تم تعريبها زمن هشام بن عبدالملك سنة ١٢٤هـ على يد إسحاق بن طُليق الكاتب[٤] .

وكان لتعريب الدواوين أثر عظيم ، فقد أصبحت اللغة العربية ، لغة الدواوين مما قلص نفوذ أهل الذمة والمجوس ، وساعد على انتشار اللغة العربية في كافة أقاليم الدولة العربية الإسلامية فأصبحت هذه اللغة هي لغة الإدارة في الدولة .

---

١ - الجهشياري ، المصدر السابق ص٤٠ .
٢ - البلاذري ، فتوح البلدان ص٢٠١ .
٣ - المقريزي ، الخطط جـ١ ص٩٨ .
٤ - الجهشياري ، المصدر السابق ص٦٧ .

«النظم القضائية ومؤسسات العدالة»

جاء الدين الإسلامي بمبادئ وقيم كان لها أثر هام في شتى مجالات الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية وغيرها . . . لكن النظام الاجتماعي هو أكثر النظم التي استفادت من الشريعة الإسلامية التي أقرت مبدأ المساواة القائم على العدالة الاجتماعية ، لذلك كان لا بد من وجود نظام قضائي يحقق المساواة والعدالة الاجتماعية ويقيم العدل بين الناس تطبيقا لما ورد في ثنايا القرآن الكريم :

- إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ (النحل الآية ٩٠) .
- وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ (النساء الآية ٥٧) .
- وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ (الأنعام الآية ١٥٢) .

والنظام القضائي الإسلامي يحقق الهدف من القاعدة الخالدة القائلة : «إن العدل أساس الملك» . لأن إقامة العدل والمساواة تبث روح الطمأنينة بين الناس وتؤكد على تحقيق المساواة في الحقوق والواجبات بين الجميع . ويعتبر النظام القضائي مرآة عاكسة لأحوال السلطة الحاكمة ، فإذا كانت السلطة الحاكمة قوية وعادلة فإنها تحقق العدالة والمساواة والعكس صحيح في هذه الأحوال . فالإدارة المستقرة عنوان السياسة السليمة . وقدمت الحضارة العربية الإسلامية صورا مشرقة عن حسن التنسيق بين مؤسساتها القيادية والتنفيذية والقضائية . وقدمت هذه الحضارة نظما قضائية تكفل العدالة لكل الناس .

مصادر التشريع الإسلامي :

لا بد هنا من عرض سريع وموجز يتناول أهم مصادر التشريع الإسلامي لأنها هي التي أمدت القضاء الإسلامي بالتشريعات والأحكام التي على أساسها

ظهر دستور القضاء وظهرت بعد ذلك المذاهب الفقهية العديدة التي أثرت الفكر الإسلامي وسهلت عملية القضاء .

١ ـ **القرآن الكريم** : هو كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ وهو المصدر الرئيس للتشريع الإسلامي . ومنه نستنبط الأحكام والتشريعات .

٢ ـ **سنة الرسول ﷺ** : تأتي بعد القرآن الكريم من حيث الأهمية للتشريع الإسلامي واستنباط التشريعات والأحكام القضائية . والسنة تعني «كل ما أثر عن الرسول ﷺ من قول وفعل وصفة وإقرار قبل البعثة وبعدها» .

٣ ـ **الاجتهاد** : الاجتهاد بالرأي الفردي وقد سبق الإجماع في الظهور وقد أقره الرسول ﷺ . وهو عمل يقوم به الوالي أو القاضي بخبرته العلمية والفقهية للوصول إلى حكم في قضية ما لم يجد لها أثرا في القرآن والسنة بشرط ألا يتعارض حكم المجتهد مع القرآن أو السنة .

٤ ـ **القياس** : هو مساواة قضية جديدة بقضية مشابهة لها صدر بها حكم سابق . أي قياس الأمور .

٥ ـ **الإجماع** : هو إجماع الفقهاء المجتهدين من هذه الأمة في عصر من العصور على حكم شرعي في قضية محددة . وهناك أيضا الاستحسان والمذاهب الفقهية .

دستور القضاء في الإسلام :

بدأت النواة الأولى لهذا الدستور على يد الرسول ﷺ ، حينما طبق نظام القضاء تطبقا عمليا وفعليا في صدر الدولة العربية الإسلامية . وأقر مبادئ قضائية هامة منها «الاجتهاد» ، فقد اجتهد الرسول ﷺ وأمر أصحابه باتباع الاجتهاد ومنهم معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب . كذلك أقر مبدأ «البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا» . كذلك حث على الاستمرار بنظام القضاء لأنه فريضة وسنة طبقها هو شخصيا .

لكنه مع تطور نظام القضاء على يد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بدأ بإرسال الكتب لولاته وقضاته في مختلف الأقاليم والولايات الإسلامية ، ومنها تبلور دستور القضاء وأصبحت له بنود هامة ساهمت في تنظيم القضاء وتوجيه المزيد من التعليمات والإرشادات للقضاة . وكان من أهمها ما ورد في كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى قاضيه على البصرة أبي موسى الأشعري الذي يقول فيه :

* «إن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة» .

* «فافهم إذا أُدلي إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بحقٍ لا نفاذ له»

* «وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك»

* «البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا»

* «ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» .

* «الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور بنظائرها»

* «واجعل لمن ادعى حقا غائبا وأمداً ينتهي إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه» .

* المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجرى عليه شهادة زور أو ظنينا في نسب أو ولاء»

* «إياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يُعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام»[1]

يتضح من هذا الكتاب أن دستور القضاء الإسلامي قد تضمن المبادئ الهامة التالية :

أ ـ ضرورة العمل بالقضاء وتطبيقه في الدولة .

ب ـ المساواة بين الخصوم .

جـ ـ مصادر التشريع ، القرآن الكريم والسنة والاجتهاد .

د ـ البينة (الدليل والاثبات) على المدعي .

هـ ـ تحديد أجل لإثبات الحق تنقضي بعده الدعوى .

و ـ تيسير سبل التقاضي أمام الناس وعدم الزامهم بمصاريف ونفقات جائرة .

وقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب برسائل أخرى لكنها لم تخرج كثيرا عن هذه المبادئ التي وردت في الرسالة الموجهة إلى أبي موسى الأشعري التي أصبحت من الأسس الهامة للقضاء في الإسلام .

نظام القاضي :

على عهد الرسول ﷺ بدأ العمل بنظام القضاء ، وكان الرسول ﷺ هو قاضي عصره ، وهو الذي تولى الفصل في المنازعات والخصومات التي حدثت بين سكان المدينة المنورة ، وكان يستند في أحكامه على القرآن الكريم واجتهاده الشخصي ، ولم يعين الرسول ﷺ قضاة مختصين ، بل أنه أوكل مهمة القضاء

---

١ ـ ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٢١ .

في الأقاليم الإسلامية للولاة ، فمثلا أوكل مهمة الولاية والقضاء في اليمن إلى معاذ بن جبل ، لكن الرسول ﷺ سمح لبعض الصحابة بالافتاء ، مثل علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر والسيدة عائشة .

القضاء في عهد الخلفاء الراشدين :

وعندما تولى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ الخلافة أسند مهمة الفصل في المنازعات إلى عمر بن الخطاب ولم يطلق عليه لقب (قاض) . وفي خلافة عمر بن الخطاب كثرت الفتوحات الإسلامية التي ضمت أقاليم عديدة وشعوبا مختلفة ، وأصبحت الدولة بحاجة ماسة لتطوير النظام القضائي بها . لذلك تقرر نظام القاضي في الإسلام على يد عمر بن الخطاب ، الذي بدأ بتعيين القضاة في الأقاليم والولايات الإسلامية ، بعد أن كان القضاء تابعا للوالي . فأصبح هناك الوالي والقاضي المختص ، وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالي إذا كانت ولايته عامة (بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة معا) ، فولى عويمر بن عامر (عويمر بن قيس) قضاء المدينة ، وولي شريحا بن الحارث الكندي قضاء الكوفة ، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر[1] . وزودهم عمر بإرشادات وتوجيهات خاصة شكلت فيما بعد دستور القضاء في الإسلام (كما ورد من قبل) .

واستمر الحال في عهد عثمان بن عفان ، لكنه عزل بعض القضاة ، ومنهم أبو موسى الأشعري عن البصرة سنة ٢٩هـ وعين بدلا منه عبدالله بن عامر بن ربيعة[2] . أما عهد علي بن أبي طالب فيلاحظ عليه أن عليا جلس بنفسه ونظر في المنازعات والفصل في الخصومات .

١ـ حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص٢٧٧ والطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ القاهرة ، الطبعة الرابعة جـ ٤ ص٢٤١ .

٢ـ الطبري ، المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٥ .

ويلاحظ على النظام القضائي زمن الخلفاء الراشدين ما يلي : ظهرت وظيفة «القاضي» لأول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . وكان كثيرا ما يجمع الوالي ما بين الولاية والقضاء ، وكانت مصادر التشريع هي : القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة والاجتهاد . ولم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام ، لأنها كانت تنفذ فورا وبواسطة القاضي نفسه . وكان القاضي يجلس للحكم في منزله ، ثم أصبح يعقد جلساته في المسجد بعد ذلك[1] . وتبلور خلال خلافة عمر بن الخطاب دستور القضاء الإسلامي وأصبحت له بنود محددة .

وقد اشترط في القاضي : الإسلام ، الذكورة ، البلوغ ، العقل ، العدالة ، سلامة الحواس مثل السمع والبصر ، وأن يكون عالما بالأحكام الشرعية وما ورد بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ، إضافة إلى قدرته على الاجتهاد والقياس .

القضاء في عهد الدولة الأموية :

تختلف الآراء حول خطة القضاء في العهد الأموي ، فيرى فريق النزاهة والعدل والانصاف والهيبة والنفوذ في قضاة بني أمية كما يرى ذلك الكروي والشاعر وحسن إبراهيم . وفريق آخر يرى تأثر القضاء بالسياسة وأن الأحكام اتسمت بالهوى ومراعاة المصلحة الخاصة ، كما لم يتم اختيار الأفضل للقضاء وإنما ترك الأمر للولاة (كما أورد ذلك محمود إسماعيل) (٢) .

والرأي الراجح أن القضاء في عهد بني أمية ، كانت له أهمية لا تقل عن أهميته خلال عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين ، وأنه تميز بالنزاهة والعدل والانصاف وبخاصة خلال حكم عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) ،

---

١ ـ حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص٢٧٨ و٢٧٩ .

٢ ـ الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ص٧٤ والشاعر ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص٧٢ وحسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ص٢٧٩ ومحمود إسماعيل ، المرجع السابق ص ٨٢ .

ولم يكن القضاء متأثرا بالسياسة ، وكان القضاة مستقلين في أحكامهم لم يتأثروا بميول السلطة الحاكمة إذا انحرفت عن الحق ، وكانت كلمتهم نافذة حتى على الولاة والعمال .

القضاء في عهد الدولة العباسية :

تطور النظام القضائي في عهد الدولة العباسية تطورا كبيرا ، بسبب أن الدولة توقفت عن الفتوحات وبدأت عصر البناء والتعمير ، فاهتمت بشتى النواحي العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها . لذلك تطور النظام القضائي في جوانب عديدة أبرزها :

أ ـ أدخل العباسيون تطورا أساسيا في السلطة القضائية ، عندما حصروا سلطة تعيين القضاة بالخلفاء وحدهم ، فقوي مركز القاضي في الأقاليم ، واستقل بوظيفته عن الوالي (الأمير) ، وكان أبو جعفر المنصور ـ أول خليفة عباسي ـ ولي قضاة الأمصار من قبله[1] .

ب ـ اتسعت سلطات القاضي في العصر العباسي الأول ، فأصبح «يجمع مع الفصل بين الخصوم ، استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء ، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب»[2] .

جـ ـ نظرا لتوسع مهام القضاة ، وتعدد اختصاصاتهم كان يعاونهم مساعدون ونواب عرفوا «بنواب الحكم» ، وكان القاضي يتخذ شهودا عرفوا بالأمانة والتفقه في الدين[3] . ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر ما يلفت النظر

---

٦ ـ الكروي ، المرجع السابق ص ٧٤ .

٧ ـ ابن خلدون ، المصدر السابق ص ٢٢١ .

٨ ـ الكروي ، المرجع السابق ص ٧٥ .

في النظام القضائي ، وهو إيجاد جماعة من «الشهود الدائمين» أمام القاضي[1] يؤدون عملا خاصا وهو «البحث والتحري» عن الحقيقة في كل شكوى ، فهم من يأتي بالأخبار والحقائق لمساعدة القاضي للوصول إلى الحقيقة وبالتالي الأحكام الصحيحة .

د ـ تأثر القضاء بالسياسة ، لأن الخلفاء العباسيين كانوا يريدون أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، فعملوا على حمل الولاة على السير وفق رغباتهم في الحكم ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولي القضاء ، خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذممهم وضمائرهم[2] مثل اعتذار أبو حنيفة النعمان عن تولي منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور .

هـ ـ واستحدث العباسيون وظيفة «قاضي القضاة» وهو بمثابة وزير العدل اليوم . وكان يقيم في «بغداد» ويشرف على القضاء في جميع أرجاء الدولة العربية الإسلامية سواء في اختيار القضاة وترشيحهم أو توحيد القضاء في اتباع نهج معين وخطة واحدة . وأول من لقب بهذا اللقب أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) صاحب كتاب «الخراج» في عهد هارون الرشيد . وله ديوان يعرف «بديوان قاضي القضاة» . ومن أشهر موظفي هذا الديوان الحاجب والكاتب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحاكم .

و ـ ظهرت «دار القضاء» أي المحاكم لأول مرة ابتداء من حكم العباسيين ، بعد أن كان القاضي يجلس في منزله ومن ثم في المسجد .

ز ـ ظهور المذاهب الأربعة التي ترتب عليها ضعف روح الاجتهاد (الرأي

---

١ ـ آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م ص٣١٢ و٣١٣ .

٢ ـ حسن إبراهيم ، . المرجع السابق ص٢٨٠ والكروي ، المرجع السابق ص ٧٤ .

أو القياس) ، فأصبح القاضي ملزما ومقيدا بإتباع أحد هذه المذاهب في أحكامه ، فكان قاضي العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة ، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك بن أنس ، وفي مصر وفق المذهب الشافعي . وظهور المذاهب الأربعة أدى إلى تصحيح الكثير من أخطاء القضاة وكذلك سهل عملية الوصول إلى الحكم الصحيح وكذلك أدى إلى توحيد الأحكام القضائية في مختلف الأقاليم والولايات الإسلامية ، وهذا لم يكن متوفرا زمن الراشدين وكذلك زمن الأمويين . لذا فإن الأحكام في الدولة العباسية كانت أكثر دقة وأكثر اتفاقا مع بعضها .

القضاء في الأندلس زمن الأمويين :

تأثر القضاء في الأندلس تأثرا كبيرا بنظام القضاء في الدولة العباسية وكان قاضي القضاة يسمى في الأندلس بـ «قاضي الجماعة» ويقيم أيضا في حاضرة الأندلس ، ويتولى الإشراف على القضاء في كل الولايات والمدن الأندلسية ويعين من قبل الأمير أو الخليفة مباشرة . ويسير القضاء وفق مذهب الإمام مالك بن أنس ، وللقاضي سلطات واسعة مثل الإشراف على الصلاة وسجلات الفتاوى الفقهية . حتى أن قاضي الجماعة يسمى أيضا «صاحب الصلاة» لأنه يشرف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء . ومن أشهرهم منذر بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر[1] .

أما قضاء أهل الذمة : فإذا كان الأمر يختص بالأحوال الشخصية (الزواج ، الطلاق ، الميراث وغيره) فإن أهل الذمة يتبعون مللهم ويقوم شيوخهم بتولي القضاء في هذه الأمور ، أما إذا تعلق الأمر بالجنايات مثل (جريمة القتل ، الزنا ، شرب الخمر ، السرقة و . . .) ففي هذه الأحوال يكون الحكم من اختصاص

---

١ ـ حسن إبراهيم ، المرجع السابق ص٢٩٢ و٢٩٣ .

القاضي المسلم لأنه يقوم بضبط النظام العام . وكذلك إذا كان النزاع ما بين ذمي ومسلم فإن الاحتكام يكون في هذه الحالة أمام قاض مسلم . وهذا ما تطبقه القوانين المعاصرة لأنه قانون صائب وصحيح ولا يمس الحقوق الشرعية لأهل الذمة بل يمنحهم حرية كاملة في أحوالهم الشخصية .

نظام الحسبة :

فهي وظيفة دينية ، ولم تكن منصبا قضائيا بالمعنى الدقيق كما هو الحال بالنسبة إلى النظر في المظالم والقضاء العادي . ومن يقوم بالحسبة يسمى «المحتسب» . وأساس العمل بهذا النظام واختصاصاته كما أورده ابن خلدون : «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلا له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها . ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها . . وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المكاييل والموازين»(١) .

أي أن صلاحيات المحتسب تنحصر بالآتي :

١ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢ ـ مراقبة الآداب العامة والحث على الالتزام بالمبادئ والقيم الإسلامية .

٣ ـ الأمور الخاصة بأعمال التجارة مثل مراقبة الأسواق لضبط الغش والتدليس في المكاييل والأوزان ، وضبط جودة السلعة .

---

١٢ ـ ابن خلدون ، المصدر السابق ص٢٢٥ .

٤ ـ الأمور الخاصة بالبلدية مثل الأمر بهدم المنازل الآيلة إلى السقوط ، والمحافظة على النظافة .

٥ ـ الرفق بالحيوان وعدم تحميله أكثر من طاقته .

٦ ـ رد الأمانات لأصحابها .

يلاحظ مما سبق أن صميم عمل المحتسب ينحصر في الأمور التي تحتاج إلى سرعة في الحسم ، ولا ينظر في الدعاوى التي تحتاج إلى جلسات وخصوم وشهود لأنها من اختصاص القاضي وليس من اختصاصه . وأن المحتسب مساعد للقاضي يساهم في معالجة أمور ومخالفات كثيرة . ولا تزال أعمال المحتسب حتى وقتنا الحاضر تجد من يقوم بها . وبسبب اتساع البلدان وتطور الأنظمة وكثرة الأسواق وفصل الاختصاصات ، فإن جهات كثيرة تتوزع اختصاصات المحتسب منها الداخلية والتجارة والبلدية .

وهذا النظام كان معروفا عند البيزنطيين ، فراقبوا الأسواق وضبطوا المخالفات . أما في الدولة العربية الإسلامية ، فإنها طبقت هذا النظام استنادا لقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١) . وقد بدأ العمل بالحسبة منذ عهد الرسول ﷺ ، فهو منع الناس من غش الطعام ، وغش السلع . وقال الرسول ﷺ : «من غشنا فليس منا» . كما أنه أوكل مهمة الإشراف على أسواق مكة لسعد بن سعيد بن العاص ، لكن هذا النظام ظهر بصورة واضحة وازدادت اختصاصات المحتسب زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي راقب الأسواق والشوارع . لذلك يقال أن هذا الخليفة هو أول من وضع أسس نظام الحسبة في الدولة العربية الإسلامية ، إلا أن الحسبة لم تظهر كمؤسسة إدارية لها نظامها الخاص ، إلا في عهد الخليفة المنصور العباسي ، حيث

---

١ ـ سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

بدأ يُعين المحتسب بقرار من الخليفة ، وكانت أعمال المحتسب تضاف أحيانا إلى صاحب الشرطة أو القاضي[1] .

العقوبات : كان المحتسب يأمر بإتلاف البضائع الفاسدة ، ويمنع التاجر الغشاش من العمل ، وإعلان اسمه ليتجنبه الناس ، كما كان يطبق عقوبة الجلد فورا بحق شارب الخمر وغيره من مخالفي النظام العام .

نظام النظر في المظالم :

أصلها أن القاضي قد عجز عن طلب المدعى عليه للمثول بين يديه ، أو عجز عن تنفيذ الحكم عليه ، وذلك لمكانة المدعى عليه ووضعه الاجتماعي ، فكان علاج ذلك أن وجد الناظر في المظالم ، وهو شخص جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، طاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، يجمع بين سطوة الجاه وثبت (سلطة) القضاة[2] .

والغرض من إنشاء ديوان المظالم هو التصدي لتعدي أصحاب النفوذ والجاه ، ولهذا كان يتولى رئاسة هذا الديوان الخليفة أو الوزير أو الوالي . وقد تطورت وتوسعت أعمال هذا الديوان مع توسع الدولة العربية الإسلامية ، وتطور حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، فأصبح يعرف بـ «ديوان المظالم» ويسمى رئيسه (صاحب المظالم)[3] و(قاضي المظالم) و(الناظر في المظالم) . وقد تمتع صاحب المظالم بسلطتين ، «سلطة قضائية» حيث يحق له إصدار الأحكام القضائية ـ كما هو الحال بالنسبة للقاضي ـ و«سلطة تنفيذية» أي أنه يستطيع تنفيذ الأحكام لأنه يمثل أيضا أعلى سلطة تنفيذية . وهذا ما لم يكن يتمتع به القاضي . إذن فصاحب المظالم يتمتع بسلطات واسعة ، أشمل وأعم من سلطة القاضي وسلطة

---

١ ـ حكت فريحات ، المرجع السابق ص٨٨ .
٢ ـ الماردي ، الأحكام السلطانية ص٦٨ .
٣ ـ حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ص٢٩٥ والشاعر ، المرجع السابق ص٧٨ .

المحتسب ، فهو يفصل فيما استعصى على القاضي والمحتسب سواء كان ذلك في إصدار الأحكام القضائية أو تنفيذها .

أهم اختصاصات قاضي المظالم :

١ ـ تعسف وظلم الولاة على الرعية .

٢ ـ ظلم الجباة (جامعي الأموال من مختلف مصادرها) على الرعية .

٣ ـ النظر في انحراف كتاب الدواوين (الذين يثبتون على الناس مما يستحق منهم) .

٤ ـ تظلم الجند من نقص أو تأخير أرزاقهم .

٥ ـ رد الغصوب إلى أصحابها ، سواء كان الغاصب قد تصرف باسم السلطان ، أو كان من الملاك ذوي القهر أو الغلبة .

٦ ـ إحقاق الأوقاف إذا اعتدى عليها النظار (المشرفين عليها) وأخلّوا بتوزيع إيراداتها .

٧ ـ تنفيذ الأحكام القضائية التي أصدرها القضاة وعجزوا عن تنفيذها لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره .

٨ ـ النظر فيما عجز عنه المحتسب في المصالح العامة ، كالمجاهرة بمنكر من صاحب سلطة ، أو تعدي ذي شأن على طريق عام[١] .

وهذا النوع من القضاء يرجع في أصله إلى ملوك الفرس الساسانيين ، الذين كانوا أول من مارسوه . ونظام النظر في المظالم كان موجودا من الناحية العملية في الدولة العربية الإسلامية منذ تأسيسها ، فالرسول الكريم ﷺ رد

---

١ ـ أحمد شلبي ، المرجع السابق ص٢٣٨ .

المظالم وكذلك تبعه الخلفاء الراشدون مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، لكنهم لم يحددوا وقتا معينا للنظر في المظالم . وأول من أفرد يوما للنظر في المظالم هو الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان . وكان يستعين في ذلك بقاضيه ابن ادريس الخولاني . وسار على نهجه بقية خلفاء بني أمية ، وأشهرهم الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) حيث رد مظالم بني أمية على أهلها . واستمر الحال زمن خلفاء بني العباس ، فكان المهدي أول من جلس للنظر في المظالم ، ثم الهادي ، ثم الرشيد ، ثم المأمون ، وآخر من جلس المهتدي (٢٥٥ـ٢٥٦هـ) .

ولو أحصينا دعاوى المظالم لوجدناها كثيرة ، وبعضها جماعية ، تقدمها مجموعة من الشعب ، كأن تتظلم من أحكام أحد القضاة ، أو من الخراج ، أو من اغتصاب بعض الوزراء أو الولاة للأملاك ، وقد يتظلمون من بعض الضرائب ، أو من مواعيد استحقاقها . وتشير المصادر العديدة إلى أن الخلفاء كانوا يبادرون إلى عقد مجلس المظالم بسرعة للنظر في مثل هذه الدعاوى الجماعية لما لها من تأثر على الرأي العام[١] .

وكانت محكمة المظالم تضم أطرافا عديدة من أهمها :

أ ـ الخليفة أو من ينوب عنه .

ب ـ القضاة لمعرفة ما يصدر من أحكام .

جـ ـ الشهود ، للإدلاء بالشهادة .

د ـ الكُتاب ليسجلوا ما يدعيه الخصوم .

هـ ـ الحماة والأعوان للخليفة لجذب القوى والتغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الهرب .

---

١ ـ الكروي ، المرجع السابق ص ٩١ .

يتـضح أخيـرا ، أن نظام «النظر في المظالم» هو أعلى سلطة «قـضـائيـة» - «تنفيذية» في الدولة العربية الإسلامية تعادل في وقتنا الحاضر محكمة التمييز العليا .

نظام الشرطة :

الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين . وقد عرفوا بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها . وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام «العَسَس» وهو نظام المراقبة الليلية ، وفي عهد علي بن أبي طالب نُظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها «صاحب الشرطة» . وكان يختار من علية القوم ومن أهل القوة والهيبة[١] . وفي خلافة علي استحدثت مؤسسة السجن لحبس الجناة والمخالفين والمحكومين .

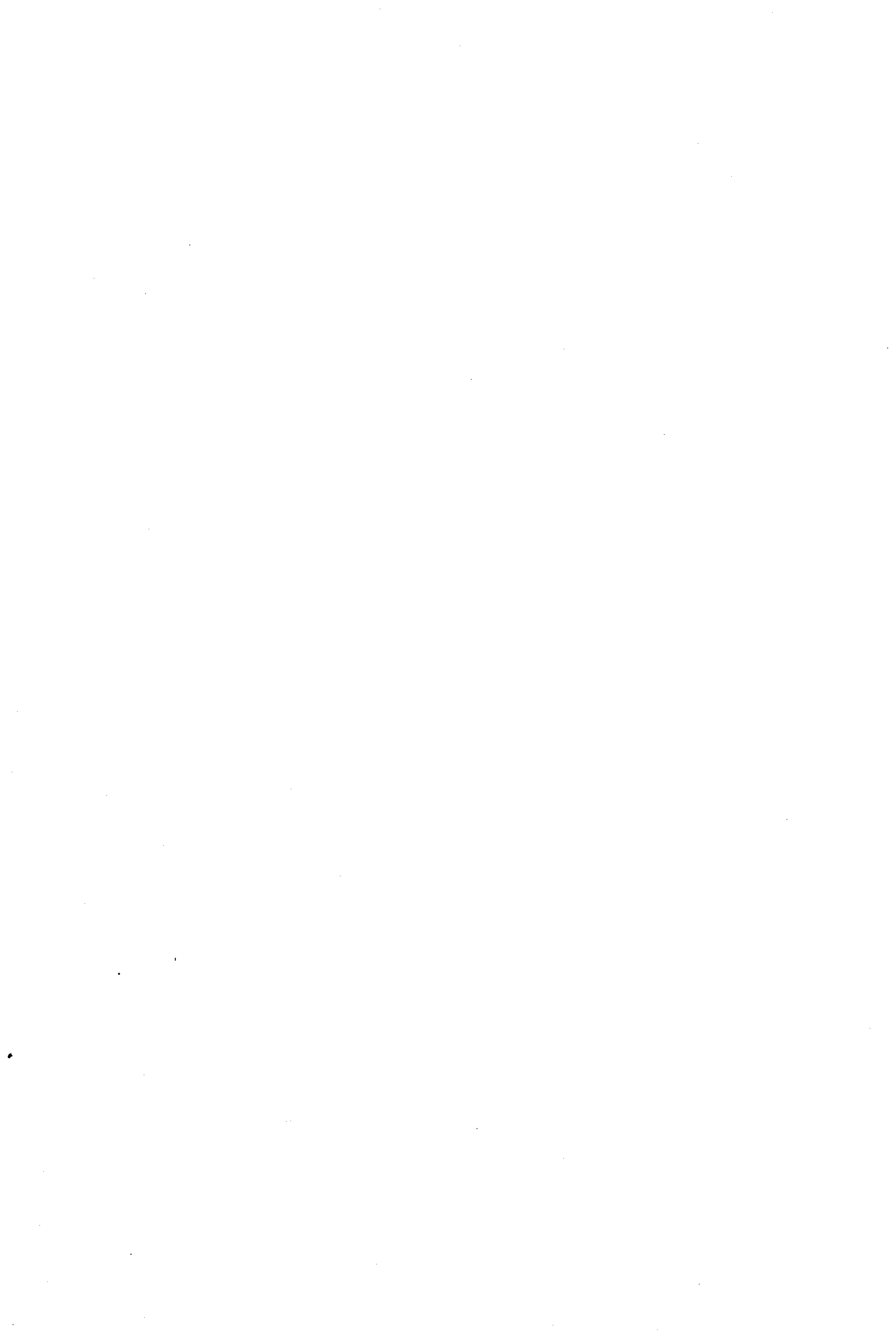
وفي العهد الأموي ازدادت أهمية الشرطة وأطلقوا على صاحب الشرطة «صاحب الأحداث» وأصبحت من توابع القضاء لأن الغرض الأساسي منها تنفيذ الأحكام القضائية . والشرطة تساعد القاضي في إثبات الجُرم . وصاحب الشرطة كان يتولى إقامة الحدود مثل جلد شارب الخمر وغيره[٢] .

وفي العصر العباسي انفصلت الشرطة عن القضاء وأصبح لصاحبها الحق في ضبط الجرائم وتوقيع العقوبة .

وكان رئيس الشرطة في حاضرة الخلافة يُعين من قبل الخليفة ، أما في الولايات والأقاليم ، فالوالي هو الذي يعين صاحب الشرطة لمساعدته في ضبط الأمن والاستقرار . واشتهر في هذا المجال طاهر بن الحسين زمن الخليفة المأمون العباسي .

---

١ ـ حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية ص٢١٧ وابن خلدون في المقدمة ص٢٥١ .
٢ ـ الكروي ، المرجع السابق ص ٩٦ .



الفصل الرابع

الحياة الإجتماعية في المدينة الإسلامية

د. عبد الرحمن العبد الغني

أولا : المدن الإسلامية : نشأتها ، خططها ، المؤسسات الإجتماعية فيها :

رافق قيام الدولة العربية الإسلامية وحركة الفتوحات الكبيرة نهضة عمرانية تمثلت بإنشاء العديد من المدن مثل البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، والقيروان . فقد اسلتزم الأمر استقرارالجنود القائمين بحركة الفتح ، فكانت هذه المدن بمثابة أماكن يستريحون فيها من عناء السفر ، وقواعد عسكرية أمامية لهم للإستمرار في عملية الفتح وترتب على ذلك إنشاء عدة مدن في مختلف الأمصار سميت دور هجرة .

كما نمت على أيديهم مدن أخرى كانت قائمة قبل الإسلام ، وبمرور الوقت أمعن العرب في الإستقرار ، وإزدادت مدنهم عدداً وإتسعت حجماً فكانت بمثابة مراكز أساسية نمت فيها وإزدهرت حضارتهم ، يضاف إلى ذلك أن هذه المدن ساعدت على اختلاط العرب بسكان البلاد المفتوحة .

وكان العرب في غالبيتهم من أهل البادية والواحات إلا أن الإسلام قد بعث فيهم روحاً جديدة ، وجمعهم تحت رايته ليقوموا بنشر دعوته وأقامة دولته . وإنطلقوا من بيئتهم الصحراوية الأولى ليفتحوا بلاداً متحضرة فيها مدن معروفة مأهولة حرص العرب على إتخاذها مع المدن التي أنشأوها لتكون مراكز لأقامتهم ونشاطهم .

كان إتخاذ المدن سواء القديم منها أو الجديد ، ضرورة إقتضاها نموالدولة العربيةالإسلامية ، كما أدت إليها عوامل متعددة مثل إتخاذها كمراكز إدارية وعسكرية ، إلا أن هذه المدن إكتسبت فيما بعد نمطاً جديداً يتناسب مع طبيعة

العرب ، وأهالي البلاد المفتوحة وروح الدين الجديد ، لذا تأثرت المدينة الإسلامية في ظهورها بمدينة الرسول ﷺ ، وبالطابع الحربي للأمصار ، وهي مدن أنشئت لجنود الفتح لتكون معسكرات لهم ، كما تأثرت بنسق المدن التي فتحها العرب في الشام ومصر وغيرها من البلاد . ولقد أوجد هذا الخليط من التأثيرات نمطاً خاصاً للمدينة الإسلامية وضح في تخطيط إطارها العام فشمل سورها ، وبواباتها المتصلة بطرق القوافل ، وبالقصبة التي تخترق المدينة من أحد طرفيها الى الطرف الآخر ، وتمر بقلب المدينة الذي يضم المسجد الجامع ، وقصر الأمير ، ومن حوله دور علية القوم ، ثم تتفرع الطرق لتشمل مساكن عامة سكان المدينة ، ومؤسساتها الأخرى . وقد إنتشر هذا النمط للمدينة الإسلامية في سائر أمصار الدولة الإسلامية .

لجأ العرب المسلمون منذ المرحلة الأولى من تاريخ فتوحاتهم إلى الاستفادة من المدن القديمة التي وجدوها في البلاد المفتوحة فنزلوا بها وسكنوها لعمرانها ولماضيها الزاهر ، وأتخذوها حواضر لهم بعد أن صبغوها بصبغة عربية إسلامية حين أنشأوا فيها المساجد ، والمسابح العامة وغيرها ، فتحولت إلى مدن عربية إسلامية لا تختلف عن المدن الإسلامية الإنشاء إلا إختلافاً محدوداً تمثل في كثرة آثار المدن القديمة ، وإستقامة شوارعها الكبرى على نحو ما حدث في طرابلس الشام ، وبيروت ، والإسكندرية ، ودمشق وقرطبة ، وطليطلة ، وغيرها من المدن . وقد ازدهرت هذه المدن ازدهاراً واضحاً في العصر الإسلامي .

١ ـ أسباب نشأة المدن الجديدة :

أ- أسباب عسكرية :

لإتخاذها مراكز لإقامة الجند ، وقاعد عسكرية أمامية للجيوش الفاتحة ، ومقراً للمهاجرين إليها من أمصار الدولة الإسلامية بغية الجهاد في سبيل الله ، ولتدعيم الدفاع عن هذه المدن ، لجعلها مراكز إشعاع لحضارة الإسلام في البلاد

المفتوحة ومن هذه المدن ، البصرة ، وهي تقع عند ملتقى نهري دجلة والفرات ، وقد أسسها عتبة بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ / ٦٤٢-٦٤٤م) سنة ١٥ هـ .

ونظراً لموقعها على شط العرب ، وتوسطها بين الشام وفارس نمت سريعاً ، وإنتشر العمرا ن فيها ، وإتخذها الأمويون مقراً لإمارة العراق . ومنها الكوفة ، والتي أسسها سعد بن أبي وقاص سنة ١٧هـ . ولأهميتها اتخذها على بن أبي طالب عاصمة لخلافته . وقد ارتفع شأنها كما ارتفع شأن البصرة بعد ذلك . وعظم أمرها ، وأصبح لها شهرة عظيمة في قيادة الجيوش وحمل لواء العلم والأدب في العالم الإسلامي كله . ومن هذه المدن أيضاً الفسطاط التي أنشأها المسلمون سنة ٢١هـ ، والقيروان التي أسست سنة ٥٠ هـ والمهدية بتونس عام ٣٠٥ هـ .

ب ـ أسباب إدارية :

تمثلت في تأسيس مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ كعاصمة لمصر بدلاً من الإسكندرية التي فقدت أهميتها بعد فتح العرب لمصر ، وذلك لموقعها على البحر . وكان من الأسلم للعرب أن لا يتخذوهاعاصمة لهم لسهولة مهاجمتها من قبل الأسطول البيزنطي هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان موقع الفسطاط يجمع بين مزايا عديدة منها أنه ليس بينها وبين عاصمة الخلافة الإسلامية في الحجاز مانع ، فقد كان من السهل عليهم التنقل عبر الصحراء التي اعتادوا على سلوكها .

ت ـ أسباب سياسية :

وتصدق هذه الأسباب على مدينة بغداد التي أسسها أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) سنة ١٤٠ هـ ، وتقع بين نهري دجلة والفرات ، وذلك حين أدرك ان العواصم المؤقتة التي أقامها أخوه أبو العباس

السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٤هـ) من قبل لا تفي بمتطلبات العهد الجديد من حيث اتساع الدولة وعظم ثروتها ، وإنه كان بحاجة إلى عاصمة تلبي الاحتياجات الضرورية لدولة ناشئة تريد تثبيت أقدامها ، والارتكاز على مدينة قوية تلائم عظم الدولة واتساعها .

ث ـ أسباب أخرى :

وكانت بعص المدن تنشأ لأسباب خاصة ، وذلك كي تكون مركزاً عقائدياً لمذهب الدولة الحاكمة مثل القاهرة التي أسسها جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ للخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٢ ـ ٩٧٥م) . وكانت الدولة الفاطمية تدين بالمذهب الإسماعيلي .

أو تكون أسست للراحة والإستجمام مثل الزهراء التي أسسها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥هـ في الأندلس ، وحرص على أن تضم وسائل الراحة والترفيه عن النفس مثل الحدائق والقصور المريحة . وهناك مدن أنشئت تعبيراً عن فرحة النصر مثل المنصورة التي أنشأها السلطان الكامل في مصر تعبيراً عن فرحة إنتصاره على لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٨هـ/ ١٥٢٠م .

العوامل التي أسهمت في اختيار مواقع المدن الإسلامية :

أ- العامل الصحي :

كان للعوامل الصحية دور كبير في اختيار العرب لمواقع مدنهم ، فإشترطوا المناخ الصحي ، والهواء النقي ، وخلوا الموقع من الحشرات والجراثيم ، ولعل تصرف أبي جعفر المنصور حين اختار موقع بغداد لدليل أكيد على دقة المسلمين في إختيار مواقع مدنهم ، فقد خرج أبو جعفر المنصور بنفسة إلى المكان الذي اختاره وبات فيه ليلة ليتأكد من صحية هواءه .

ب ـ خصوبة الأرض :

فقد روعي خصوبة الأرض عند إختيار الموقع ، وذلك يكون بتفرس البيئة واستقراء نباتاتها ، وإجراء بعض التجارب البسيطة لإختيار صلاحية التربة ، ومدى توفر المياه فيها . وهذا ما فعله الحجاج بن يوسف الثقفي عند إختياره موقع مدينة واسط لإمكان استغلال أرضها لتكون مرفقاً للرعية ومصدراً لرزقهم ، وموردا جيداً للضرائب ، فكانت خصبة كثيرة الشجر والنخل والزروع .

ت ـ توفر المياه :

لقد راعى المسلون في تخطيطهم لمدنهم أن تقع على نهر لإستخدام مياهه للشرب والزراعة ، وكان لقرب مصب نهري دجلة والفرات من عوامل إختيار موقع البصره .

ث ـ الحصانة والمناعة :

أهتم المسلمون عند إختيار مواقع مدنهم أن تقام في مكان حصين يكفل لسكانها الحماية والأمن من إغارات الأعداء والأعراب وغيرهم .

ج ـ الأهمية الإقتصادية :

راعى المسلمون كذلك أهمية الموقع الإقتصادي عند ملتقى نشاط اقتصادي زراعي أو رعوي أو تجاري أو صناعي .

وبهذا نرى أن اعتدال المناخ وخلو الموقع من الحشرات والأمراض ، وتوفر المياه ، وخصوبة الأرض ، والقرب من ساحل البحر لإتخاذ ميناء للمدينة . كانت من أهم أسباب إختيار المسلمين لمواقع مدنهم الجديدة .

ويلاحظ أن المجتمع الإسلامي في أول أمره لا يميل للمغالاة والإسراف في البناء ، إلا أنه ظهر من الحكام المقتدرين من اهتم بإقامة المباني الفخمة الشامخة ، ووجدوا في ذلك مفخرة لهم ، وكان ذلك عاملاً من عوامل تطوير المدينة

الإسلامية . فالفسطاط مثلاً وجدت فيها دور تتكون من عدة طبقات بلغت الثمان وفقاً لما ذكره بعض الرحالة المسلمين . كما أصبح عدد من المدن الإسلامية يتميز بالإتساع الذي صاحبه الإزدياد في عدد السكان .

٣ـ الخصائص العامة للمدن الإسلامية :

أـ المساجد الجامعة :

كانت المساجد الجامعة هي أساس العمران في المدن الإسلامية . فكان المسلون منذ فجر الإسلام اذا فتحوا مدينة من المدن شيدوا مسجداً جامعاً بها ، وذلك رغبة منهم في إضفاء الصبغة الإسلامية عليها ، حيث أن هذه المد ن كانت إما وثنية أو مسيحية . كما كانوا يبدأون بإنشاء المسجد الجامع قبل أي بناء آخر عند تأسيس مدنهم الجديدة ، وعلى سبيل المثال : فعندما أختط عتبة ابن غزوان مدينة البصره بنى المسجد الجامع فيها ، وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص عند تشييده لمدينة الكوفة . وقد أصبحت عادة بناء المسجد في كافة المدن الإسلامية الجديدة عادة متبعة حرص المسلمون عليها عند بناء مدنهم . كما أصبح المسجد الجامع في هذه المدن بمرور الزمن ، مركزاً لتلك المدن وقلبها النابض بحياتها ؛ فمنه تتفرغ الطرق الكبرى المؤدية إلى أبواب المدينة ، وحول ساحته تقام الأسواق والمسابح العامة ، والفنادق ، والقيساريات ، وفيه تعقد الإجتماعات السياسة ، وتوزع ألوية الجيش ، وتدرس العلوم الشرعية . فليس غريباً إذن أن يسيطر المسجد الجامع على الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والعلمية وبالطبع الدينية في المدن الإسلامية .

ب ـ دار الإمارة :

كانت من أهم منشآت المدينة الإسلامية ، وكانت تقام في وسط المدينة ، وهي سكن حاكم المدينة أو أميرها ، وأسرته . ولأهميتها تقام حولها الدواوين التي تدار فيها أمور المدينة الإدارية والمالية والقضائية ، وتقام من حولها دور

الوزراء وطبقة الخاصة من الناس . وكانت دار الإمارة في بداية الأمر تمتاز ببساطة البناء ، إلا أنها تحولت إلى الفخامة ، فارتفعت أسوارها وكثرت أبوابها ، وأصبحت تشمل على أبهاء واسعة وقاعات للجلوس . كما ضمت بعد أن تحولت إلى قصور فخمة ملاعب ، وساحات ومخازن وخزائن الكتب ، وإسطبلات الخيل . ولأهميتها كانت شوارع المدينة تتفرع منها حتى تصل إلى أطراف المدينة وأسوارها .

ت ـ المركز الإقتصادي :

وهو جزء رئيسي في المدينة الإسلامية ، ويقع دائماً حول المسجد الجامع ، ويضم الأسواق بما تحويه من خانات وفنادق ، ووكالات وقيسارات . وكثيراً ما كانت الشوارع المحيطة بالمسجد الجامع تتمسى بأنواع الحرف والصناعات ، مثل درب الخياطين ، ودرب الصباغين ، ودرب الحطابين ، ودرب الفخاريين ، ودرب النحاسين ودرب الوراقين ، وسوق الصاغة وغيرها ، وذلك لان المدينة الإسلامية عرفت الأسواق المتخصصة حيث يجتمع أصحاب كل حرفة في مكان واحد . وقد ظلت بعض هذه الأسماء تطلق على أحياء بأكملها في بعض المدن الإسلامية . مثل حي العطارين بالإسكندرية ، وحي البزورية بدمشق ، وحي الكتبية بمراكش .

ث ـ الإطار الخارجي :

أحيطت المدينة الإسلامية بأسوار ، بنيت من الصخر أو الآجر فيها أبواب تفتح نهاراً وتغلق ليلاً لتمنع عنها إغارات المغيرين والغزاة . وتتصل بالأسوار عادة أبراج وقلاع منيعة لتأمين حياة سكان المدينة . وعادة ما كانت تسمى أبوابها بوظيفتها مثل باب البحر ، أو باب العطارين ، أو بإسم بعض الأشخاص المعروفين ، أو بإسم قبيلة نزلت في تلك المنطقة مثل باب زويلة . أو بإسم الجهات التي يتجه إليها الخارج من هذه الأبواب مثل : باب الشام ،

وباب خراسان وغيرها ، أو بإسم المناسبات التي ترتبط بها مثل : باب النصر ، وباب العيد . ووجدت هذه الأبواب في مدينة القاهرة ، وقرب أسوار المدينة وأبوابها كانت تكثر عادة الأسواق والباعة الجائلون ، وذلك للوفاء بطلبات واحتياجات المغادرين للمدينة والوافدين إليها .

ج ـ شوارع المدينة وأحياؤها :

كانت المدينة الإسلامية تضم أحياء متجاورة تسمى الحومات أو الخطط . وكانت الأحياء الخارجة عن نطاق المدينة تسمى ظاهر المدينة أو خارجها وكثيراً ما كانت تدخل في نطاق المدينة بعد إتساعها . أما داخل المدينة فقد قسمت شوارعها إلى أقسام وحدتها الشارع ، أو الدرب ، أو النهج . وكان لكل شارع كبير في المدينة بابان ، وحارسان ، وفي الليل تضاء هذه الشوارع بالمصابيح ، وتغلق أبوابها ، ويتولاها جماعة لكشف أزقتها ، وتفقدها ، وغلق دروبها ، وتأديب المخالفين ، ومن سار بالليل لغير سبب مقبول قبض عليه .

ح ـ الأسواق :

اقيمت أسواق المدينة الإسلامية حول المسجد الجامع في بادئ الأمر ثم نقلت بعد ذلك بالقرب من الأسوار . ولم يقتصر دور الأسواق على البيع والشراء فقط ، وإنما كان لها أثر كبير في الحياة الإجتماعية في المدينة الإسلامية ، فكان يتردد على التجار وأصحاب الحوانيت في هذه الأسواق العلماء والشعراء .

وكان المألوف أن يقيم بعض التجار مصاطب لهم أمام حوانيتهم لإستقبال أصدقائهم لتبادل الأحاديث والحكايات والنوادر . وكان من الشائع في المصادرالتي أرخت لذلك العصر أن نقرأ عبارة «وحدث أنني كنت جالساً ببعض الحوانيت ، أو عبارة « . . وحكى ذلك لإصحابه في دكانه . .» وهذا ما جعل الأسواق والحوانيت في ذلك العصر تأخذ صفة المراكز الإخبارية والإجتماعية .

خ ـ المتنزهات ومواضع الفرجة والنزهة :

تقع عادة في ظاهر المدن ، وكان الخروج إلى المتنزهات أحد وسائل الترفيه عن النفس في المدينة الإسلامية وكان الناس يقصدونها للمتعة والتريض ، ومن أهم المتنزهات في المدن الإسلامية الغوطة في دمشق ، وشاطئ النيل وجزيرة الروضة في القاهرة . وكان الناس من الرجال والنساء يختلطون فيها في غير كلفة أو تصنع .

د ـ المقابر (الجبانات) :

كانت تقام خارج أسوار المدن بالقرب من أبوابها كي يسهل على الناس قصدها . وإذا ما إتسعت المدينة نقلت إلى خارج أسوارها الجديدة . وقد تحولت المقابر القديمة إلى ميادين أو بساتين . أو بقيت مقابر محلية . وتقترن بالمقابر منشآت لغسل الأموات أطلق عليها إسم «مغاسل الموتى أو مصليات الأموات» . وجرت العادة أن تقام هذه المغاسل والمصليات في أطراف المدينة أو خارج أبوابها لتكون على مقربة من المقابر .

وكان يتم الغسل فيها حسب الشريعة الإسلامية ، وعادة ما تتكون هذه المغاسل من مبنى كبير ينقسم إلى قسم خاص بالرجال ، وآخر بالنساء ، وتلحق في هذا المبنى مخازن لحفظ محتويات الغسل والأدوات المستخدمة في تجهيز الموتى وتلحق عادة ميضأة للوضوء ، وحوض لسقي دواب المشيعين .

ولاشك في أن الأوقاف التي أوقفت برسم تغسيل فقراء موتى المسلمين ، وتجهيزهم ، ودفنهم قد قامت بخدمة إجتماعية كبرى ، حيث كان فقراء المسلمين يجدون من يقوم بعملية تجهز ودفن موتاهم . وكانت عملية الغسل والدفن تتطلب نفقات باهظة في ذلك الوقت لا يقدر عليها الفقراء ، لذا كان المحسنون يوقفون أوقافاً للقيام بهذه العملية لصالح الفقراء .

ذ ـ الحمامات العامة (أو المسابح العامة) :

اشتهرت بها المدن الإسلامية . ،كان الحمام العام في هذه المدن يعد من أهم مؤسساتها . وكانت كثرة الحمامات العامة وتعددها ، تشكل أحد أهم الظواهر البارزة في المجتمع الإسلامي . فالمكانة التي كان يشغلها الحمام تلي مكانة الدار .

والمعروف أن عادة الإستحمام خارج المنزل كانت موجودة لدى بعض الشعوب وبخاصة اليونان ، وقد دخل الحمام منذ وقت مبكر ضمن خطط المدينة الإسلامية لارتباطه بالنظافة التي حبب إليها الإسلام وشجع عليها ، وذلك لارتباطها بالوضوء والصلاة ، وقد عد الإسلام النظافة من جوهر العقيدة الإسلامية وهذا ما أعطى الحمامات العامة أهمية وأكسبها مكانة اجتماعية ، فقصدها الناس من جميع الطبقات في المدن الإسلامية ، رجالاً ونساء ، وذلك لأن ظاهرة الإستحمام في المنازل كانت غير مألوفة للناس في تلك العصور . ولم توجد الحمامات للإستحمام إلا في قصور الحكام والأمراء وكبار رجال الدولة . ووجد الحمام للوضوء وللإستعمالات اليومية في دور ومنازل عامة الناس .

وقد أخذ الحمام مظهراً إسلامياً ، حيث أزيلت الصور والتماثيل من الحمامات التي وجدها المسلمون في المدن المفتوحة . كما انتشرت الحمامات العامة في المدن الإسلامية كافة في المشرق والمغرب .

وكانت الحمامات العامة في الغالب مظلمة ، ترتفع عليها قباب فيها جامات للنور ، وتطلى جدرانها من الداخل بالقار ، وترص أرضيتها بالرخام ، ويشمل الحمام عدة قاعات ، كل قاعة مخصصة لشيء بعينه ، مثل قاعة خلع الملابس ، وتتصف بالدفء ، وأخرى خصصت «كبيت الحرارة» حيث الماء الساخن . وتجلب المياه إلى الحمام بواسطة ساقية خشب ترفع الماء من بئر بجوار الحمام من الخارج . وبالطبع كان يوجد بالحمام موظفون متخصصون بأساليب

التنظيف من تدليك وحلاقة وغيرها . وكان هؤلاء يخضعون لرقابة المحتسب الذي يفرض عليهم شروطا صحية وأخلاقية .

على أية حال ، اكتسب الحمام أهمية إجتماعية كبيرة في المدن الإسلامية . فالمريض إذا دخل الحمام العام عُد ذلك برهانا على شفائه من مرضه . وكذلك يبدأ موكب زفة العروس من الحمام ، وفيه تنتقل أخبار المجتمع بين رواد الحمامات العامة . وتتفاخر النساء بلبس الجديد والفاخر من ملابسهن بعد الإستحمام كي تراهن بقية النسوة . وبهذا نرى أن أهمية الحمامات العامة لم تقتصر على مهمة نظافة البدن فحسب ، بل كان لها دوراً اجتماعياً كبيراً ، ودلالات ومعان اجتماعية في حياة مجتمع المدن الإسلامية .

مما سبق وجدنا أن المدن الإسلامية انتشرت في شتى أنحاء الدولة الإسلامية عبر تاريخها الطويل ، ومن الطبيعي أن تكون هناك مميزات خاصة بكل مدينة على حدة ، فضلاً عن وجود تباين في أهمية المدينة الواحدة من عصر إلى آخر فيما بين الزيادة والنقصان ، والازدهار والإضمحلال وفقاً للظروف والعوامل التي مرت بهذه المدينة أو تلك .

٤ ـ الخدمات العامة في المجتمع الإسلامي (المؤسسات الاجتماعية)

حفل المجتمع الإسلامي بعدد من المؤسسات ذات الصبغة الاجتماعية ، وكانت هذه المؤسسات تعتمد في بقائها واستمرارها على نفقات الجهات الرسمية في الدولة أو على ما أوقف عليها من أوقاف أو حبوس خصصها أصحابها للإنفاق على هذه المؤسسات قربة لله تعالى ، وسعياً لنيل ثوابه ، وعرفت هذه الاوقاف بأنها «كل شيء وقفه صاحبه وقفاً محرماً لا يباع ، ولا يورث من نخل ، أو كرم ، أو غيرها كالأرض ، أو مستغل يحبس أصله وتسبل غلته» . وهو حبس العين عن تمليكها لأحد من العباد ، والتصرف بريعها بما يعود بالمنفعة على الفقراء في وجوه الخير المختلفة . وهذا ما مكن هذه المؤسسات من

البقاء والاستمرار طويلاً دون أن تقف عن أداء رسالتها بعد وفاة صاحبها ، وذلك راجع إلى نظام الأوقاف الذي ازدهر مع إزدهار الحضارة العربية الإسلامية .

ومثال على الوقوف التي أوقفت للإنفاق على مثل هذه المؤسسات الخيرية ذلك الوقف الذي أوقفه السلطان نور الدين محمود زنكي على البيمارستان الذي شيده في دمشق ، والذي أشار إليه ابن كثير على أنه أوقف للفقراء دون الأغنياء ، وهذا ما يؤكد الأهمية الاجتماعية لمثل هذه المؤسسات في المدينة الإسلامية . ومن هذه المؤسسات التي أنشئت في المدينة الإسلامية ما يلي :

أ ـ البيمارستانات (المستشفيات) :

البيمارستان كلمة فارسية تعني «دار الشفاء» وتختصر اللفظة بلفظ «مارستان أو مرستان» ومع مرور الوقت أصبحت تدل فقط على مكان المجانين . والمعروف أن الإسلام نادى بالتخفيف عن المريض ورعايته ، كما شجع على تعلم الطب وإجادته والعمل به وكان مزاولو مهنة التطبيب يخضعون إلى إشراف دقيق من جانب الدولة ، ولا يسمح للأدعياء وغير الأكفاء بمزاولته . وكان المسلمون يختارون بعناية كبيرة أماكن البيمارستانات قبل إقامتها ، ويتوخون المكان ذي المناخ الجيد والهواء النقي الصحي .

وظهرت البيمارستانات في صدر الإسلام ، وعنى بتنظيمها . ولم تلبث أن زاد عددها في المدن الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي ، وجلب لها الأطباء والصيادلة ، والخزان والبوابين والوكلاء والناطوريين . وأنفقت على المرضى المحتاجين النفقات ويسرت إليهم الأدوية والأغذية وغيرها .

وقد قُسم البيمارستان إلى غرف ، ومقاصر ، وأجنحة ، وطبقات ووضعت في غرفها أسرة مريحة ، وخصص جناح لكل مرض معين ؛ فخصص جناح للحميات ، وآخر للرمد ، وهكذا . . وألحقت بهذه البيمارستانات قاعات لتدريس الطب ، ولخزانة الكتب ، وأخرى لتركيب الأدوية ،

وحواصل للأدوية ، ومطبخ للطعام ، ومسجد للصلاة . كما خصصت أجنحة خاصة للنساء .

وكان المرضى المحتاجون يزودون بقدر من المال يستعينون به على الحياة بعد الشفاء حتى يستطيعون مزاولة أعمالهم ، كما يمنحون كسوة . وإذا ما قدر لأحد المرضى أن يموت ، وليس له أهل أو أقارب ينفقون على تجهيزه ودفنه ، فهناك من حجج الوقف ما يسمح بالتكفل بمثل هؤلاء المرضى . وهذا ما يدل على الجانب الاجتماعي الهام لمثل هذه المؤسسات .

وكما كان هناك بيمارستانات للمرضى العقلاء ، وجدت بيمارستانات أو أقسام خاصة في بيمارستانات العقلاء للمصابين بأمراض عقلية ، وخصص لمثل هؤلاء من يقوم بالسهر عليهم فيها . وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى أن بيمارستان دمشق كان به قسم للمجانين .

ب ـ السبل والسقايات :

حفلت المدينة الإسلامية بالسبل والسقايات ، وذلك لأهمية ماء الشرب في ذلك العصر . وكان توفير مياه الشرب للناس ولعابري الطريق من الأعمال العظيمة التي يتقرب بها المحسنون من الناس إلى الله تعالى . ويذكر ابن حوقل أنه رأى بسمرقند أكثر من ألفي سبيل يصرف عليها من أموال أوقفت عليها .

وحرص أهل الخير على توفير ماء الشرب النقي في الأماكن المقدسة ، ومن ذلك ما قامت به السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد ، حين أمرت بتوصيل المياه العذبة من منابعها في الجبال في مكة إلى الحرم الشريف ، مما يسر على الحجاج مهمة الحصول على الماء وكفاهم مشقة العطش .

وقد اهتم أصحاب السبل بعمارتها وتجميلها بالزخارف والعبارات الإسلامية مثل «وسقاهم ربهم شرابا طهورا» . كما حرصوا على تزويد السبل

التي أقاموها بمن يتولى تسبيل الماء وتوزيعه على الناس ، وكان أسم من يتولى هذه العملية «المزملاتي» واشترطت فيه شروط صحية خاصة ، منها أنه لا بد أن يكون سليما معافى من الأمراض ، وأن يقوم بتنظيف السبيل الذي يشرف عليه باستمرار ، وكذلك آنية الشرب مثل الكيزان ، والأباريق والقلل ، والفخار ، والطشوت وغيرها . وأن يراعي مواعيد الشرب المحددة من قبل المحتسب ، حيث تستمر عملية تسبيل ماء الشرب للناس طوال النهار في غير رمضان ، أما في رمضان فيبدأ موعد الشرب من وقت الغروب إلى وقت الإمساك .

واقترن توفير مياه الشرب للناس بتوفيرها للدواب أيضا ، وذلك بإنشاء أحواض خاصة لهذا الغرض أقيمت في أطراف المدن وبالقرب من أبوابها أوقفت عليها الوقوف لتؤدي أهدافها . وهذا ما يدل على اتساع أفق النظرة الإنسانية للحضارة العربية الإسلامية .

ت ـ دور رعاية الأيتام والعميان والقواعد من النساء :

اهتم المسلمون برعاية الأيتام ، ومرجع ذلك حق الإسلام على رعاية اليتيم ، وعدم قهره والإحسان إليه والمحافظة على أمواله ، لذا حرص كثير من أهل الخير على حبس بعض ممتلكاتهم للإنفاق على الأيتام وتعليمهم وكسوتهم مرتين في السنة صيفا وشتاء . وزاد الاهتمام باليتامى لدرجة إنشاء مكاتب خاصة بهم لتعليمهم ورعايتهم ، وخاصة في المشرق الإسلامي ، حيث عمت ظاهرة إنشاء مثل هذه المكاتب مما لفت نظر ابن جبير لها فعدها من مفاخر بلاد المشرق . وقد اهتم حكام المسلمين بإنشاء هذه المكاتب ومنها ما أنشأه السلطان الظاهر بيبرس ، والسلطان قلاوون اللذان وفرا للأيتام الطعام والكسوة ، والمشاهرات (وهي مقدار من المال يعطى إليهم كل شهر) والكتب ، وأدوات الكتابة مثل الحبر والورق . ولا يعني تخصيص مكاتب لتعليم الأيتام أنهم حرموا من الالتحاق بالمؤسسات التعليمية الأخرى مع بقية الصبيان ، لكن تميزهم بمكاتب خاصة بهم

يعكس مدى اهتمام المسلمين وحكامهم بهم كوجه من وجوه البر والتقوى . كما اهتم المسلمون أيضا برعاية العميان والأرامل والمطلقات حتى يتزوجن . ونعني هنا المطلقات التي ليس لهن أسر أو عائل .

ويلاحظ أن المؤسسات التي شملت هؤلاء بالرعاية في المدينة الإسلامية لم تقم بذاتها لهذا الغرض ، وإنما اتخذت من المرافق الدينية كالمساجد ، والربط ، والزوايا والخانقاوات مقراً لها . لتشابه الأهداف الإنسانية التي أنشئت من أجلها . ولسعي مؤسسيها لنيل رضا الله والتقرب إليه من إنشائها .

وقد وجدت هذه المنشآت من الوقف خير دعامة مكنتها من الاستمرار في أداء رسالتها الخيرية . وقد أبدى ابن جبير إعجابه الشديد بهذه المؤسسات التي شاهدها في مدن المشرق الإسلامية ، ولا سيما تلك التي تشمل خدماتها رجال الدين وطلاب العلم ، والغرباء ، ومن يشابههم .

ث ـ دور رعاية الفقراء والمعدمين :

وجد الفقراء المعدمون اهتمام المقتدرين من الناس والحكام بشكل خاص ، حيث حرص هؤلاء على تطبيق التكافل الاجتماعي التي كثيرا ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم ، وما ورد في السنة النبوية الشريفة . من وجوب مساعدة الفقراء ، والمساكين ، والمحتاجين لذا كان هؤلاء موضع رعاية بارزة ، وخاصة في أوقات الغلاء والأزمات الاقتصادية . وفي أثناء المجاعات اعتاد بعض السلاطين أن يكثروا من توزيع الأموال على المساكين والمعدمين من الناس مما كان له أثره الكبير في تخفيف آثار الحاجة عليهم .

كذلك خصصت جرايات لطالبي العلم منهم في المدارس والربط ، ولم تكن هذه الجرايات وقفا على الدولة بل كان للمحسنين من الناس دور كبير فيها . وقد امتدت رعاية المعدمين والفقراء حتى عند وفاتهم ، وخاصة في أوقات الطواعين والأوبئة ، حيث يتساقط الناس بالعشرات في الطرقات ، ولا يجدون

من يجهزهم ويدفنهم ، لذا اهتم الخيرون من الناس بإنشاء مؤسسات خاصة تتولى هذه العملية مجانا قربة لوجه الله تعالى .

ج ـ دور العلم :

كانت دور العلم في مقدمة الأمور التي عنى بها المسلمون حتى انتشرت في المدن وتركزت بشكل خاص في العواصم الكبرى مثل بغداد والقاهرة وقرطبة ، وكذلك في عواصم الأقاليم ، مثل دمشق ، والقدس ، والقيروان ، وغرناطة وغيرها . ومن دور العلم المسجد الذي كان يمثل المدرسة الأولى في الإسلام ، فهو بجانب دوره كمكان لإقامة الصلاة ، ونقطة انطلاق الجيوش وقت الجهاد ، وتجمع المسلمين فيه لمبايعة الخليفة ، وإقامة جلسات القضاء ، وعقد العامة وغيرها من شئون المسلمين ، كان مكانا لتلقي العلم بأنواعه المختلفة . ففيه كان يمكن للمرء أن يتعلم قراءة القرآن ويدرس العلوم المتصلة به ، ويتعلم الحديث ويستمع للوعاظ والفقهاء وغير ذلك من أوجه النشاط الفكري المعروف في صدر الإسلام . وقد زادت أهمية دور المساجد في مجال التعليمي في العصرين الأموي والعباسي ، وكان الفقهاء والأدباء يجلسون في المساجد الجامعة في المدن يحيط بهم طلابهم ، ليلقون عليهم دروس العلم أو لتوجيه النصح والإرشاد لهم . وكان الشيخ عادة ما يجلس بالقرب من الحائط أو عمود المسجد ويجلس طلابه حوله على شكل حلقة أو دائرة يدونون ما يلقيه عليهم شيخهم ، وكانت هذه الحلقات تشهد أحيانا مناقشات جادة بين الطلاب وشيوخهم قد تصل أحيانا إلى المخالفة بالآراء ، كما حدث حين اختلف واصل بن عطاء مع شيخة الحسن البصري في مسجد البصره . إذ اعتزل واصل بن عطاء شيخة ، وكون له حلقة خاصة به ابتدأ معها تاريخ فرقة المعتزلة .

ولم تقتصر حلقات العلم في المساجد على العلوم الدينية بل شملت علوم أخرى مثل الطب واللغة وغيرها . وكان الطب يدرس في جامعة الأزهر

في القاهرة ، كما كان الشعر العربي يدرس في مسجد الرسول ﷺ في المدينة على يد سعيد بن المسيب ، وبلغت حلقات العلم بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط مائة وعشر حلقات . وكان يخصص في بعض المساجد أرزاق للطلبة ودورا للسكن بجوار هذه المساجد لكن اتساع الحلقات العلمية داخل المساجد ، وكثرة الجدل والمناقشات فيها بشكل أصبح معه لا يتفق مع ما يجب مراعاته من آداب مع قدسية المكان ، مما أدى إلى أن تظهر إلى جانب المساجد المدارس كمنشآت مخصصة للتدريس والتحصيل حيث أنها أعدت خصيصا لهذا الهدف من الوجهة الفنية والإنشائية والإدارية .

والراجح أن ظهور هذه المدارس كان في القرن الخامس الهجري إلا أن ابن كثير ذكر خبر إنشاء دار علم في سنة ٣٨٣هـ في بغداد على يد سابور بن أردشير . مما يعني أن إنشاءها تم في القرن الرابع الهجري . ومما يجعلنا نرجح أن إنشائها تم في القرن الخامس الهجري إشارة المقريزي إلى قيام المدرسة البيهقية في نيسابور في هذا القرن .

وكان من أهم المدارس التي أنشأت في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تلك التي أنشأها الغزنويون في نيسابور . وتجب الإشارة إلى أن بعض هذه المدارس أصبح يتخذ طابع المدرسة المتعارف عليه من حيث بنائه وتنظيمه ، وتدبير أماكن الإقامة للطلاب والأساتذة . ولكن إنشاء المدارس بالمعنى الفني لها كان على يد الوزير السلجوقي نظام الملك ، الذي قام بإنشاء مدارس عديدة في بغداد والبصره ، والموصل ، وغيرها من المدن التي كانت تابعة لنفوذ السلاجقة في ذلك الوقت . وقد عرفت هذه المدارس جميعها بالنظامية نسبة إليه . وكان الدافع من وراء إنشاء هذه المدارس مذهبيا وسياسيا ، وذلك لمناهضة الفاطميين في مصر والحد من انتشار مذهبهم في أقاليم المشرق الإسلامي . وكانت من أشهر هذه المدارس هي المدرسة النظامية في بغداد التي أنشئت سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م .

هذا ، وقد حرص سلاطين السلاجقة على رعاية الفنون والعلوم ، وكانت المدرسة النظامية في بغداد تمثل نمطا خاصا في المدارس الإسلامية نظرا لإشراف الدولة وإنفاقها عليها . وكان أساتذتها يتم اختيارهم بإشراف السلطان نفسه ، وكان الطلاب يتمتعون فيها بالمسكن والمأكل ، كما كان يصرف للكثير منهم مخصصات مالية . وقد زار الرحالة ابن جبير هذه المدرسة في القرن الخامس الهجري ، وترك صورة حية لطريقة التدريس فيها . وكان من أساتذة هذه المدرسة حجة الإسلام الغزالي الذي درس بها لمدة أربع سنوات ، كما برز من أساتذتها بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي .

وهناك مدارس اشتهرت في هذا العصر بالإضافة إلى المدرسة النظامية ، ومن أشهرها المدرسة المستنصرية التي شيدت سنة ٦٣١هـ ، والتي تنسب إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله . وقد أمدتنا روايات الرحالة بمعلومات طيبة عن هذه المدرسة وكيفية الحياة فيها . وكان طلابها لا يدفعون مصاريف مقابل تلقيهم العلم مجانا ، بل كانوا يتمتعون بالمسكن والعلاج ، وتوفير أدوات تلقي العلم مجانا في هذه المدرسة .

ومن أهم دور العلم في القاهرة كان الأزهر ، ودار الحكمة التي عرفت أيضا بدار العلم . وهي التي شيدها الحاكم بأمر الله الفاطمي . وتميزت بمكتبة كبيرة حوت العديد من المؤلفات تناولت علوم مختلفة ، كما أقام الملك العادل نور الدين في النصف الثاني من القرن السادس الهجري الكثير من المدارس في الشام من أهمها المدرسة النورية في دمشق ، كما أسهم السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في هذا المضمار . حيث أنشأ الكثير من المدارس منها ما أقامه في القدس والقاهرة والإسكندرية .

وشهدت بلاد المغرب العربي إنشاء عدة مدارس مثل مدرسة جامع الزيتونة ، ومدرسة جامع القرويين في فاس . كما كان لبلاد الأندلس مدارسها

التي كان لأساتذتها شهرة عالمية ، وأصبح يتوافد عليها طلاب العلم من بلاد مختلفة ومن ديانات متنوعة . وقد اشتهرت قرطبة بمدارسها في عهد الحكم الثاني ، وما كانت تقدمه من علوم دينية ودنيوية .

ح ـ المكتبات العامة (خزائن الكتب)

كانت المكتبات العامة أو «خزائن الكتب» من أهم مراكز العلم والثقافة في المدينة الإسلامية . ذلك لأنها أسهمت بالفعل مع المساجد ، والمدارس في التقدم الفكري ، والثقافي ، والمنجزات التي حققتها الحضارة العربية الإسلامية ، وخاصة إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن الكتب في ذلك العصر لم تكن ميسرة للناس على النحو الذي هي عليه في الوقت الحاضر .

وكان على طلاب العلم والمشتغلين به أن يتوجهوا إلى المكتبات ليتزودوا بما يسعون إليه من العلوم والمعارف . وقد أقيمت هذه المؤسسات لتسهيل مهمة المطالعة والاستنساخ ، والترجمة ، والتأليف ، وتيسيرها للراغبين في العلم ، وخاصة لغير القادرين منهم على اقتناء الكتب بسبب غلائها ، وندرتها ، لذلك سارع الأغنياء ، والعلماء ، والوزراء ، إلى تخصيص أماكن لهذا الغرض أطلق عليها «دور العلم» . خصص لها أصحابها الأوقاف كي تستمر في أداء رسالتها بعد وفاتهم بوصفها من أعمال البر والتقوى . كما ضم كل جامع كبير مكتبة خاصة .

وأخذت الأعداد في هذه المكتبات تتزايد مع مرور الزمن عن طريق ما أوقفه العلماء من كتبهم عليها وعلى مكتبات الجوامع وقد أخذ الخلفاء والأمراء وغيرهم يتفاخرون بجمع الكتب النادرة للمكتبات التي أنشئوها . ويصدق هذا على ما فعله الخلفاء العباسيون والفاطميون والخلفاء الأمويون في الأندلس . فقد تسابق هؤلاء في أقامة دول العلم ، والحكمة قبل انتشار نظام المدارس في الدولة . كما حرصوا على وضع مكتباتهم في متناول أيدي طلاب العلم والمعرفة .

وكانت أشهر مكتبات بغداد «بيت الحكمة» كما كان يسميها ابن النديم والقفطي . أو «خزانة الحكمة» كما كان يسميها ياقوت الحموي . ويرجح أن أساسها قد وضع في عهد هارون الرشيد ، وازدادت نموا في عهد ابنه المأمون ، الذي حرص بدوره على تزويدها بكل ما يمكن من الكتب التي ألفت في عهده أو عهد من سبقه ، وتميزت مكتبة بيت الحكمة باتساعها . فقد كانت عبارة عن منشأة كبيرة بها عدد من القاعات والحجرات الواسعة ، تضم كل منها مجموعة من خزائن الكتب مع ترتيبها ترتيبا حسنا ، وتصنيفها تصنيفا يتفق مع فروع العلوم المختلفة التي وضعت بها .

وكان لهذه المكتبات موظفون مسئولون عنها ، ومنهم المختصون بالترجمة والنسخ ، والتجليد ، وخزن الكتب وترتيبها على الأرفف ، ومنهم من يقوم بتزويدها بالكتب الأجنبية ، كاليونانية والفارسية وغيرها . حيث كان بعض الخلفاء يحرص على اقتناء هذه الكتب ، وإن تطلب الأمر عرض شروطا خاصة في المعاهدة التي كانت تبرم بينهم وبين الروم . وذلك مثل ما حدث مع الخليفة المأمون والامبراطور البيزنطي ثيوفيل ، حيث كان شرط المأمون لعقد هدنة معه أن يقبل باستقبال سفارة من طرفه تقوم بالبحث عن الكتب اليونانية في جميع فروع المعرفة كالطب والفلسفة وغيرها من الكتب الموجودة في عاصمته . وعن هذا الطريق وغيره تم تزويد بيت الحكمة بالعديد من الكتب . وكان الخلفاء العباسيون يأمرون فور حصولهم على هذه الكتب بترجمتها إلى اللغة العربية ، حيث كان يوجد متخصصون بترجمة مثل هذه الكتب ، ومن أشهرهم يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحق . وقد عين المأمون سهل بن هارون برتبة مرموقة حينئذ وهي رتبة «كاتب» ليكون مشرفا على «بيت الحكمة» . وذلك مما يدل على أهمية المكتبة بالنسبة للخليفة العباسي ومكانتها في دولته .

ولم يختلف الفاطميون في مصر عن العباسيين ، في إقامة المكتبات العامة بدولتهم . وخاصة في عاصمتهم ولا شك في أن من الدوافع التي دفعتهم على

ذلك ما كان هناك من تنافس شديد بينهم وبين العباسيين . وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله أنشأ وزيره يعقوب بن كلس «خزانة الكتب» بالقاهرة . ودأبت الخلافة الفاطمية على تزويدها بالكتب سواء تلك التي تؤيد المذهب الشيعي الإسماعيلي ، أو الكتب المختلفة في شتى أنحاء المعرفة . حتى بلغ عدد المجلدات الموجودة بها ما يزيد على مليون ونصف المليون مجلد ، وذلك وفقا لتقدير المقريزي . وقد امتد نشاط الفاطميين في إنشاء المكتبات إلى البلاد التي حكموها كالشام ، ومن أهم ما فعلوه كان إنشاء مكتبة في طرابلس عرفت «بدار العلم» .

هذا ، وقد وجدت في بلاد الشام مكتبات أخرى مثل التي أقامها الملك العادل نور الدين ، وكذلك وجدت مجموعة من المكتبات ذات أحجام متواضعة نسبيا في حلب ودمشق وغيرها من مدن بلاد الشام ، وكانت معظم هذه المكتبات ملحقة بالجوامع والمساجد .

كما عرفت بلاد المغرب المكتبات العامة أيضا ، وكانت تسمى هناك بالخزائن ، وتبرز في هذا المجال بشكل خاص «مكتبة خزانة جامع القرويين» . أما الأندلس فقد أولى حكامها اهتماما كبيرا بالمكتبات ، فقد أقام الحكم المستنصر بن الناصر مكتبة كبيرة ملحقة بقصره في قرطبة . وكان يرسل المختصين إلى بلاد المشرق وغيرها لشراء الكتب فور ظهورها . وكان فهرس مكتبته يتكون من أربعة وأربعين كراسة بكل منها عشرون ورقة تحتوي على أسماء الكتب . وقد تعرضت هذه الكتب للتلف عندما استولى الاسبان على المدينة .

خ ـ السجون :

السجن يعني باللغة الحبس ، وكان السجن يتم في أول الأمر في بيت أو مسجد . ولكن باتساع الدولة دعت الحاجة إلى بناء أماكن خاصة لهذا الغرض ، إلا أن السجن بمفهومه المعروف ، لم يظهر إلا في عهد معاوية بن أبي سفيان حيث أقيم مبنى خاص لهذه المهمة ، عليه حراس مقيمون لحراسة المسجونين .

وقد عومل المسجونون معاملة طيبة تحفل بالرأفة والرعاية ، وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم داخل السجن . مع عدم تعذيبهم أو حرمانهم . وهذا ما لاحظناه في كتاب عمر بن عبدالعزيز الذي أوصى فيه عماله «ألا يغل مسجون» وكذلك كان الأمر في العصر العباسي ، حيث كان يصرف على المسجونين الفقراء من أموال الصدقات أو من بيت المال ما ينفقون منه ومبلغا من المال كل شهر . وذلك حماية لهم من ظلم السجان لهم أو حرمانهم من الطعام والشراب . بل أكثر من ذلك صرف كسوة لهم مرتين في السنة . وكانوا قبل ذلك يخرجون وهم مقيدين بالسلاسل لطلب الصدقة من الناس للإنفاق على أنفسهم أثناء فترة حبسهم .

وتشير بعض المصادر إلى أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ـ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ـ ٩٠١م) خصص في ميزانية دولته مبلغا كبيرا يصل إلى ألف وخمسمائة دينار شهريا لإنفاقها على شئون السجون ، وسائر حاجات المسجونين من غذاء ، وشراب ، ومؤن ، وملابس وغيرها ، وبهذا تيسرت للمسجونين في سجون بني العباس الرعاية الطبية ، كما سمح لهم بممارسة بعض الحرف النافعة التي قد تفيدهم إذا خرجوا من السجن .

ويلقى السجناء في المناسبات الدينية والمدنية العطف والرحمة من قبل مسئولي الدولة ، وأصحاب القلوب الرحيمة من الناس . إلا أن هذه المعاملة الطيبة للمجسونين لم تستمر طوال عصور الدولة الإسلامية . حيث تغيرت أحيانا ، فكما يروي المقريزي ، أن المسجونين في القرن التاسع الهجري يخرجون بحراسة سجنائهم كي يشحذوا في الأسواق ، وهم مقيدين بالسلاسل ، كما أشار إلى أنهم كانوا يستخدمون في أعمال الحفر ، وتشييد المباني التابعة للدولة . بل إن المقريزي يصف حالة السجون بأنها كانت مظلمة قذرة تكثر فيها الوطاويط والروائح الكريهة ، وتكثر فيها القبائح المهولة . وكانت السجون أنواع ، منها سجون خاصة بالسجناء السياسيين ، ومنها الخاص بأرباب الجرائم من

اللصوص ، وقطاع الطرق وغيرهم . ومنها ما هو خاص بالنساء مثل سجن الحجرة في عصر الدولة المملوكية ، هذا وهناك طرق كثيرة للعقاب بجانب عقوبة السجن ، ومنها التشهير ، والتجريس ، وهي أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل ، ويضرب الجرس على رأسه ومن حوله حاملي المشاعي تنادي عليه ليتجمع الناس عليه . وفي نهاية المطاف يضرب أمام الناس بالسياط عقابا له على ذنبه .

د ـ الخوانق والمفرد «خانقاه» :

والخانقاه لفظ مأخوذ عن اللغة الفارسية ، ومعناها المبنى الذي ينزوي فيه أهل التصوف للتعبد والاعتزال والتأمل ويشبه معنى هذا اللفظ معنى لفظي الرباط ، والزاوية في العصر المملوكي ، حتى اختلط الأمر على كثير من المعاصرين في معانيهما والتفرقة بينهما . وعموما لم يخرج معنى كل منهما عن أنها كانت جميعها تعني بيت الصوفية ، ومنزلهم كما ذكر المقريزي .

ونتيجة لانتشار التصوف ، وكثرة أتباعه في المجتمع الإسلامي وخاصة في العصر المملوكي أن كثر بناء الخانقاوات في طول البلاد وعرضها ، وتنافس الملوك والأثرياء في تشييدها . كما حبسوا الحبوس عليها مما جعل لها كيانا قائما . ووصلت الخانقاوات إلى أعلى درجة في الرقي والتنظيم ، وأساليب الدرس حتى أخذت تحل محل المدرسة تدريجيا ، وأشرف عليها نخبة من العلماء المعروفين وعقدت فيها حلقات الدرس ، والوعظ ، والتفسير وقد لحق بها التطور على مر الزمن فأصحبت لها نظم مرعية وأصول متبعة .

وكان يرأسها شيخ تتوافر فيه مواصفات معينة مثل الخلق القويم ، والأمانة ، وغيرها من الفضائل التي تؤهله بالقيام بمسئولياته الدينية والتعليمية على أكمل وجه . وكان شيخ الخانقاه يلقي دروسه على مريديه وطلابه ويعظهم ويرشدهم وكان لهذا الشيخ خدام يتولون إدارة الخانقاه

وينظمون العلاقات بينها وبين من يزورونها . وكان بها مساكن للمساكين أو من يطلبون التصوف .

واعتبرت مشيخة الخوانق من الوظائف التي يصدر بها قرار من ديوان الإنشاء السلطاني ، ويعامل شيخ كل خانقاه في المكاتبة حسب أهمية الخانقاه التي يتولى مشيختها . وحتى تؤدي الخانقاوات دورها بشكل جيد فقد حرص منشئوها على توفير الطعام يوميا لروادها من القراء والمتصوفة والزوار بل خصصوا لهم جرايات شهرية أيضا .

ومن أشهر الخانقاوات في ذلك العصر ، خانقاه شيخو التي أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ٧٥٦هـ . وخانقاة الأمير بكتمر الساقي . وتعد خانقاه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري من أعظم وأهم الخانقاوات التي شيدت في القاهرة في ذلك العصر . ويمكن القول أن تلك الخانقاوات كانت إلى كونها مؤسسات صوفية كانت أيضاً معاهد علمية تربوية تُخرج كثيراً من أهل الدين والعلم وأصحاب التأليف والتصانيف العلمية ، وكان انتشارها في المجتمع الإسلامي انتشاراً يقيم التصوف وأحكام الدين ، وأصول العلم .

ذ ـ الربط (ومفردها رباط) :

يعني الرباط البناء المحصن الذي يقام في ثغور الدولة الإسلامية . ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة أعداء المسلمين ودفع خطرهم . كما يعني بيت للصوفية ، والمنقطعين للعبادة والدرس . وقد أكثر المسلمون من إقامة الربط على أطراف دولتهم ، لا سيما في الشام ، واقليم الجزيرة ، والمغرب ، والأندلس . وكان المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والعبادة . وبعد استظهار الدولة الإسلامية على الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تمثل العدو التقليدي والخطر الداهم على حدود دولة الإسلام ، فقدت الربط طابعها الحربي ، وكثر إنشاء الربط ذات الصفة الدينية في المدن ، وخاصة بعد انتشار التصوف ، فتحولت إلى دور للمتصوفة ، والعبادة والعلم . وكان ينفق على الربط من ريع أوقاف حبست للإنفاق عليها .

وكان لبعض الربط صفة تختلف عما ذكرناه ، وهي صفة الملجأ ، فقد ذكر المقريزي ، أن بيبرس الجاشنكير بنى رباطا ضم مائة جندي ، وغيرهم من المسنين الذين قعد بهم الزمن .

كما كانت هناك ربط خاصة بالنساء كملاجئ لهن ، يجدون فيها الرعاية ، وينقطعن فيها للدرس والعبادة . وقد ضمت هذه الربط النساء اللاتي طلقن ، أو هجرن ، ويضلن فيها حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن . وفي تلك الربط كانت النساء تحيك الملابس لهن وللرجال . وكانت هذه الربط مشهورة بشدة الضبط والحرص على مواظبة شاغليها من النساء بأداء العبادات على أحسن وجه . ومن أشهر ربط النساء ، ذلك الذي أنشأته «تذكار باي خاتون» ابنه السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤هـ .

ر ـ الزوايا :

«ومفرها زاوية» والزاوية مكان خصص للمنقطعين للعبادة من الصوفية . وهم الذين نذروا أنفسهم لعبادة الله ، والتقرب إليه ، والبعد عن متاع الدنيا . وقد ارتبطت الزوايا بأسماء شيوخها المعروفين الذين اشتهروا بالفضيلة والتبحر بالفقه ، وحب الخير والصلاح ، وكان هؤلاء لهم أتباع ومريدون ، لذا كانت لهم مكانة كبيرة لدى الحكام في العصر المملوكي . كما كان كل منهم يمثل اتجاها فكريا ، وتيارا دينيا متميزا عن غيره .

وكانت الزوايا بمثابة أماكن تؤدي منافع تعليمية واجتماعية لطلاب العلم والفقراء يدرسون فيها علوم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكافة العلوم الدنيوية مثل الطب والرياضيات وغيرها من العلوم . وكانت الزوايا مثلها مثل الخانقاوات ، والربط ينفق عليها من أموال الوقف .

وكان بعض أصحاب هذه الزوايا يحدد في وقفة عليها شروط خاصة منها عدم انقطاع الصوفية عن العبادة ، وعدم تغيبهم عن الزاوية أكثر من ثلاثة أيام .

وكانت هذه الزوايا تختلف في تيسير سبل المعيشة من ليونة أو خشونة حسب الوقف الذي أوقف عليها ، فبعض الزوايا توفر لقاطنيها الخبز فقط والبعض الآخر يتمتع أهلها باللحوم والفواكه وعسل النحل وغيره .

وقد كونت كل زاوية وحدة قائمة بنفسها ، وخصصت بداخلها عدد من الخلوات كل منها لأحد الصوفية ، كما ألحق بها حمام ومطبخ ، وخزانة للأشربة ، والأدوية . وبذلك تتوافر لساكنيها الضروريات المعيشية التي تغنيهم عن العالم الخارجي .

وهناك زوايا خاصة للمتزوجين منهم من قاطني هذه الزوايا وكان يشترط على المتزوجين منهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية . كما كان لشاغلي الزوايا عادات خاصة مثل خروجهم يوم الجمعة في موكب واحد ، ثم عودتهم مع شيخهم بعد الصلاة إلى زاويتهم .

ثانيا : عناصر السكان في المدينة الإسلامية :

لا شك في أن المدينة الإسلامية بما احتوته من منشآت اجتماعية من مساجد ، وقصور ، ومدارس ، وحمامات ، وغيرها من المنشآت الاجتماعية مثلت مركزا للحضارة العربية الإسلامية ، ومواضع لالتقاء المسلمين . ويدخلها من يشاء من المسلمين من مختلف العالم الإسلامي دون مانع ، أو ينظر إليه على أنه غريب ، لذا كثر توافد المسلمين وغيرهم على المدن الإسلامية للتجارة ولطلب العلم وغيرها من الأمور ، فحفلت هذه المدن بعناصر سكانية مختلفة غير متجانسة ، اختلط فيها أهل البلد بالغرباء من كل جنس ولون ، وتجاور فيها أهل العلم وأرباب الحرف والتجار الصغار والكبار ، وامتلأت مساجدها بالطلاب والعلماء .

وكان الانتماء في هذه المدن للإسلام لا لقبيلة بعينها ، أو عشيرة بذاتها ، انطلاقا من مبدأ المساواة الذي قرره الإسلام ، والذي تساوى فيه العرب على

اختلاف أنسابهم ومنازلهم ببقية الأجناس الأخرى انطلاقا من قوله تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فلم يكن هناك فرق بين عربي ، وفارسي ، وبربري ، وبين هؤلاء وأي جنس آخر انضوى تحت لواء الإسلام واستظل بظله ممن انتقلوا من مناطقهم الأصلية إلى تلك المدن ، واستقروا فيها ، ونسبوا أنفسهم إليها ، وأثروا في الحياة الفكرية والعلمية .

وكان المجتمع الإسلامي في هذه المدن معقداً من الناحية العرقية أو البشرية ، بسبب وجود تلك الأخلاط البشرية المتعددة . ومع ذلك فيمكننا أن نميز في مثل هذه المدن عنصرين أساسيين هما : العرب ، وأهالي البلاد المفتوحة . وسنتحدث عن كل عنصر على حدة وسنبدأ بالعرب .

أولا : العرب :

شكل العرب عنصراً هاماً ورئيسياً في المدن الإسلامية مثل دمشق ، والفسطاط ، والقيروان ، وقرطبة وغيرها من المدن سواء القديمة منها أو الجديدة التي أنشأها العرب مثل البصرة والكوفة وغيرها .

والعرب هم العنصر الذي كان يستوطن أساسا شبه الجزيرة العربية ثم انتقل إلى البلاد المفتوحة في موجات أولها كانت في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم تبعتها موجات أخرى متتابعة في العصرين الأموي والعباسي آثرت سكنى الحواضر والأمصار .

وكان للعنصر العربي مكانته في المجتمع الإسلامي ، فقد كان للعرب الحكم والقيادة ، وإن اختلفت هذه المكانة على مر العصور . ففي العصر الأموي عد الأمويون العرب مادة الإسلام ، واعتمدوا عليهم دون غيرهم من العناصر المؤلفة لسكان دولتهم ، وساد هذا العنصر في العصر الأموي . وبالرغم من ظهور عناصر أخرى ظل العرب يحتفظون بوجودهم وكيانهم في عدد من المناصب القيادية .

ويرى بعض الكتاب الحديثين أن عدد العرب في الشام لم يكن يزيد في القرن الأول الهجري على مائتي ألف نفس من مجموع السكان البالغ عددهم ثلاثة ملايين ونصف . والأرجح أنهم أكثر من ذلك بكثير وقد نزل معظم العرب في المدن واستقروا فيها ، أما من اشتغل منهم بالزراعة فكانوا قلة .

أما في مصر فقد استقر عدد كبير من المحاربين العرب ، وخاصة من العرب اليمنية في أنحاء متعددة منها بعد الانتهاء من فتحها . والملاحظ أن الفاتحين العرب كانوا يؤلفون أقلية بالنسبة للأقباط (سكان مصر الأصليين) وكانوا يعيشون في بادئ الأمر في عزلة عنهم في مدينة الفسطاط التي أنشأوها في وسط محيط كان أغلبه من الأقباط وقسموها إلى خطط وزعوها فيما بينهم .

كما اختط العرب مدنا أخرى في مصر على غرار الفسطاط مثل الجيزة . وكان معظم عرب مصر لا يشتغلون بالزراعة ، ولهذا السبب لم يختلطوا بالمصريين في أول الأمر ، ثم أصبحت مصر مركزاً لهجرات عربية متتالية دامت زمنا طويلا باعتبارها أقرب إلى بلاد الشام وجزيرة العرب ، وكان معظم الولاة الذين حكموا مصر اصطحبوا معهم جيوشاً معظم عناصرها من العرب ، وقد اتجه بعض هؤلاء إلى الاختلاط بالأقباط .

وبمرور الوقت امتزج العرب بالمصريين ، وأصبحوا لا يتميزون عنهم خاصة بعد أن أسقطهم الخليفة المعتصم العباسي من الديوان ، وقطع أعطياتهم ، مما اضطرهم إلى الانتشار في أرياف مصر ، والاختلاط بالمصريين ، ومصاهرتهم ، واحتراف الزراعة والتجارة ، وكان لذلك أعظم الأثر في تعريب مصر .

أما في الأندلس فقد كان العرب الذين دخلوا هذه البلاد قليلي العدد بالنسبة لجموع البربر الهائلة التي استقرت في الأندلس منذ أن افتتحها طارق بن زياد . وكان سبب تفوقهم العددي في الأندلس بالنسبة للعناصر الأخرى هو

اتباع أمراء بني أمية سياسة استخدامهم في الجيش الأندلسي . وذلك للحد من نفوذ العصبية العربية من ناحية ، ومواجهة الخطر الفاطمي من ناحية أخرى .

وفي المغرب كان العرب يشكلون أكثرية سكانية ، وذلك لاستيطان العرب الفاتحين فيه ، والذين أصبحوا بمرور الزمن عربا أفارقة ، أو عربا بلديين ، وينحدر إلى هؤلاء العرب الذين وفدوا من المشرق في العصرين الأموي والعباسي ، واستقروا فيه وأصبحوا من أهل البلاد . وبالإضافة إلى هؤلاء استوطن الكثير من الجند العرب الذين كانوا يشكلون أغلبية في الجيوش التي كان يبعثها الخلفاء العباسيون إلى المغرب .

ومما زاد في عدد العرب في المغرب أيضا الهجرة العربية الكبرى إليه ، ونعني بها هجرة قبائل بني هلال ، وبني سليم ، وبني رياح ، وبني زغبة ، وكان هؤلاء يغيرون على أطراف الشام والعراق ، مما دفع الخليفة العباسي إلى نقلهم إلى مصر ، ومن مصر وجههم الخليفة الفاطمي بدوره إلى المغرب للتخلص منهم من جهة ، ولضرب المعز بن باديس الخارج على سلطانه هناك من جهة ثانية .

كما استقر العرب في العراق ، وكان استقرارهم فيه تمثل في ظاهرة بناء المدن وتمصير الأمصار ، ووضح هذا في بنائهم الكوفة ، والبصرة . وذلك لتثبيت الفتح ، والارتكاز فيهما قبل الانطلاق لفتح البلاد المجاورة .

ثانيا : أهالي البلاد المفتوحة :

أ ـ أهل الذمة :

عاشت مع العرب في المدن الإسلامية جنبا إلى جنب عناصر من سكان البلاد المفتوحة فضلت البقاء على دينها ، سميت بأهل الذمة ، والذمة في اللغة العهد والأمان . كما سموا بالرعية . أي الذين أصبحوا في رعاية العرب ، أي

أنهم أصبحوا في ذمة العرب ، وعرفوا أيضا بأهل الكتاب ، ودخل في هؤلاء الذميين النصارى واليهود ، والمجوس ، والصابئة ، وكان معظمهم مقيماً في بلده وفقا لعهود العرب التي صالحوهم عليها . وقد أصبح الأمان الذي عقده النبي ﷺ مع أهل نجران نموذجاً احتذى به العرب بعد ذلك لإقرار حقوق أهل الذمة . ويطلق عليهم في الأندلس «المُعاهدة» ، أو «العجم» ، أو المستعربة ، وسموا في المغرب «الأفارق» وهم بقايا الفينيقيين واللاتين . وكانوا يشتغلون بالصناعة والزراعة . وتولى بعضهم مناصب هامة في الدولة . أما في مصر فكان معظم من لم يدخل في الإسلام من أهلها من الأقباط . وكان العرب يعاملونهم معاملة حسنة ، بسبب انضمام عدد كبير منهم إلى جانبهم عند الفتح ضد البيزنطيين .

وفي الأندلس حظي أهل الذمة بتسامح كبير من قبل العرب في العصر الأموي . وكان للنصارى واليهود أحياؤهم الخاصة في المدن الكبرى ، كما كان لكل منهم قاض يقال له قاضي العجم يفصل بين خصوماتهم وقضاياهم . وقد وصل كثيرون منهم إلى مناصب رفيعة في الدولة ، ولم يبدأ اضطهادهم إلا في عصر المرابطين عندما انحازوا إلى نصارى أسبانيا ضد المسلمين ، فحكم عليهم بالنفي والإبعاد عن الأندلس .

كذلك تمتع النصارى في العراق في العصر العباسي بتسامح ديني من قبل العرب وازدادت أعدادهم ، وسكنوا أماكن خصصت لهم في بغداد ، مثل حلة الشماسية ، ودار الروم ، وانتشرت كنائسهم في مدن العراق ، وظهر منهم شخصيات بارزة في الطب بوجه خاص ، وحظى منهم كثيرون عند الخلفاء العباسيين . كما تمتع اليهود في ظل بني العباس بكثير من ضروب التسامح الديني ومن مظاهر ذلك أن أصبح لهم في العراق الكثير من الهياكل التي يتعبدون بها ، وكان كبير طائفتهم يعرف «باسم الجالوت» وكان يقيم في بغداد ويتمتع بتقدير الخلفاء واحترامهم . كما كان لليهود في بغداد درب خاص بهم يعرف بدرب اليهود .

وفي مصر الفاطمية تمتع أهل الذمة بحرية وتسامح كبيرين ، وبالغ بعض الخلفاء الفاطميين في محاباة اليهود والنصارى كالعزيز بالله الذي تزوج من نصرانية ، وأنجب منها ولده الحاكم بأمر الله . كما قلد الخليفة العزيز بالله عيسى بن نسطورس النظر في الوزارة .

ب ـ الموالي :

وهناك فئة ثالثة عاشت في المجتمع الإسلامي بجانب العرب ، وأهل الذمة ، وهم الموالي . وهؤلاء هم الذين إعتنقوا الإسلام من أهل البلاد المفتوحة ، وعرفوا بالموالي لإنهم يدنيون بالولاء للعرب ، وكان معظمهم في العراق وفارس والمغرب ، ذلك لأن الإسلام إنتشر فيها أكثر من إنتشاره في أي قطر مفتوح آخر .

وقد عارض الموالي الدولة الأموية بسبب إعتمادها على العرب وإقصائها لهم على أمور السلطان مما جعلهم يرتمون في أحضان المعارضين لحكم الأمويين فدخل بعضهم في التشيع مثل موالي الفرس ، وإنضم البعض الآخر إلى الخوارج مثل بربر أفريقية ، وكان الهدف من ذلك هو إزالة الدولة الأموية وإقصاء الأمويين عن الحكم . فالفوا حزباً معارضاً للأمويين يقوم على أساس العنصرية العرقية أو على الشعوبية .

ووضع الموالي في المغرب يختلف عنه في المشرق لحرص العرب فيه على نشر الإسلام بين البربر منذ الفتح ، وذلك بسبب بُعد المغرب عن دار الخلافة وقد تحول البربر إلى الإسلام حتى لم يبق على غير الإسلام في المغرب سوى طائفتي النصارى واليهود ، وكانتا تؤلفان أقلية هزيلة وقد نتج عن دخول البربر في الإسلام إنتشار اللغة العربية بينهم .

ت ـ المولدون :

وبالإضافة إلى العرب ، وأهل الذمة والموالي عاشت في المجتمع الإسلامي فئة عرفت بالمولدين ، وهم أبناء العرب المسلمين في نساء نصرانيات ، وكان لهم

شأن كبير في الأندلس بسبب إقبال العرب الفاتحين لها على التزوج من نسائها من الأسبانيات . وكان للمولدين عصبة كبيرة في الأندلس ، إذ كانو يميلون إلى التعصب لأصلهم الأسباني ، وكثيراً ما قاموا بالثورات على الأمراء . ثم إنضموا بعد ذلك إلى العرب المستقرين في الأندلس ، وألفوا معهم حزباً أو عصبية تعرف بالعصبية الأندلسية ، وخاصة عندما إشتد نفوذ البربر في الأندلس واستفحل أمرهم . وينظم إلى المولدين في الأندلس طبقة المستعربين ، وهم من لم يسلم من الأسبان . وقد كانت لهم حكومتهم ، وإدارتهم ، وممثلهم لدى دار الإمارة .

فئات المجتمع الإسلامي :

كان المجتمع الإسلامي يتألف من فئات بعضها يندرج في مجتمع الخاصة ، وبعضها يدخل في مجتمع العامة ، وفيما يلي أهم الفئات التي تشكل منها المجتمع الإسلامي :

أ ـ الفئة الحاكمة :

تضم هذه الفئة أهم عناصر مجتمع الخاصة ، وهم عدا الخليفة ، أفراد البيت الحاكم ، وكبار القواد ، ورجال الدولة كالولاة ، والوزراء ، وكبار الكتاب ، والحجاب ، وكبار التجار ، والقضاة ، وكبار ملاك الأراضي .

وكانت هذه الطبقة تهيمن على مقاليد الأمور حيث كان منها رجال الإدارة والحكم ، وكان قوام هذه الفئة من العرب في عصري الخلافة الراشدة ، والأموية . ثم تبدل الحال في العصر العباسي فأصبحت الغلبة للعناصر الفارسية والتركية .

وقد تمتعت هذه الطبقة بالسيادة والنفوذ ، فشيدوا القصور ، وأبدعوا في زخرفتها وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش ، وشهدت معظم المدن الإسلامية قصوراً فخمة لهذه الطبقة . ففي بغداد شيد الخلفاء العباسيون ، ووزراؤهم

قصوراً بالغوا في عمارتها . وقد أصبحت القصور سمة من أبرز سمات الحياة الإجتماعية في المدن الإسلامية في ذلك العصر . وغدت محوراً لكثير من القصص التي إمتزجت فيها الحقيقة بالخيال .ولم يقتصر الأمر على الخلفاء وحدهم في تشييد وبناء القصور ، بل نافسهم في بنائها القادة الأتراك والديلم بعد ذلك .

وشيدت هذه الطبقة في الأندلس كذلك في عصر بني أمية وغيرهم ، وحذت الطبقة الخاصة في مصر حذوا نظيرتها في العراق والأندلس ، فبنت القصور في مدن مصر في عهود الطولونيين والفاطميين والأيوبيين ، والمماليك . وإشتهرت قصور هذه الطبقة بجمالها ، ورونقها واتساع بساتينها وفخامة أثاثها .

وتميزت حياة هذه الطبقة بالبذخ في المناسبات المختلفة ، كالزواج ، والختان وغيرها . وحفلت حياتها بأنواع من المجالس ، كمجالس الغناء ، والطرب ، والموسيقى ، والشراب ومجالس القصاص والوعاظ ، ومجالس الأدب والشعر وقد حظيت هذه الأخيرة بإهتمام خاص من الخلفاء ، وعمرت بحضور كثيف من كبار الشعراء ، ورجال الأدب في ذلك العصر .

ويمكن أن نضم إلى هذه الفئة جماعة من آل البيت الذين عرفوا في المدن الإسلامية بإسم الإشراف أو الشرفاء أو الطالبين ، وكان لهم ديوان يثبت فيه أنسابهم وشيخ له حق القضاء بينهم .

ب ـ فئة العلماء من رجال الدين ، والقضاة ، والفقهاء والقراء وغيرهم :

لم يكن لهذه الفئة مظهر كهنوتي ، لإن الإسلام لم ينشئ طبقة رجال الدين ، وإنما ظهرت هذه الفئة استجابة لحاجة المسلمين للقيام بوجباتها الدينية . ولقد أطلق على هذه الفئة إسم المعممين ، وأهل العمامة ، وقد حظى أفراد هذه الفئة بمكانة مرموقة لدى كافة طبقات المجتمع الإسلامي . كما عشوا في سعة من العيش فركبوا الخيل المطهمة أسوة بكبار رجال الدولة . وكان مصدر ثروتهم

الأوقاف التي أوقفت على المؤسسات العلمية ، والدينية ، كالمدارس ، والمساجد ، والخانقاوات وغيرها ، أو على بعض هؤلاء العلماء ، فكانوا يتوارثونها ابناً عن أب . هذا بالإضافة إلى ما منحته الدولة لهم من مرتبات ، وهبات ، وأرزاق سخية . تزاد لهم في المناسبات ، وخاصة في شهر رمضان المبارك .

وبجانب تمتعهم بسعة العيش أسبغت عليهم الألقاب التشريفية ، مثل فقيه زمانه ، وعالم عصره ، وزاد من مكانتهم أنهم صاروا مقصد العامة للتشفع لهم عند أهل الدولة .

ت ـ فئة أرباب السيف :

إختصت هذه الفئة بشئون الحرب والقتال ، أي أنها فئة المحاربين . وكان معظم أفرادها من العرب في صدر الإسلام ، لأن أهالي البلاد المفتوحة كان لا يسمح لهم بالمشاركة في الحروب بجانب المسلمين ، لأنهم في ذمة العرب الذين يدافعون عنهم ولكن بعد أن أسلم هؤلاء ، وهم من الفرس ، والترك ، والديلم والسودان ، وغيرهم ، كونوا قسماً هاماً في الجيش الإسلامي .

وأصبحوا يتمتعون بامتيازات خاصة كركوب الخيل الذي كان مقصوراً على الطبقة الخاصة فقط . وزادت أهميتهم ومكانتهم في المجتمع في عصر الضعف السياسي للخلافة العباسية ، وأخذوا يتدخلون بشكل مباشر وفعال في شئون الحكم ، والسيطرة على مقاليد الأمور في الدولة لدرجة أنهم كانو يخلعون ويعينون الخلفاء كما يشائون .

ث ـ فئة أرباب العلم أو الكتاب :

يدل أسمهم على أن صنعتهم الكتابة ، وكان معظمهم من أهل الذمة لمعرفتهم بأصول الكتابة ، ولغات المجتمع المحلية مثل الفارسية واليونانية وقد عمل هؤلاء في دواوين الدولة ، وكانوا يكتبون بلغاتهم الأصلية . ولكن بعد أن تم تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ هـ) سنة ٧٣ هـ ، صار قلم الدولة هو العربية فعادت للعرب المكانة للأولى في

صناعة الكتابة ، وصارت دواوين الدولة تكتب بالعربية .

وكان لهذه الفئة حظ وافر من الأهمية لخبرتها ودرايتها في الأمور السلطانية ، أو شئون الحكم والإدارة ، فقد عهد الأمويون إلى كتابهم بأعمال الوزارة ، كما إشترط على الوزراء في العصر العباسي اشتغالهم بالكتابة قبل أن يتولوا الوزارة . وهذا بخلاف تلك الأعداد الكبيرة من الكتاب الذين عملوا في الدواوين المختلفة . وأصبح رجال هذه الفئة في العصر العباسي مثلا يحتذى بهم الناس في الزي ، والوقار . لذلك بلغت مكانتهم في المجتمع درجة عالية . وليس أدل على ذلك من قول رجل لبنيه «يا بني تزينوا بزي الكتاب ؛ فإن فيهم أدب الملوك ، وتواضع السوقة» .

ج ـ فئة التجار :

إنقسم التجار إلى فئتين : التجار الكبار والتجار الصغار ، أما الفئة الأولى فكانوا يمثلون طبقة ارستقراطية المال لتعاملهم بالسلع الثمنية كأنواع الرقيق ، والمجوهرات النفسية ، وأنواع البخور والحرير ، والمشغولات الذهبية وغيرها .

وقد إرتبطت هذه الفئة بالطبقة الحاكمة ، ومن يدور في فلكها كالأمراء ، وكبار رجالات الدولة . وقد عاش هؤلاء في يسر ، ورخاء فبنوا الدور وعلوا الصروح ، ونافسوا في بنائها الحكام والأمراء . وأما صغار التجار فهم الذين إختصوا بتجارة التجزئة ، وينضم إلى هؤلاء الباعة . وكان اتصال هذه الفئة من التجار بالعامة أتصالاً مباشراً . وعاش بعض تجار التجزئة في رخاء ويسر لما يدره عملهم بالتجارة من أرباح كثيرة .

ح ـ فئة أرباب الحرف :

ونعنى بهم أصحاب المهن والصناع وكانت هذه الفئة تتألف في معظمها من أهل الذمة ، أو الموالي ، أو المولدين ، وذلك لانشغال العرب بالجندية ، وأنفتهم من الإشتغال بالصنائع خاصة في صدر الإسلام ولكن فيما بعد دخل العرب ضمن هذه الفئة بعد إستقرارهم في البلاد المفتوحة .

وكـان من المعـروف أن تكون لكل مـهنة نقـابة ذات نظام ثابت تحـدد عددهم ، وتيسر معاملاتهم فيما بينهم وبين بعض ، وفيما بينهم وبين جمهور الناس . وكان لهم رئيس أو شيخ يرأسهم وينظر في مشاكلهم ويهتم بشئونهم . ويكون وسطاً بينهم وبين السلطة الحاكمة في البلاد . وكان لكل مهنة سلم خاص يندرج أعضاؤها وفق نظامه ، ويبدأ عادة بشيخ هذه الحرفة أو معلمها ، ثم المتعلمين ، ثم الصناع ، وأخيراً الصبيان . ووجدت تقاليد معينة لكل مهنة أو صناعة . كما كان شائعاً أن يتجمع أعضاء كل مهنة في حارة أو درب .

ومن أسماء بعض الطوائف والحرف والصناع في ذلك العصر : الخبازون ، والجزارون ، والحبوبيون ، والجنائزيون ، والطباخون ، والصيارفة ، والأطباء ومؤدبوا الصبيان وغيرهم .

خ ـ فئة الزراع أو (الفاحون) :

تشكل هذه الفئة غالبية المجتمع الإسلامي في البلاد المفتوحة ، ذلك لأن معظم الناس في العصور الوسطى كانت تعتمد في حياتهاعلى الزراعة ، أما الإعتماد على الصناعة فلم يظهر إلا في أوائل العصور الحديثة .

ولم تكن حالة هذه الفئة طيبة ، لإن الأراضي كانت في مجملها ملكاً للدولة ، وكان الزراع يعملون فيها بالأجر أو بالسخرة ، غير أنه ظهر في العصر العباسي نظام الإلتزام أو (القبالات) أو (التزايد) . وهو نظام يقضي بتأجير مقاطعة كبيرة من الأرض لمدة معينة لشخص واحد يسمى متقبل أو ضامن أو ملتزم . وعلى هذا الأساس ظهرت طائفة من كبار المزارعين ، بينما ظل معظم الزراع أشبه برقيق الأرض ، ولذلك كان يحرم على الزراع الهجرة إلى المدن ، وكانت هذه الفئة تعيش حياة بائسة ، ولاسيما في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، إذ أصبحت معظم الأراضي ملكاً للحكام . وأضطر الزراع إلى العمل بأجور زهيدة ، وأحياناً بالسخرة دون أجر .

ورغم محاولات الخليفة عمر بن عبد العزيز للتخفيف عن هذه الفئة بالسماح لهم بالذهاب حيثما يشاءون ، والإستقرار حسبما يحبون من المدن والأمصار . إلا أنهم عادوا لما كانوا عليه بعد وفاته .

على أية حال ، لم تصل القسوة التي عانى منها افراد هذه الفئة إلى درجة العبودية التي كانت معروفة وسائدة في أوروبا في ذلك الوقت ، والتي عرفت بنظام الاقطاع . وهو نظام يجعل الفلاح ملكاً لصاحب الأرض الإقطاعي .

د ـ السقائون والمكاريون :

عرف الذين يتولون تسبيل الماء وتوزيعه على من يرغب في شرائه بالمزملاتية ، ووضع لهؤلاء شروط صحية صارمة من قبل المحتسب . حيث اشترط على من يقوم بتسبيل الماء للناس ان يكون سالماً من العاهات والأمراض ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يجب أن يتمتع بأخلاق طيبة في معاملاته مع الناس ، فيعاملهم معاملة حسنة .

وكان هؤلاء يطوفون بالماء فوق ظهور الجمال وغيرها من الدواب التي تستخدم لهذا لغرض على المنازل والأسواق لإمدادها بما تحتاج إليه من ماء . وقد قدر أحد المؤرخين عدد الجمال المتسخدمة لهذا الغرض في مدينة القاهرة في القرن الثامن الهجري بمائتي ألف جمل .

أما المكاريون . فهم الذين يتولون توصيل الناس من مكان إلى آخر في داخل المدينة وخارجها ، وقد استخدم هؤلاء الحمير في نقل الناس . وقد عنى هؤلاء بحميرهم عناية كبيرة فقاموا برشمها وتطهيمها ، كي تبدو في أجمل صورة حتى يستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم نظراً لسرعتها ووداعتها . وقد قدر ابن بطوطة عدد المكاريين في القاهرة في القرن الثامن الهجري بثلاثين ألف مكاري .

ذ ـ العامة أو السوقة :

أطلق على هؤلاء أسماء عدة بجانب العامة والسوقة مثل : المشاعلية ، والزعر ، والحرافيش ، وغيرها من الأسماء التي تطلق عليهم بإختلاف البلاد والمدن الإسلامي . ويبدوا من إستعمال هذه الألفاظ التي وردت في المراجع المعاصرة أنها تعني المعدمين وأهل الفساد من الدهماء . وقد صف أحد المؤرخين المعاصرين الحرافيش بأنهم طائفة كبيرة ، وأهل صلابة ووجوه دعارة . وأنهم بسبب صلابتهم وقوتهم غدوا أصحاب سطوة تخشاها السلاطين .

أما المشاعلية فهم حملة المشاعل في المواكب وغيرها . وإعتبرت هذه الفئة في مصر من الطبقة الوضيعة ، لإنهم كانوا يشتغلون بأعمال مثل : كنس الطرقات وكسح الأقنية ، وتنفيذ الاعدام في المحكوم عليهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاشت هذه الفئة من سكان المدن الإسلامية في ضيق وعسر وقد اكتظت بهم بعض المدن مثل بغداد والقاهرة ، ودمشق ، وكان عدد كبير منهم ليس له مأوى في الليل والنهار سوى الطرقات ، وكانوا يقضون حياتهم أشباه عراه . وكثيراً ما دفع الضيق والجوع والعرى بهؤلاء إلى انتهاز الفرص للنهب والسلب . لذا كانوا مصدر فساد واضطراب في المجتمع وقد ذاقت فئة العامة الأمرين خلال فترات اشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار . وكانت صيحاتهم الجاءعة تنطلق في وجوه الخلافاء مطالبة بالخبز وكانت شكاواهم أحياناً تأخذ طابعاً من النقد العنيف الذي يصل إلى حد شتم وسب الخلفاء وخاصة في أوقات إشتداد وطأة الجوع وارتفاع الأسعار ، وإنتشار الظلم من قبل موظفي الخلفاء ، مما يدفع المسئولين بالتدخل لتخفيف الأمر عليهم .

قد حرص حكام المسلمين من خلفاء وسلاطين في العصور الوسطى على مد يد العون إلى هذه الفئة المعدمة من سكان المدن الإسلامية ـ بقدر استطاعتهم ـ وذلك بتوزيع الأموال والغذاء والكساء عليهم ، وخاصة في أوقات الأزمات الإقتصادية وذلك لمنعهم من التسول أو الإنحراف .

ورغم جهود حكام المسلمين للتخفيف عن فئة العامة في المجتمع الإسلامي ، إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور جماعة منهم عرفت بالعيارين أو الشطار ، تميزت حركاتهم بطابع ثوري ضد الحكام . وزاد من خطرهم أنه كان لهم تنظيم عسكري خضع لقيادة موحدة ، وتنظيم مدني يرعى أمورهم الخاصة . مما أوجد لهم مركز ثقل في الأحداث جعلت بعض الخلفاء والقواد يلجأون إليهم طلباً لتأييدهم ومعونتهم ضد خصومهم .

ومما سبق يتضح لنا أن العامة رغم ما كانوا يعانونه من مظاهر الإهمال السياسي والإجتماعي في ذلك تلك العصور ، إلا أنهم كانوا يمثلون قوة لها شأنها أحياناً .

ر ـ فئة الرقيق :

وجد الرقيق بكثرة في المجتمع الإسلامي كما وجد في أي مجتمع آخر في العصور الوسطى . وكان أكثر الرقيق في المجتمع الإسلامي من السود الذين جلبوا من أفريقية ، وذلك لامتداد الخلافة الإسلامية إلى تلك القارة . كما كانت هذه القارة مصدراً هاماً لتجارة الرقيق منذ العصر الجاهلي . وكان التجار في ذلك الوقت يجلبون الرقيق من الحبشة ، وأواسط أفريقية . وقد استخدم هؤلاء في العصر العباسي في أعمال الخدمة ، كما إعتمد عليهم ملاك الأراضي ، وأصحاب الإقطاعيات في الزراعة .

ونسمع عن معاناه هؤلاء الزنج في بعض الحالات من سوء المعاملة ، والإرهاق مما أدى بهم في بعض الأحيان للقيام بثورات مثل ثورة الزنج فيما بين عامي ٢٥٥-٢٧٠ هـ في المنطقة الممتدة ما بين البصرة وواسط ضد الظلم الإجتماعي تخلصاً من حالتهم السيئة . وكانت ثورة الزنج من العوامل التي أدت إلى إنصراف أولي الأمر عن إقتناء الرقيق الأسود وإقبالهم على الرقيق الأبيض من الأتراك الذي كان يجلب من أواسط آسيا ، خاصة من

سمرقند ،والشاش ،وفرغانه وغيرها ، والصقالبة الذين كانوا يجلبون من أواسط أوروبا .

أما الرقيق في المغرب والأندلس ، فقد كان معظمهم من الصقالبة . وعرفوا هناك بالعبيد والفتيان . وكان يجلبون من وسط أوروبا . وقد تولى بعض تجار اليهود عملية خصي قسم من هؤلاء الرقيق في مدينة فردان باللورين وغيرها من المدن الفرنسية . ومن ثم بيعهم لخدمة الحريم في قصور الخلفاء ، وكبار رجال الدولة .

ومعلوم أن الإسلام جاء بشرائع ونظم ما كانت معروفة ، وسائدة قبله بخصوص «الرق» بأن وضع قيواداً للحد من الإسترقاق ، إذ دعا إلى عتقهم تقرباً إلى الله تعالى .وجاء ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم بقوله تعالى «وفك رقبة» وأعتبر ذلك من أفضل أنواع التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ووضع قيوداً صريحة للحد من نظام الإسترقاق .

على أية حال ، لقد عامل الإسلام قضية الرقيق معاملة إنسانية ، حيث أباح الزواج منهم ، وإذا أنجبت الأمة ولداً سميت بأم ولد ، وتصبح حرة إذا مات سيدها . ويصبح أبناوها أحراراً قانونياً . كما أتاح للرقيق أن يشترون حرياتهم بدفع قدر من المال . بل أكثر من هذا جرى العرف على أن يسمى الصبي منهم فتى والأمة فتاة .

ثالثاً : المرأة في المجتمع الإسلامي :

كرم الإسلام المرأة وليدة ، وفتاة ، وزوجة ، وأماً ، وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، ومنحها حقوقاً إنسانية وشرعية ، ومدنية . وأسند إليها تبعات هامة في حياة المجتمع . رافعاً بذلك من شأنها ، ومكانتها ، ومساوياً بينها وبين الرجل في الإنسانية في جميع التكاليف الشرعية إلا في بعض الأمور المحدودة كما ساوى بينهما في الحقوق المدنية مثل التقاضى ، والبيع والشراء ، وعقد العقود ، مما أتاح

للنساء التمتع بما ملكت أيمانهن من أموال وغيرها دونما حاجة إلى أخذ أذن زوجها في ذلك .

إلا أن التشريع الإسلامي لم يسو بينهما أمام القانون فجعل للرجل درجة عليها «وللرجال عليهم درجة» . وما ذلك إلا للزوم الرجل بالإنفاق عليها ، وتحمله مسئوليات جسام تجاه القانون والمجتمع . بينما لم يلزم الإسلام المرأة بأية حقوق أو تبعات حتى إرضاع أطفالها كلف الزوج تبعاته .

ويلاحظ أن الإسلام عمل على رفع شأن المرأة في التشريع عما كانت عليه في الجاهلية ، فحفظ حقوقها في الزواج والطلاق ، والأجور ، والمهر ، وإستئذان البكر والأيم في نفسيهما في الزواج . وكفل لها حرية إبداء الرأي ، والأخذ برأيها إذا كان موفقاً . وحض على حسن معاملتها . ولهذا منح الإسلام المرأة حقوقاً إنسانية ومدنية وإقتصادية وإجتماعية لم تمنحها قبله أية شريعة سابقة عليه .

وهذا ما انعكس على دورها في الحياة العامة في المدينة الإسلامية ، حيث شاركت الرجل في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي في العناية بالحديث وروايته ، وحضور مجالس العلم . وإشتهرت طائفة من الصحابيات برواية الحديث مثل : السيدة عائشة أم المؤمنين ، وكانت تحدث الناس ، وتصحح للصحابة وتفتيهم .

كما نبغ عدد كبير من النساء في المجتمع الإسلامي في العصورالوسطى في علوم القرآن والحديث ، والفقه ، واللغة وشتى أنواع المعارف ، وكانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثيراً من أعلام الإسلام كابن عساكر وإبن حجر العسقلاني . ولم ير الحافظ بن عساكر غضاضة في التصريح بأنه سمع عن ملكة بنت داود ، وأنها أجازت له جميع حديثها . وإبن حجر في القاهرة يذكر أنه حصل على إجازتين الأول من شمس بنت ناصر الدين محمد ، والثانية من

خديجة بنت العماد الصالحية . كما ذكر أبو حيان من بين أساتذته ثلاث من النساء . هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل ، وشامية التميميه ، وزينب بنت المؤرخ عبداللطيف البغدادي . وقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسن علي بن أبي طالب كان لها مجلس علم حضره الإمام الشافعي ، وسمع عليها فيه الحديث .

وكانت فرص التعليم والثقافة متاحة في المجتمع الإسلامي للجواري مما أتاح لعدد كبير منهن البروز في علوم القرآن والحديث والفقه ، واللغة ، والأدب ، وشتى أنواع المعارف والفنون . وكتب التاريخ العربي مملوءة بأخبار الجواري وما بلغته من شأو بعيد في ميادين العلوم والآداب . ومن هؤلاء جارية بنت المطرف التي برعت في العروض حتى سميت «بالعروضية» .

كما شاركت المرأة في الحيَاة السياسية ، وتوجيه سياسة الدولة . وقد أشارت المصادر الإسلامية إلى نماذج من النساء مارسن السياسة ، واضطلعن باعباء الحكم ، فكانت منهم الملكة والأميرة الحاكمة ، والموجهة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي ، وكانت من ذوات النفوذ ، والسلطان ، والإدارة ، والعقل ، والرأي ، وقد لعبت دوراً هاماً في تصريف سياسة الدولة في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي . وأروي بنت أحمد بن جعفر الصليحية ، وكانت ملكة حازمة تولت أمور الحكم بعد وفاة زوجها سنة ٤٨٤ هـ في اليمن وكان يجتمع عندها الوزراء وتحكم من وراء حجاب ، وكان يدعى لها على منابر المساجد . والسيدة صبح البشكنسية زوجة الخليفة الحكم المستنصر الأموي في الأندلس التي قامت بدور هام في تصريف سياسة الدولة في عهده .

غير أن المرأة المسلمة لم تلبث أن فقدت كثيراً من مكانتها في المجتمع الإسلامي . وكان من أسباب ذلك إقبال الناس على حياة اللهو والترف ، وكثرة

الجواري والإماء والتهافت عليهن خاصة بعد توفر الأموال بيد العرب ، مما أفسد الأخلاق الحميدة ، وأصبح الزوج يحرص على نسائه ، فنشأ الحجاب ، وكان الناس كلما إزدادوا أدماناً على اللهو ، وإمعاناً في الترف إزدادوا حذراً من المرأة وتضيقاً عليها ، مما أدى إلى استهانة الرجل بالمرأة ، وعزلها عن أوجه الحياة الإجتماعية التي كانت تمارسها بحرية قبل ذلك . وحدث مثل ذلك في مصر الفاطمية ، وفي الأندلس .

ولكن ما يسترعي الانتباه أنه رغم القيود الاجتماعية التي فُرضت على المرأة كما سبق ذكره ، وُجدت من النساء من قمن بدور بارز في الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، وهذا يدل عليه ذلك العدد الضخم من تراجم النساء الذي تحتويه تواريخ المدن الإسلامية في العراق والشام ومصر وغيرها . فضلا عما كتب في التراجم والطبقات من ذكر لنساء شهيرات أسهمن في مختلف ألوان النشاط السياسي والفكري والديني والاجتماعي . وحسبنا أن السخاوي أفرد في كتابه «الضوء اللامع» للنساء ما يزيد عن الألف ترجمة لامرأة من شهيرات النساء اللاتي توفين في القرن التاسع الهجري .

أما عن نشاط المرأة المسلمة في المدينة الإسلامية في شوارعها ، وأسواقها ، ومتنزهاتها ، فقد كن يباشرهن أمور الشراء بأنفسهن ، وكن يشترين كل حاجات المنزل وحاجاتهن ، وحاجات أولادهن ، وأزواجهن من الأسواق ، وكانت النساء تخرجن إلى المتنزهات وأماكن الفرجة للتنزه والترفيه عن النفس برفقة أزواجهن أو أولادهن .

على أية حال ، أدى تعدد فئات المجتمع في المدينة الإسلامية وتنوع طبقاته ، وتباينها في المستوى ، مع كثرة السكان ، واختلاف ميولهم ومشاربهم ، إلى أن تصبح المدينة الإسلامية حافلة بالنشاط والحيوية .

رابعا : مظاهر الحياة الاجتماعية :

كانت حياة المسلمين الاجتماعية في بادئ الأمر بسيطة تطابق روح الإسلام ولكن بعد أن اختلط العرب بأهالي البلاد المفتوحة أخذت الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية تبتعد تدريجيا عن بساطتها الأولى ، وتتأثر بعادات وآداب الشعوب التي اختلط بها العرب ، مما أدى إلى صياغة أنماط عامة من الأخلاق والعادات ما كانت معروفة لديهم قبل اتصالهم بهذه الشعوب . مما جعل حياتهم تزخر بملامح جديدة من أبرزها كثرة الجواري ، والخروج إلى الصيد ، وظهور سمات الترف في ملبسهم ، وتنوع أصناف طعامهم ، وتعدد أنواع شرابهم ، وشيوع استخدام الخصيان في دور النساء . ودخلت عليهم الكثير من عادات الفرس ، والبيزنطيين ، وآدابهم ، وتقاليدهم فتشبه الخلفاء بقياصرة الروم ، وملوك الفرس في الظهور بمظاهر الأبهة في حياتهم الخاصة ، وسوف نتناول بالتفصيل مظاهر حياتهم الاجتماعية كما يلي :

أولا ـ المجالس :

أ ـ مجالس الخلفاء :

جلس الخلفاء الأمويون وغيرهم من الخلفاء في قصور فخمة بعد أن كان عمر بن الخطاب يجلس للناس في المسجد ، وقد بنى هؤلاء الخلفاء قصورا خاصة لهم وفرشوها بالطنافس ، والوسائد ، والديباج ، والخز ، واتخذوا أسرة من الأبنوس ، والعاج ، وعلقوا الستور ، وأقاموا الحجاب والحرس . ونقشوا الأشعار في صدور مجالسهم .

وكان مجلس الخليفة ينعقد في قاعة أو بهو كبير على جدرانه الستائر الحريرية . وفي وسطه يوضع سرير أو كرسي الخليفة مصنوع عادة من العاج أو الأبنوس ومطعم بالذهب . ويتخذ الخلفاء في هذه المجالس سترا تفصل بينهم وبين الناس ، وهذا إذا كان المجلس مجلسا للشراب والطرب . وإذا كان الوقت شتاء توضع مواقد الفحم في وسط المجلس ويحرق فيها البخور .

وكان لا يسمح لأحد بالدخول على الخليفة إلا بعد الاستئذان . ويسمح الحجاب للناس بالدخول حسب طبقاتهم ورتبهم وأهميتهم . وكان يخصص لكل طبقة وقت محدد . فهناك وقت معين للجلساء ، ووقت للأدباء ومثله للشعراء وهكذا . كما كانت هناك مجالس للعامة من الناس ، وفيها يتقدم الناس حسب درجاتهم . وكان الداخلون على الخليفة يجلسون في الأماكن المخصصة لهم ووفق مراتبهم ، ومن آداب مجلس الخليفة أن لا يأمر في المجلس أحد سواه . ولا ينهض أحد إلا إذا نهض الخليفة ، ومن ينصرف في حضرة الخليفة يمشي القهقرى ، ووجهه نحو الخليفة حتى يتوارى .

ب ـ مجالس الأدباء والشعراء في قصور الخلفاء :

كثيرا ما تعقد هذه المجالس في حضرة الخلفاء . وكان يحضرها نخبة من فحول الشعراء والأدباء من أهل الأخبار ، والنوادر ، والأدب ، والشعر ، يحدثون الخليفة بما يحبه من أخبار العرب ، ونوادرهم ، وأشعارهم ، كما كان الخلفاء يستمعون للشعراء ويجيزونهم .

ت ـ مجالس الغناء والطرب والشراب :

عقدت هذه المجالس في قصور الخلفاء ، وقصور وبيوت الخاصة من الناس وأثريائهم . وعادة ما تنفق على هذه المجالس مبالغ طائلة . وذلك لجلب المغنين ، والموسيقيين المشهورين من أنحاء الدولة ليحيوا الحفلات فيها . ومن أشهر المغنين في ذلك الوقت إبراهيم الموصلي ومخارق ، وذرياب وغيرهم .

وحفلت هذه المجالس بحضور الجواري اللائي اشتهرن بالعزف على الآلات الموسيقية مثل شاجية ، وعبيدة الطنبورية وغيرهما من الجواري المشهورات بالغناء وبالصوت الرخيم ، والعزف بمهارة على مختلف الآلات الموسيقية . وكان بعض الخلفاء يستخف به الطرب في مثل هذه المجالس فيخرج عن وقاره فيقفز واقفا ويرقص . وعادة ما تختم هذه المجالس بإغداء الهدايا على المغنين والجواري .

كما عقدت مثل هذه المجالس في أماكن خاصة أنشئت لهذا الغرض . وكان يقصدها الأثرياء لسماع الموسيقى ، وكانوا يرتدون للذهاب إليها الألبسة الملونة . وكانت الجواري يرقصن في هذه المجالس ، وهن يلبسن الثياب المزركشة الملونة ويحملون الزهور والرياحين .

ث ـ مجالس القصاص :

كان القصاصون يجلسون في بادئ الأمر في المساجد أو البيوت ، أو الأماكن العامة ويقصون على الناس القصص وأحداث التاريخ والأساطير ، وهي تعتمد غالبا على الخيال حتى تكتسب صفة التشويق ، والترغيب ، ألا أن بعض القصاصين لم يكتفوا بهذا ، بل أخذوا يرددون قصصا لا تخلو من صور المجون ، الأمر الذي جعل العلماء ورجال الدين ينادون بوقفهم ، ومنعهم من الظهور في الأماكن العامة . ووصل الأمر أن أحد الخلفاء العباسيين أمر بضربهم ، وملاحقتهم ، والقضاء عليهم .

ج ـ مجالس الوعاظ :

عقدت هذه المجالس في قصور الخلفاء ، وبيوت خاصة الناس ، وفي الأسواق ، والقرافات وغيرها . وكان يتولى الحديث فيها العلماء والصلحاء فيعظون الناس ، ويرشدونهم ، ويجيبون على أسئلتهم فيما يتعلق بالشرع . وكان هؤلاء في بادئ الأمر يؤدون مهمة بناءة للمجتمع بتوجيههم الناس إلى الخير والرشد والصلاح ، إلا أن بعضهم بدءا من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تخلى عن هذا النهج في الوعظ ، وأخذ ينشر الخرافات والبدع بين الناس من خلال وعظه ، فانحط مستواهم الفكري . كما لجأ بعضهم إلى استثارة الفرق والمذاهب الإسلامية بعضها ضد بعض ، مما أقلق المسئولين في الدولة ، فأصدروا تعليمات تقضي بتحديد نشاطهم في مجال الوعظ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط دون التطرق لأية أمور أخرى .

ويلاحظ أنه رغم ما احتوته قصص ومواعظ هؤلاء من مبالغات وانحرافات ، إلا أنها كانت تمثل لونا من ألوان النشاط النفسي والفكري على المستويين العام والخاص في المجتمع الإسلامي .

ح ـ مجالس العامة :

كانت تعقد في المساجد أو البيوت ، وكانت حفلات الزواج مجالا مناسبا لعقد مثل هذه المجالس ، حيث يحضر الناس لسماع الغناء فيها لمناسبة الزواج . وكان بعض هذه المجالس ، وخاصة التي كانت تعقد في البيوت أو المساجد مجالس جادة . وكان الحديث يدور فيها حول الزهد وغيره من الموضوعات العلمية والدينية . ويتحاشى فيها ذكر الطعام والنساء . وكان في بعضها يلعب الناس الشطرنج ، وخاصة تلك التي تعقد في البيوت ، باعتباره وسيلة تسلية جادة .

ثانيا ـ حياة القصور :

شيد الخلفاء القصور الفخمة وكسوا جدرانها بالمرمر وزينوها بالفسيفساء ، وطلوا جدران غرفها بماء الذهب ولطفوا جوها بالنافورات ، والمياه الجارية ، والحدائق الغناء .

ومن أشهر القصور ، قصر «الخضراء» الذي أعاد معاوية بن أبي سفيان بناءه ، وقصر «الصفراء» ، وقصر «المشتى» الذي زينت واجهته الخارجية بالنقوش ، ونقشت على جدرانه اللوحات الفنية المعبرة . وقصر «باب الذهب» الذي شيده أبو جعفر المنصور كما شيد هارون الرشيد قصراً على دجلة تأنق في تجميله ، وزينه بأبهى معالم الزينة . وبالغ بعض الخلفاء العباسيين في بناء القصور كما فعل الخليفة المتوكل العباسي الذي بنى وحده في سامراء تسعة عشر قصرا ، وشق بينها الترع والقنوات لتوصيل المياه إليها . وكان قصره المعروف بالعروس أحسن مثال على فخامة هذه القصور ، حيث أنفق على بنائه ثلاثين ألف ألف درهم .

ولم يقتصر تشييد القصور على الخلفاء الأمويين والعباسيين فحسب ، بل جاراهم الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، وأهل الثراء . فشيد هؤلاء في العصر الأموي قصوراً تشمل على العديد من الأروقة ، وفرشوها بالطنافس الفاخرة ، ووصلوا لها المياه العذبة من الأنهار ، وأحاطوها بالحدائق الغناء . وكذلك شيد أمراء البيت العباسي وكبار رجالات الدولة قصورا تميزت بفخامة بنائها واتساعها ، أحاطوها ببساتين ذات أرياض خصبة زرعت بأنواع الأشجار ما يأتي بأطيب الثمار ، ومن هذه القصور قصر عيسى بن علي بن العباس الذي كان يسع لأربعة آلاف رجل ، وقصر الوزير ابن الفرات الذي امتاز ببستانه الكبير الذي غُرست به أنواع عجيبة من الأشجار ، ووضعت فيه الكثير من الحيوانات الأليفة كالغزلان والنعام ، والمتوحشة كحمر الوحش والأسود وغيرها . كذلك شيد البرامكة في الجانب الشرقي من بغداد قصوراً منيفة حيث بنى جعفر البرمكي قصراً له بالشماسة أحاطه ببساتين جميلة ، وزينه بالرسوم والزخارف البديعة .

وفي داخل هذه القصور نعم الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة والأثرياء بحيا ة الترف والتنعم ، وكانت حفلات الاستقبال في قصور الخلفاء الأمويين على نوعين خاصة وعامة . ولكل نوع من هذه الحفلات رسومه وآدابه ، ففي العامة كان الخليفة يستقبل من يريد مقابلته من رسل الملوك ، وأصحاب الحاجات وغيرهم .

أما في الحفلات الخاصة ، فكان الخليفة يقابل فيها أفراد البيت الحاكم ، وكبار موظفي الدولة ، والشخصيات المقربة إليه . وفي مثل تلك المناسبات يلبس الخلفاء أفخر ملابسهم ويجلسون في أفخم قاعات قصورهم ، كما فعل الخليفة هشام بن عبدالملك الذي كان عادة ما يجلس في البهو الفسيح المبلط بالمرمر المشدود بأسلاك الذهب ، والمفروش بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب ، مرتديا

الملابس الحريرية الحمراء ومتطيبا بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك موضوع في أواني من الذهب .

وأكثر من ذلك حدث في عصر الخلفاء العباسيين الذين زادت مسحة الترف والبذخ في عهودهم ، وصارت بغداد وسامراء تزدحم بالقصور الفخمة المفروشة بفاخر الأثاث والرياش . والمضاءة بالثريات والشمعدانات ، وزخرفت جدرانها بالصور الجميلة .

وتأثر العباسيون بمظاهر الملكية الفارسية ، وتجلى ذلك في قصورهم والتقاليد المرعية عندهم ، فكانوا يفرضون ما يفرضه ملوك الفرس على رعيتهم في المثول بين أيديهم ، فيجعلونهم يقبلون الأرض أمامهم ، أما عظماء الناس ووجوههم فجرت العادة بأن يقبلوا يد الخليفة أو قدمه أو ذيل ثوبه . كما تشبهوا بهم بارتداء الملابس الموشاة بالذهب والفضة والمرصعة بالجواهر .

وتفنن النساء داخل القصور العباسية في اختيار ملابسهن ، وتطريزها بالذهب ، والفضة ، وترصيعها بالجواهر الغالية ، وأحطن رؤوسهن بالعصائب المرصعة بالدر والياقوت . وتزين بالقلائد والتيجان ، ولبسن الخلاخل الثمينة . وقد قلدت نساء الوزراء ، وكبار رجال الدولة نساء الخلفاء في الملبس والتزيين .

واتصفت الحياة في قصور الخلفاء عامة بإقامة الحفلات في المناسبات العديدة ، والتي تمد فيها أواني الذهب والفضة المملوءة بأنواع شتى من الأطعمة المختلفة ، التي وضعت عليها معالق من البلور ، وكان بعضهم لا يأكل لقمتين في ملعقة واحدة ، بل توضع له أكثر من ثلاثين ملعقة بلور في الوجبة الواحدة ، حيث كان يأكل كل لقمة في ملعقة جديدة .

ويتضح مما سبق ما كان للطبقة الحاكمة ومن يماثلها من دور نشيط في الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية في العصور الوسطى . وامتد ما كان يجري في المدن الكبرى بصورة أو بأخرى إلى المدن الإقليمية ، كالاسكندرية ،

وغرناطة وحلب وغيرها من المدن الصغيرة . وفعل خاصة الناس في هذه المدن ما كان يفعله الخلفاء والسلاطين وكبار الأمراء في المدن الكبرى .

أما الحياة في دور عامة الناس في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، فكانت تمثل حياة الأسرة العربية الإسلامية وهي نفس الأسرة التي كانت موجودة قبل ظهور الإسلام ، وكانت تتكون من الأبوين ، والأبناء ، والأحفاد ، والرقيق ، ويرأسهم الأب جميعا وكان رب الأسرة يقضي طيلة النهار في عمله خارج المنزل ولا يعود إلا عند غروب الشمس . أما الأم فقد تمتعت بمكانة كبيرة . وكانت تمارس الكثير من أنواع النشاط الاقتصادي ، ولم تكن المرأة المسلمة ترتدي الحجاب في بادئ الأمر ، إلا أنها أرغمت على لبسه بعد ذلك ، وخاصة حينما اختلط العرب بالأجناس الأخرى .

وكانت المرأة تقوم بشئون بيتها ، كشراء حاجات أسرتها من الأسواق . كما كانت تستقبل زوجها عند عودته إلى المنزل بأرق ملابسها وأجملها ، آخذة بنصح الفقهاء الذين كثيرا ما نصحوا النساء باستقبال أزواجهن وهن مستكملات زينتهن متطيبات متجملات لهم ، حتى تطب لهن قلوب أزواجهن وتستريح نفوسهم من عناء تعب العمل خارج المنزل طوال النهار .

ثالثا ـ الملابس :

اعتاد أغلب المسلمين في الصدر الأول من الإسلام الخشونة في العيش ، والتعفف بالطعام والمشرب ، والإنصراف عن الإهتمام بالملبس ، وعدم التأنق فيه لبساطة الإسلام وتعاليمه التي تحض على الاعتدال وعدم التكلف في كل شيء .

وكان لباس عامة الرجال في ذلك العصر الخميصة وهي نوع من اللباس الخارجي ، لها أعلام . والحبرة وهي ثوب موشى ، والرداء ذو الأزرار الذي يصل طوله من الصدر إلى ما فوق الركبة . والعباءة ، وكانت شائعة ، وتلبس فوق سائر الألبسة الأخرى ، والقباء ، وهو لباس شائع بين مختلف طبقات الناس .

والمستقة ، وهي جبة فراء طويلة الأكمام ، وكذلك المطرف ، وهو ثوب مربع من الحرير له أعلام . أما لباس الرأس ، فقد لبس الرجال في هذه الفترة المبكرة العمائم ، وشاع لبسها حتى سميت بـ«تيجان العرب» وقد تنوعت ألوانها ما بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر . ولبس الرجال أيضا القلنسوة ، وهي لباس يلات على الرأس تكويرا .

أما النساء فقد لبسن المرط ، وهو كساء من الحرير أو الصوف أو غيره ، وهو لباس يغطي البدن من الخارج . ولبست النساء على رؤوسهن الخمار ، وهو غطاء تغطي به المرأة رأسها ، ويلف حول رقبتها .

وبعد الفتوحات العربية الإسلامية ، واستقرار الفاتحين في الأمصار ، واختلاطهم بأهالي هذه البلاد ، تأثروا بما شاهدوه من حضارة ومدنية لدى تلك الشعوب . فبدأوا يتطلعون إلى حياة جديدة فيها ترف ويذخ فاقتنوا اللباس الفاخر المصنوع من أحسن أنواع الأنسجة وأغلاها كالخز(وهو نوع من أنواع الحرير) فاتخذوا منه الجلاليب . ومن الوشي الذي كان يجلب من اليمن ، ومن الكوفة والأردية ، والسراويل والعمائم ، والقلانس .

وأصبحوا يتخذون لكل مناسبة زياً خاصاً ، وكان من يدخل على الخليفة يلبس المبطنة أو الدراعة ، أو القباء ، أو الباز ، ويعلق الخنجر . كما كانوا يلبسون زياً خاصاً لمجالس الطرب واللهو والمنادمة . وكان الزي الذي يلبس في هذه المناسبات يتكون عادة من غلالة رقيقة ألوانها زاهية مصقولة ويضعون على رؤوسهم أكاليل من الريحان وعمائم موشاة مذهبة ، كما لبسوا عمائم خاصة في المجالس العامة ، وكانت تخاط من الخز ذو اللون الأسود .

وكانت هناك ملابس خاصة لكل فئة من الناس في ذلك العصر فلبس الخلفاء القلانس ، وهي تشبه القبعات ولكنها كانت مخروطية الشكل . ولبس

الخاصة من الناس السروال الفضفاض والقميص والدراعة والسترة والقفطان ، والقباء والقلنسوة . ولبس القواد الأقبية القصيرة وهي عادة ما تكون بيضاء اللون . ولبس العلماء الطيالسة . أما الكتاب فلبسوا الدراعات ، وهي عبارة عن ثوب مشقوق من ناحية الصدر . ولبس القضاة الرداء ـ كان الزي الرسمي للدولة ، كما لبسوا الجلاليب والقلانس الكبيرة التي كانت تميزهم عن غيرهم . كما لبس الشعراء الوشي والمقطعات والأردية السود عند مثولهم أمام الخلفاء للمنادمة . أما الجنود فكانوا يلبسون القمصان المحبوكة على أجسامهم والتي تصل إلى ما تحت الركبة ، ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، كما كان بعضهم يلبس الأقبية فوق الدروع ، وكانت ملابسهم مطرزة باسم الخليفة وكذلك فعل الولاة ، وكان إذا رفع أحدهم راية العصيان أزال اسم الخليفة من ردائه ، وكانت هناك ملابس خاصة بالمذنبين حيث يلبس المعاقبون ثياب مشمرة وقلنسوة بيضاء .

أما لباس القدم ، فكان يشمل الخفاف والجوارب والنعال ، وكان بعض المترفين يرصعون خفافهم بالجواهر وشمع الغبر . كما فعلت زبيدة زوجة هارون الرشيد .

وشهدت الملابس تطوراً كبيراً بعد ذلك نتيجة لاتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وتعدد الشعوب التي انضوت تحت لوائها ووضح هذا مما كان يهديه الخلفاء العباسيون في المناسبات من ملابس محلاة بالذهب عرفت «بالخلع» . وكانوا يرسمون عليها أسماءهم ، أو علامات تميزهم بخيوط من الذهب . ويتضح ذلك من العملة التي ضربت في عهود بعضهم ، حيث تظهر صورة الخليفة وهو مرتديا ملابس موشاة بالذهب ومحلاة بالجواهر . وكان للخلفاء ، والولاة ، دور خاصة لنسيج أثوابهم تسمى دور الطراز .

أما نساء ذلك العصر ، فقد لبسن الملابس الثمينة ذات الألوان المتعددة المحلاة بخيوط الذهب والجواهر . ووضعن على رؤوسهن العصائب المرصعة

بالدر والياقوت والأحجار الكريمة . وتزين بالقلائد والأكاليل والتيجان والمناطق ، والخلاخل الثمينة ، وسلاسل الذهب الطويلة المطعمة بالأحجار الكريمة ، ووضعن في معاصمهن وأزنادهن الأساور الذهبية .

رابعا ـ الطعام والشراب :

كان طعام الأسرة المسلمة في صدر الإسلام بسيطا محدوداً ، يكاد ينحصر في اللحوم الثريد (وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم) . بالإضافة إلى التمور والألبان . لكن بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات الكبرى ، واختلط العرب بأهالي البلاد المفتوحة ، ودخول الجواري في صلب الحياة الاجتماعية ، حدث تطور كبير في إعداد الطعام ، وتعددت أنواعه ، وأدواته .

وكانت الأسرة تبدأ وجبات الطعام في الصباح ، بوجبة خفيفة تتألف من الألبان والسكر أو العسل ، ثم تتناول الفطور عند شروق الشمس ، ثم الغذاء في الظهر ، والعشاء بعد صلاة العصر . وعرف المسلمون كثيرا من أدوات المائدة ، فبعد أن كانوا يأكلون بأيديهم أصبحوا يأكلون بالملاعق التي كانت تصنع غالبا من الخشب ، أو من الفخار ، أو من الخزف . وتصنع من الذهب أو الفضة أو المرمر للأثرياء والمترفين .

كما أصبح المسلمون يجلسون على كراسي أمام موائد مغطاة بمفرش من القماش . وكان الطعام يقدم في صحاف مغطاة بمفرش على دفعات بعضه بعد بعض . وكان قبل ذلك يوضع كله مرة واحدة . وكانوا يغسلون أيديهم قبل وبعد الأكل . وكان من آداب الطعام تصغير اللقمة وعدم ملء الفم بالطعام وتطويل المضغة ، وتجنب أكل ما علق على شدقي الفم ، ومن آداب الطعام أيضا التسمية في أول الأكل ، والحمد والشكر في آخره ، والاتكاء عند الجلوس للأكل

على الفخذ الأيسر ، والأكل بثلاثة أصابع ، وتجنب الحديث حين الأكل ، وعدم الأكل بنهم في الولائم ، وأكل ما قرب من الطعام في الصحائف ، وعدم تتبع مواضع الدسم والأيدام . وتجنب لطع الأصابع بعد الأكل .

وعرفت آداب ورسوم في العصر العباسي تتبع في الولائم بشكل خاص منها تزين المائدة بالورود ، والرياحين وتبخير المدعوين ، ورش ماء الورد على رؤوسهم ، وتقديم مناديل خاصة لمسح أيديهم بعد غسلها . وعدم غسل صاحب الوليمة يده قبل ضيوفه .

وعرف المسلمون في تلك العصور الكثير من ألوان الطعام وأدواته ، وتفننوا في معالجة اللحوم ، والثريد ، واصطناع التوابل ، والمشهيات . ومن أنواع الأطعمة التي عرفوها اللحوم على اختلافها ومنها الأسماك المشوية ، الثريد ، واللمزة (وهو الخبز يكسر على السمن) ، والكوتان وهو (الأرز بالسمك) ، والأطرية (وهي طعام كالخيوط يصنع من الدقيق) ، والشعرية (وهي طعام كالخيوط في حجم الشعير) ، والعجة (وهي طعام يصنع من دقيق يعجن بسمن ثم يشوى على النار) ، والوشيقة (وهي اللحم المقلي أو المقدد) ، والرغيدة (وهي اللبن الحليب يذر عليه الدقيق) ، والحريرة (وهي حساء يصنع من الدسم والدقيق) ، والهريسة (وهي ما يهرس من الطعام) ، والعصيدة (وهي ما يعصد من الطعام) ، والسخينة (وهي نوع من الحساء) .

كما عرفوا أنواعا كثيرة من الفواكه وكانت تقدم في أطباق ، ومعها سكاكين خاصة لتقطيعها . أما أصناف الحلوى فهي عديدة ومنها : قصب السكر المنقوع بماء الورد . والفالوذج (وهي حلوى تصنع من الدقيق والدسم) ، والزلابيه ، والبقلاوة ، والوزينج (وتصنع من الدقيق والدسم) ، والخشاف ، والقطايف ، وغيرها من الأصناف .

وما تقدم كان بخصوص طعام الطبقات العليا والوسطى من الناس في ذلك العصر . أما طعام عامة الناس فكا ن يتكون عادة من خبز الشعير يغمس عادة في الملح ، أو الزيت الحار أو الخل وكان حلوهم التمر . وكان هؤلاء كثيرا ما يعانون من قلة الطعام ، أو فقدانه لدرجة أنه في أوقات الأزمات والمجاعات قد يمر أسبوع على أحدهم دون أن يذوق شيئاً من الطعام .

أما الشراب فقد عرف المسلمون في العصور الوسطى أنواعا عديدة منه ، كالقهوة التي من المرجح أنها عرفت في العصر الأموي أو قبله بقليل . وكذلك الشاي وغيره من المشروبات الساخنة والباردة .

ومما يجدر ذكره ، أن الكتاب المسلمين قد وضعوا العديد من المؤلفات في أنواع الأطعمة وكيفية إعدادها وتحضيرها . ومنها كتاب ابن مسكويه وعنوانه «في تركيب الباجات من الأطعمة» . ومنها ما جاء في كتاب الأغاني للأصفهاني عن الطعام عند المسلمين وغيرها من الكتب الكثيرة التي وضعت بهذا الخصوص .

خامسا ـ الأعياد والمواسم والاحتفالات :

حفلت المدن الإسلامية بكثير من الاحتفالات والأعياد الدينية منها والوطنية ، والتي شارك فيها المسلمون وغير المسلمين وكان من مظاهر الاحتفال بالأعياد في تلك المدن لبس الجديد ، والتصدق على الفقراء ، والتزاور . والترويح عن النفس بالتسلية ، واللهو البريء ، والإقبال على أنواع الأطعمة الخاصة بهذه المناسبات .

وكانت تقام عادة في هذه الأعياد حفلات عامة . وكانت هذه الحفلات في بادئ الأمر بسيطة ، ينحصر احتفال المسلمين فيها بعيدي الفطر السعيد ،

والأضحى المبارك ، كما كان المسلمون يحتفلون بإحياء شهر رمضان المبارك أو خروج موكب الحج .

وفي العصر الأموي بدأ وضع أسس رسمية للاحتفالات . فقسمت على نوعين : عامة ، وخاصة . ففي الحفلات العامة كان الخليفة يجلس في صدر الاستقبال ، يحيط به أفراد البيت الأموي ، ورجال الدولة ، ويتمثل أمامه من يريد مقابلته من أصحاب الحاجات .

أما الحفلات الخاصة ، فكانت تقتصر على أفراد البيت الأموي وكبار موظفي الدولة . وكان الخلفاء الأمويون يلبسون في مثل هذه الحفلات الثياب الموشاة بالذهب ، والمرايل المنسوجة من الحرير .

أما عامة الناس فكانوا يحتفلون بليلة أول رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلتا العيدين . وكانوا يقيمون احتفالات كبيرة في عيدي الفطر السعيد ، والأضحى المبارك . كما احتفلوا بأول المحرم ، وباليومين التاسع والعاشر منه بصومها والتصدق والتوسعة على الفقرا والمساكين .

وفي العصر العباسي نقلت كثير من تقاليد الشعوب المفتوحة وعاداتهم في الاحتفالات إلى المسلمين . فظهر الترف والبذخ والتعقيد في الحفلات العامة . حتى أصبح الاحتفال بالأعياد ، والمناسبات له شكل ثابت أطلق عليه لفظة رسوم .

ومن الأعياد التي عرفها المجتمع في العصر العباسي بجانب الأعياد المتعارف عليها مثل عيدي الفطر السعيد ، ورمضان المبارك . أعياد مثل عيد النيروز أو «النوروز» ، وعيد المهرجان . أما عيد النيروز فكان يقام في أول أيام السنة عند الفرس . وفيه يرش الناس بعضهم البعض بالماء ، ويتبادلون الهدايا . أما عيد المهرجان ، وكان عادة يأتي في أول أيام الشتاء ، ويمثل نهاية العام حسب

التقويم الفارسي ، فكان الناس يتهادون فيه ، ويخلع الخليفة أو أمير الأمراء على القواد ، وكبار رجال الدولة ملابس الشتاء .

ويمتاز هذا العيد بأن الناس تهدي فيه الهدايا النفيسة إلى الخلفاء والحكام . واحتقل أيضا في هذا العصر بمناسبات عدة كمطلع أول رمضان ، وأول العام الهجري ، والمولد النبوي الشريف ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الإسراء والمعراج ، وليلة القدر وغيرها من المناسبات الدينية . ويلاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الاحتفالات لا يستند الاحتفال بها إلى أساس من القرآن والسنة النبوية الشريفة .

وكانت مظاهر احتفال المسلمين بهذه الأعياد والمناسبات كثيرة ومتنوعة منها العام ، والخاص . أما الاحتفالات العامة فهي الاحتفالات الرسمية للدولة ، ومنها حفلات الاستقبال الرسمية التي تقام في قصر الخليفة . وتعرف بالجلوس لتميزها عن الركوب . ويبدأ حفل الجلوس بالتحية عندما ترفع الستر عن الخليفة ، وكان الوزير يجلس بالقرب من الخليفة . ويتقدم الناس لتحية الخليفة ، وكان الناس عادة ما يقبلوا يده ، أو ذيل ثوبه للتعبير عن الاحترام مع إلقاء السلام عليه . وتقام الولائم بمد الأسمطة والتي تعد من أهم مظاهر الاحتفالات في ذلك العصر وكان من عادة الخلفاء والأمراء في الأعياد والمناسبات الدينية وغيرها أن يبالغون في التوسعة على العلماء ، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين .

أما أهل الذمة وغيرهم من الطوائف التي كانت تعيش مع المسلمين في المدن الإسلامية ، فقد احتفلوا بأعيادهم ، وهي كثيرة في جو من الحرية والتسامح وفره لهم المسلمون ، بل كان بعض المسلمين يشاركونهم في أعيادهم . ومن أهم أعيادهم عيدالميلاد أو عيد «البشارة» ، وعيد «الزيتون» وهو عيد التسبيح يقيمونه في سابع أحد من صيامهم . وعيد الفصح ، وهو العيد الكبير عندهم ، يقيمونه يوم الفطر من صومهم الأكبر . واحتفل اليهود بعيد

رأس السنة اليهودية ، ويسمونه عيد «رأس هيثا» كما كانوا يحتفلون بعيد الصوم العظيم ويسمونه «صوماريا» و«عيد الفطر» أو «الفصح» ومدته سبعة أيام .

أما الاهتمام بالمواكب في العصر العباسي ، فكان ظاهرة ملفتة ، حيث أولى الخلفاء العباسيون اهتماما خاصا بها . وكان الخليفة العباسي يخرج في موكبه ، يتقدمه حرسه الخاص ، وهم يحملون الأعلام ومن بعدهم يأتي أمراء البيت الحاكم وهم على خيولهم المزدانة ، ثم بعد ذلك الخليفة من ورائهم ، وهو يمتطي جوادا أبيضا وحوله كبار رجال دولته .

وجرت العادة أن يلبس الخليفة في مثل هذه المواكب قباء أسود يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويلبس بردة النبي ﷺ ، ويضع على رأسه عمامة سوداء مزينة بالجواهر عليها قلنسوة طويلة مزدانة بجوهرة غالية ، وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر . ويمسك بيد بالقضيب ، وهو عصا مطعمة بالجواهر ، ومزينة برسومات جميلة ، وباليد الأخرى بالسيف ، ويضع في إصبعه خاتم يشبه الخاتم الذي كان النبي ﷺ يلبسه .

وكان يصاحب موكب الخليفة حملة الأعلام الملونة المختلفة الأشكال والأسماء ، وحملة الأسلحة المختلفة ، وحملة العلامات الخاصة بكبار رجال الدولة مثل الأقلام والدواة ، وحملة المباخر والناقرون على الطبول والصنوج ، والضاربون على الصفافير .

وحرص الخلفاء العباسيون على الظهور بهذا الموكب الضخم ، لإظهار قوة دولتهم . وذلك باستعراض مظاهر الثراء والقوة . كما حرصوا على إبراز جوانب الثراء والقوة في دولتهم أمام رسل الأباطرة البيزنطيين وملوك الفرنجة وغيرهم ، وخير مثال على ذلك ، استعراض الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٥هـ حين وفد عليه رسول الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع . حيث زين قصره ، ورتب آلته فيه ، فرأى الرسول العجب ثم أخرجوه إلى «الجوسق المحدث» وكان

داراً بين بساتين ، في وسطها بركة رصاص بياضه أحسن من الفضة المجلوة ، وفي البركة أربع طيارات مذهبة مزينة بالديبقي المطرز . مما أذهل رسول الامبراطور وجعله ينقل فكرة طيبة عن قوة الخلافة العباسية وثرائها إلى الامبراطور البيزنطي ، مما كان له أكبر الأثر في العلاقات السياسية بين الدولتين .

ومن أهم الموكب التي يحرص عليها الخلفاء العباسيون الخروج في مواكب الجمع ، حيث كان الخلفاء يخرجون فيها لصلاة الجمعة ، ومواكب الحج ، وخاصة تلك التي يشارك فيها الخليفة بنفسه ، ومواكب الاستقبال ، وهي التي يستقبل فيها الخليفة ملوك ورسل الدولة الأجنبية . وكانت بعض هذه المواكب تبلغ درجة من الفخامة تفوق الخيال .

وكانت مظاهر الاحتفالات في مصر الفاطمية والمملوكية كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر : الاحتفال بوفاء النيل ، وفيه يعبر الناس عن فرحتهم إذا ما ارتفع منسوب مياه النهر بإشعال القناديل والشموع ، واستئجار المراكب وتزيينها ، ثم يحتفل بكسر الخليج في موكب كبير يخرج فيه السلطان إلى مقياس الروضة ، حيث يمد سماط كبير حافل يحضره كبار رجال الدولة . كما كانت هناك احتفالات كثيرة في عهد المماليك ، منها ما يقام عند شفاء سلطان أو تولية سلطان جديد ، أو عودته ظافرا من حرب وفي هذه الحالات كانت المدينة تزين بمختلف ألوان الزينة ، وتمد الأسمطة في قصر الحاكم ، وتضاء الدكاكين والحوانيت بالشموع والقناديل ، وتجلس بها المغاني تدق الدفوف فيختلط صوتها بزغاريد النساء ودعاء الرجال له بالنصر دائما على أعدائه .

وقد روى ابن بطوطة ما شاهده بمناسبة شفاء السلطان الناصر محمد أحد سلاطين المماليك . فوصف زينة الأسواق بهذه المناسبة ، وعدد أنواع الأطعمة التي مدت على الأسمطة احتفالا بشفاء السلطان من مرضه .

أما الاحتفالات العائلية فكثيرة ، ومنها الاحتفال بالزواج والذي عادة ما

ترافق الاحتفال به الكثير من مظاهر البذخ والترف وقد أطلق على الوليمة التي تقام بمناسبة الزواج «وليمة عرس» . حيث تقام وليمة كبيرة للرجال والنساء . وكذلك الاحتفال بمقدم مولود جديد ، وخاصة إذا وضعت الأم مولودا ذكرا . فيقام احتفال كبير تضرب فيه الدفوف ، وترقص بعض النساء ، وتقام وليمة كبيرة بهذه المناسبة تسمى «وليمة الأعذار» . تمد فيها ألوان من الأطعمة الفاخرة . وتكرم الأم بشكل خاص . وعادة ما تستمر مظاهر الفرح سبعة أيام كي يتاح للناس تهنئة الأب والأم . ويحتفل في الليلة السابعة «بليلة السبوع» وهو الاحتفال بمرور سبعة أيام على مولد المولود .

وهناك احتفال «الختان» ، وعادة يتم إذا بلغ الصبي السنة السادسة أو السابعة من عمره . ويقام احتفال كبير بهذه المناسبة . وإذا كان الصبي ابن السلطان أو ابن أحد كبار رجالات الدولة ، يطوف منادي في الطرقات ينادي بأن يحضر كل من لديه صبي يريد ختنه ، ليختنه مجانا على نفقة السلطان أو صاحب المناسبة . ويركب الصبي المراد ختنه في هذه المناسبات حصانا مجهزا بعدة ثمينة ، ويطاف به شوارع المدينة ، حتى يصل الموكب إلى المسجد المنار بأبهى الأنوار ، ثم يسار به إلى بيت الأبوين ليتناول الناس الطعام المعد خصيصا بهذه المناسبة . ويختن الحلاق الصبي بعد الانتهاء من الأكل على صوت الصنوج كي لا يسمع صوت بكاءه .

وبهذا نرى أن الحياة العائلية في المدن الإسلامية اتصفت بكثرة الاحتفالات والأفراح ، بل والتفاخر بإحيائها وإقامتها ، والمبالغة بإظهار مظاهر البذخ والإسراف فيها .

سادسا ـ مظاهر التسلية والترفيه :

تعددت مظاهر التسلية والترفيه في المجتمع الإسلامي ، وكان منها الصيد والقنص التي عرفهما العرب في الجاهلية . وقد تطورت وسائل هذه الهواية بعد

أن اقتبس المسلمون الكثير من وسائلها من الفرس والبيزنطيين . وزاد من مكانتها اهتمام الخلفاء والأمراء وحكام المسلمين عامة بها للفوائد الكثيرة التي كانوا يرونها فيها ، فقد كانت هواية ورياضة تعودهم على الفروسية . وبالإضافة إلى الصيد أحب المسلمون القنص ، واستخدموا العقاب ، والصقر وغيرها من الطيور الجارحة ، كما كانوا يصيدون بالقوس والنشاب والفخ وغيرها من وسائل الصيد المعروفة في ذلك العصر .

وشاعت رياضة سبق الخيل بين المسلمين في العصور الوسطى ، وبالغوا في إعداد الميادين الخاصة بها . وكان الخلفاء يحددون أياما معينة لها . وكان المتنافسون يتنافسون على الوصول إلى قصب السبق للفوز بالسباق . وزاد من شغف الناس بهذه الرياضة لدرجة أن أميرات البيوت الحاكمة وخاصة في العصر الأموي كن يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق . وقد أباح الفقهاء سباق الخيل بشرط ألا تقام طلبا للمال .

ومن أنواع التسلية أيضا اللعب بالكرة أو «الإكرة» وهي كرة كانت تصنع من مادة خفيفة كالفلين . وقد عرفت باسم الصولجان نسبة إلى العصا التي تلعب بها . وهي ما يعرف اليوم بلعبة «البولو» وتلعب بضرب الكرة من على ظهر الخيل وقد أحب هذه اللعبة بعض خلفاء بني العباس ، والأمراء البويهيين .

ولم يقتصر حب الأمراء المماليك لهذه اللعبة على اللعب بها بل أدخلوها في المدارس الحربية في مصر . كما أدخلوا لعبة «القبق» التي تقوم على إتقان ركوب الخيل ، وحبس رؤوسها باللجام ، والتدريب على الكر والفر حتى يتعودها الفارس .

ومن أنواع التسلية التي شاعت في المدن الإسلامية ما كان يعرف «بخيال الظل» وهو ما يعرف اليوم «بمسرح العرائس» ، وهي تسلية عرفت في العصر الفاطمي ، ثم انتشرت انتشارا واسعا في العصرين المملوكي والعثماني . وكان عرض هذه التسلية يتم في مكان معد خصيصا لذلك وقت المساء .

وهي عبارة عن لعبة تتخذ شخوصها من جلود ملونة تحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود من خلفه مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الثوب المشدود ليراها الناظر من الوجهة الأخرى . وتحرك هذه الشخوص (العرائس) حسب الحوار الدائر في القصة المعروضة .

وقد أصبحت تسلية خيال الظل تسلية عامة لجميع الطبقات . حيث شدت إليها الطبقات الراقية في المجتمع بالإضافة إلى شغف عامة الناس بها . ومن أشهر من جذبتهم هذه التسلية السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان يمضي أوقات فراغه في ميادين القتال بمشاهدة تمثيليات خيال الظل .

والجدير بالذكر ، أن هذه التسلية استخدمت كأداة لمقاومة الحكام الظالمين المتعسفين ، لذلك كان يمنع عرضها مثل أولئك الحكام في مدنهم .

كذلك انتشرت لعبة الشطرنج في العصر العباسي وكانوا يلعبونها على قطعة مربعة حمراء من الجلد . وكانت أدواتها تصنع بدقة بالغة ، وهي لعبة مبنية على إعمال الفكر ورياضة الذهن . ولم يقتصر لعب الشطرنج على الرجال بل لعبتها النساء وقد شاعت هذه اللعبة في المجتمع الإسلامي منذ العصر العباسي ، إلا أنها ازدهرت كثيرا في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك بين مجتمع الخاصة من الناس .

كما عرف الناس في ذلك العصر لعبة «النرد» وهي لعبة من الألعاب المنزلية ، وتسمى أيضا «الكعاب» . ويستعمل في اللعب فيها ثلاثون حجرا ، وفصان ، ويلعب فيها على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلا . وفي بعض الأحيان أربعة وعشرون منزلا . ومن المعروف أن أساس هذه اللعبة كان يقوم على الصدفة والاتفاق .

ومن وسائل التسلية الأخرى ألعاب الورق ، والتي لا شك أن المسلمين

أخذوها عن غيرهم من الشعوب التي اختلطوا بها بعد حركة الفتوحات . كما انتشرت عدة ألعاب اتخذت طابع المقامرة كالمناطحة بالكباش ، والمناقرة بالديوك ، وسباق الحمام ، وكذلك القمار الذي نهى عنه القرآن الكريم . والمصارعة التي انتشرت بين الأحداث في المدن الإسلامية . وكذلك شاعت ألعاب أخرى بين الناس في ذلك العصر كرفع الأثقال ، والمبارزة بالرمح وغيره ، والملاكمة والمشابكة وكان معظم هذه الألعاب يتم بطريقة المقامرة والرهان .

كما عرف المسلمون أنواع من التسلية تعرض في الميادين والمتنزهات كألعاب البهلوانات ، والحواة ، والدبابة الذين يلعبون بالديبة والقرادة الذين يلعبون بالقردة .

وشاعت وسائل ترفيهية بريئة في المدن الإسلامية كالخروج إلى المتنزهات والبساتين . ففي بغداد كان الناس يخرجون إلى «الأديرة» القريبة من المدينة ، وكانت هذه الأديرة قد غرست بالأشجار المتنوعة ، واشتهرت برياحينها المزدهرة ، وخرج الناس في القاهرة إلى «جزيرة الروضة» . وفي دمشق خرجوا إلى «الغوطة» . وكانت هذه الأماكن متنفسا للناس في تلك العصور حيث كانوا يجدون فيها الخضرة ، والهواء الطلق ، فكانوا يمضون بين ربوعها وقتا طيبا في أيام الأعياد والجمع ويتصرفون فيها بغير تكلف أو تصنع .

وما عرضناه كان بعض جوانب الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية في العصور الوسطى .

أهم المصادر والمراجع :

١ ـ المسعودي : مروج الذهب (بيروت ، ١٩٧٣) .

٢ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٧) .

٣ ـ الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك (القاهرة ، ١٩١٤) .

٤ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت ، ١٩٦٧) .

٥ ـ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (القاهرة ، ١٩٠٣) .

٦ ـ السيوطي : تحذير الخواص من أكاذيب القصاص (القاهرة ، ١٩٣٢) .

٧ ـ ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (بيروت ، ١٩٦٠) .

٨ ـ ابن خلدون : المقدمة (القاهرة ، ١٩٥٧) .

٩ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ، ١٩٤٠) .

١٠ ـ ابن النديم : الفهرست (القاهرة ، ١٩٢٩) .

١١ ـ مسكويه : تجارب الأمم (القاهرة ، ١٩١٥) .

١٢ ـ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ، ١٩٢٠) .

١٣ ـ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة ، ١٩٧٦) .

١٤ ـ السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك (اقاهرة ، ١٨٩٦) .

١٥ ـ الدميري : حياة الحيوان الكبرى (القاهرة ، ١٩٥٦) .

١٦ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ، ١٩٧١) .

١٧ ـ أحمد تيمور : لعب العرب (القاهرة ، ١٩٤٨) .

١٨ ـ أحمد شلبي : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية «الحياة الاجتماعية (القاهرة ، ١٩٧٣) .

١٩ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (بيروت ، بدون تاريخ) .

٢٠ ـ جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام (القاهرة ، ١٩٥٦) .

٢١ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب (القاهرة ، ١٩٤٥) .

٢٢ ـ حسن علي حسن والتوم الطالب محمد : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (الكويت ١٩٨٦) .

٢٣ ـ سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، عالم الفكر (الكويت) .

٢٤ ـ أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية (القاهرة ، بدون تاريخ) .

٢٥ ـ توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارات الغربية (المنصورة ، ١٩٨٨) .

٢٦ ـ جاك ريسلر (ترجمة : خليل أحمد) : الحضارة العربية (بيروت ، بدون تاريخ) .

٢٧ ـ سرجنت رب (ترجمة : أحمد محمد تعلب) : المدينة الإسلامية (منشورات اليونسكو) .

٢٨ ـ عبدالحسين مهدي عبدالرحيم : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (طرابلس ، ١٩٩٤) .

٢٩ ـ محمد الصادق عفيفي : المجتمع الإسلامي (القاهرة ، ١٩٨٠) .

٣٠ ـ عبدالمنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي (القاهرة ، ١٩٨٥) .

٣١ ـ عبدالمنعم ماجد : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (القاهرة ، ١٩٧٨) .

٣٢ ـ علي حسني الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية (القاهرة ، بدون تاريخ) .
٣٣ ـ محمد حسين الزبيدي : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (بغداد ، ١٩٧٠) .
٣٤ ـ ظافر الصابوني : الحياة الاجتماعية عند العرب (بيروت ، ١٩٧٨) .
٣٥ ـ عصام الدين عبدالرؤوف : الحواضر الإسلامية الكبرى (القاهرة ، ١٩٧٦) .
٣٦ ـ صلاح الدين حسين العبيدي : الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي (بغداد ، ١٩٨٠) .
٣٧ ـ محمد عبدالحميد أبو زيد : مكانة المرأة في الإسلام (القاهرة ، ١٩٧٩) .
٣٨ ـ غشيان بن علي بن جريس : بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (اسكندري ، ١٩٤٤) .
٣٩ ـ إبراهيم الكوري : طبقات مجمع بغداد في العصر العباسي الأول (الكويت ، ١٩٨٣) .
٤٠ ـ أنور الرفاعي : النظم الإسلامية (بيروت ، بدون تاريخ) .
٤١ ـ هشام جعيط : الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية (الكويت ، ١٩٨٦) .
٤٢ ـ شكري الفيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (بيروت ، ١٩٨٤) .
٤٣ ـ محمد العيد الخطراوي : المدينة في صدر الإسلام (بيروت ، ١٩٨٤) .
٤٤ ـ يوسف القرضاوي : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي (القاهرة ، ١٩٧٧) .
٤٥ ـ قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٩) .

٤٦ ـ حسن حبشي : أهل الذمة في الإسلام (القاهرة ، ١٩٩٤) .
٤٧ ـ محمد عيسىء صالحية : بحوث ومقالات في الحضارة العربية الإسلامية (الكويت ، ١٩٨٨) .
٤٨ ـ قصي الحسين : من معالم الحضارة العربية الإسلامية (بيروت ، ١٩٩٣) .
٤٩ ـ قسطنطين زريق : في معركة الحضارة (بيروت ، ١٩٦٤) .
٥٠ ـ ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية (بيروت ، ١٩٧٥) .



الفصل الخامس

الحالة الاقتصادية في الدولة الإسلامية

د. محمود عرفه

الثروة الزراعية :

على الرغم من أن حرفة العرب الأولى كانت الرعي وذلك لطبيعة أرض الجزيرة العربية التي لا تسمح بالزراعة على نطاق واسع ، إلا أن المسلمين سرعان ما أقبلوا على الزراعة ليعمروا الأرض[1] ، كذلك اهتموا بتنظيم وسائل الري وتطويرها من أجل الحفاظ على المياه وترشيدها لاستصلاح وتنمية الأراضي الزراعية ، واهتم القائمون على الزراعة في الدولة الإسلامية بإقامة السدود ، وحفر الترع وعمل المصارف ، كما كانوا يجمعون المياه التي تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار في قنوات بجوف الأرض ويقيمون عليها القناطر ، وكانت مجاري المياه المغطاة تستخدم في إمداد الدور بالمياه فضلا عن ري البساتين[2] ، وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية ، وازدادت مواردها بعد أن تدخلت الحكومة بالإشراف المباشر على تحسين زراعتها وتنمية محاصيلها ، وقد امتدت فيها شبكة من الترع والمصارف ، فكثرت بها المزارع والبساتين وعرفت بأرض السواد ، وقد استخدم المسلمون في استخراج المياه من الأنهار والآبار الدلو والساقية ، وفي زمن التحاريق كانوا يستخرجون المياه بالدواليب وهي تشبه السواقي ، وكانوا ينصبون النواعير على الماء فتدار بقوته في زمن الفيضان[3] .

اهتم الخليفة أبو جعفر المنصور بتنظيم وسائل الري وذلك بشق الجداول

---

١ ـ ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٢ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، ج٢ ، ص ٢٣١ .

٣ ـ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٠٩ .

والترع على ساحل الخليج العربي ، فأمكن بذلك ري الأراضي الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أراض نضرة ـ كذلك مد الخليفة قناة من دجيل تأخذ ماءها من نهر دجلة ، ووصلها بمدينة بغداد فكان الماء يسير في الشوارع والدروب والأرباض لا ينقطع صيفا ولا شتاء .

كما تم عمل شبكة لإمداد المدن بالمياه فمنها القناة الواصلة إلى الكرخ من نهر القلائين (نسبة إلى محلة كبيرة واقعة شرق الكرخ كان يقلى فيها السمك) ، وكذلك امتدت المياه إلى المحول ، التي تبعد عن بغداد بفرسخ واحد عن طريق نهر عيسى الأعظم المتفرع من الفرات ، كما امتد نهر كرخايا الذي يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوبي المحول وتفرعت منه جداول تجري في سوق الكرخ فضلا عن نهر رفيل الذي يأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب في نهر دجلة ، وكانت الأسواق تحيط بهذه القنوات والقناطر ، وتحيط بها البساتين ، واستغلت الحكومة هذه المياه أيضا في غرس النخيل على امتدادها[٤] .

وكان أهالي العراق يهتمون بتربية البقر الذي جلبه العرب من الهند ثم نقلوه إلى بطائح العراق في العصرا لأموي ، وذلك لاستخدامه في حراثة الأرض[٥] ، كما كان أهل فلسطين يعتمدون على لبنه ولحمه في غذائهم[٦] .

كان من أهم الحاصلات الزراعية التي انتشرت زراعتها وخاصة في البلاد التي تتوفر فيها المياه مثل مصر والعراق ، الحنطة والشعير ، وتعتبر منطقة واسط من أهم مراكز زراعة الشعير[٧] ، كذلك كانت الذرة تزرع في جنوب الجزيرة العربية وبلاد النوبة ، والكروم في العراق واليمن والشام وفي مصر بنواحي

---

٤ ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص ٣٠٤ـ٣٠٥ .
٥ ـ الاصطخري : المسالك والممالك ص ١١٧ .
٦ ـ حسن إبراهيم : المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٧ .
٧ - مسكويه : تجارب الأمم ، ص ٣٩٤ .

مريوط والجيزة والفيوم[٨] ، كما كان النارنج يزرع في العراق والشام ومصر وفلسطين ، واشتهرت مصر بزراعة نوع من الليمون يقال له التفاحي ، وكان من أجود أنواع التفاح ما يزرع في الشام حتى أصبح مضرب المثل في الحسن[٩] .

أما أشجار البرتقال والليمون فجلبت من الهند وأدخلت العراق أوائل القرن الرابع الهجري ، وتطورت زراعة الموالح حتى اشتهرت البصرة بجودة برتقالها وليمونها[١٠] .

اشتهرت منطقة البصرة أيضا بزراعة أنواع مختلفة من التمر ، وكان التمر العراقي من أجود الأنواع ، فضلا عن شمال افريقيا ، كما تم زراعة شجر النخيل في مختلف أنحاء البلاد المصرية وبخاصة الوجه القبلي ، وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد[١١] .

عنى المصريون بزراعة الزيتون في منطقة الفيوم والإسكندرية ، كما انتشرت زراعته ببعض بلاد شمال افريقيا ، واشتهرت بلاد الشام بشجر الزيتون وخاصة منطقتي نابلس وحلب[١٢] ، كذلك اشتهرت مصر بزراعة قصب السكر في العصر الفاطمي ، كما كان يزرع في البصرة وصيدا وصور[١٣] ، وتطورت زراعته في بعض جهات الأندلس ، ومن ناحية أخرى اشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والفواكه ، كالبرتقال والكمثرى والتين والعنب والرمان والخوخ التي كانت تكثر زراعته في السهول ، كما اشتهرت بزراعة الأرز والزيتون ، وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف بالتقويم القرطبي ـ دستور

---

٨ ـ المقدسي : احسن التقاسيم ، في معرفة الأقاليم ، ص ١٩٧ .
٩ ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، حسن إبراهيم : المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٧ .
١٠ ـ المقدسي : المصدر نفسه ، ص ١٩٧ .
١١ ـ الأدفوي : الطالع السعيد لاسماء نجباء الصعيد ص ١٠ ـ ١١ .
١٢ ـ المقدسي : المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .
١٣ ـ ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ١٤ .

زراعة النباتات المختلفة[١٤] .

ومما ساعد على تنمية الزراعة استصلاح الأراضي التي عنى بها الخليفة المنصور ، فقد اقطع بعض أعيان الدولة قطائع من الأرض بمدن العراق يعمرونها ويسكنون بها ويحصلون على نصيب كبير من غلتها ، وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسعت رقعتها ، وكانت كل قطعة منها تسمى باسم المستصلح فمنها قطيعة العباس بن محمد بن عبدالله بن العباس ، وقطيعة الربيع بن يونس ، وقطيعة صالح بن المنصور[١٥] .

الصناعة وأشهر مراكزها :

اهتمت الدولة الإسلامية باستغلال مواردها من الثروة المعدنية ، فكان الذهب يستخرج من العلاقى على مقربة من أسوان ، وكان يتم ذلك بتجول الناس في الليالي المظلمة ثم يضعون العلامات على المواضع التي يظهر فيها شئ مضئ ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمال إلى آبار خاصة لغسلها بالماء واستخراج التبر وسبكه[١٦] .

كان الحديد يستخرج من بلاد الشرق الإسلامي وخاصة كرمان وكابل وفرغانة ، والنحاس الأصفر من بخارى ، وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على إقامة بعض الصناعات المعدنية[١٧] .

أما الأحجار النفيسة التي تم استغلالها بعد استخراجها فكانت الياقوت والزمرد واللؤلؤ - ومواطنها شرق جزيرة العرب وسواحل عمان ، وكان العقيق يستخرج من بلاد اليمن ، والزمرد من قفط (إحدى بلاد الصعيد بمصر) فيحفر

---

١٤ - حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .
١٥ - اليعقوبي : كتاب البلدان ، ص ٢٤٢ - ٢٤٩ .
١٦ - آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، ج٢ ، ص ٢٦٩ .
١٧ - حسن إبراهيم : المرجع نفسه ، ج٢ ، ص ٢٠٨ .

عليه الأهالي ويقتلعونه من عمق بعيد ، ويجمع ما يستخرج منه ويصدر إلى الفسطاط[١٨] .

كما كانت المعادن تستخرج بكميات كبيرة من بلاد الأندلس ، فكان الذهب يستخرج من المناجم الواقعة على نهر تاجة ، والفضة من أطراف قرطبة ، والحديد من جبال طليطلة وشمال الأندلس ، فضلا عن الرخام الأبيض والخمري والأحمر والمجزع[١٩] .

كانت الأخشاب اللازمة لبناء المنازل والسفن تستورد من بلاد الهند واشتهر منها خشب الساج ـ الذي كان يستعمل في بغداد وبلاد المشرق ، وكان خشب بناء السفن يجلب من بلاد الشام ومناطق الغابات في جهات صعيد مصر ، كما كان يستورد الخشب الذي يتيمز بصلابته من أوروبا[٢٠] .

اشتهرت بلاد الأندلس بصناعة السفن ، والآلات الحربية من التروس والرماح والسروج والدروع ، إلى جانب صناعة الأدوية المستخلصة من النباتات المختلفة فضلا عن استخراج أنواع مختلفة من الزيوت[٢١] .

لما كانت الصناعة من أهم موارد الثروة ، فأقيم ببغداد وسامرا عدد كبير من المصانع ـ لصناعة الخزف والزجاج ـ كما ازدهرت هذه الصناعة في الشام وفي بعض البلاد المصرية وبخاصة في الفسطاط والفيوم والأشمونين ، وكان من أثر انتشار صناعة الخزف بمصر أن استخدمه البقالون وغيرهم من التجار في تعبئة ما يبيعونه من سلع للناس[٢٢] .

---

١٨ ـ الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ١٢ ـ ١٥ .
١٩ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٩٣ .
٢٠ ـ جمال سرور : المرجع نفسه ، ص ١٤٠ .
٢١ ـ المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٩٦ .
٢٢ ـ زكي حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٥٠ ـ ١٥٣ .

ظلت الدولة الإسلامية تستعمل ورق البردى حتى حل محله الكاغد المصنوع من الكتان ، وذلك بعد انتهاء استخدام البردى منذ بداية القرن الرابع الهجري ، وكان الكاغد يستخدم من قبل جنبا إلى جنب مع البردى وبخاصة في عهد الرشيد ، وانتشرت صناعته في أرجاء الدولة وأقيمت مصانع له في دمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس الشام(٢٣) ، واشتهرت الفسطاط بصنع الورق المنصوري ، وانتشرت الوراقة بمصر في العصر الفاطمي ، وكان الوراقون يشتغلون بصناعة الورق وتجارته والنسخ والتجليد(٢٤) .

كذلك ازدهرت صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها في الدولة ، وكانت أكبر مراكز صناعة القطن تقع في الشرق وخاصة نيسابور وبم ، التي كان يصنع بها الطيالس المصنوعة من القطن الفاخر ، كما انتشرت صناعته في بلاد بين النهرين ، ورأس العين وحران في الجزيرة وبلاد ما وراء النهر ، وامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية(٢٥) .

أما الكتان فكان ينتج وتصنع منه الثياب في بلاد فارس ، ومصر في الفيوم ودمياط وشطا ودبيق ، وكان يصنع بها المنسوجات الموشاة بخيوط الحرير والذهب ، كما تفوقت في إنتاج البوقلمون ـ وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، والفرش النادرة المثال .

كانت الملابس الحريرية تصنع في القاهرة في العهد الفاطمي وقد أنشأ الخلفاء دارا للكسوة لتفصيل الثياب الرسمية لموظفي الدولة ، واختصت هذه الدار بصناعة كسوة الكعبة المشرفة ، والخلع التي يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة في المواسم والأعياد ، كما أنشئت عدة مصانع

---

٢٣ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩ .
٢٤ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٥ .
٢٥ ـ أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

لإنتاج الملابس الفاخرة فمنها ما كان ينتج الحرير الديباج[٢٦] ، وكذلك اشتهرت دمشق بصنع الأقمشة الحريرية التي تسمى الدمسق .

انتشرت صناعة المنسوجات الصوفية في صعيد مصر ، وبخاصة في أسيوط والقيس وطحا ـ التي كانت تنتج الثياب الصوفية الرفيعة ـ وكانت تصدر إلى بلاد فارس وتعرف بالمصري ، وذلك على الرغم من قيام بلاد فارس بإنتاجه ، غير أنه كان أجود أنواع الصوف بعد صوف مصر[٢٧] ، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها[٢٨] .

النشاط التجاري :

اهتم خلفاء الدولة الإسلامية بتشجيع التجارة للدور الأساسي الذي تلعبه في حياة الناس ومعايشهم ، ولاعتماد اقتصاديات الدولة بصفة رئيسية عليها ، لذلك اتبعت الحكومة سياسة حرية التجارة ، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف الولايات ولم تحتكر أية بضاعة أو تمنع مبادلتها ، ومن ناحية أخرى ساهم الفقهاء في وضع شروط التجارة ، وتفاصيل عقود البيع ، ولعل من أهمها اتفاق البائع والمشتري ، وتدوين عقود البيع ، واشترط في جميع الحالات أن يكون موضوع العقد تجارة نافعة ، يراعى فيها الأمانة والصدق ورعاية التقدير العادل لكل سلعة ، وكل منفعة[٢٩] .

بلغ التقدم التجاري في الدولة الإسلامية حدا يدعو إلى الإعجاب ، فانتعشت التجارة الداخلية في الأسواق ، كما نشطت حركة التجارة الخارجية

---

٢٦ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج١ ، ص ٤٦٤ .
٢٧ ـ الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١١٥ .
٢٨ ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص٣٠٩ .
٢٩ ـ الخربوطلي : الحضارة الإسلامية ص ٢٤٧ .

بفضل إنشاء الطرق التي سهلت نقل البضائع في البر والبحر ، فضلا عن إقامة الآبار والمحاط في طرق القوافل ، وإنشاء المنائر ، وبناء الأساطيل لحماية السفن من غارات القراصنة .

التجارة الداخلية :

كانت التجارة الداخلية مركزها الأسواق ، وكان التجار يقيمون في أقسام السوق ويمكثون فيه إلى ما بعد الظهر ، وكانت الحوانيت تمتد على جانبي الشوارع ، يقول ابن خلدون : «اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة وما في معناها ، والبصل والثوم وأشباهه ، وفيها الحاجي والكمالي مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكبي وسائر المصانع والمباني»[٣٠] .

كانت الأسواق البسيطة تنتشر في القرى ، وقد حفر الكثير من المخازن لحفظ أنواع التجارة فيها ، وحظائر إيواء الدواب ، وقد لعبت الأسواق دورا كبيرا في حياة الناس ، فهي مراكز البيع والشراء وعقد الصفقات ، وهي الميدان الرئيسي لتصريف الإنتاج الزراعي والصناعي ، وفضلا عن ذلك كان يلتقي فيها أخلاط من عناصر السكان المختلفة من عرب وأعاجم ومسلمين وأهل ذمة .

ومن ناحية أخرى حرص العرب بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية على إنشاء الأسواق في الأمصار المفتوحة ، وفي المدن التي قاموا بإنشائها ، فزاد العمران واتسعت المدن ، ووضع نظام صارم للرقابة وأحكام السوق .

كان من أشهر مراكز التجارة الداخلية البصرة ، التي كان يقام فيها سوق كبيرة في ثلاث نواح منها كل يوم ، ففي الصباح في سوق خزاعة ، وفي الظهر في سوق عثمان ، وفي المغرب في سوق القداحين ، وكان التعامل التجاري يتم

---

٣٠ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٧ .

من خلال صكوك الصرافة ، فكان المتعاملون يستبدلون أموالهم بالصكوك قبل البيع والشراء[٣١] .

والبصرة هي باب بغداد الكبير ، ومدخل التجارة المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ، إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط ترحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى[٣٢] .

كذلك كانت بغداد من أهم مراكز التجارة الداخلية ، وتتركز أعظم أسواقها في الكرخ[٣٣] ، وكان لكل طائفة من التجار مكان معلوم يتم فيه التعامل مع الصنف الخاص بهم ، فهناك سوق البطيخ للفواكه ، وسوق البزازين لبيع الأقمشة ، وسوق الوراقين ، وسوق الصرافين[٣٤] وسوق الرياحين حيث تباع الزهور .

ومما يجدر ذكره أن اختيار الموضع الذي أقيمت عليه مدينة بغداد كانت له ضرورة حربية تجارية يدل على ذلك قول أحد الدهاقين ـ كبار ملاك الأراضي ـ للخليفة المنصور : «وأنت يا أمير المؤمنين على العراق ، وفي دجلة تجيئك الميرة من الغرب ، وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر ، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط ، وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها ، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة ، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو القنطرة لم يصل إليك عدوك ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»[٣٥] .

---

٣١ ـ ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٩٦ .
٣٢ ـ الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٣ .
٣٣ ـ الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٢٧ .
٣٤ ـ اليعقوبي : كتاب البلدان ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
٣٥ ـ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ص ٧ - ٩ .

ازداد النشاط التجاري بالفسطاط بعد أن كثر توافد الناس عليها ، ولموقعها المتوسط بين الوجهين القبلي والبحري واتصالها بالبلاد المصرية عن طريق النيل ، وظلت الفسطاط المركز التجاري الرئيس حتى بعد إنشاء مدينة القاهرة ، بل إن المقيمين بالمدينة الجديدة كانوا يعتمدون على أسواق الفسطاط للحصول على المواد الغذائية والمصنوعات(٣٦) .

وكانت أسواق الفسطاط عامرة بمختلف أنواع السلع التي ترد إليها من أقاليم مصر فضلا عن السلع الواردة من الخارج وبخاصة من بلاد الشام والعراق وبلاد الروم ، وليس أدل على مدى اتساع النشاط التجاري في سوق الفسطاط من قول ناصر خسرو(٣٧) : «كانت تباع فيه جميع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة ، وكان فيها ما لا يقل عن ألفي دكان ، يتراوح إيجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية ، كما يرسو بها عدد من السفن ، وفضلا عن ذلك ، فقد أنشئ بالفسطاط الفنادق والقياسر والخانات والوكالات» .

كان للحج أثر كبير في رواج التجارة ببلاد الشام ، فكان الحجاج يجتمعون في دمشق ، وهي ملتقى عدة طرق ثم يسيرون في جماعات كبيرة إلى مكة ، وقد أدت هذه الحركة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق ، حيث كانت المدن الساحلية طرابلس وبيروت وصور وعكا تغطي احتياجاتها من هذا السوق الكبير(٣٨) .

ساعدت وسائل النقل الداخلية على رواج الحركة التجارية ، ويتجلى ذلك في دور نهر النيل وفروعه وخلجانه ، فكانت المراكب الصغيرة والكبيرة

---

٣٦ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٤٥ .
٣٧ ـ ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٥٩ .
٣٨ ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص ٣١٣ .

تسير في مجرى النيل حاملة المنتجات الزراعية من أسوان إلى الفسطاط والقاهرة ومنها إلى الموانئ الواقعة على ساحل البحر المتوسط[٣٩] .

التجارة الخارجية :

كانت السفن التجارية في الدولة الإسلامية تجوب كثيرا من البلاد والبحار ، وكان للعرب نشاط بحري ملحوظ فتسير السفن من بغداد في الخليج العربي إلى الشرق الأقصى ، كما تمكنوا من الوصول إلى الهند الصينية والصين ، ولقيت تجارتهم مع الصين رواجا عظيما ، وكان العرب ينقلون إليها العاج والعطور والكافور والياقوت ، وكانت السفن تحمل الحبوب التي كانت تخزن لمدة طويلة تكفي مؤونة سنة[٤٠] ومن ناحية أخرى سمح امبراطور الصين للتجار العرب بالتنقل بحرية داخل بلاده .

كانت السفن العربية التي تبحر من البصرة قاصدة الصين ، تمر في طريقها بمسقط فالديبل ، ثم تسير حول الهند إلى خليج البنغال ، ثم جزيرة سومطرة فبحر الصين حتى تصل كانتون ـ ميناء الصين الرئيسي[٤١] .

أما بلاد الهند فكان ينقل إليها التجار العرب منتجات بلادهم ويحملون منها التوابل والعاج إلى أوروبا ، ونشأت بين العرب والهنود[٤٢] علاقات وطيدة بسبب الرخاء الذي ساد بلادهم من جراء هذه التجارات ، ومما هو جدير بالذكر أن العرب أقاموا لهم جاليات تقيم بسواحل الهند وبعض مدنها ، كما نشطت الحركة التجارية في الديبل والملتان بسبب التجارة العربية في بلاد الهند .

كان من أهم طرق التجارة التي سهلت نقل البضائع على التجار وأدت

---

٣٩ ـ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ص ٢٨٢ .

٤٠ ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٨ .

٤١ ـ الدعوة إلى الإسلام ، ص ٩٦ .

٤٢ ـ ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٢٢ .

إلى انتعاش التجارة الخارجية هي على النحو التالي :

أولا : الطريق البحري من غرب أوروبا إلى المشرق مارا بمصر ، وتبدأ رحلة التجار من بروفانس ثم ترسو سفنهم عند الفرما ، ويحملون تجارتهم على الدواب إلى القلزم ، ومنها إلى السند والهند والصين عبر بحر القلزم (البحر الأحمر) ، ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور وغيرها .

لم تكن مصر مجرد محطة عبور بين الشرق والغرب ، بل كانت السفن التجارية تحمل منها النطرون والشب والكتان والمنسوجات الثمينة إلى أوروبا ، وتستورد منها الخشب والحديد[٤٣] ، ومما يدل على اتساع تجارة مصر مع أوروبا أن سفن البندقية كانت تحمل تجارتها إلى الموانئ المصرية[٤٤] ، كما كان للروم حي بالفسطاط يقيم فيه تجارهم[٤٥] .

ثانيا : الطريق التجاري بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين ، وكان يختص بالاتجار في جلود الحيوانات والسيوف والشمع والعسل ، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد اعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري ، وكان للمصاهرة التي تمت بين ملك الصين ونصر بن أحمد الساماني أثر كبير في فتح طريق التجارة للمسلمين وازدهاره مع الصين[٤٦] ، فقد تزوج أحد أبناء نصر الساماني من ابنة ملك الصين[٤٧] .

أقام العرب لهم جالية في ميناء خانفو الصيني ، وكان لهم قاض مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة ، كما كان هناك

---

٤٣ ـ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢١٢ـ٢١٣ .
٤٤ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٥٨ .
٤٥ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط ، ج١ ، ص ١٩٦ .
٤٦ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج٢ ، ص ٣١٤ـ٣١٥ .
٤٧ ـ ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٠٩ .

جالية أخرى في مدينة كله بشبه جزيرة ملقا ، وتعد كله مرسى السفن التي تحمل بضائع آسيا ، وسوق العرب للتجارة في سلع الهند الصينية ، ومن أهمها القرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند وجوز الطيب .

كان من أثر العلاقات التجارية بين العرب وهذه المناطق أن اعتنق جماعة من أمرائها الدين الإسلامي ، وسمحوا للعرب بإقامة المساجد هناك ، وكان التاجر العربي يستطيع الذهاب إلى الصين دون أن يجد عقبات من السلطات الرسمية(٤٨) .

ثالثا : الطريق التجاري الذي يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو فارس مارا بسجستان ، ثم يتجه شمالا بطريق القوافل عبر هضاب افغانستان وتوصلها إلى كابل وغزنة ، ومنها تسير القوافل نحو خراسان غربا ، وبخارى شمالا(٤٩) .

رابعا : الطريق التجاري من غرب أوروبا إلى المشرق الذي يبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، ويسير من المغرب الأقصى والأوسط والأدنى إلى مصر عن طريق أفريقية مارا بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس مارا بالأهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين(٥٠) .

كانت أنطاكية من أشهر مراكز التجارة الخارجية في بلاد الشام ، وكانت بمثابة أداة الاتصال بين بلاد المشرق وأوروبا ، وبلغ من شهرتها أن تجار إيطاليا أقاموا لهم حيا خاصا بهم في أنطاكية(٥١) .

كما كانت الإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب

---

٤٨ ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ص ٣١٧ـ٣١٨ .
٤٩ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٥٠ .
٥٠ ـ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
٥١ ـ جمال سرور : المرجع نفسه ، ص ١٥٥ .

حيث تنتقل التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر ، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا(٥٢) .

تعد موانئ البحر الأحمر وهي القلزم وجدة وعيذاب من الموانئ الهامة للتجارة الخارجية ، فالقلزم حجر الزاوية لكل التجارات بين الشرق وأوروبا ، وجدة هي الميناء الرئيسي في البحر الأحمر لأنها محط الحجاج المسلمين من أرجاء الدنيا ، أما عيذاب التي تقع على ساحل البحر الأحمر الغربي فكان يحصل بها المكوس على ما تحمله السفن القادمة من الحبشة وزنجبار واليمن ، ومن ناحية أخرى تنقل منها البضائع على الإبل إلى الأسواق(٥٣) وقد بلغت عيذاب درجة عظيمة من الازدهار حتى كان يرسو بها مراكب كثيرة ، ويجتمع فيها عدد كبير من الحجاج في طريقهم إلى جدة ، وصارت على قول ابن جبير «من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند كانت تحط فيها وتقلع منها زائدا على مراكب الحجاج الصادرة والواردة»(٥٤) .

كذلك اشتهرت سيراف شهرة فائقة في التجارة فقد اتخذت مرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا ، وساحل أفريقيا الشرقي ، وكانت ترسو بها السفن المحملة بالمنتجات الآسيوية والأوروبية ، وتعد بمثابة نقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ، وكانت تمر بها صادرات فارس ووارداتها ، فضلا عن نقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين(٥٥) ، وبلغ من أهميتها وشهرتها أن فاقت البصرة في الغنى والشهرة(٥٦) ، ومن ناحية أخرى كانت البضائع تنقل في سفن صغيرة من البصرة وغيرها إلى سيراف حيث تنقل إلى السفن الكبيرة فتنقلها إلى الصين ، ومن أهم السلع التي كانت تنقل من سيراف إلى الشرق

٥٢ ـ Heyd : Histoire du Commerce de levant, 1, 43.

٥٣ ـ ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٨٢ .

٥٤ ـ ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ٣٥ .

٥٥ ـ Heyd : Op. Cit, I, p.72.

٥٦ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٥٢ .

الأقصى ، المنسوجات والسجاجيد[٥٧] ، والمصنوعات المعدنية ، والحديد الخام ، وسبائك الذهب والفضة وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها في البصرة ، ويقضي كثير منهم معظم حياتهم في البحر[٥٨] ، ومما تجدر الإشارة إليه أن سيراف ظلت مدينة عامرة حتى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م فخربت بعد أن دمرتها الزلازل[٥٩] .

أدت الرحلات التجارية إلى تمهيد السبيل أمام الكاشفين والرحالة ، فكثرت رحلاتهم ووصفوا البلاد وصفا دقيقا يدعو إلى الإعجاب والدهشة ، كما أدت إلى خروج الناس للمغامرات في البحار والمحيطات لاكتشاف كل ما هو جديد .

كما شجعت التجارة على إقامة الفنادق الخاصة بالجاليات المختلفة ، وكانت عبارة عن بناء يقيم فيه التجار ويحفظون داخله بضائعهم فضلا عن بناء دور العبادة ، ويعين أحد الأفراد للإشراف عليه يسمى الفندقي[٦٠] ، وفضلا عن ذلك أقيمت للتجار الوكالات والقياسر- وهي مجموعة أبنية بها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن .

ولما كانت التجارة مصدرا كبيرا للثروة ، فساعد الثراء التجار وأتباعهم على جلب الرقيق والعبيد من مختلف الأجناس وانتشاره في أقاليم الدولة الإسلامية[٦١] .

كان للتجارة أثر كبير في طلب العلم ، فكان العلماء يخرجون في ركاب التجار في طلب العلم ، مما أدى إلى تغذية الفقهاء بالمسائل الفقهية الجديدة التي لم تكن معروفة من قبل ، فقد أعطت إقامة الفقهاء في البلاد التي تم التبادل

---

٥٧ ـ جورج فضلو : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ٢٠٧ .
٥٨ ـ الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ٣٨ .
٥٩ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٥٣ .
٦٠ ـ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ، ص ٢٧١ .
٦١ ـ جميل نخلة المدور ، حضارة الاسلام ص ١١٦ .

التجاري معها ، الفرصة لذلك من خلال الأسئلة الفقهية التي كانت توجه إليهم ليبحثوها ويجيبوا عليها ، وبذلك تعدى أثر التجارة إلى المسائل التي تتعلق بالعبادة(٦٢) .

الموارد والمصروفات :

منذ قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، وضعت أسس النظام المالي وتقررت قواعده على ما جاء من أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ولم يلبث أن تطور هذا النظام ليتمشى مع حاجات المجتمعات التي انضوت تحت لواء الإسلام ، حتى صار من أعظم الأنظمة المالية من حيث الدقة وتحقيق العدالة ، إذ قام على تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصروفاتها ، ووضع الضوابط والأحكام لصيانة الأموال وتحقيق مصالح المسلمين .

لم يكن للمسلمين في مكة نظام مالي يرتكز على أبواب محددة من الإيرادات والمصروفات ، بل تميزت هذه الفترة بما كان يجود به الصحابة للإنفاق على فقراء المسلمين ، ولسد بعض الحاجيات الضرورية ، غير أن قواعد النظام المالي بدأت بفرض الزكاة على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة ، قال تعالى : (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) (٦٣) ، وبينت الآيات الفئات المستحقة لها ، ومع بداية الحروب بين المسلمين والكفار نزلت الآيات الكريمة التي تنظم توزيع الغنائم التي يصيبها المسلمون من المشركين ، ويرتبط الفيء بالغنائم إلا أن الفيء هو ما حازه المسلمون بغير قتال ، ثم يأتي مورد هام آخر من موارد الدولة ، وهو الجزية التي فرضت على غير المسلمين ، ومن ناحية أخرى جاءت الشريعة لتنظم جباية الخراج على الأراضي المفتوحة بنوعياتها المختلفة .

---

٦٢ ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٢ ، ص ٢٤٣ .
٦٣ ـ سورة التوبة : آية ١٠٣ .

الزكاة هي الحد المالي الواجب على المسلم شرعا ، وفرضيتها ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، واتفقت كلمة الأمة على أن الزكاة فرض عين على كل مسلم توفرت فيه الشروط المقررة ، وهي أن يكون المزكي مسلما ، حرا ، مالكا ملكا تاما لنصاب من المال وأن يكون المال خاليا من حوائجه الأصلية ، وأن يحول على المال الحول ، وأن يكون المزكي عاقلا بالغا «عند الحنفية» ، والنصاب هو القدر الذي إذا بلغه المال وجبت فيه الزكاة ، ويختلف مقدار النصاب بحسب الأنواع التي تجب فيها الزكاة ، ولا تجب على كل من يملك عدة أنواع لا يبلغ قدر كل واحد منها نصابا ، ولو كانت قيمتها أكثر مما يملكه من عنده نصاب من نوع واحد ، ويعفى من الزكاة كل الحوائج الأصلية مثل دار السكنى ، وأثاث المنزل ، ودواب الركوب ، والسلاح ، وأدوات العمل ، وكتب المهنة والعلم ، إن كان مالكها من أهل العلم ، وإن كان من غير أهل العلم وجبت فيها الزكاة ، وما يتجمل به من الأواني إن كان من غير الذهب والفضة ، ولا تجب في الجواهر كاللؤلؤ والياقوت والزبرجد ونحوها إن لم تكن للتجارة .

أما الأموال التي تجب فيها الزكاة فهي على أنواع أربعة ، النقود وقد قرر النبي صلى الله عليه وسلم نصابها بمائتي درهم للفضة وعشرين مثقالا للذهب وتبلغ قيمة زكاة الأموال ربع العشر ، وعروض التجارة ، وهي الأموال التي يتجر فيها ، وزكاة عروض التجارة لم يرد فيها نص صريح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن انعقد اجماع الصحابة على وجوب الزكاة في عروض التجارة ، ونصابها يقدر بقيمتها ذهب أو فضة ، فلا تقل عن عشرين مثقالا من الذهب أو مائتي درهم من الفضة ، النوع الثالث ، النعم ، وهي الإبل والبقر والغنم ، وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم مقاديرها والواجب فيها ، وهي تجب في الإبل والبقر والغنم السائمة ـ أي التي ترعى في كلأ مباح ـ ولا تجب في البغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ، وتفاصيل نصابها في كتب الفقه ، أما النوع الرابع فهو زكاة الزروع والثمار وهي ثابتة بالقرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ (٦٤) ، كما ثبت بالسنة النبوية : قال صلى الله عليه وسلم : «فيما سقت الأنهار والعيون العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر (٦٥) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعين عمالا لجمع الأموال ، فكان عامل الصدقات يتولى جمعها من المسلمين ويعطيها لشخص آخر يسمى المستوفي - الذي يقدمها للرسول صلى الله عليه وسلم - ويلاحظ أنه لم يكن هناك بيت للمال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانت الأموال تجمع وتصرف في الحال على مستحقيها (٦٦) .

قامت السياسة المالية للدولة في توزيع أموال الزكاة والصدقات على النص القطعي الوارد في كتاب الله العزيز : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) ، يقول الماوردي :
«الصدقة زكاة ، والزكاة صدقة ، ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها»(٦٨) . وتوزع أموال الزكاة طبقا للآية الكريمة على الفقراء - وهم الذين يملكون قوت يومهم - والمساكين الذي يعجزون عن تدبير قوت يومهم ، وتدفع منها رواتب العاملين عليها أي الذين يعملون بجباية الزكاة وتوزيعها على أصحابها ، كما نصت الآية الكريمة على سهم للمؤلفة قلوبهم ، وهم الذين أظهروا إسلامهم في بداية العهد الإسلامي ، وما يزال هذا السهم يخصص للراغبين في اعتناق الدين الإسلامي ، على الرغم من آراء بعض الباحثين أنه انقطع بانتشار الإسلام ، فقد قيل إن عمر بن الخطاب أسقط سهم المؤلفة

---

٦٤ - سورة الأنعام :الآية ١٤١ .
٦٥ - رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .
٦٦ - عبد الخالق النواوي :النظام المالي في الإسلام ص ١٠ - ١١ .
٦٧ - سورة التوبة :آية ٦٠ .
٦٨ - الماوردي :الأحكام السلطانية ص ١٢٣ .

قلوبهم ، وقد تلقف أعداء الإسلام من المستشرقين هذا القول وكتبوا خطأ أن الأحكام القرآنية قابلة للتبديل والتغيير ، وحاشى لله أن يتجرأ أحد على أن يسقط سهما ذكره الله سبحانه وتعالى في محكم القرآن الكريم ، فالحكم باق ، ينفذ إن وجدت الحاجة إليه فإذا كان ثمة احتياج إلى التأليف على الإسلام صرف إليهم ، كالحال إن لم يوجد أبناء سبيل يصرف إليهم فإنه لا يصرف السهم ، إلى أحد ويعود إلى بقية الأسهم والحاجة ماسة لهذا السهم في العصر الحاضر ، فدخول بعض الناس في الإسلام يترتب عليه في كثير من الأحيان مقاطعة الأهل وقد يفصل الشخص من عمله ، فمن حقهم أن يصرف لهم من بيت الزكاة من سهم المؤلفة قلوبهم تثبيتا لإيمانهم وحمايتهم من أن يفتنوا في دينهم ، فتضعف نفوسهم ويرتدوا إلى الشرك والضلال ، ويرى عبدالخالق النواوي (٦٩) ، أن يصرف سهم المؤلفة قلوبهم في الدعاية للإسلام وبيان حقائقه ، فبيان الحقائق الإسلامية لمن يجهلونها فيه تبليغ للرسالة المحمدية .

وينفق من أموال الزكاة على عتق رقاب العبيد وعلى الذين لا يستطيعون تسديد ديونهم ، فيعاونهم بيت الزكاة بجزء من الصدقات ، ويتجلى من تخصيص هذا السهم للغارمين أن العدالة الإسلامية سبقت كل الشرائع والقوانين التي تنظم التكافل الاجتماعي ، ويبين كيف علا الإسلام بالاجتماع الإنساني ، فهو يشجع على القرض الحسن وقطع الطريق على المرابين ، فضلا عن التراحم والإنسانية في معاملات المسلمين ، والتعاون الجماعي ، إلى جانب الحفاظ على كرامة المسلم ، على النقيض من القانون الروماني الذي كان يسمح للدائن أن يسترق المدين ويحوله من عز الحرية إلى ذل العبودية .

كما يعطى الغزاة في سبيل الله ما ينفقون في غزوهم سواء كانوا فقراء ، أو أغنياء ، ويرتبط بالغزو في سبيل الله ، أن ينفق من الزكاة على الجيش وكل ما

---

٦٩ ـ انظر النظام المالي في الإسلام ص ١٠٩

يتصل به من إعداد المعدات والأسلحة بكل أنواعها ما دام يجاهد في سبيل الله ، وابن السبيل المراد به الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ، فيعطى من الصدقات وإن كان غنيا في بلده حتى يرجع إلى موطنه الأصلي .

لما انتصر المسلمون في بدر وغنموا من المشركين غنائم كثيرة ، بدأت مرحلة جديدة في الأحكام الخاصة بالحرب والسلم ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ (٧٠) ، فوضع القرآن الكريم بذلك قاعدة تقسيم الغنائم ، وهي ما يصيبه المسلمون من متاع وسلاح وكراع في دار الحرب ، وكان أول تطبيق لهذه الأحكام على الغنائم التي حصل عليها المسلمون بعد إجلاء بني قينقاع عن المدينة المنورة ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد قسم غنائم بدر بأكملها للفارس سهمان وللراجل سهم واحد (٧١) .

يتجلى من الآية الكريمة أن خمس الغنيمة كان لمن سمى الله عز وجل وأربعة أخماسها تفرق بين الجند ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «الغنيمة لمن شهد الوقعة» (٧٢) ، ومراعاة للعدالة التي تقضي أن تصل الحقوق لأصحابها روعي لو أن مريضا شهد القتال مع الجيش في أرض العدو ولم يقاتل كان له سهمه منها (٧٣) ، وعلى ذلك كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس ، فأربعة منها لمن قاتل في سبيل الله ، وخمس واحد يقسم على أربعة ، فربع لله ورسوله وذي القربى ، وربع لليتامى ، وربع للمساكين ، وربع لأبناء السبيل (٧٤) ،

---

٧٠ ـ سورة الأنفال : آية ٤١ .

٧١ ـ أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٩ .

٧٢ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ .

٧٣ ـ الطبري : كتاب اختلاف الفقهاء ، ص ٧٨ .

٧٤ ـ البلاذري : انساب الأشراف ج١ ، ص ٥١٥ .

وكانت الغنائم تقسم في دار الحرب بعد انتهاء القتال ، فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بني المصطلق في الموضع الذي غنمها فيه قبل أن يتحول عنه (٧٥) ، ومن ناحية أخرى كان لحرص أمراء جيوش المسلمين على إعطاء كل ذي حق حقه من الغنيمة ، أن الرجل إذا استشهد قبل توزيع الغنائم فنصيبه كان يعطى لورثته . (٧٦) .

أما الفيء فهو الغنائم التي حازها المسلمون بغير قتال ، وقد تم توزيعها بأحكام الآية الكريمة : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٧٧) .

كانت الجزية والخراج من أهم الموارد الرئيسة لبيت المال في الدولة الإسلامية ، والجزية تشبه الخراج في أن كلا منهما يفرض على غير المسلمين ، لكنهما يختلفان في أن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالإسلام ، أما الخراج فهو على الأرض ولا يسقط بإسلام المالك لكنه يتحول من أرض خراجية إلى أرض عشرية .

فرضت الجزية على أهل الذمة بالنص القرآني : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾(٧٨) ، ففرضها ولاة الدولة

٧٥ ـ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ ص ٦٠٥ .
٧٦ ـ الطبري : كتاب اختلاف الفقهاء ، ص ٧٧ .
٧٧ ـ سورة الحشر : الآيتان ٦ ، ٧ .
٧٨ ـ سورة التوبة : آية ٢٩ .

الإسلامية على الذميين وغيرهم من أهل البلاد المفتوحة بعد إعطائهم الأمان والحرية في البقاء على دينهم ، يتجلى ذلك من كتاب الأمان الذي كتبه عمرو بن العاص لأهل مصر بعد استسلام الحامية البيزنطية المدافعة عن حصن بابليون ، فجاء فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية [٧٩]» .

كانت الجزية تؤدي على قدر طاقة الشخص وطبقته ، فيدفع أبناء الطبقة الدنيا منها اثني عشر درهما في السنة ، والطبقة الوسطى أربعة وعشرين والعليا ثمانية وأربعين ، أو دينار وديناران وأربعة دنانير طبقا للعملة السائدة [٨٠] ، الواقع أن هذا التقسيم الذي ذكره أبويوسف والماوردي لا يتفق مع المنطق العقلي ، ويتعارض مع العدالة الإسلامية التي تدعو إلى معاملة كل إنسان قدر طاقته ، وألا تكلف نفس إلا وسعها ، فمن غير المقبول أن أبناء كل طبقة متساوون في مستوى المعيشة ، وعلى ذلك وطبقا لأوراق البردي كانت الجزية تقل عن مستوى الاثني عشر درهما حالة الضرورة للطبقة الدنيا ، وكذلك الحال للمتوسطة تفرض حسب طاقة الفرد ، ويبدو أن تحديد قيمة الجزية على النحو السابق يعني الحد الأقصى المفروض على أبناء كل طبقة ، على أية حال كانت الجزية تؤخذ على أقساط تبلغ ستة أو خمسة ، وأحيانا أربعة أو ثلاثة أو اثنين ، وكان يعفى منها النساء والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، والشيوخ ، ولا تؤخذ من ذوي العاهات ، ولا من الفقير المعدم ، ولا من الرهبان في الأديرة إن كانوا فقراء يتصدق عليهم ، وفي جميع الأحوال كان يعطي لمن دفع الجزية براءة تثبت ذلك حتى لا تحصل منه مرة أخرى [٨١] .

---

٧٩ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص ٢٢٩ .
٨٠ ـ أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٢٢ . ، الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٣٩ .
٨١ ـ أبو يوسف : المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

أما الخراج فهو مقدار معين من المال أو من ذات المحصول يفرض على الأراضي التي فتحها المسلمون صلحا وتركوها في يد أهلها ، وكذلك تفرض على الأراضي المفتوحة عنوة وأبقاها الخليفة في أيدي أصحابها ووقفها على مصالح المسلمين ، لم يفرض الخراج في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في ولاية أبي بكر من بعده وذلك لعدم انتشار الفتوحات الإسلامية في عهدهما ، ولأن الحاجة لم تكن ماسة إليه لكفاية الموارد المالية وقتذاك فلما صار عمر بن الخطاب رضي الله عنه أميرا للمؤمنين وفتح الله على يديه سواد العراق ، وضع الخراج على الأرض التي أقر الكفار عليها وكان رائده في ذلك المصلحة .

فلما قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول من قبل سعد بن أبي وقاص ، شاور أصحاب الرسول صلى الله وسلم في قسمة الأرض التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام ، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا ، فقال عمر رضي الله عنه : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت ، وورثت عن الآباء وحيزت ، ما هذا برأي فقال له عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه : فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أراضي الشام والعراق؟ فأكثروا على عمر رضي الله عنه وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر رضي الله عنه لا يزيد على أن يقول هذا رأيي ، قالوا فاستشر ، قال فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه فكان رأيه ، أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رضي الله عنهم رأي عمر : فأرسل إلى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبارهم وأشرافهم .

فلما اجتمعوا حمدالله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملته من أموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ، قالوا : قل نسمع يا أمير المؤمنين : قال : سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم فقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج ، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لا بد من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج؟ ، فقالوا جميعا : الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم(٨٢) ، هكذا كان فرض الخراج من أجل المصلحة العامة ، ومن أهمها إقامة جيش قوي لرد الاعتداءات الخارجية على أطراف الدولة وحماية الدعوة الإسلامية .

أما الأرض التي أسلم أهلها عليها بدون حرب فكانت تترك لهم على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، وكذلك الحال مع الأرض الموات التي أحياها المسلم ، والأرض التي ملكها المسلمون عنوة من المشركين ، وكان يراعي في

---

٨٢ ـ أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٢٥ ـ ٢٧ .

تقدير الخراج كمية المحصول ، ومساحة الأرض وجودتها ، وأنواع الزرع ، وتوفر وسائل الري[٨٣] ، كذلك كان يراعي قرب الأرض أو بعدها عن الأسواق ، وكان الخراج يؤدي إما نقدا أو عينا من ذات المحصول أو من كليهما ، ويجبي طبقا للدورة الزراعية ، فلا يطبق على الأرض حكم مرور الحول مثل النقود ، وقد ساد الدولة الإسلامية نظامان لجباية الخراج ، نظام المقاسمة ويفرض على حسب كمية المحصول ويحصل عينا ، ونظام الالتزام ، وفيه يؤدي الخراج على أرض مقطعة باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة ، وكان غالبا ما يبلغ العشر على ما قرره الفقهاء [٨٤] ، وفي جميع الأحوال كان صاحب الأرض يعفى من دفع الخراج إذا تعرض المحصول للآفات والغرق [٨٥] .

كانت جباية الخراج تتم بإنفاذ الأوامر من الوالي إلى صاحب كل قرية بتقدير الضرائب على أهلها ، فهو المسؤول عن جباية المقرر على أفرادها جميعا ، فيكلف صاحب القرية بدوره رجالاً أكفاء أمناء بالإحصاء والتقدير تبعا لجودة الأرض ، وذلك بعد مسحها بدقة ، وكانت البيانات تسجل في كشوفات وقوائم عن كل ناحية ، وتتضمن أسماء الملاك والزراع ، وأمام كل منهم المساحة المملوكة والمزروعة ونوع المحصول والضريبة المقررة ، ثم ترسل الكشوف إلى الإدارة المالية المركزية ، ويحتفظ بنسخة منها للمتابعة والتنفيذ ، وكان يكتب أسماء وألقاب ومحل إقامة كل من اشترك في المسح وتقدير الضرائب لمحاسبتهم إذا حملت قرية أكثر مما تحتمل من الضرائب ، وكانت الضرائب قابلة للتعديل مراعاة للعدالة الإسلامية في معاملة أهل الذمة ، فإذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فكان التقدير على احتمال القرى وسعة المزارع في جميع الأحوال [٨٦] .

---

٨٣ ـ الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

٨٤ ـ جمال سرور : الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١١٢ .

٨٥ ـ البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٤٧ ، .

٨٦ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .و ،

Grohmann : Arabic Papyri, Vol III, PP. 30 - 31.

كانت العشور من موارد بيت المال ، وهى الضرائب التي كانت تفرض على التجار المارين بالثغور الإسلامية ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من وضع العشر في الإسلام ، وكان السبب في وضع العشر ، أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد تلقى رسالة من أبي موسى الأشعري جاء فيها :« أن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » ، فأنفذ إليه الرد على النحو التالي : «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن الحربيين العشر من كل أربعين درهما درهما ، وليس فيما دون المائتين شيء ، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ومازاد بحسابه [٨٧] ، وصار بذلك الناس فيها على ثلاث درجات ، مسلمين فيؤخذ منهم ربع العشر ، وذميين فيؤخذ منهم نصف العشر ، وحربيين فيؤخذ منهم العشر ، أو كما يأخذون منا ، لأن الأمر فيما بيننا وبينهم يقوم على المعاملة بالمثل .

وتوضع الأموال المتحصلة من المسلمين في بيت الزكاة وتصرف في مصارفها ، والأموال الأخرى تعامل معاملة أموال الجزية والخراج ، ومن أهم أحكام العشور أنها تؤخذ من التجار لحماية أموال التجارة ، لذا لا تؤخذ من غيرها فلو مر تاجر بأراضي الدولة الإسلامية ومعه أموال للتجارة أخذت منه ضريبتها ، أما لو كان معه ماله الخاص فلا تؤخذ منه الضريبة ، ومن ناحية أخرى ، كان نصاب العشور مائتي درهم تقويما ، فإن لم تبلغ ذلك فلا تؤخذ الضريبة [٨٨] .

ومن الضوابط الأخرى أن التاجر لو مر عدة مرات فلا يؤخذ منه العشور لأنها تجبي مرة واحدة في العام ، وعلى ذلك فيشترط فيه ما يشترط في الزكاة من النصاب والحول بالنسبة للتجار المسلمين ، أما الذميون فيعاملون في ذلك معاملة الجزية ، ولهذا يصرف في مصارفها ، وعلى العاشر أن يكتب لهم وثيقة بذلك لتكون حجة إذا مروا على عاشر آخر أو مروا على نفس العاشر عدة مرات ،

---

٨٧ ـ أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

٨٨ ـ يحيى بن آدم : كتاب الخراج ص ١٠ ـ ١١ .

ويستثنى من ذلك معاملة الحربيين ، فيمكن أن يأخذ منهم العشر ، أكثر من مرة في السنة ، إذا أخذوا من التجار المسلمين عند عبورهم أراضيهم ، لان الأصل في معاملتهم المثل والمجازاة ، كما يمكن إعفاء الحربيين من العشور مهما بلغت تجارتهم ، إن لم يأخذوا من تجارنا شيئا (٨٩) .

اتبع المسلمون في فرض العشور سياسة رشيدة حكيمة تقوم على تغليب المصلحة العامة ، فكانت هذه الضريبة تخفض على بعض الأصناف إن كانت الحاجة إليها ماسة لعامة الناس ، فمن ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بتخفيضها على الحربيين إلى نصف العشر إذا حملوا الحبوب والزيت ، وذلك ليكثر الحمل إلى المدينة ، بل كانت هذه الضريبة تلغى إذا كانت حاجة المسلمين شديدة في بعض السلع وحالة بيعها في أرض الإسلام .

سارت القوانين الاقتصادية في البلاد المتقدمة على نهج الدولة الإسلامية في تحصيل الرسوم على حمولة السفن القادمة من الموانيء الأجنبية ، كما أجاز القانون الدولي إضافة رسوم على البضائع الواردة في سفن أجنبية ، على أن الميول العامة متجهة نحو تخفيف هذه الرسوم أو عدم فرضها ، في نظير مقابلة المثل بالمثل ، كما قرر القانون الدولي أن للدولة أن تراقب الواردات إلى بلادها وأن تنظمها وتضع لها القيود الكافلة لحماية الإيرادات ورعاية الآداب العامة ، وللدولة أن تضع العقوبات لمن يخالف قوانينها ، يتجلى من ذلك أن التشابه كبير بين ماقرره علماء المسلمين في نظام العشور ، وبين نظام الحماية الجمركية على ما قرره علماء القانون الدولي ، وخلاصة القول أن الشريعة الإسلامية قد وسعت كل إصلاح وتفتحت لكل تقنين يعود بالخير والنفع العام على كافة البشر (٩٠) .

ومن موارد بيت المال المستغلات وهي الضرائب التي فرضت على الدور

---

٨٩ ـ ابو يوسف : كتاب الخراج ص ١٤٦ .

٩٠ ـ عبد الخالق النواوي : النظام المالي في الاسلام ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

والحوانيت والأسواق [٩١] ، ومن بينها أيضا أخماس المعادن ، وخمس ما يقذفه البحر أو يستخرج منه مثل اللؤلؤ ، وما يؤخذ من تركة المتوفي دون وريث ، فكان ميراثه يؤول إلى بيت المال ، وكان للمواريث قسم خاص بها في بيت المال يعرف بديوان المواريث ، وهذا المورد يختص بالمسلمين ، أما أهل الذمة فكانت ترد تركة من مات منهم على أهل ملته [٩٢] .

تعددت المصروفات ونواحي الإنفاق على المصالح العامة للمسلمين من الموارد السابق ذكرها ، فمنها رواتب كبار رجال الدولة والموظفين والعمال عدا القائمين على جباية الصدقات ، فرواتبهم كانت تصرف لهم من أموال الزكاة ، كما كان يدخل عطاء الجند وأرزاقهم ضمن رواتب الموظفين الرسميين في الدولة ، فكان قادة الجيش والجند يحصلون على رواتب شهرية ، فضلا عن الأرزاق العينية التي كانت تصرف لهم كل ثلاثة أشهر ، ومن أهم بنود المصروفات إعداد الجيوش والأساطيل وإمدادها بالمعدات الحربية وإنشاء الحصون بالثغور وشحنها بالجند .

كما حظيت المرافق العامة بنصيب وافر من مصروفات الدولة فمنها إنشاء الجسور ، وإصلاح الطرق ، وتطهير الترع والأنهار وإقامة الطرق ، وتشييد المباني العامة كالمدارس والحمامات ودور رعاية الفقراء والمعدمين والبيمارستانات ، فضلا عن إنشاء أنابيب المجاري التي تأخذ الماء من الأنهار الكبيرة لتوصيله إلى الأحياء والمساكن والأراضي الزراعية البعيدة التي تحتاج إلى الري .

المعاملات التجارية والمالية :

كان المسلمون يتعاملون بالدنانير الذهبية البيزنطية وأشهرها المسماة بالقيصرية ، والدراهم الفضية الفارسية الكسروية ، كما استخدموا الفلوس

---

٩١ ـ ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٠٣ .

٩٢ ـ هلال بن الصابئ : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠ .

النحاسية والبرونزية في المعاملات التجارية البسيطة ، فضلا عن المقايضة .

كان الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ـ٨٦هـ) أول من قام بتعريب السكة وأمر بضرب النقود الإسلامية ، بينما يذكر الكرملي[٩٣] : «أن خالد بن الوليد كان أول من ضرب النقود من المسلمين ، فضرب نقودا في طبرية سنة ١٥ هـ أو ١٦هـ وجعلها على رسم الدنانير الرومية تماما ، ويضيف أن الخليفة عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على النمط الذي كانت عليه الدراهم الكسروية» ، وهذا القول يجانبه الصواب لأن الدنانير البيزنطية تشتمل على صورة للإمبراطور وابنه ولي العهد ، وعلى رأس كل منهما التاج الذي يعلوه الصليب ، ومن الثابت أن التصوير كان محرما في هذه الفترة المبكرة من الإسلام ، كما أنه من غير المعقول أن يأمر خالد بن الوليد بضرب الدنانير وعليها الصليب ومن ناحية أخرى ما الحاجة إلى ضرب مثل هذه الدنانير مع توافر الأصل؟

كما لايمكن القبول بأن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بضرب دراهم كسروية ، وذلك أن هذه الدراهم تشتمل على صورة كسرى فارس وبجانبه معابد النار ، وعلى الرغم من قول المقريزي[٩٤] أن الدراهم التي ضربها عمر كانت عليها عبارة الحمد لله ومحمد رسول الله أو لا إله إلا الله ، فهي مجرد أقوال لاتؤيدها أدلة مادية ، فلم يصل إلينا نماذج من هذه العملات حتى الوقت الحاضر .

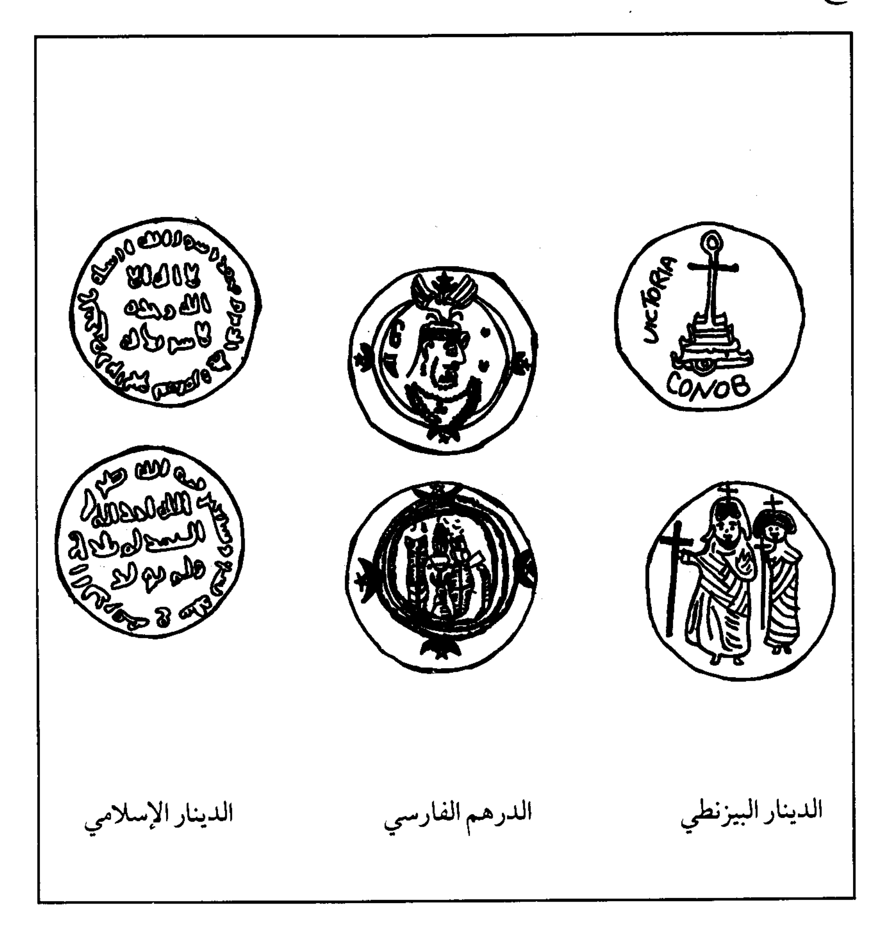
اختلفت أقوال المؤرخين حول الأسباب التي دعت الخليفة عبدالملك بن مروان إلى ضرب النقود الإسلامية ، فيرى ابن الأثير[٩٥] أن ذلك قد تم بعد أن هدد امبراطور الروم بأنه سوف ينقش على الدنانير ما يكره المسلمون بعد أن

---

٩٣ ـ الكرملي : النقود العربية ، ص ١٩ .
٩٤ ـ انظر كتاب النقود العربية ص ٣٢ .
٩٥ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٤ ، ص ١٧٣ .

وصلته رسائل عبدالملك وهي تحمل صدر سورة الإخلاص ، بينما يرى ابن خلدون أن السبب يرجع إلى انتشار الغش والتزييف في الدنانير والدراهم(٩٦) .

يرجع تاريخ أقدم دينار إسلامي إلى سنة ٧٧هـ ، وأول درهم إسلامي إلى سنة ٧٩هـ ، وكل من الدينار والدرهم يحمل كتابات في دوائر متوازية تشتمل على سورة الإخلاص ، وشهادة التوحيد والرسالة المحمدية فضلا عن مكان وتاريخ الضرب .



الدينار البيزنطي — الدرهم الفارسي — الدينار الإسلامي

---

٩٦ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٣٢ .

كتب الخليفة عبدالملك بن مروان إلى عماله بالأمصار الإسلامية ، أن يقتصر التعامل على السكة الإسلامية ، والضرب على أيدي المتعاملين بغيرها ، وأن يقوم الولاة بجمع النقود غير الإسلامية وتسليمها إلى دور السكة (دور الضرب) لصهرها وإعادة سكها بالكتابات والنقوش الإسلامية(٩٧) .

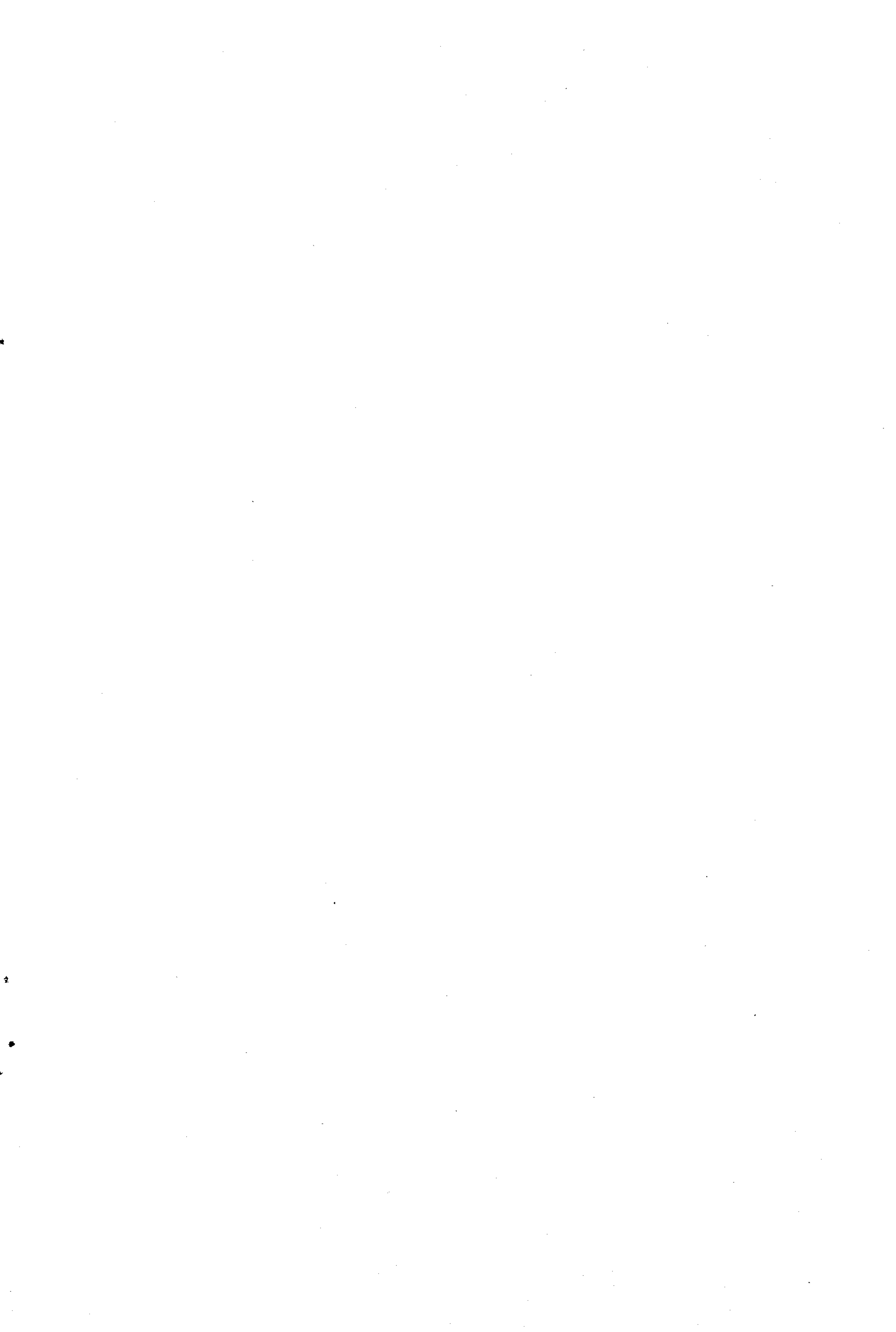
اتخذ الخليفة هشام بن عبدالملك الإجراءات اللازمة بالرقابة الإدارية والمالية على العاملين بدور الضرب ، فشدد على الطباعين وأصحاب العيار ، وأمر بقطع الأيدي وانتزاع الجلود ، والضرب بالسوط(٩٨) في حالة الغش ، وقد أدى ذلك إلى إنتاج عملة إسلامية عالية الجودة جيدة العيار .

أدخل العباسيون وسائل جديدة للمعاملات المالية مثل السفاتج أو الحوالات ، وذلك أنه لما نشطت التجارة وازدادت المعاملات المالية أصبح التعامل بالمبالغ الكبيرة يواجه بعض الأخطار وبخاصة في نقلها من مكان لآخر ، فاستعمل التجار السفاتج ، وهي رقاع يكتبها الجهابذة أو الصيارفة بقيمة المبالغ المتحصلة منهم ، وكانت قابلة للصرف في أي بلد من عملائهم ، ومن ناحية أخرى كانت الصفقات المالية بين المراكز التجارية تتم تحت إشراف هؤلاء الصيارفة(٩٩) .

كما استعمل التجار الصكوك كوسائل بديلة للمال ، ولدفع رواتب الجند ، وقد شاع استخدام الصكوك حتى تعدى دوائر الحكومة إلى أفراد الشعب(١٠٠) .

---

٩٧ ـ الدميري : حياة الحيوان ، ج١ ، ص ٧٦ .
٩٨ ـ المقريزي : كتاب النقود ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .
٩٩ ـ الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٥٩ .
١٠٠ ـ جمال سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٦٤ .



الفصل السادس

العمارة والفنون الإسلامية

د. محمود عرفة

تنوعت الفنون الإسلامية التي نشأت منذ فجر الإسلام ، وتطورت بعد أن أبدع الفنان المسلم في مختلف أفرع الفنون ومنها العمارة والتصوير والنحت والزخرفة وغيرها .

مما تجدر الإشارة إليه أن الفنانين المسلمين كانوا قد أمسكوا عن محاكاة الطبيعة وبخاصة تصاوير الإنسان ، واكتفوا بتصوير المخلوقات الأخرى من حيوانات وطيور ونباتات بالتحوير ، ويرجع ذلك إلى تعاليم الإسلام التي حالت دون تقليد الطبيعة تقليدا مطلقا ، مما أدى إلى استخدام الموضوعات المستمدة من الطبيعة استخداما زخرفيا بطريقة رمزية بعيدا عن الطبيعة ، وهذا التحريم يرجع إلى قرب الناس بعبادة الأصنام والأوثان خشية أن يرتدوا إليها ، أي أن التحريم كان سدا للذريعة إلى الوثنية ، والناس قريبو العهد بهذه العبادة (١) .

غير أن الفنان المسلم انطلق في التصوير بحرية كبيرة مع قيام الدولة العباسية ، وإطلاق يد الفرس في مختلف شئون الدولة السياسية والحضارية ، واستخدم هذا الفن في المخطوطات والفنون التطبيقية والعمائر ، لكنه ظل محرما في المساجد .

ومن الجدير بالذكر أن الدين الذي كان سببا في كراهية فن التصوير عند المسلمين في صدر الإسلام ، هو الذي كان سببا في انتشاره عند الوثنيين والمسيحيين (٢) حيث توجد التصاوير المجسمة في المعابد والهياكل والكنائس ،

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ٢ ص٨٦ .

(٢) مختار القاضي : أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية ص٨٥ .

واعتقد الفنانون النصارى وغيرهم أن تصوير المشاهد الدينية هو من قبيل التقرب إلى الله ، بينما كان الفن الإسلامي يهدف إلى تجميل شتى زوايا الحياة الدنيا بما يشيع الغبطة ، وفي القلب الرضا والانشراح (٣) .

العمارة

أولا ـ المساجد :

اهتم المسلمون بإقامة المساجد لمراعاة نظام الصفوف في الصلاة والاتجاه فيها إلى جهة الكعبة المشرفة ، فضلا عن ان المسجد كان يمثل مركز الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومقر الحكم والإدارة ، وكانت بناية المسجد في البداية بسيطة تعتمد على جدران من اللبن وجذوع النخيل وسقف من الجريد ، ويعد المسجد النبوي بالمدينة المثال الأول الذي سار على نهجه المسلمون في تشييد مساجدهم .

ذلك أن النبي ﷺ لما وصل المدينة قرر بناء مسجد ، فاختار المكان الذي بركت فيه الناقة حين دخل المدينة ، وكانت ملكاً لأخوين يتيمين هما سهل وسهيل ، فأعطاهما عشرة دنانير ، دفعها أبو بكر من ماله ، وتم التخطيط للبناء الذي بدا بسيطا في مظهره وطريقة بنائه (٤) .

كان المسجد النبوي يتألف من بناء على مساحة مربعة من الأرض (١٠٠×١٠٠ ذراعا) ، ويشتمل على مكان مكشوف مخصص للصلاة ويعرف بصحن المسجد (نسبة إلى صحن البيت) ، وجزء مغطى بجذوع النخيل وسعف الجريد يسمى بالصفة ، استخدمه فقراء المهاجرين في المبيت فعرفوا بأهل الصفة (٥) ، وكان للمسجد ثلاثة أبواب ، باب جبريل (٦) إلى الشرق ، وباب الرحمة ، أو باب عاتكة (٧) إلى الغرب وتحيط به جدران من اللبن وباب القبلة إلى الشمال جهة بيت المقدس ، والجهة الجنوبية لم يكن بها أبواب لأن بها

(٣) عبدالعزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية ص٦٨ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص٤٣ ، حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ص١٠١ .

(٥) Creswell, A short Account of Early Muslim Architecture

(٦) باب جبريل : سمي بذلك لأن الوحي كان يأتي للرسول ﷺ من هذه الناحية .

(٧) هي عاتكة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية ، سمي بذلك لمقابلة هذا الباب لدارها .

المحراب ، ثم أعيد بناء مسجد المدينة وزيدت مساحته عدة مرات ، وقد جدد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بناءه سنة ٩١هـ/ ٧٠٩م ، وجعله نموذجا للمساجد ذات الصحن والأروقة بعد أن أدخلت حجرات زوجات الرسول ﷺ في المسجد ، وجعل له محرابا ومقصورة .

على الرغم من اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية بتجديد وزيادة مساحة المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، إلاأن هذا المسجد الكبير بلغ الغاية في العظمة والاتساع في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ الذي لم يأل جهدا في سبيل زيادة مساحته وتجديده ، حيث تم افتتاح الزيادة والتجديد سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م(٨) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا العمل الخلاق فيه أبلغ رد على الذين يتباكون على الماضي العظيم للحضارة الإسلامية ويشهد أن مسيرتها خالدة على مر العصور .

سار المسلمون على نهج النبي ﷺ في إنشاء المساجد في البلاد المفتوحة والمدن الجديدة (٩) ، فأنشأ عقبة بن غزوان مسجد البصرة وكان عبارة عن سياج من القصب ، ثم أعيد بناؤه بالطمي واللبن وتم إقامة سقف له ، كما أنشأ سعد ابن أبي وقاص مسجد الكوفة ، وكان عبارة عن فضاء مربع مكشوف تحيط به أسوار من القصب تم تحويلها إلى أسوار من الطمي واللبن .

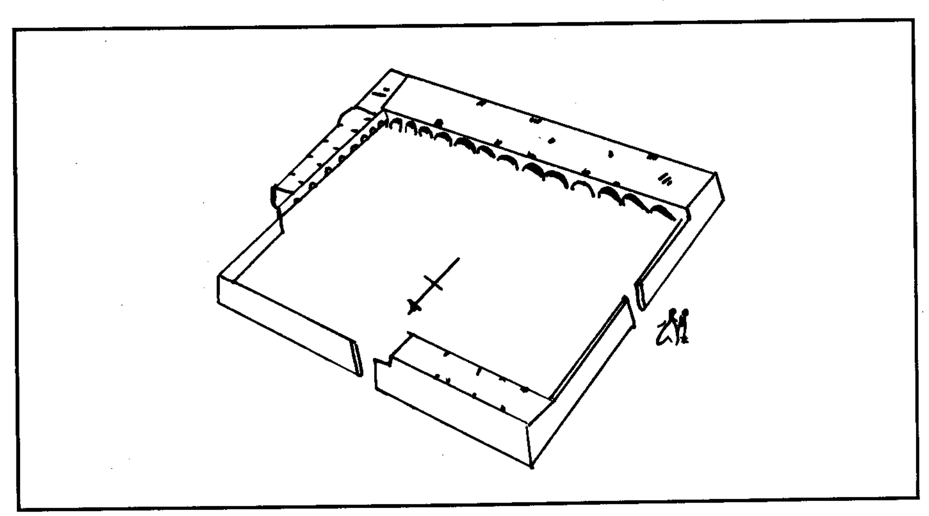
لما فتح المسلمون مصر ، أنشأ عمرو بن العاص مسجده المشهور سنة ٢١هـ ويقع شمالي حصن بابليون ، وكان طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ذراعا ، وظل المسجد بدون محراب حتى بناه قرة بن شريك في خلافة الوليد بن عبدالملك ، وكان للمسجد بابان أمام دار عمرو ، وبابان في الشمال ، وبابان في الغرب .

تعد قبة الصخرة التي شيدها الخليفة عبدالملك بن مروان سنة ٧٢هـ/ ٦٩١ ـ ٦٩٢م من أهم آثار العمارة الأموية وأبدعها ، وكان يطلق عليها جامع عمر ـ لأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أقام في موضعها مصلى من الخشب ، وقبة الصخرة تقع في وسط هضبة صخرية تسمى الحرم الشريف ، (أو القدسي) ،

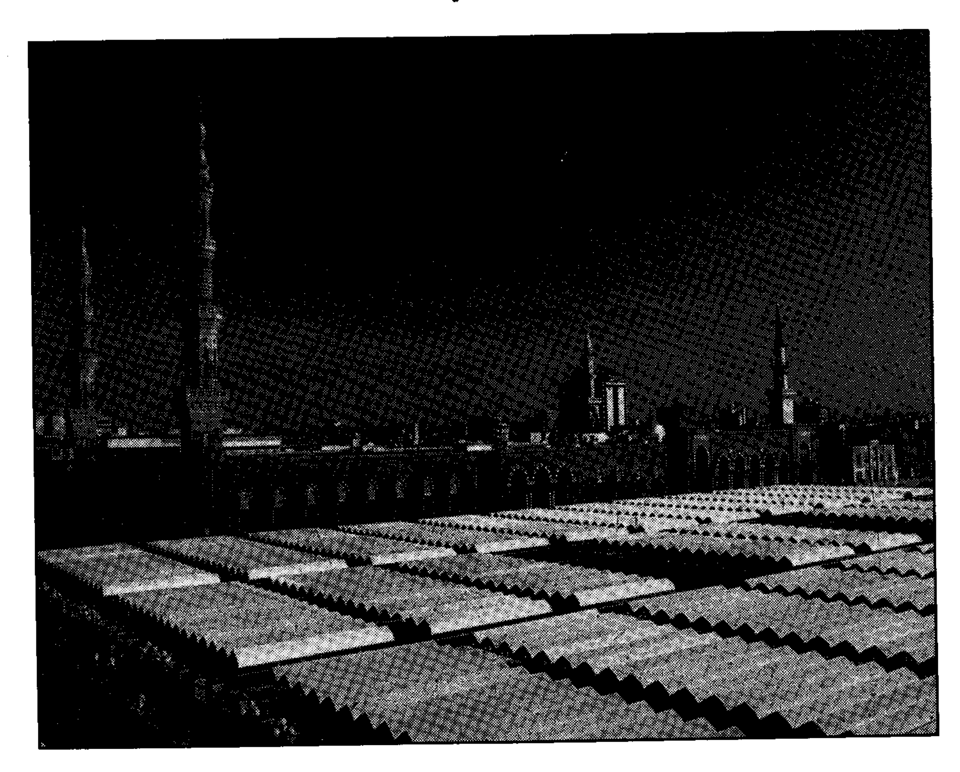
---

(٨) شكل رقم ١ .

(٩) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ص١٠٣ .



منظور المسجد الأول في عهد الرسول ﷺ



منظر عام للحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة بعد زيادة مساحته وتجديده
في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز
شكل رقم (١)

ويقع على امتداد محورها الرئيسي المسجد الأقصى ، وقطر القبة ٤٤ ,٢٠ مترا ، وارتفاعها ٤٠ ,٢٠ مترا[١٠] ، مسقطها مثمن خارجي ،ثم مثمن داخلي ، وثالث اسطواني داخلي ، وتتكون جدران المثمن الخارجي من ثمانية أضلاع طول الضلع ٦٠ ,٢٠م وارتفاع الجدران ٥٠ ,٩م ، وقد قسم كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي إلى سبعة تجاويف رأسية في الجزء السفلي ، بينما تم فتح نوافذ معقودة مغشاة بالقاشاني في الجزء العلوي وهي مقامة على قاعدة مستديرة مكونة من أربع دعامات ، بين كل دعامة والأخرى ثلاثة أعمدة ، وعلى ذلك فهي تكون ستة عشر عقدا مدببا ، ويعلو القبة رقبة اسطوانية بها ست عشرة نافذة ، وتحمل الرقبة المستديرة العلوية[١١] .

مما هو جدير بالذكر أن النص الأثري الخاص بتأسيس قبة الصخرة المكتوب بالخط الكوفي المذهب ، يحمل كتابات متناقضة في تاريخ التأسيس واسم المنشئ على النحو التالي :

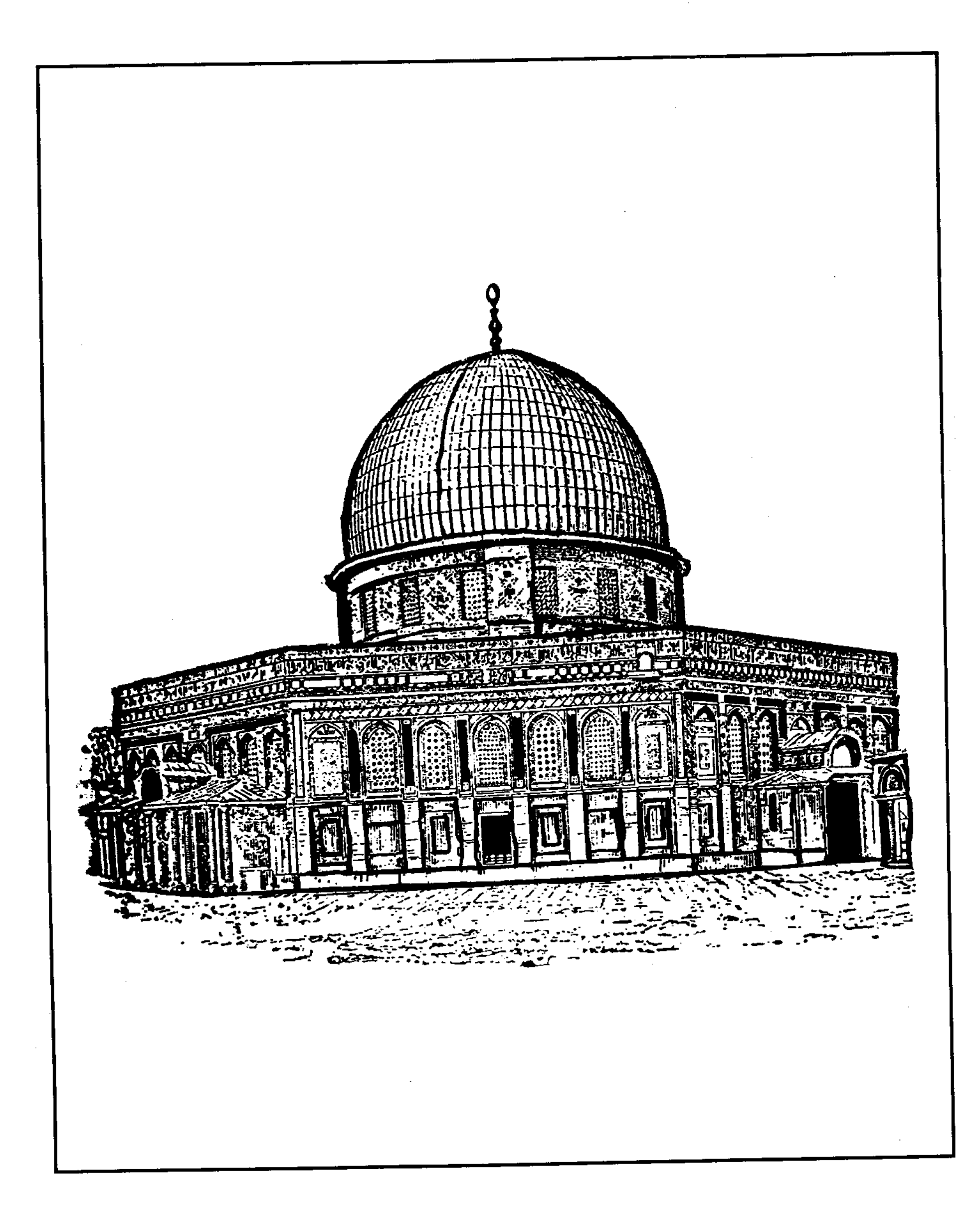
«بنى هذه القبة عبدالله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين» ويبدو من دراسة النص أن اسم الخليفة المأمون وألقابه كتبت بخط ضيق يخالف باقي النص في سائر أجزاء الكتابة ، وعلى ذلك فتاريخ الإنشاء صحيح ، إلا أن الذين قاموا بالتجديد في عهد الخليفة المأمون أزالوا اسم عبدالملك بن مروان ونقشوا اسم المأمون[١٢] في موضعه دون تغيير تاريخ الإنشاء .

أما المسجد الأموي بدمشق فقد بناه الخليفة الوليد بن عبدالملك بين سنتي ٨٨هـ - ٩٦هـ/ ٧٠٧-٧١٥م ، وهو عبارة عن بناء مستطيل التخطيط أبعاده ٥٠ , ٢٢×٥٠٠م له ثلاثة مداخل محورية ، أقيمت في أركانه أربعة أبراج ، تعتبر من المآذن الأولى في الإسلام ، لاتزال إحداها باقية وهي التي تقع في الركن

(١٠) Creswell. Early Muslim Architecture, I, p.7 ، كمال سامح : في العمارة الإسلامية ص٧ .

(١١) شكل رقم ٢ .

(١٢) حسن الباشا : التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ص٢٨ .



قبة الصخرة في القدس
شكل رقم (٢)

الجنوبي الغربي[١٣] ، ويتوسط المسجد صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة ، أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من ثلاث بلاطات مغطاة بثلاثة جمالونات ، ويحمل السقف بائكات محمولة على أعمدة رخامية مكونة من صفين من العقود ، وهناك بلاطة معترضة تتجه من الصحن إلى المحراب عموديا على حائط القبلة وتعرف بالمجاز ، وكان المسجد مفروشا بالرخام ، وجدرانه مغطاة بلوحات من الرخام التي يعلوها زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة[١٤] .

اهتم الخليفة الوليد بن عبدالملك بأن يكون المسجد مثالا للعظمة والأبهة ، وكان المسجد مرصعا بالجواهر الثمينة ، ويعلوه قناديل من الذهب والفضة ، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية[١٥] .

أثّر التخطيط العام والتصميم الداخلي للمسجد الأموي في دمشق في تخطيط وبناء بعض المساجد التي أقيمت في أقاليم الدولة الإسلامية ، فتأثر به جامع الزيتونة بتونس ، ومسجد سيدي عقبة بالقيروان ـ الذي بناه عقبة بن نافع ، وقد تم ضم المساحة الفضاء المجاورة وأضيفت له ، ثم أعيد بناؤه في إمارة يزيد بن حاتم ، كما تم تجديده في عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب[١٦] .

يتجلى أثر المسجد الأموي في تخطيط وتشييد المسجد الجامع بقرطبة ، فكان المسجد يتألف من قسمين أحدهما مسقوف هو بيت الصلاة ، والآخر مكشوف هو الفناء أو الصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على تسعة بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ، ممتدة على اثني عشر عقدا (قوسا) ، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام ، غير أن الربط بين الأعمدة أخرجت المسجد عن المألوف وجعلته بعيدا عن الأصل ، فقد استخدمت بين العمد الرخامية على

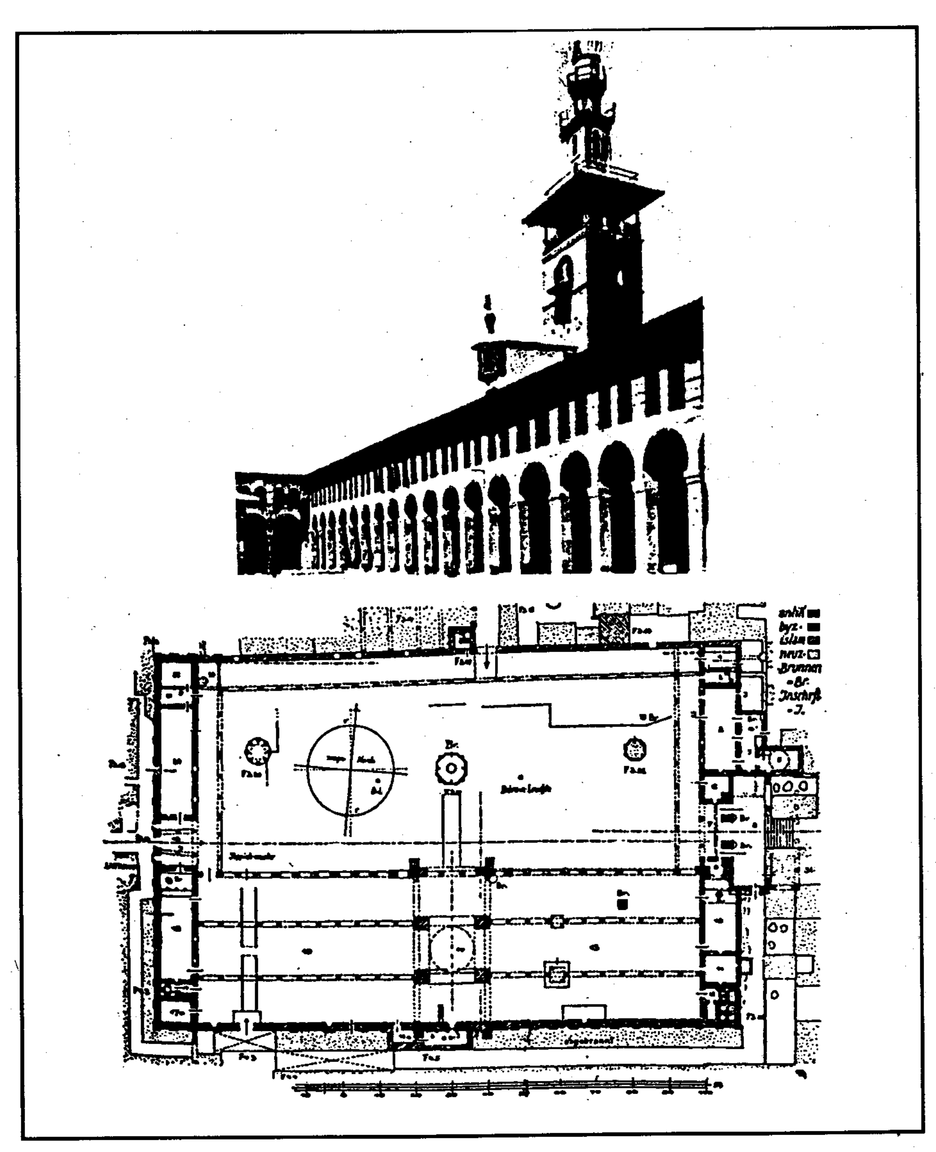
---

(١٣) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ص١١٣ .

(١٤) شكل رقم ٣ .

(١٥) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ ص١٥١ـ١٥٣ .

(١٦) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص٢٢ـ٢٤ .



مئذنة باب الفراديس تطل على صحن الجامع الأموي بدمشق ، مسقط أفقي للجامع الأموي في دمشق
شكل رقم (٣)

أعلى رؤوسها قسي أو عقود متجاورة على شكل حدوة الحصان ، وفيه تبدو قاعة الصلاة كغابة[17] من الأعمدة في وضعين يربط بينها دعائم قصيرة وطبقات من الحجارة والآجر ، كما تم تحوير مبنى الجامع إلى عقود ذات فصوص ثلاثية ، وعقود مشرشرة ، وأصبحت القبة التي تقع فوق منطقة المحراب تتألف من مثمنات ومربعات مضلعة متقاطعة[18] ، ولا شك أن هذا المسجد الكبير يعد من أروع أمثلة العمارة الإسلامية في العصور الوسطى ، وقد اهتم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه حتى بلغ الغاية في الإتقان ، وأصبح مضرب الأمثال في العظمة والاتساع وكثرة الزخارف[19] ، فحظى بمكانة عظيمة في نفوس المسلمين ، حتى أطلق عليه عبدالواحد المراكشي اسم «الجامع الأعظم»[20] .

ثانيا ـ القصور والمساكن :

كان من أهم التغيرات التي طرأت على الدولة الإسلامية في العهد الأموي ، حرص الخلفاء على تشييد القصور في مواضع بالصحراء ـ التي تلائم طبيعة نشأتهم حيث يفضلون حياة البادية ، ومن الآثار الباقية قصير عمره ـ الذي أنشى للصيد والاستجمام ، وقصر المشتى .

يعد قصر المشتى الذي بناه الخليفة الوليد الثاني سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م نموذجا لقصور المعسكرات في الصحراء ويقع في المنطقة الجنوبية الشرقية من مدينة عمان[21] ، والقصر يتألف من قاعة أمامية ذات ردهة ، وحجرات جانبية ، وصحن كبير يتوسطه حوض ماء ، وبهو وسط على الطراز البازيليكي به ثلاثة أروقة وقاعة ملحقة ، وحجرات على الجانبين ، وللقصر مدخل واحد يتألف من

---

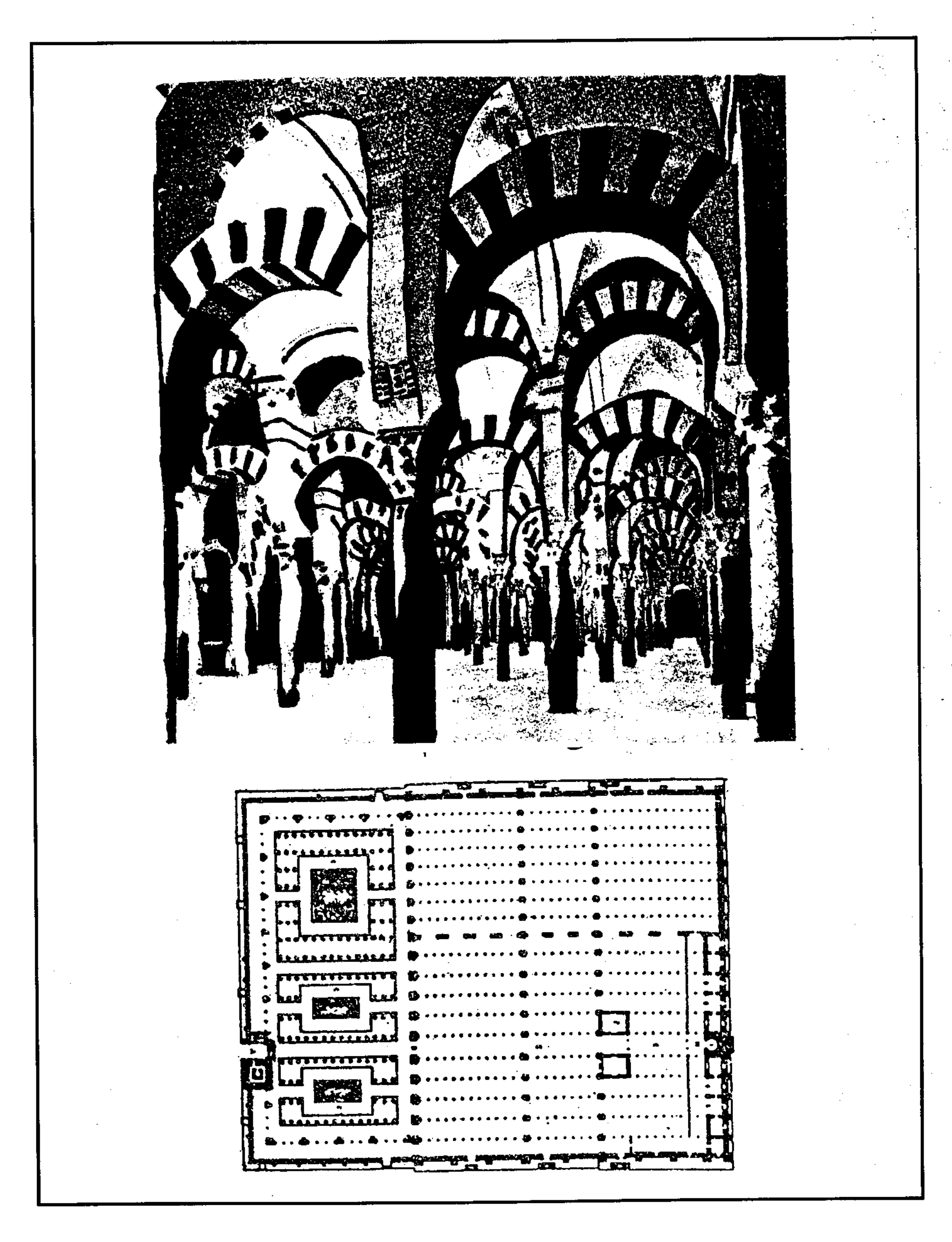
(١٧) أرنست كونل : الفن الإسلامي ص٢٠ .

(١٨) شكل رقم ٤ .

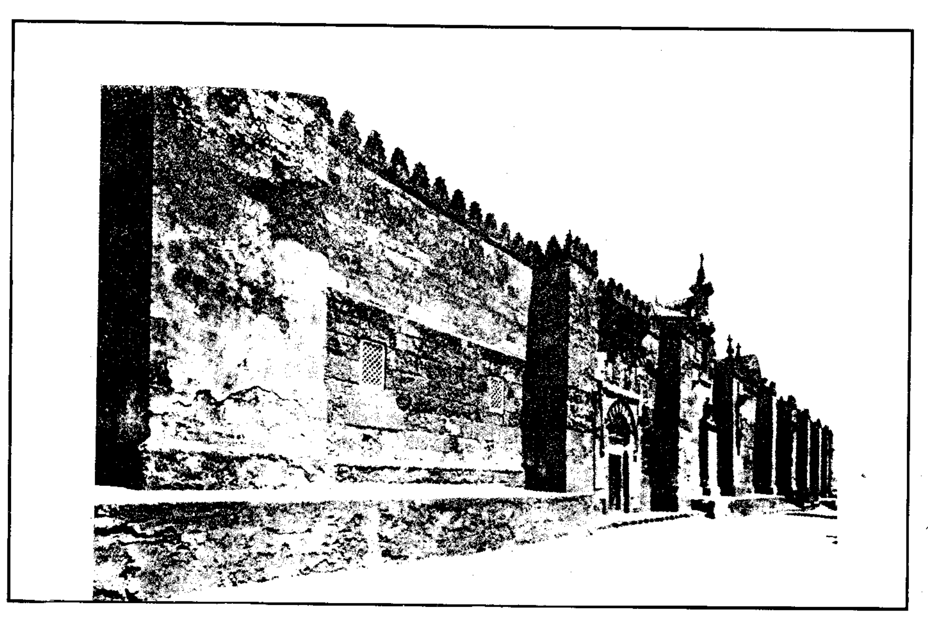
(١٩) السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٣٧٧ـ٣٧٨ وانظر شكل رقم ٥ .

(٢٠) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٣٧٢ .

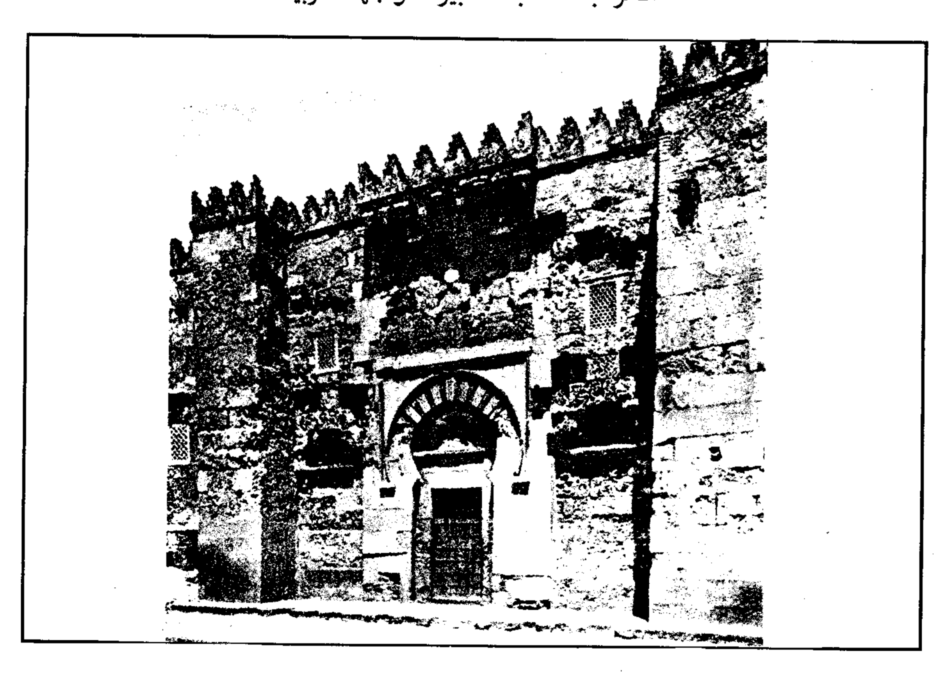
(٢١) كمال سامح : في العمارة الإسلامية ص١٥ .



حرم الجامع في قرطبة ، تصميم للجامع الكبير في قرطبة
شكل رقم (٤)



أ ـ قرطبة ـ المسجد الكبير ـ الواجهة الغربية



ب ـ قرطبة ـ المسجد الكبير ـ بوابة سان استبان
شكل رقم (٥)

بوابة كبيرة على جانبيها زخارف ونقوش[٢٢] ، وقد بني القصر بالحجارة وكسيت أرضه بالرخام والفسيفساء ، وزينت جدرانه العليا بتصاوير بدوية ، وكان الماء يرتفع إلى سطحه من بئر[٢٣] .

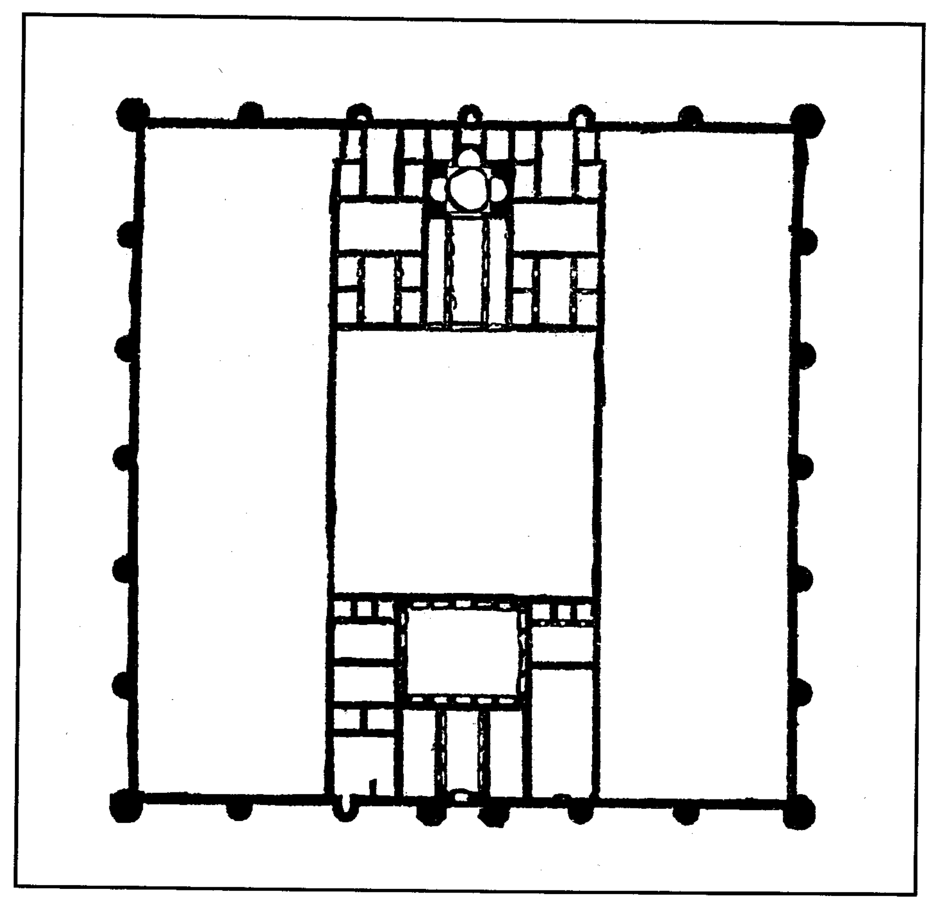
أقيم قصر الأخيضر في العصر العباسي على غرار قصر المشتى ، حيث توجد الردهة في الوسط بعد المدخل ، وله صحن كبير وقاعة للاستقبال ، فضلا عن تشييد منازل جانبية للحريم[٢٤] ، وتم بناء القصر بقطع الحجارة مع استخدام الآجر حوالي سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م[٢٥] .

كما أقام الخليفة أبو جعفر المنصور القصر الذهبي وسط مدينته على هذا التصميم ، فكان يتألف من فناء للاحتفالات وإيوان وقاعة عرش ، فضلا عن قاعة القبة الخضراء العليا[٢٦] .

أما مساكن الأفراد فكانت تتألف من طابق واحد ، مبنية باللبن على غرار المساكن الجانبية بالقصور ، وكان للبيت مدخل مموه يؤدي إلى فناء مستطيل ، ويتألف من قاعة كبيرة على شكل حرف T وحجرتين ، وكانت المساكن الكبيرة تتميز بوجود أبهاء مكشوفة ذات أعمدة وحجرات تحت الأرض تتصل بسراديب للالتجاء إليها عند اشتداد الحرارة صيفا ، وكانت البيوت مزودة بالحمامات وأنابيب المجاري .

---

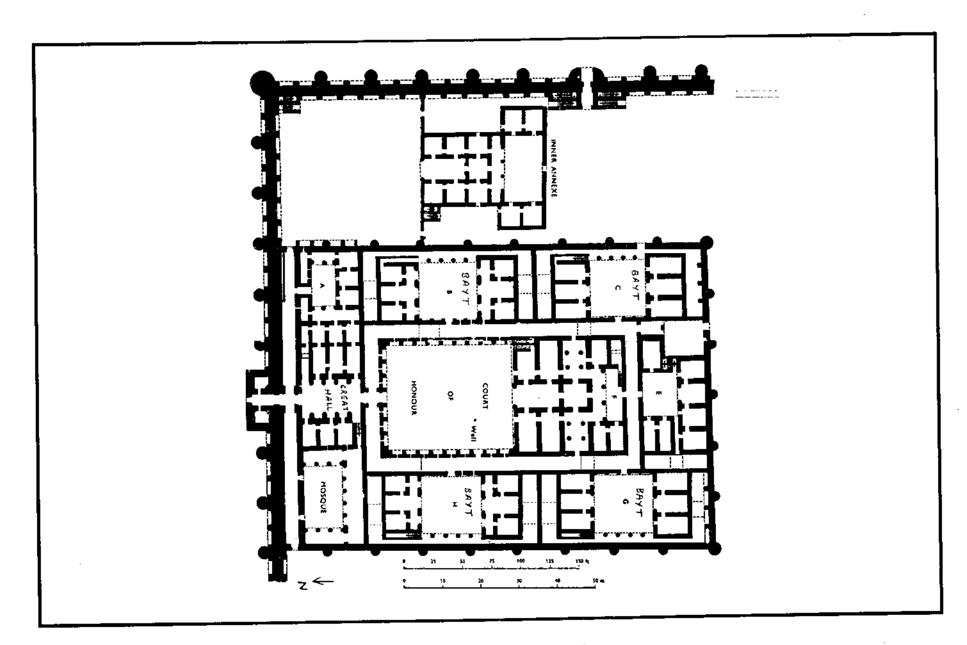
(٢٢) شكل رقم ٦ .
(٢٣) ارنست كونل : الفن الإسلامي ص٣٥ .
(٢٤) شكل رقم ٧ .
(٢٥) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ص١٧٥ .
(٢٦) ارنست كونل : المرجع نفسه ، ص٣٥ .



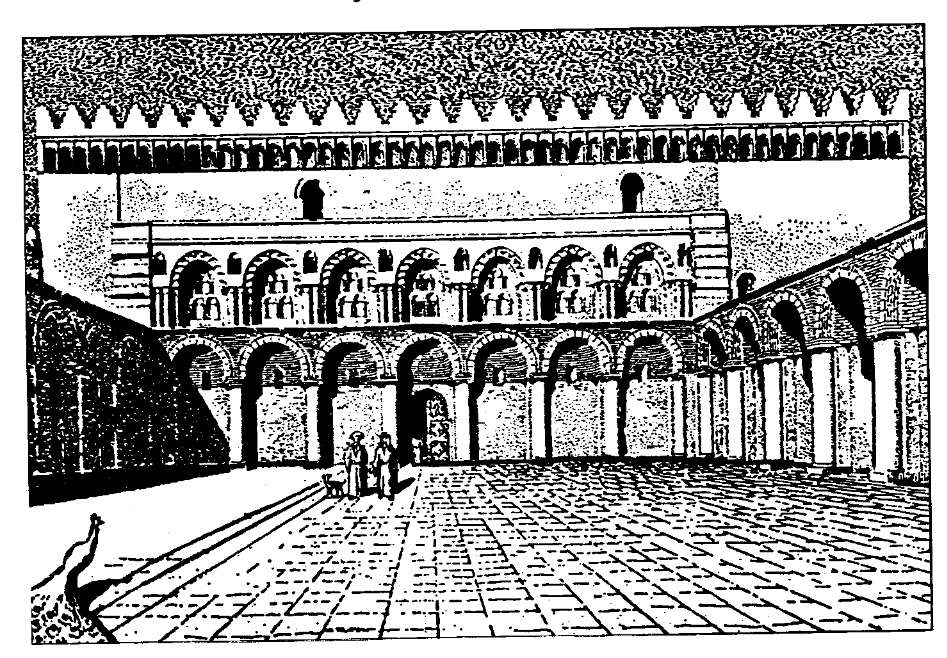
تصميم لقصر المشتى
شكل رقم (٦)

ثالثا ـ القلاع :

تعتبر قلعة صلاح الدين أو قلعة الجبل من أعظم القلاع الحربية التي شيدت في أقاليم الدولة الإسلامية ، وهي أثر خالد من آثار العمارة في العصر الأيوبي ، وقد طغت شهرتها على بقية آثار الأيوبيين بالقاهرة لأنها احتفظت بعناصرها المعمارية ، ولأنها حظيت باهتمام ولاة مصر في العصور المتعاقبة ، وقد أثرت خصائصها المعمارية في تطور العمارة الإسلامية عبر العصور .

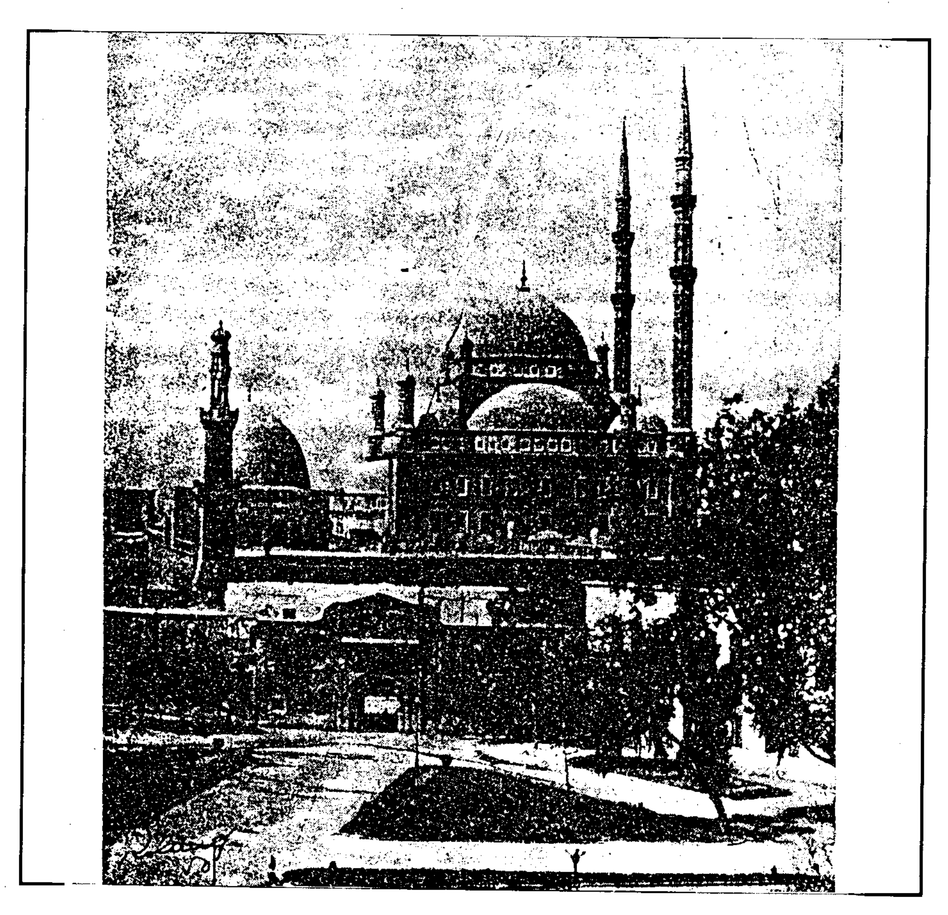


الأخيضر ـ مخطط القصر



تصميم حديث لصحن الشرف في قصر الأخيضر
شكل رقم (٧)

شرع الناصر صلاح الدين في بنائها سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م واكتمل البناء سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ، وتشتمل على ثلاثة أقسام رئيسة هي ، القسم الشمالي ويتميز بالباب المدرج ، والقسم الجنوبي الذي يضم جامع محمد علي وجامع الناصر محمد بن قلاوون والبئر الحلزوني ، والقسم الأسفل الذي يتميز بباب العزب ، وكان يعرف قديما بباب السلسلة أو بباب الإسطبل[٢٧] .



باب القلعة الموصل لفناء المتحف الحربي
شكل رقم (٨)

(٢٧) شكل رقم (٨) .

يعد بئر الحلزوني من العجائب التي استنبطها بهاء الدين قراقوش ـ وزير صلاح الدين وقائد جيشه ، فقد كانت الأبقار تدور من أعلاها فتنقل الماء من نقالة في وسطها ، وتدور الأبقار في وسطها فتنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء بنحو ثلاثمائة درجة(٢٨) ، وكانت مياه النيل العذبة تصل إلى القلعة عن طريق قناة تسير على ظهر سور صلاح الدين الممتد من الفسطاط إلى القلعة .

أمر صلاح الدين ببناء حائط السور بأبراجه النصف دائرية ، وينسب إليه البابان الخلفيان والجزء الداخلي من باب القرافة وباب المدرج وحائط السور ، وبذلك يكون السور قد بنى كاملا في عهده ، وقد أضاف عليه الملك العادل الأبراج الثلاثة الكبيرة التي تقع بالجانب القبلي ، وهي برج الصفة وبرج قرقبلان وبرج العلوة .

شهدت القلعة تطورا كبيرا في عهد السلطان الكامل (٦٠٤ـ٦٣٥هـ/ ١٢٠٧ـ١٢٣٨م) ، فقد بنى فيها إيوانا وبابا للقصور السلطانية سماه باب السر ، وبابا يصل حصن القلعة بالمدينة الملكية يسمى باب القلعة ، كما بنى الاسطبلات السلطانية وبعض الأبراج ، وأبراج الحمام ، وخزانة الكتب ، ومقرا للوزير سمي قاعة الصاحب ، وأخيرا نقل هذا السلطان مقر الحكم والإدارة إلى القلعة(٢٩) .

رابعا ـ المدارس :

اختلفت المدارس منذ نشأتها في نيسابور في القرن الرابع الهجري عن المساجد الجامعة ، في أن المدارس كان يلحق بها أماكن لسكنى المعلمين وطلاب العلم ، ففي نيسابور أسس ابن فورك مدرسة على نفقته ، وفي مرو شيد أبو حاتم السبتي مدرسة تشتمل على مكتبة وغرف لإيواء الطلبة الغرباء(٣٠) ، غير أن

---

(٢٨) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ٢ ص٢٠٣ .
(٢٩) عبدالرحمن زكي : القلعة وما حولها من الآثار ص٤٣ .
(٣٠) حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف جـ٣ ص١٠٤٨ .

انتشار بناء المدارس في نيسابور ظهر في عهد الغزنويين ، فأنشئت أربع مدارس في عهد السلطان محمود الغزنوي ، هي المدرسة البيهقية التي أسسها البيهقي ، ومدرسة الاستراباذي التي شيدها أبو سعد إسماعيل بن مثنى الاستراباذي ، ومدرسة الاستراتيني نسبة لأبي اسحق الاستراتيني ، والمدرسة السعيدية التي أسسها نصر بن سبكتكين(٣١) .

كما أنشئت المدارس من أجل غرض سياسي مذهبي ، فأنشأ نظام الملك الوزير السلجوقي المدرسة النظامية في نيسابور حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لنشر المذهب السني الذي كانوا يتخذونه مذهبا ، ومحاربة المذهب الشيعي ، فانتشرت المدارس النظامية منذئذ في بغداد والبصرة وأصفهان وبلخ وهراة والموصل وغيرها(٣٢) .

تأثرت مصر بإنشاء المدارس السلجوقية فأنشأ رضوان بن ولخشى مدرسة في الاسكندرية سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م لنشر المذهب المالكي ، كما أنشأ ابن السلار - وزير الخليفة الظافر الفاطمي مدرسة أخرى سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م لتدريس المذهب الشافعي(٣٣) ، ولما جاء صلاح الدين أنشأ المدارس للقضاء على المذهب الشيعي ونشر المذهب السني ، وكانت أول مدرسة في العهد الأيوبي هي المدرسة الفاضلية التي أنشأها صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م للمذهبين المالكي والشافعي ، وأنشئت بعدها المدرسة الكاملية سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م ، ثم المدرسة الصالحية - التي أنشأها الصالح نجم الدين سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م(٣٤) .

اتخذت المدارس مكان المساجد الجامعة في العصر الأيوبي بمصر ، فلم يشهد هذا العصر بناء مساجد ، إلا أن المدرستين الكاملية ، والصالحية ، قامتا بأداء وظيفة المساجد الجامعة وإن لم تسميا بذلك .

---

(٣١) جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي جـ٣ ص٢٠٠-٢٠١ .

(٣٢) عبدالنعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص٨١ .

(٣٣) أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) ، ص٣٨٧-٣٨٨ .

(٣٤) سعاد ماهر : تطور العمائر الدينية الإسلامية - المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٨ .

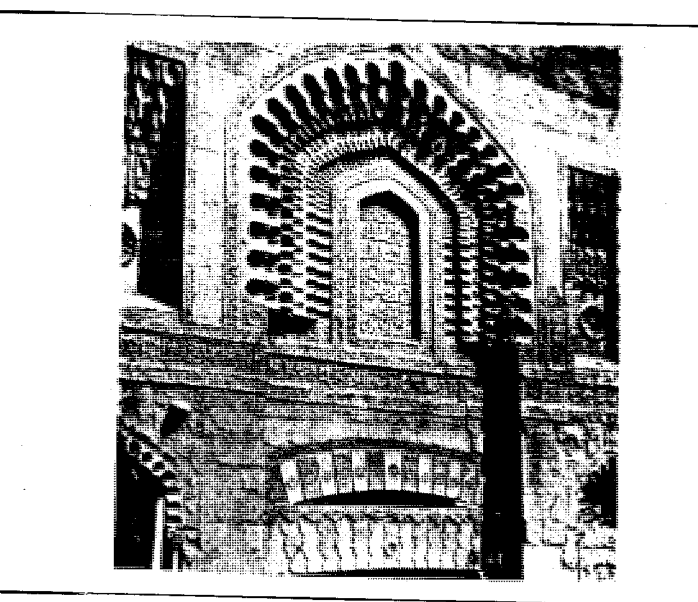
تحتوي المدارس على عناصر مشتركة هي بيوت الصلاة والبهو المكشوف ، وبيوت الطلاب ـ وهي غرف صغيرة الحجم ، كما تضم المدارس مبان في أحد جوانبها أو في ركن من أركانها تصلح كمخبز أو مطبخ فضلا عن الحمامات ، كما تحتوي على قاعات فسيحة أعدت لاستخدامها خزانات للكتب أو قاعات للتدريس .

مما تجدر ملاحظته أن المدرسة الصالحية عبارة عن مدرستين بشكل المدرسة الكاملية ـ التي كانت تتألف من درقاعة وإيوانين ، أحدهما إيوان القبلة والآخر في الجهة المقابلة ، وعلى الأجناب أقيمت الحجرات[٣٥] وجعل بين المدرستين ممر ، وبصفة عامة تم عمل الإيوانات الأربعة للمذاهب السنية الأربعة ، ويؤكد النص التأسيسي للمدرسة الصالحية على صفة الجمع ، فلم يرد فيه اسم (المدرسة) ، وإنما سجل فيه اسم الملك الصالح نجم الدين الذي أمر بإنشاء هذه المدارس[٣٦] .

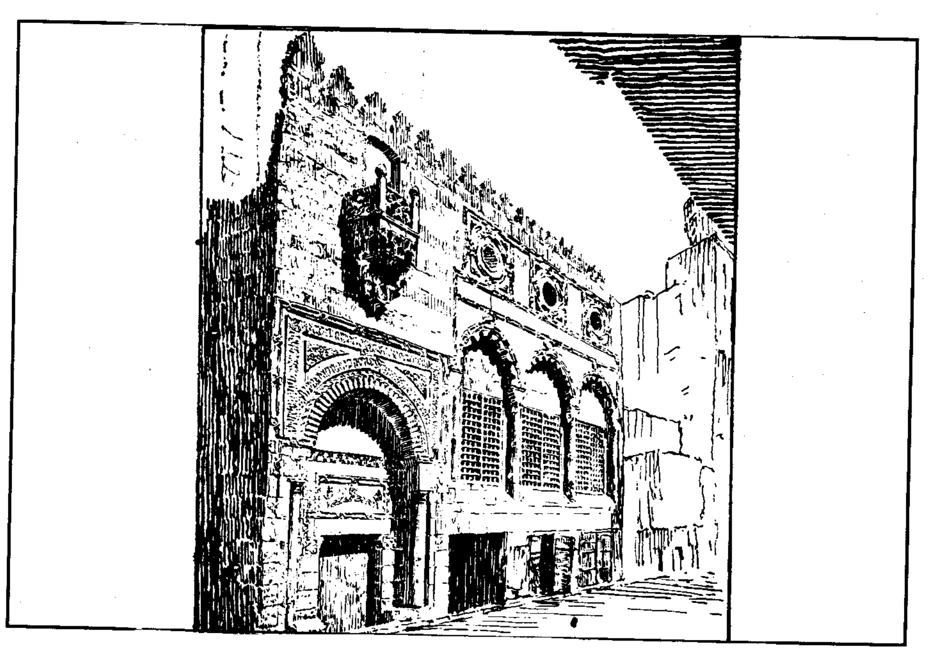
تتميز العمارة الإسلامية بوحدات وعناصر خاصة بها كالمآذن والقباب والمداخل والأعمدة والتيجان والمحاريب[٣٧] ، وتعد المقرنصات[٣٨] من أهم العناصر المعمارية الإسلامية ، وهي عبارة عن أشكال زخرفية على هيئة صفوف من الحنيات أو المحاريب الصغيرة بعضها فوق بعض ، تكسو خطوط التقابل بين الأسطح الأفقية والرأسية وفي الزوايا ، وقد تتدلى منها دلايات ، وكانت المقرنصات تتخذ من الحجر أو الجص أو الخشب أو الخزف أو الزجاج أو المرايا ، والمقرنصات تمثل قمة الإبداع الفني والوظيفي الذي انفردت به العمارة الإسلامية[٣٩] .

---

(٣٥) حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ٢ ص١٠٥٥ .
(٣٦) عبدالعزيز مرزوق : الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ص٨١ .
، انظر شكل رقم ٩ .
(٣٧) فريد شافعي : العمارة العربية ص٦٢٢ .
(٣٨) حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية ص١٧٢ .
(٣٩) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص٧ .



مدخل مدرسة الصالح نجم الدين نجم الدين أيوب
شكل رقم (٩)



زاوية عبد الرحمن كتخدا بالمغربلين شكل رقم (١٠)

قصارى القول أن العمارة الإسلامية تنوعت طبقا لوظائفها وانقسمت إلى المساجد والمدارس والقلاع والأسبلة والأربطة والقصور والبيمارستانات والحمامات والزوايا والكتاتيب والخانات والتكايا ، وقد تطورت على مر العصور الإسلامية حتى أصبحت تمثل الفن الإسلامي في أبهج صوره بعد أن ازدادت العناية بواجهات المنشآت ، والاهتمام برشاقة المآذن ، وزخرفة واجهات الأبواب والوزرات والأرضيات بالرخام الملون ، ومن مظاهر هذا التطور إنشاء التجمعات الدينية ، والتجمعات التجارية ، ومنشآت الرعاية الاجتماعية .

الفنون التطبيقية :

كان لترامي أطراف الدولة الإسلامية أن ضمت أقطارا عديدة في الشرق والغرب ، مما كان له أبلغ الأثر في انتقال الفنون من بلد لآخر بمميزاتها المختلفة ، فنشطت الحرف والصناعات ، وتبع ذلك نهضة فنية كبرى ، وأقبل الفنان المسلم على إنتاج التحف الثمينة من الخشب والعاج والخزف والزجاج والمعادن والجلود والمنسوجات الكتانية والحريرية والصوفية .

ازدهرت الفنون الإسلامية واتخذت لها خصائص امتازت بها سواء من حيث تصميمها وإخراجها الفني ، أو من حيث موضوعاتها وأساليبها ، ومن طرق الإخراج الفني كان النقش على الجص يتم إما بطريقة الحفر المباشر اليدوي أو بطريقة الصب الآلي ، واستخدم المسلمون الأشكال الهندسية بغزارة وتنوع لم يسبق لهما مثيل ، وابتكروا المضلعات النجمية وأشكال التوريق ، والتوشيح العربي التي عرفت بالأرابسك ، كما تمتاز الفنون بدقة الرسم ورقة الصناعة ، ففي الأخشاب والعاج كان هناك النحت المشطوف والنحت الغائر والمشربيات ، وظهرت منها مجموعات إنشائية كاملة رائعة ، خالدة في التاريخ ، مثل منبر مسجد القيروان والمجموعات الباقية من القصور الفاطمية ، والصناديق العاجية الأندلسية[٤٠] .

---

(٤٠) أحمد فكري : في العمارة والتحف الفنية ، ص٤٠٧ .

كان للخزف في الفنون الإسلامية مكانة ممتازة ، وكانت منتجاته تثير الإعجاب في أوروبا ، وخاصة خزف البريق المعدني - Lustre ware - الذي امتازت به صناعة الخزف الإسلامي ، واستمرت صناعة هذا النوع من الخزف قائمة في اسبانيا بعد العصور الإسلامية ، وكانت أشهر مراكز صناعته هي إيران والعراق ومصر وشمال افريقيا فضلا عن الأندلس ، يدل على ذلك توقيعات الصناع على القطع الباقية في مدن ساوة الإيرانية وسامرا العراقية ، والفسطاط المصرية ، مما تجدر الإشارة إليه أن صناعة هذا النوع الرفيع من الخزف عرف في مصر قبل المراكز الأخرى بقرن من الزمان أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، إلا أنه تطور وبلغ درجة عالية من الاتقان في العصر الفاطمي ، فهو خزف سميك ، تميل عجينته إلى الحمرة ، وألوان البريق يغلب عليها اللون الذهبي ، فضلا عن اللون الأصفر والأخضر الزيتوني على أرضية بيضاء .

وكانت صناعته تبدأ باختيار المادة من الطفل النقي ثم يضاف إليها بعض المواد الكيميائية ، فيحرق حرقاً أولياً ، ثم تطلى الأواني بطبقة من الطلاء الأبيض القصديري ثم تحرق مرة أخرى ، أما الزخارف فكانت ترسم بالأكاسيد المعدنية ثم تحرق في أفران ذات درجة عالية من الحرارة تصل إلى أربعمائة درجة مئوية ، لكي تتحول الأكاسيد الملونة إلى طبقة معدنية رقيقة تعطي بريقا ذهبيا مشبعا باللون الأحمر أو الأصفر أو الأخضر الزيتوني ، وكان يشترك عدد من الصناع المهرة في عمل هذا النوع من الخزف ، كالعجان ، والخزاف الذي يقوم بتشكيل القطع ، والمزخرف والدهان الذي يقوم بالطلاء(٤١) .

ينقسم الخزف ذو البريق المعدني إلى عدة طرز تبعا لأقاليم إنتاجه(٤٢) ، ويمكن التمييز بينها من خلال الفحص الدقيق لزخارف كل طراز ، فالخزف الذي ينسب إلى سامرا يحتوي على زخارف نباتية تتكون من مراوح نخيلية ثلاثية

---

(٤١) حسن الباشا : المرجع نفسه ، ص١٨١ .

(٤٢) Dimand: A Hand book of Muhammadan Art, p.158

الفصوص ، ومراوح نخيلية مجنحة ، وأشكال أزهار محورة عن الطبيعة ، فضلا عن وجود تهشيرات مائلة وحلزونية نباتية ونقاط مطموسة(٤٣) . أما هذا النوع من الخزف الذي ينسب لإيران فيتميز بالرسوم الآدمية والحيوانية والطيور والزخارف النباتية والهندسية والكتابات الكوفية ، بينما تنقسم زخارف الخزف المنسوب للفسطاط إلى رسوم آدمية يغلب عليها اختلال النسب التشريحية ، إلا أن الفنان المصري برع في التعبير عن الحركة ، وتتميز سحن الأشخاص بالعيون اللوزية القبطية ، ويغلب على الموضوعات حياة اللهو والصيد .

كما عثر الأثريون على نماذج لمناظر الترف تتألف من مناظر الراقصات والموسيقيين ، فضلا عن مناظر الألعاب الشعبية مثل التحطيب ومصارعة الديكة ، كما توجد نماذج للرسوم الحيوانية وأشهرها رسم الأرنب في المركز يحيط به أوراق نباتية ثلاثية ، ويتدلى من فمه ورقة نباتية ، أو يرسم مكررا على شكل مجموعة من الأرانب المتعاقبة ، كما كان يرسم في إطار الصراع الحيواني ، فمن ذلك النوع المعروف باسم «طرد وحش» مثل ذئب يفترس أرنبا بريا ، ومن الرسوم الحيوانية على البريق المعدني الفاطمي رسم الحيوانات الخرافية المجنحة المعروفة بالجريفين **Griffin** ، يتألف الحيوان من جسم أسد ورأس أرنب ، أو حصان له أجنحة ، كما زخرفت الأطباق الفاطمية ذات البريق المعدني بأشكال الطيور وبخاصة الطاووس ، فضلا عن العناصر النباتية مثل المراوح النخيلية وأنصافها ، والأوراق النباتية الثلاثية وأوراق العنب والتفريعات الحلزونية ، كما استخدم الفنان في الزخرفة الكتابات الكوفية المورقة ، ومن أشهر الخزافين في العصر الفاطمي مسلم وسعد ، وغبن ـ الذي يحتفظ له متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بطبق نادر عليه توقيعه(٤٤) ، أما الخزف الاسباني فيرجع أقدم نماذجه إلى مدينة الزهراء وهو ذو بريق معدني ويشبه خزف سامراء وإيران .

---

(٤٣) فريد شافعي : زخارف وطرز سامرا ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول ، ديسمبر ١٩٥١ ص ٢١ـ٢٣ .

(٤٤) حسن الباشا : طبق من الخزف باسم غبن ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٦ ، ص ٧١ ، انظر الأشكال رقم ١١ ، رقم ١٢ .



قدر من الخزف ذي البريق المعدني ينسب لإيران ، القرن ٣هـ/ ٩م



طبق من الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي ، مصر القرن ٥هـ/ ١١م

شكل رقم (١١)


طبق من الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي
عليه رسم للبازدار يحمل على يديه صقر
الصيد ، مصر القرن ٥هـ/ ١١م


طبق من الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي
عليه رسم حيوان خرافي مجنح ، مصر القرن
٥هـ/ ١١م


طبق من الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي
عليه رسم أحد الموسيقيين ، مصر القرن
٥هـ/ ١١م


طبق من الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي
عليه رسم لعبة التحطيب ، مصر القرن
٥هـ/ ١١م

شكل رقم (١٢)

حظيت صناعة النسيج باهتمام الفنان المسلم حتى تميزت زخرفة المنسوجات الإسلامية وصارت واحدة من أهم الفنون التطبيقية في العصور الوسطى ، وبدأت العناية بالنسيج في العصر الأموي ، ثم تقدمت في العصر العباسي في أقطار الدولة الإسلامية ، ومن أهم قطع النسيج الباقية تلك التي تتميز بطراز من الكتابات الخاصة وتنسب إلى الفيوم من بلاد مصر ، وترجع إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين ، وتتكون زخرفة إحدى القطع التي عثر عليها من شريط علوي به زخارف طيور وحيوانات محورة عن الطبيعة ، أما الشريط السفلي فيمثل كتابة الطراز وعليها مكان الصناعة : «مما عمل في طراز الخاصة بمطمور من قرى كورة الفيوم» ، ومن القطع الهامة قطعة من نسيج الكتان الأبيض تحتوي على شريطين زخرفيين أحدهما سفلي مكون من زخارف هندسية منسوجة بالصوف الأسود على أرضية بيضاء ، والآخر علوي يحتوي على طراز باسم الخليفة المعتمد العباسي من صناعة الاسكندرية .

أما في العصر الفاطمي فتتجلى روعة المنسوجات في تلك الزخارف المتنوعة بالرسوم الهندسية أو الحيوانية التي يحف بها من الجانبين كتابات كوفية ، وتظهر الأشرطة بجامات سداسية أو بيضية أو معينات متداخلة برسومها الآدمية أو الحيوانية ، أو بالطيور المتقابلة والمتدابرة ، وقد تطورت الزخارف خلال عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ـ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ـ١٠٩٤م) حتى صارت الكتابات متكررة في الشريط الواحد ، فضلا عن الرسوم الأخرى ، فمن ذلك قطعة من نسيج الكتان عليها شريط الحرير مطرز باسم الخليفة المستنصر بالله ، محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، وهي مزخرفة بثلاثة أشرطة مستعرضة عبارة عن جامات داخلها رسم لطائرين متقابلين بالألوان الحمراء والصفراء والزرقاء ، وذلك في داخل الشريط الأول والثالث بينما يحلى الشريط الأوسط بكتابة كوفية عليها عبارة : «[نصر من الله] وفتح قريب لعبدالله أبي

تميم معد أمير المؤمنين الإمام المستنصر بالله»[٤٥] .

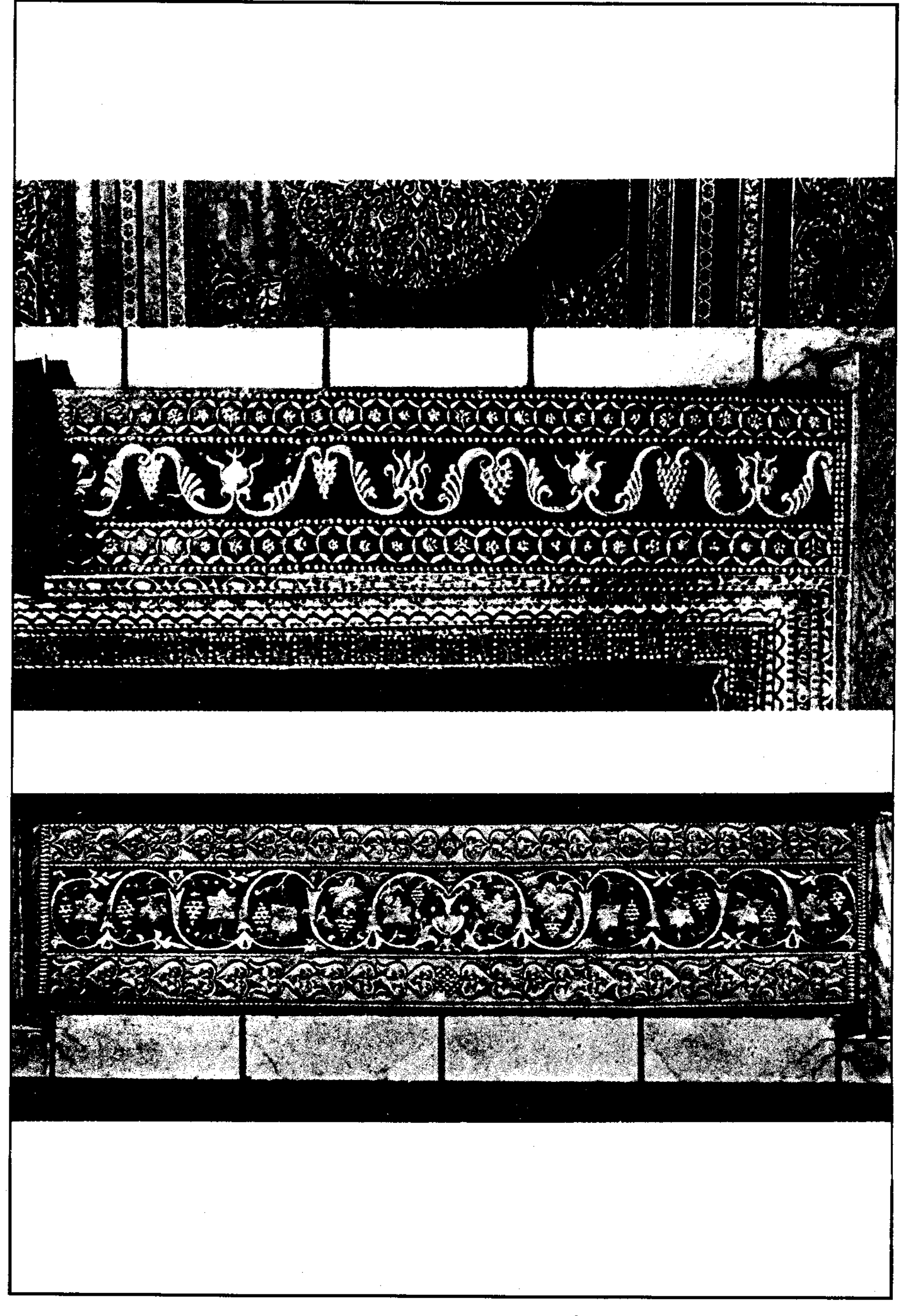
أما في إيران فعثر على قطع من نسيج الحرير تشتمل على رسم لفيلين عليهما سروج منمقة ، يحيط بهما مجموعة من الشرائط الزجاجية مثل أنصاف المراوح النخيلية[٤٦] ، ومن أشهر قطع النسيج العراقي ، قطعة محفوظة في إحدى كنائس مدينة ليون في اسبانيا تنسب إلى القرن الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين ، تشتمل على زخارف على هيئة دوائر كبيرة بداخلها رسم عرف باسم شجرة الحياة قوامه رسم فيلين متماثلين متواجهين بينهما شجرة مرسومة بأسلوب هندسي تجريدي ، فضلا عن صور طيور وسباع ، وطراز الكتابة الكوفية يقرأ فيه «البركة من الله مما عمل في بغداد»[٤٧] .

سار للنسيج الإسلامي مكانة ممتازة في الأسواق الأوروبية فعرفت أنواع الأقمشة الفاخرة عالميا بأسمائها المنسوبة إلى مراكز صناعتها العربية ، فمن ذلك فستيان **Fustian** فهو مشتق من الفسطاط (مصر) ، والدمسق **Damacus** نسبة إلى دمشق ، والموسلين **Mussolin** مشتق من الموصل ، والبلداكينو **Baladacchino** نسبة إلى بغداد ، والجرانادين **Grenadines** مشتق من غرناطة (الأندلس) ، والديميتي **Dimiti** مشتق من دمياط (مصر) ، والتابس Tabis من العتابية في بغداد .

ومن الفنون التطبيقية التي احتلت مركزا أساسيا بين الفنون الإسلامية صناعة التحف الخشبية وزخرفتها ، وتتجلى براعة الفنان المسلم في القطع الخشبية الثمينة الباقية فمنها : صناديق المصاحف وكراسيها ، والروابط الخشبية[٤٨] والمحاريب والمنابر ، والمشربيات وصناديق حفظ الملابس ، والدكك

---

(٤٥) زكي حسن : فنون الإسلام شكل رقم ٢٨٦ بالأطلس .
(٤٦) زكي حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص ٢١١ .
(٤٧) حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ١٧٥ .
(٤٨) أنظر شكل رقم ١٣ .



عوارض ربط أقواس الرواق المثمن ـ القدس ـ قبة الصخرة
شكل رقم (١٣)

وغيرها ، وهي تزدان بزخارف بارزة الحفر أو غائرة أو مصفحة بأشرطة نحاسية ، أو مجلدة بالألوان والتذهيب ، ويعتبر منبر جامع القيروان ـ الذي يرجع تاريخ عمله إلى سنة ٢٤٨هـ/ ٨٥٢م ـ من أهم التحف الخشبية الباقية فالمنبر تم صنعه من خشب الساج وهو يتألف من صدر وريشتين ، غشيت بحشوات بزخارف مفرغة ، وتحلى بعض الحشوات بزخارف عقود مدببة ومفصصة بداخلها شجرة الحياة ، وبعض الحشوات الأخرى تزدان بالمراوح النخيلية ، وكيزان الصنوبر وأوراق العنب ، كما تحمل بعض الحشوات الأخرى الزخارف الهندسية بأنواعها المختلفة .

أما في مصر فقد بلغ فن الحفر على الخشب القمة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، فقد عني الفنان المسلم بالتفاصيل الدقيقة في الزخارف التي تمثل الإنسان أو الحيوان ، كما اهتم بزخارف الملابس وأدوات الصيد وغيرها ، ولعل من أهم القطع الباقية ، مجموعة ألواح تم نزعها من القصر الغربي الفاطمي وتثبيتها في بيمارستان المنصور قلاوون ، فهي ترجع إلى العصر الفاطمي وتتألف زخارفها من رسوم لمطربين ومطربات يعزفون على آلاتهم الموسيقية خلال الاحتفال بعرس ، فهم يحيطون بجمل يعلوه هودج ، والألواح الخشبية مجلدة بالتذهيب والألوان(٤٩) .

كذلك تعد التحف المعدنية من الفنون التطبيقية التي تدل على مدى دقة الصناع والفنانين بعد أن برعوا في أساليب صناعة المعادن وزخرفتها ، ومنها السبك والنقش والضغط والزخرفة بالمينا ، وظهرت نفس الزخارف الفاطمية على التحف المنقولة الأخرى ، وفي زخارف التحف المعدنية ، التي تتجلى في الحلي والتماثيل البرونزية والأواني المعدنية والأدوات ، والأسلحة والمباخر والشماعد وكراسي العشاء والطسوت والصنابير وغيرها مما لا يقع في دائرة الحصر وتزدان هذه التحف بالزخارف الآدمية والحيوانية والمناظر الطبيعية ،

---

(٤٩) زكي حسن : كنوز الفاطميين ، اللوحات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ بالأطلس .

فاستخدمت الفضة والنحاس في صناعة أوان على هيئة الطيور والحيوانات ، رشيقة الأبدان ، وظهرت مهارة الصناع في تكفيت التحف البرونزية بالنحاس والفضة والذهب ، وقد أشاد المستشرقون بعبقرية الفنان المسلم واعترفوا بقدراته الخلاقة على الابتكار في الصناعات الفنية والزخرفية ، وموهبته وخصب خياله الزخرفي ، ودقة أعماله ورقتها الأمر الذي أدى إلى انتشار التحف الإسلامية في أسواق أوروبا في العصور الوسطى وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء ، بل ورجال الدين[٥٠] .

التكوينات الزخرفية الإسلامية :

الفنون الزخرفية هي تلك الرسوم التي تزين الآثار الثابتة من عمائر مختلفة ، أو تزين التحف المنقولة المصنوعة من الفخار والخزف ، أو من مواد النسيج ومن الخشب والعاج ، ومن المعادن والزجاج ، ومن الجلد والرق والورق[٥١] .

اتبعت الأقطار الإسلامية طرقا مختلفة في الزخرفة بحكم طبيعة المكان وتوفر المواد الخام ، فاستخدم الطابوق في أعمال الزخرفة في إيران والعراق ، واستعملت الفسيفساء الزجاجية في بلاد الشام ، بينما استخدمت التكسية بالجص والمزخرف منه بالألوان المائية (الفرسكو)[٥٢] والمزخرف بالحفر في البلاد الإسلامية كلها .

أدرك الفنان المسلم أهمية الزخرفة في ملء الفراغ وإعطاء صورة جميلة للعمائر المشيدة ، فاستخدم الزخارف منذ فجر الإسلام ، يتجلى ذلك في واجهة قصر المشتى ، ففي الناحية اليسرى من الواجهة يظهر افريز منكسر متعرج يحتوي

---

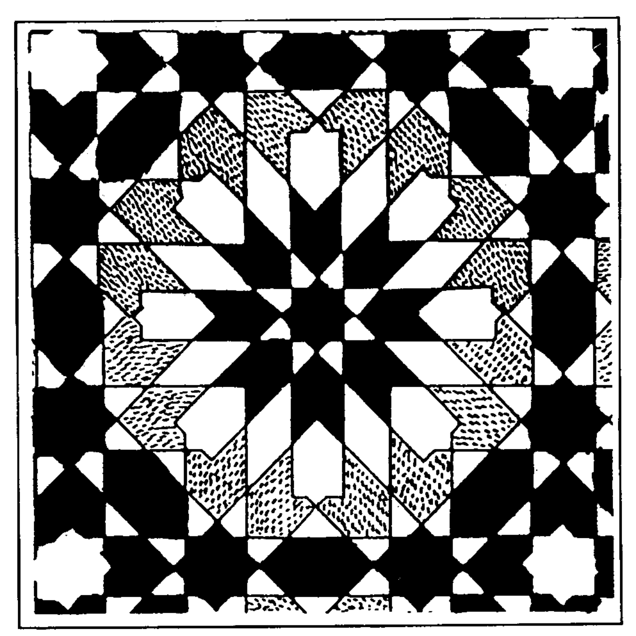
(٥٠) أحمد فكري : في العمارة والتحف الفنية ، ص٤٣٧ .

(٥١) عبدالعزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية ص٦٧ .

(٥٢) حسن الباشا : التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ص٥٤ .

على زهرة الأكانتس (شوكة اليهود) تتفرع منها وردة كبيرة ، فضلا عن صور الحيوانات التي تغطي الفراغ بين الدوائر ، أما الواجهة اليمنى فتزينها تصاوير نباتية يبدو فيها الاهتمام بزخرفة الأوراق والفروع النباتية ، وقد تطورت التكوينات الزخرفية وصارت تتألف من الأنواع التالية :

أولا : التكوينات الزخرفية الهندسية[٥٣] ، التي تقوم على أسس هندسية وزخرفية دقيقة ، ومنها التكوينات البسيطة والمركبة والتي تنشأ من تقاطع أو تماس الأشكال الهندسية المتشابهة أو المختلفة[٥٤] ، أو من تقسيم المحيط الخارجي للشكل المراد زخرفته إلى مراكز إشعاعية يتم التوصيل بينها لخلق أشكال لا نهائية ، وقد شاعت هذه الزخارف على جدران وأسقف العمائر والتحف المنقولة ، فمن ذلك الزخارف الهندسية التي تظهر على نوافذ المسجد الأموي بدمشق[٥٥] .



تكوينات زخرفية هندسية
شكل رقم (١٤)

---

(٥٣) عصام عرفة : تطور أساليب التكوين ص١٤٢ .

(٥٤) شكل رقم ١٤ .

(٥٥) كمال سامح : في العمارة الإسلامية ص١٠ .

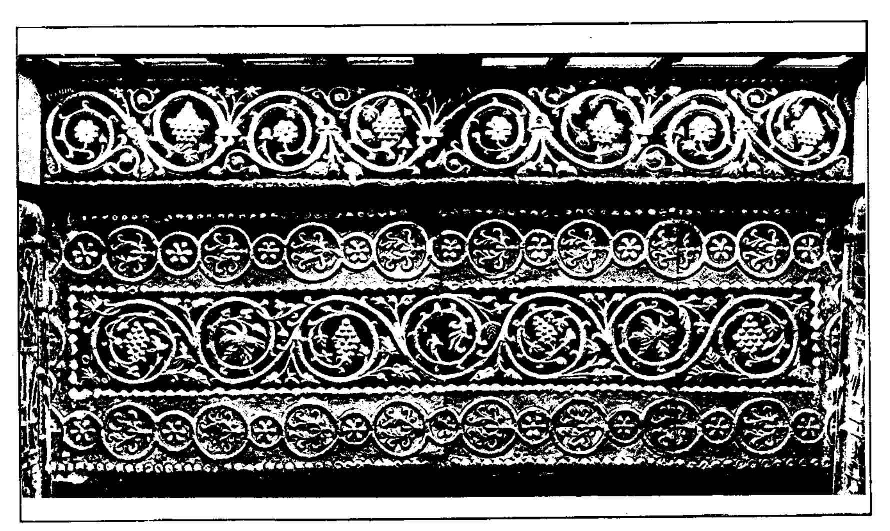
ثانيا : التكوينات الزخرفية النباتية : استخدم الفنان المسلم هذا النوع من التكوينات على نطاق واسع حيث وجد فيها مجالا لإظهار مواهبه بحرية مطلقة بدلا من التصوير ، ومن أهم الأمثلة لهذا النوع من الزخارف ، الواجهة الداخلية للبواكي الدائرية الوسطى في قبة الصخرة ، وألوان الفسيفساء الأخضر بدرجاته والأزرق والذهبي والبنفسجي والأحمر والفضي والرمادي ، وأهم الموضوعات الزخرفية التي استخدمها الفنان داخل القبلة بصفة عامة هي الفروع النباتية ، ورسوم أشجار النخيل والزيتون واللوز ومنها رسوم لبعض الفواكه وأهمها العنب والرمان(٥٦) .

كما أعطى عالم النبات للفنان المسلم رؤية واسعة ، وخيالاً خصباً وظفه في تلك التكوينات الزخرفية التي اشتملت على التجريد المطلق المتحرر من محاكاة الطبيعة ، والالتزام النسبي أو القريب من أشكال الطبيعة(٥٧) ، وتعد التكوينات النباتية من أكثر الزخارف استخداما في العمائر الدينية ، واستخدمت الأوراق ذات الفص الواحد ، والأوراق ثلاثية الفصوص ، أو الخماسية منها ، فضلا عن الأغصان والفروع ، كما استطاع الفنان محاكاة الطبيعة في أوراق الأكانتس ، وعناقيد العنب(٥٨) ، والمراوح النخيلية وأنصافها ويتجلى ذلك في اللوحة المرمرية جانب المحراب في جامع قرطبة .

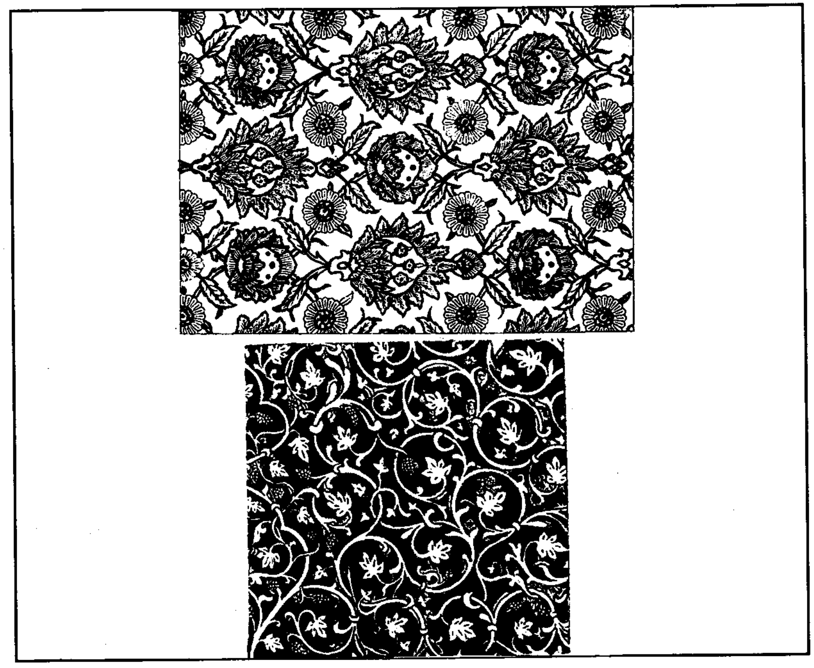
ثالثا : التكوينات الزخرفية الكتابية : استخدم هذا النوع على نطاق واسع ويتنوع كبير في العمائر والتحف المنقولة ونقوش الأبنية وشواهد القبور ، بعد أن قام الفنان المسلم بتحويل الأبجدية العربية من مجرد نص مقروء إلى تكوين زخرفي قوامه التكوينات المورقة(٥٩) ، فضلا عن تحويل الحروف إلى أشكال زخرفية مضفرة أو مجدولة أو كوفية مربعة وتفريعاتها ، ومن أمثلة التكوينات

---

(٥٦) عصام عرفة : تطور أساليب التكوين ص٣٣٧ .
(٥٧) شكل رقم ١٥ .
(٥٨) حسن الباشا : التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ، ص٣٠-٣٥ .
(٥٩) عصام عرفة : المرجع نفسه ، ص٥٧١ .



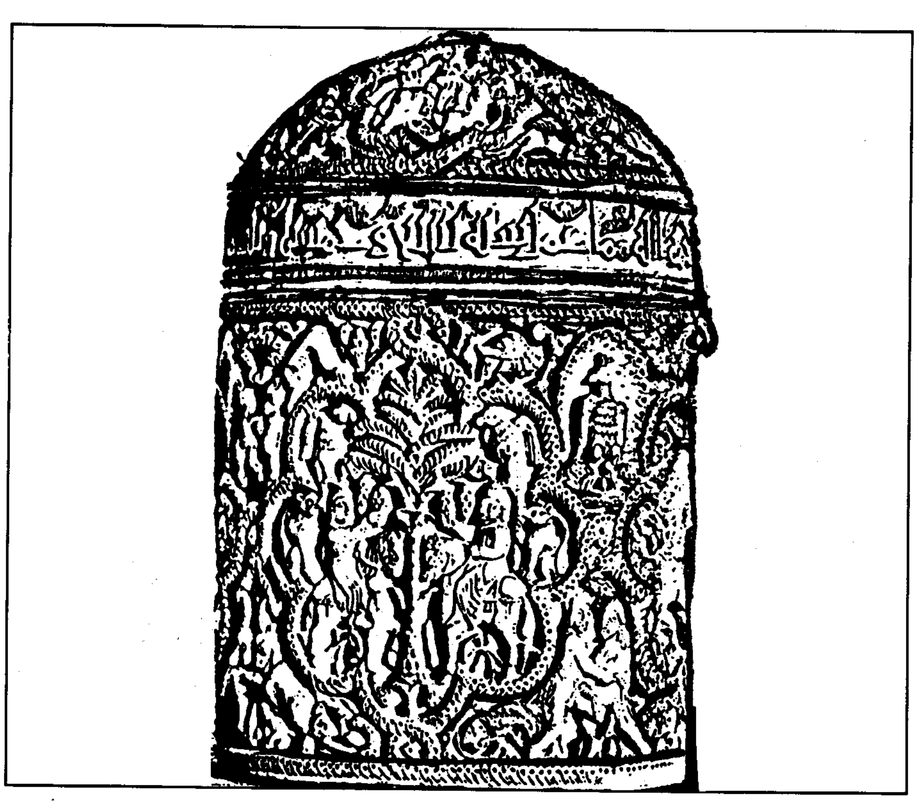
القدس ـ قبة الصخرة ـ باطن قوس
الباب الجنوبي المغطى بالبرونز



تكوينات زخرفية نباتية
شكل رقم (١٥)

الزخرفـيـة الكتـابية النص المكتـوب على علبـة من العـاج مـؤرخـة بالـقـرن الرابع الهجري[٦٠] .

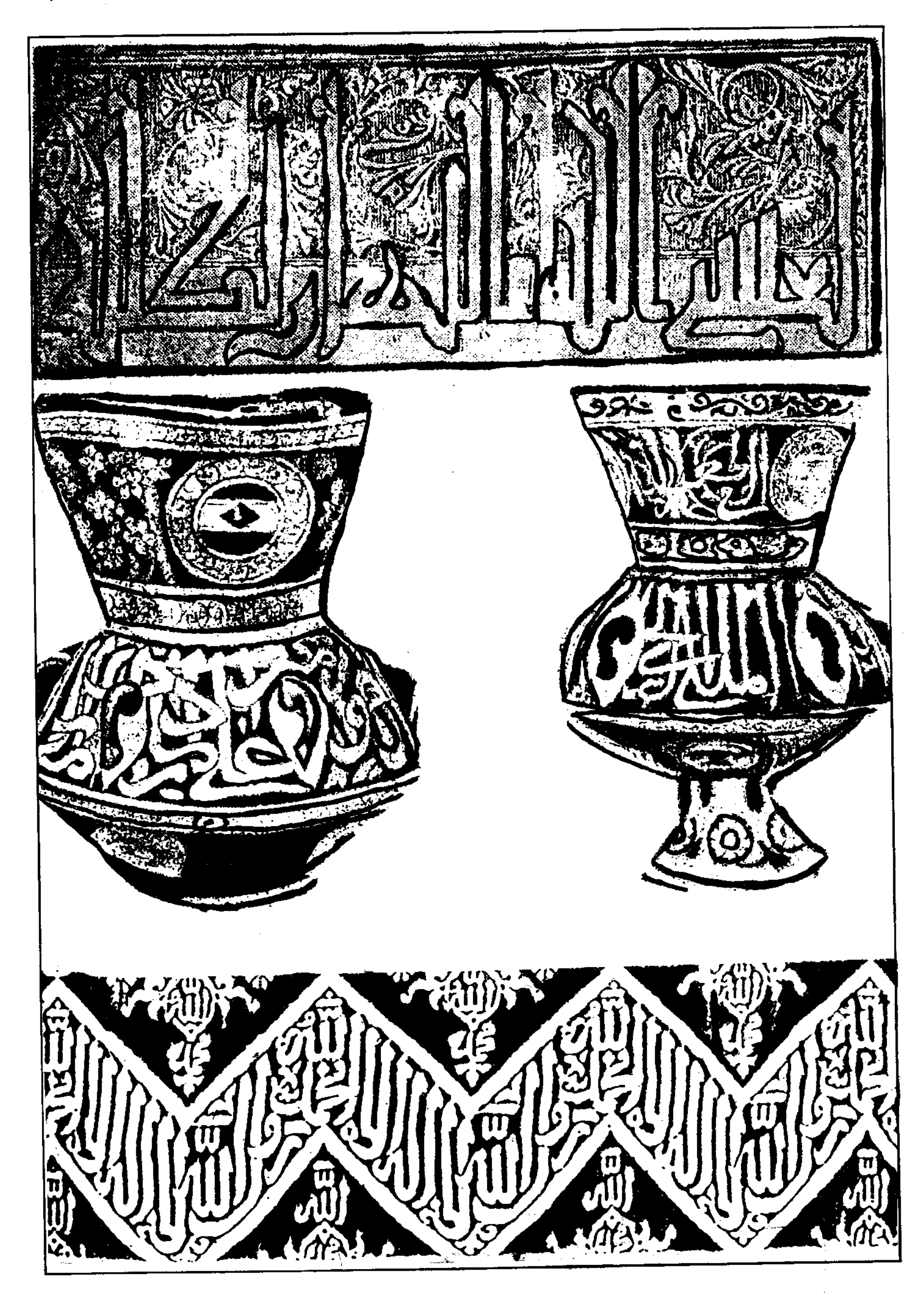
رابعا : التكوينات الزخرفية بعناصر الكائنات الحية : أبدع الفنان المسلم في استخدام الكائنات الحية كعناصر زخرفية ، ومنها المحاكى للطبيعة أو المجرد البعيد عنهـا ، ووظفـهـا في زخـرفـة الآثار والتـحف ، فـضـلا عن الأواني والمسطـحـات الجدارية والأسقف الخشبية والمخطوطات ، وتبدو هذه الزخارف بصفة عـامة في تكوينـات داخل أشرطة أو مناطق هـندسية ، وذلك لـلتعـبـيـر عن مـوضـوعـات مختلفة مثل الطرب أو الصيد أو الزخرفة المجردة لذاتها .



تكوينات زخرفية كتابية

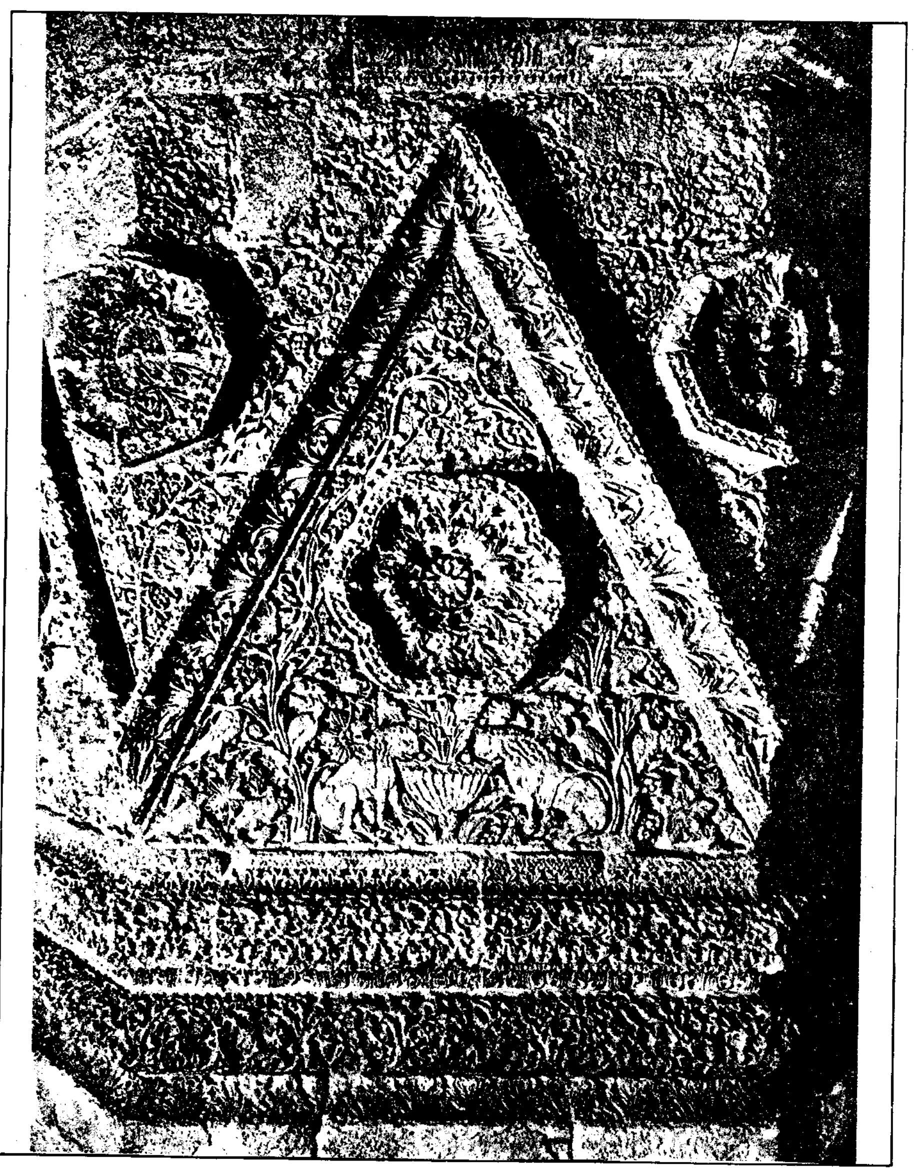
شكل رقم (١٦)

(٦٠) شكل رقم ١٦ ، شكل رقم ١٧ .



تكوينات زخرفية كتابية
شكل رقم (١٧)

يعد هذا النوع من الزخرفة من الزخارف المبكرة ، فقد وجدت في واجهة قصر المشتى في العصر الأموي(٦١) ، فاستخدمت في تصاوير رسوم الوحوش

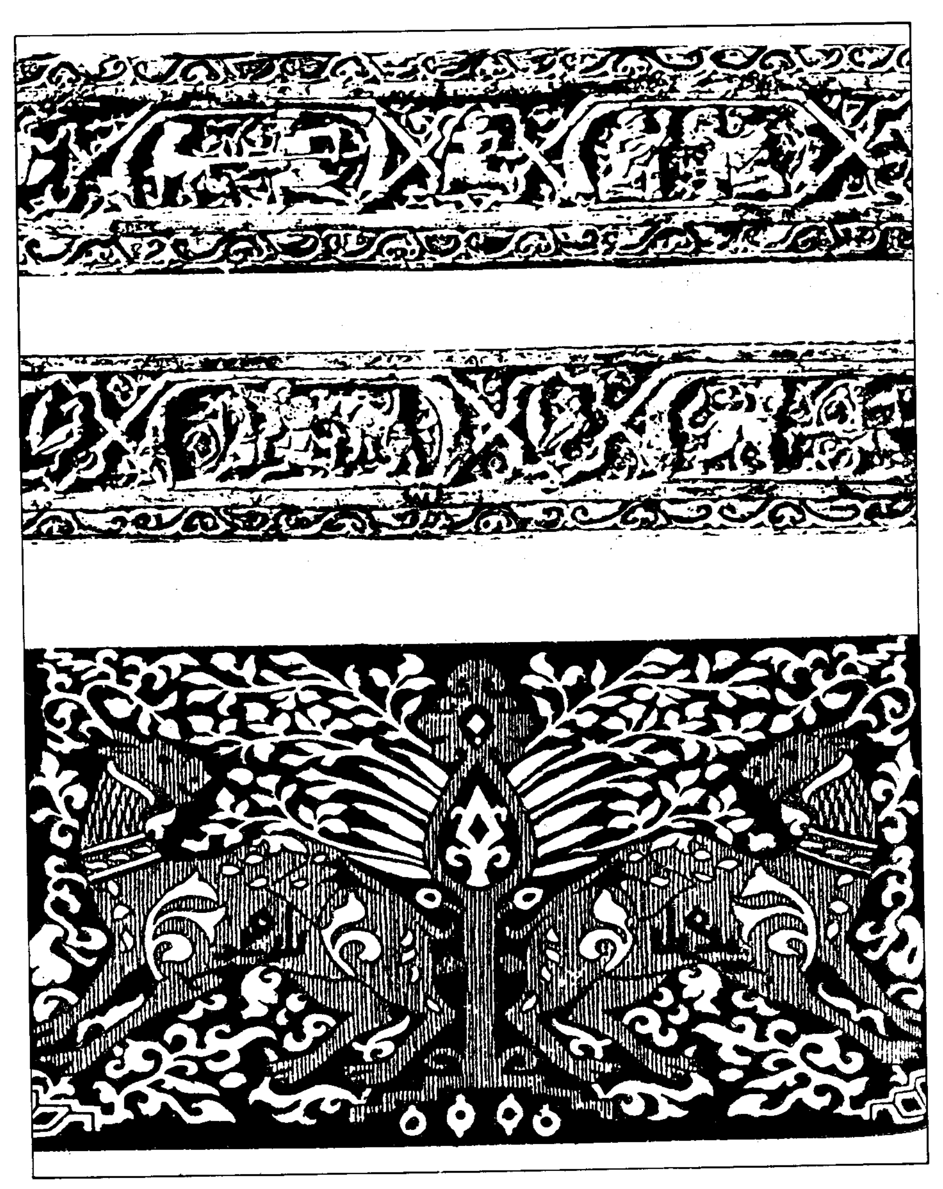


قصر المشتى : قطعة مأخوذة من شمال الواجهة

شكل رقم (١٨)

(٦١) شكل رقم ١٨ .

المجنحة ، والطيور الآدمية(٦٢) التي ترى بكثرة في التحف المنقولة وأدوات الزينة ،



تكوينات زخرفية بعناصر الكائنات الحية
شكل رقم (١٩)

(٦٢) شكل رقم ١٩ .

وكان الفنان المسلم يقوم بالزخرفة عن طريق التكفيت بتطعيم البرونز والنحاس ، أو بالذهب والفضة لخلق رسوم ذات موضوعات مختلفة ، كما قام بتطعيم الخشب بالعاج ، والحفر على الأواني العاجية ، وتنشيق الحشوات الخشبية برسوم غاية في الجمال وذلك وفق قوانين زخرفية دقيقة ، وليس أدل على ذلك من أن أوروبا ظلت نحو ألف عام تنظر إلى الفن الإسلامي كأنه أعجوبة من الأعجايب ، وأصبحت الزخارف الإسلامية مصدر إلهام لكل من ابتغى الرقي بالفنون المختلفة .

التصوير :

منذ القرن الأول الهجري ظهرت الأعمال التصويرية على الجدران ـ بالفسيفساء أو الفرسكو ، أو القاشاني المجمع ، وامتدت هذه الأعمال للأسطح الخشبية ونفذت بالألوان الزيتية ، فضلا عن التحف الخزفية والزجاجية .

تأثرت تصاوير الفنان المسلم بالبيئة فتنوعت أساليبه في محاكاة الطبيعة أو البعد عنها ، كما اختلفت باختلاف المكان ، ففي قبة الصخرة ـ التي تحتوي على أقدم عمل تصوير إسلامي نجد موضوعات تعبيرية متعددة قريبة من الطبيعة يغلب عليها الطابع الكلاسيكي ، بينما نجد في قصير عمرا موضوعات آدمية وحيوانية وتكوينات هندسية رائعة .

كما يتجلى هذا الفن في تصاوير المخطوطات وكتب التاريخ والأدب ومنها صور مخطوطة مقامات الحريري المؤرخة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م ـ من أعمال يحيى ابن محمود بن يحيى الواسطي ، ومخطوطة كليلة ودمنة ، وكتاب الأغاني للأصفهاني ، والترياق لجالينوس .

تطور فن التصوير بتأثيرات المدرسة المغولية ذات الصبغة الصينية وخاصة في بناء الصورة وعناصرها المتمثلة في ملامح الوجوه والسحن والعناصر الطبيعية ، يتضح ذلك في مخطوطة منافع الحيوان لابن بختيشوع والشاهنامة

للفردوسي ، وجامع التواريخ لرشيد الدين(٦٣) .



مخطوط منافع الحيوانات لابن بختيشوع



كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين
شكل رقم (٢٠)

(٦٣) شكل رقم ٢٠ .

تعـد المدرسـة التيـمـورية في التـصـوير رائدة في هذا المجـال حيث بلغت مستويات فنية وإبداعية راقية ، وقد امتازت عن غيرها بالتقسيمات الداخلية التفصيلية التي ينتج عنها مساحات هندسية غاية في الدقة والتنوع ، وقد أعطت الفنان تنوعاً في ملء الفراغ بالأشكال الهندسية والتكوينات الزخرفية النباتية والحيوانية وغيرها ، ومن أمثلتها الشاهنامة للفردوسي ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[٦٤] ومخطوطات هاماي وهمايون ، وخسرو وشيرين .

كما تطور فن التصوير في الهند خلال حكم أحفاد تيمورلنك ، بابر وهمايون وأكبر وجهانجير[٦٥] وشاه جهان ، وذلك بتشجيع من الحكام ، وتميزت مدرسة التصوير الهندية بالتزام الفنان البعد الثالث لتأكيد العمق ، كما زادت العناية برسوم الأشخاص واتقان نسب الجسم البشري ، والقرب من الطبيعة بمحتويات التصوير من ملابس وظلال ودقة الحركة .

السمات المميزة للتصوير الإسلامي :

على الرغم من اختلاف آراء العلماء والفقهاء حول موضوع تحريم التصوير في الإسلام ، فلا شك أن التصوير قد حظي من الفنانين المسلمين بنصيب وافر من اهتمامهم ، وهذه الصفحات تتناول بالتحليل الواقع الذي كان وما زالت آثاره باقية ، ولا يعني استخدام عبارة التصوير الإسلامي ، أننا نؤيد الفريق القائل بعدم التحريم ، أو أن الدين الإسلامي يشجع على التصوير ، وإنما لأن الموضوع خاص بتحليل أعمال الفنانين المسلمين في مجال التصوير .

١ ـ تأثرت الموضوعات التصويرية في الفترة المبكرة للفن الإسلامي بالفنون السابقة على ظهور الإسلام[٦٦] ، وخاصة البيزنطية والساسانية والصينية ـ

(٦٤) حسن الباشا : التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ص٢٩٥ .

(٦٥) شكل رقم ٢١ .

(٦٦) حسن الباشا : المرجع نفسه ، ص١٨٧ـ١٨٩ .



فن التصوير في الهند (جهانجير في الصيد)
شكل رقم (٢١)

التي تتجلى في تجسيد الحكام ومجالسهم واتباعهم ، وخروجهم في رحلات الصيد ، ومعاركهم الحربية ، وجلها موضوعات تعكس حياة القصور .

٢ ـ الاهتمام بإبراز الملامح المحلية في الموضوعات التصويرية المختلفة ومنها الوجوه المستديرة ، والعيون الضيقة في التصاوير العراقية والتركية نقلا عن الملامح المغولية ، والوجوه المسحوبة والعيون اللوزية الواسعة في إنتاج المصورين المسلمين بمصر[٦٧] .

٣ ـ تصميم إطارات مختلفة الأشكال حول التصاوير ، ومنها ما كان على هيئة خيط رفيع يحيط بالصورة من جهاتها الأربع ، أو إطارات على شكل جدائل ، أو على شكل مستطيلات كبيرة تنقسم بدورها إلى مستطيلات أصغر ومربعات في الأركان ، أو إطار على هيئة حبات اللؤلؤ ، وقد أبدع الفنان المسلم في إنتاج إطارات غاية في الروعة والتعقيد بزخارف جديدة مبتكرة .

٤ ـ تغطية فراغ الأرضيات بزخارف مختلفة من أهمها الفروع النباتية التي تبدأ من أرضية الصورة وتتدرج في الارتفاع حتى تصل إلى مستوى رؤوس الأشخاص ، ثم تطورت الأرضيات في التصاوير حتى صارت تلائم الموضوع بمحاكاة كاملة للطبيعة ، وبدقائق وتفصيلات أكثر واقعية ، فمن ذلك تصوير مجلس أحد الحكام برسم السجاجيد والأثاث الخاص بالبلاط بالزخارف الطبيعية المختلفة .

٥ ـ تطور خلفيات التصويرة من أفرع نباتية بسيطة إلى رموز تدل على المكان مثل رسم شكل القمر أو الشمس للدلالة على أن أحداث الصورة في مكان خارجي عام ، ورسم الإناء أو الإبريق لكي يثبت أن الموضوع في مكان داخلي بما يزخر به من الستائر والأثاث والفرش[٦٨] .

---

(٦٧) محمود إبراهيم : أعلام المصورين ص ١٧١ـ١٧٢ .

(٦٨) زكي حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص٤٢ .

٦ ـ تميزت التصاوير الإسلامية في الأندلس برسوم العمائر الدينية كالمساجد بأعمدتها وأقواسها ومآذنها وقبابها ، وبلغ من دقتها أن الفنان لم يغفل عن الاهتمام بالزخارف الخاصة بها ، فجسد استخدام القاشاني والأرابسك والمقرنصات بألوانها الطبيعية ، فضلا عن الرسوم الخاصة بالحصون وأسوارها بشرفاتها المسننة وألوانها الحقيقية .

٧ ـ شاع رسم الهالة عند المصورين المسلمين بأشكال متعددة فمنها الهالة ، على شكل دائرة ، ومنها ما هو على شكل هلال أو إكليل ، وقد استخدمها الفنان المسلم فوق رؤوس الأشخاص ذوي الأهمية في الموضوع لإبراز مكانتهم وتوجيه الأنظار إليهم عندما تقع العين على التصويرة .

٨ ـ اهتمام المصور بالتوقيع على التصويرة ، وقد تعددت أساليب التوقيع فمنها بالاسم مثل مسلم والبيطار ، أو بالحرف الأول الذي يدل عليه مثل غ (غيبي) ، أو بعبارة تسبق أو تتبع الاسم مثل عبارة : «العبد الفقير بهزاد» ، أو حيدر بندكه أي عمل العبد حيدر ، أو بانتساب ، اسم المصور لأحد الحكام مثل جنيد نقاش السلطاني ، وفي بعض الأحيان كان المصور يوصي أهله وتلاميذه بوضع ألقابه في نص على شواهد القبور مثل المرحوم المغفور له صاحب القبر الشهيد المحتاج إلى رحمة الله نقاش سلطان محمد سنان بك(٦٩) .

الخط العربي :

برع الفنان المسلم في الخط وتجلت عبقريته في الكتابة العربية ـ التي اتخذ منها عنصرا زخرفيا ابتكره بفكره وذهنه الخلاق وأبدع فيه بدون مؤثرات أجنبية خارجية ، فيعد بحق هو الفن العربي الإسلامي الخالص .

---

(٦٩) محمود إبراهيم : أعلام المصورين ص٢٠٨ـ٢٠٩ .

بدأ الخط العربي بسيطا خشنا كما يتضح في أقدم مثال للخط العربي في النص المكتوب على شاهد القبر المعروض في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة والمؤرخ ٣١هـ(٧٠) .

لم يلبث أن تطور الخط العربي بعد أن أدخل الفنان المسلم الزخارف الجميلة على رؤوس الحروف وسيقانها وأقواسها ، وخطوطها الرأسية والأفقية كما تدخل في وضع الحروف ، فتارة يجعلها متجمعة متكاثفة ، وطورا يرسمها متباعدة ، وفي النهاية صارت النصوص تبدو في صورة رائعة كأنها لوحة فنية متكاملة ، سواء كان الخط المستخدم هو الكوفي ـ الذي يستمد اسمه من مدينة الكوفة ، أو الخط النسخي ، أو خط الثلث ـ وهو مشتق من خط كبير كان يعرف بالطومار ـ وسمي بذلك لأنه ثلث هذا الخط في الحجم .

كان أقدم أنواع الخطوط هو الكوفي ـ المستخدم في كتابة المصاحف والنصوص التأسيسية على التحف والآثار ، وظل هذا النوع مستخدما حتى ساد استعمال الخط النسخي مع الإبقاء على استخدام النوعين معا ، غير أن الكوفي اقتصر على الآيات القرآنية والعبارات الدعائية ، أما النصوص التاريخية فكانت تكتب بخط النسخ منذ العصر الأيوبي .

يعد تابوت المشهد الحسيني بالقاهرة من التحف الرائعة التي جمعت بين طرازي الخط الكوفي والنسخي ، وهذا التابوت مصنوع من خشب الساج الهندي ويتكون من ثلاثة جوانب مزخرفة بحشوات محفور عليها زخارف نباتية يشاهد فيها عناقيد العنب ، والكتابة التي نراها على التابوت بعضها بالخط الكوفي وبعضها بالخط النسخ ، وكلها تتضمن آيات من القرآن الكريم مثال : «آية الكرسي ، وما توفيقي إلا بالله ، نصر من الله وفتح قريب ، والملك لله ، والعزة لله ، وما بكم من نعمة فمن الله» . وتتميز هذه الكتابات بتنوعها ودقة أشكالها .

---

(٧٠) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ص٢٢٣ .

ينقسم النص المنقوش على تابوت الإمام الشافعي إلى قسمين أحدهما بالخط الكوفي مثبت على حشوة كبيرة بمقدمة التابوت يتكون من أربعة أسطر ، وقسم بالخط النسخ من سطرين منقوش في نهاية الجزء الهرمي الذي يعلو التابوت (٧١) .

مرت الكتابة العربية في تطورها بمراحل عديدة منذ كانت في الحجاز في عهد النبوة من أجل تدوين القرآن الكريم ثم بلغت مدى بعيدا في التجويد بالكوفة التي ينسب إليها الخط الكوفي المصحفي الجاف(٧٢) ذو الزوايا ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الخط تم تطويره بهذه المدينة(٧٣) لأنه كان معروفا قبل إنشاء الكوفة نفسها بزمن غير قصير فقد كتب به خطاب النبي ﷺ إلى المقوقس .

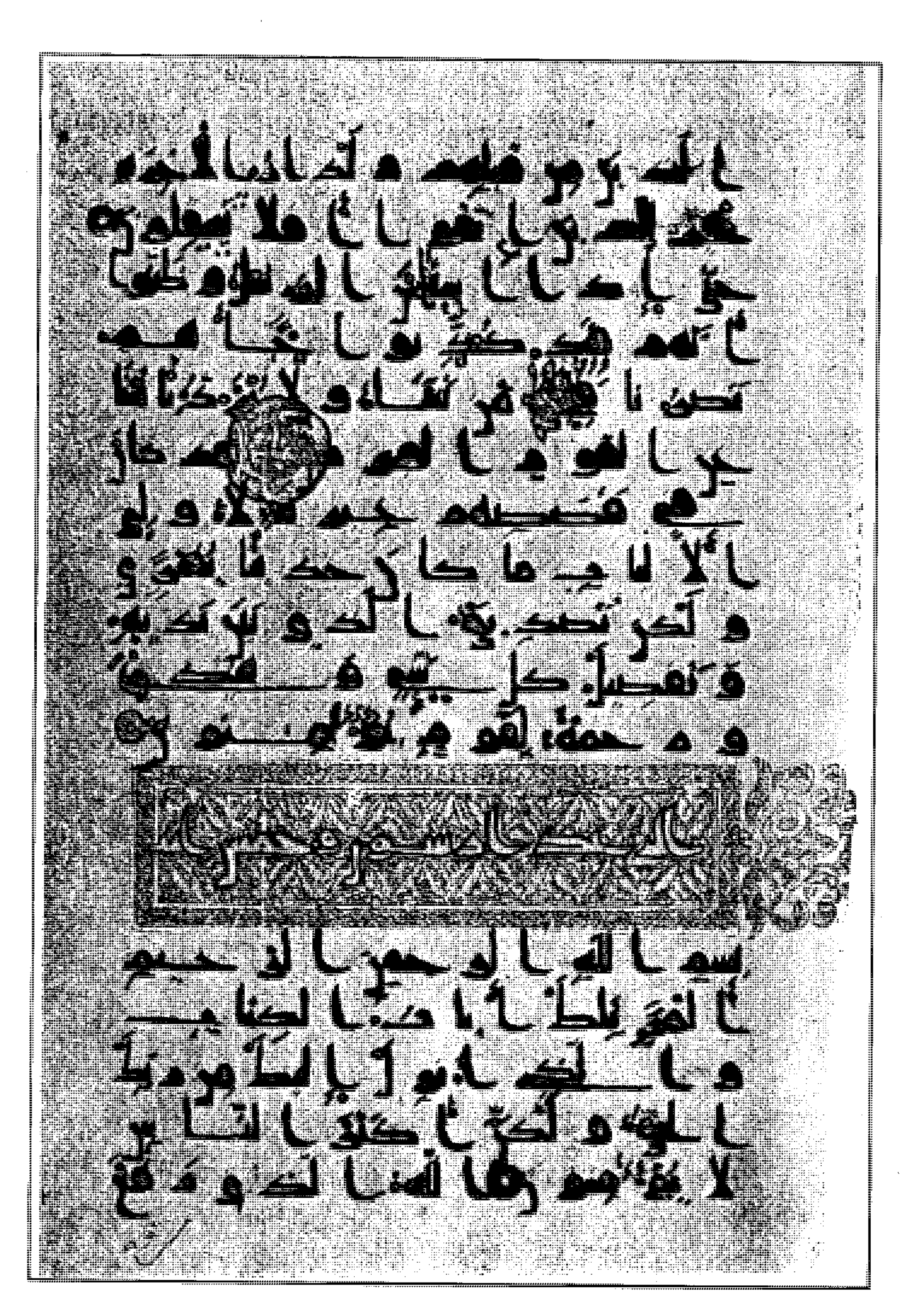
عنى الخلفاء الأمويون بالكتابة العربية لأهميتها في نشر الدعوة الإسلامية وقاموا بتشجيع الكتاب على تطويرها حتى بلغت في نهاية العصر الأموي أربعة أقلام جديدة بدت بعيدة عن صورة الخط الكوفي .

استخدمت في الكتابة العربية قطع الدرج وهو الملف الكامل والذي كان يتخذ إما من ورق البردى أو الورق أو الأديم ، والدرج يفصل ست طومارات وكان الطومار يكتب بقلم جليل خاص به يعرف بقلم الطومار .

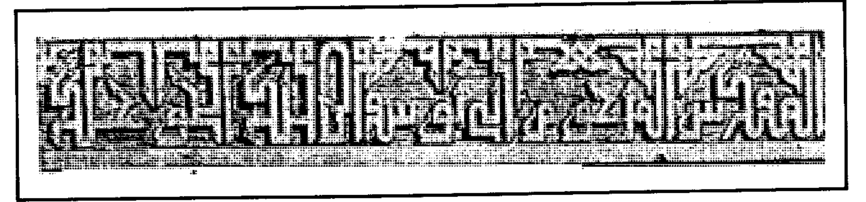
أما العصر العباسي فقد شهد ابتكار خط الثلث وخط الثلثين (أي ثلث الطومار وثلثيه) على يد إبراهيم السجزى في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، كما ابتكر يوسف السجزى خطاً جديداً هو خط التوقيع الذي كان يستخدم في الكتابات السلطانية .

---

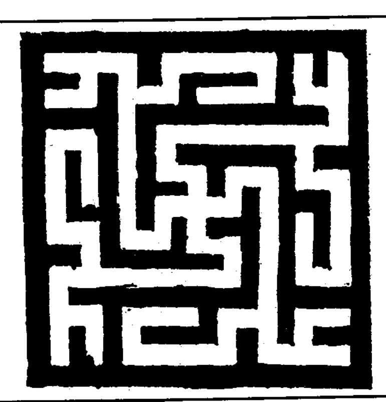
(٧١) عبدالعزيز مرزوق : الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(٧٢) شكل رقم ٢٢ ، ٢٣ .
(٧٣) شكل رقم ٢٤ ، شكل رقم ٢٥ .



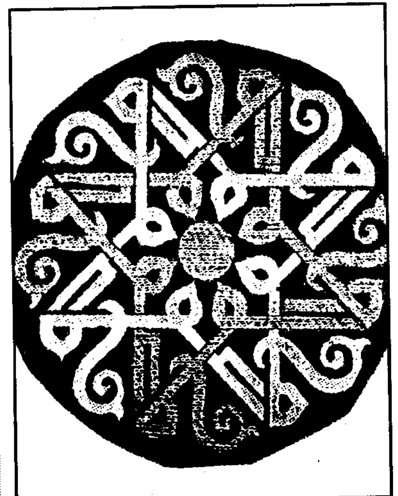
كوفي المصاحف المعروف باسم «المحقق»
شكل رقم (٢٢)



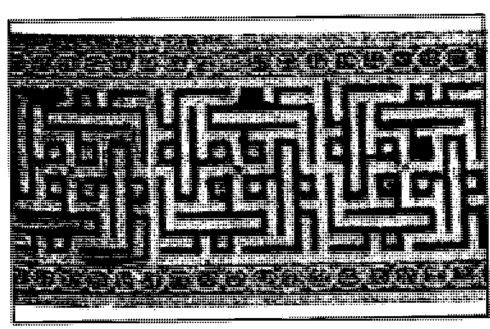
الكوفي ذو الإطار تترابط قوائم الحروف لتكوين إطارا زخرفيا



كوفي مربع شائع الاستخدام في تحلية المباني الطوبية والفسيفساء الرخامية



كوفي مرتب داخل دائرة



كوفي مرتب داخل مستطيل

أنواع الخط الكوفي وتطوره
شكل رقم (٢٣)

خط كوفي كتابات تذكارية مؤرخ القرن الثالث الهجري

شكل رقم (٢٤)



خط كوفي على شاهد قبر مؤرخ القرن الرابع الهجري

شكل رقم (٢٥)

كما ابتكر أهل الشام خطا مستديرا حل محل الخطوط التذكارية الكوفية ذات الزوايا في النقش على المواد الصلبة في أواخر القرن الخامس الهجري ، وانتشر استخدامه في تأريخ الآثار وشواهد القبور وغيرها من الكتابات التذكارية وهجرت خطوط الكوفة في كتابة المصاحف ، فمن ذلك المصحف المكتوب بخط النسخ اللين باسم الأتابك مظفر زنكي المؤرخ ٥٩٩هـ(٧٤) .

كذلك انتشر في مصر استخدام الخطوط المستديرة التي حلت محل الجافة الكوفية في العصر الأيوبي وغدا الذوق المفضل على المباني والحجارة ، والنقش على المواد الصلبة والأخشاب والطرق على المعادن . كما تطورت الكتابة في عصر المماليك بكافة أنواعها .

نقل العثمانيون عن المماليك قلم الثلث وقلم الثلثين وأخرجت منهما خطوط جميلة غاية في الإبداع هي خط الرقعة والخط الديواني ، بل إن سلاطين آل عثمان أنفسهم برعوا في الخط العربي وأحكموا صنعته مثل السلطان محمود الثاني ، الذي كانت له في الخطوط العربية إضافات رائعة ، كما ابتكر العثمانيون خط الإجازة وهو جمع بين النسخ والثلث ، والهمايوني وهو خط مولد من الديواني .

توجت الأوامر الهمايونية (الملكية السلطانية) بخط جديد تفرد به العثمانيون هو خط الطغراء(٧٥) ، وعرف بذلك تمييزا له عن خطوط العامة ، وقد ظهرت الطغراء بعد أن توترت العلاقات بين تيمورلنك وبايزيد العثماني ، فأرسل تيمورلنك إنذارا للسلطان العثماني لم يوقعه لأنه كان يجهل الكتابة وإنما بصمه بكفه بعد تحبيره بالمداد ، والطغراء العثمانية هي تقليد لبصمة كف تيمورلنك وأول ظهورها كان في عهد سليمان بن بايزيد . وقد استخدم الخط

---

(٧٤) إبراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ص٤٤ ـ ٤٨ .

(٧٥) شكل رقم ٢٦ .



نماذج من الطغراء والديواني وجلى الديواني
شكل رقم (٢٦)

الهمايوني شهلا باشا ـ الصدر الأعظم والسلطان مصطفى خان ، وراقم ومصطفى نظيف ومحمود جلال الدين(٧٦) .

ويعد خط النستعليق الفارسي نتاج الجمع بين خط التعليق وحروفه التي تنتهي من أعلى بالحياة والحركة من تعويجات واستدارات ، والخط النسخ كما يفهم من اسمه ، ويمتاز النستعليق بالخفة واللطف ويعد أكثر الخطوط لينا في يد الكاتب وأسهلها انقيادا ، ومن أشهر رواد النستعليق مير علي التبريزي وابنه عبدالله(٧٧) .

قصارى القول أن عبقرية الفنان المسلم تجلت في تجميل وتراكيب الكتابة العربية ، وقد ساعده على ذلك طبيعة هذه الكتابة من المرونة والمطاوعة ، وقابليتها للمد والمط والاستمداد والرجع ، والاستدارات التي تكسبها حياة وتمنحها جمالا وبهجة .

---

(٧٦) إبراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٧٧) حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية ص ١٧١ .

الفصل السابع

الحياة الفكرية والثقافية

د. عبدالرحمن العبدالغني

من المعروف أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم علم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ولكن لديهم ما يمكن أن نسميه نوعاً من المعرفة والخبرة والممارسة التي كانت تفتقد إلى القواعد والأصول والمنهج العلمي ، والنتائج الثابتة التي يصل إليها الباحث في أي فرع من فروع المعرفة قبل إعطائه صفة العلم .

وإن حاولنا أن نحصي مظاهر حياتهم الفكرية والثقافية في هذا العصر لوجدناها لا تتعدى بعض المعارف المتفرقة التي اكتسبوها من بيئتهم في اللغة والشعر ، والقصص ، والخطابة ، والأمثال ، ويضاف إلى ذلك معرفتهم بالنجوم والعرافة والأنساب ، وكانت هذه المعارف وما يشابهها تجد اهتماماً كبيراً لديهم .

هذا ، وقليل منهم كان يعرف القراءة والكتابة ، حيث ظلوا قروناً طويلة لا يتبادلون الكتب ، وجلبوا على ملكة الحفظ ، وكانت الذاكرة وسيلتهم الأساسية في تحصيل ثقافتهم المحدودة . وكان الرواة يحفظون الأشعار ، والنسابون يحفظون الأنساب ، والقصاصون يحفظون التاريخ والأساطير وهكذا .

حقيقة أننا نسمع عن مراكز حضارية في شبه الجزيرة العربية ، وعلى بعض أطرافها قبل الإسلام ، مثل حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن ، ومثل حضارات الحجاز التي اشتهرت بنشاطها التجاري والديني فضلا عن أسواقها الأدبية ، هذا فضلاً عن نشاط المناذرة والغساسنة ، إلا أن هذا لا يمنع من القول بأن العرب كانوا عند شروعهم في حركتهم التوسعية الكبرى في صدر الإسلام ، لم يكن لديهم تراث حضاري ملحوظ ، ينافسون به اليونان والفرس والهنود ،

وأهل مصر والشام الذين كانت بلادهم مهد حضارات قديمة زاهرة لها مكانتها في تاريخ الفكر البشري ، وتطور الحضارة الإنسانية . وما كان العرب يملكون سوى القدرة على الفهم السريع والإفادة من الغير وتشرب الاتجاهات النافعة في الحضارات التي قدر لهم أن يلتقوا بها ويصادفونها في طريق توسعهم .

ومما ساعدهم على سرعة تشربهم ذلك التراث الحضاري الدين الإسلامي الذي عمل على توسيع ثقافتهم بحكم ما آتى به من العقائد ، ونظم التشريع ، والقصص عن الأمم الماضية وأخبار الأنبياء ، ودعوة أتباعه للتدبر وعمل العقل ، والتأمل العميق بآيات الله ، وهي كثيرة حولهم ، وحثه لهم على طلب العلم والإلمام بجميع فروع المعرفة الإنسانية النافعة لهم . كما نشر بينهم كثيرا من التعاليم التي رفعت من مستواهم الفكري مثل التسامح ، والعدل ، والمساواة ، وحرية التعبير ، مما حقق المساواة للمسلمين وغير المسلمين الذين عاشوا معهم في مجتمع واحد دون تمييز بين قوي وضعيف ، وبين حر وعبد ، وبين شريف ووضيع .

ومما لا شك فيه أن المرحلة التي أعقبت ظهور الإسلام واتساع الدولة الإسلامية علي المستوى السياسي ، واكبها تطور ملحوظ في الحياة الفكرية والثقافية ، خاصة بعد أن شدد الإسلام على وجوب طلب العلم والمعرفة ، ورفع منزلة أهله . وهناك العديد من الآيات التي وردت في القرآن الكريم تحث على العلم ، فقد تحدث القرآن في مواضع عدة عن أهمية العلم وأثره في تعميق الإيمان في القلوب بالتدبر والتأمل في هذا الكون وأسراره ، لذلك أشار القرآن الكريم إلى منزلة أصحاب العلم وتميزهم فقال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ . كذلك شرف الله جل شأنه المشتغلين بالعلم والقائمين به ، والعاملين على نشره .

وكان توصيل ما جاء في الكتب السماوية من أحكام ومبادىء وفضائل من أولى مهام الرسل والأنبياء ، وعلى رأسهم رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) فقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

كما شجعت الأحادث النبوية الشريفة على طلب العلم وتحصيله ومنها : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» . «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» . كما حث الإسلام على الارتحال في سبيل العلم ، وتحصيله بكل وسيلة يستطيعها المسلم .

ولقد اتبع المسلمون هدى القرآن الكريم ، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فأقبلوا على العلم يقترفون من مناهله وينشرونه بين الناس . خاصة وأنهم وجدوا التشجيع الصادق من الخلفاء والملوك والأمراء الذين شملت رعايتهم العلماء وغيرهم مثل الأدباء والفنانين .

وكان هناك أساس ديني لحاجة المسلمين للعلوم الطبيعية ؛ إلا أنهم لم يقصروا تطبيق العلوم التي تم تطوريها لحاجتهم الدينية فحسب ؛ وإنما توسعوا فيها في اتجاهات شتى لخير البشرية فقد كانوا يوجهون العلم للخير ، ولنفع بني الإنسان ، وإسعاد البشر ، ولم يعرف عنهم أبداً أنهم سعوا إلى التدمير والفساد في الأرض . وذلك من منطلق وازع دينهم العظيم .

ولم تقف عنايتهم عند حد العلوم الدينية (النقلية) ، بل امتدت إلى سائر فروع العلم من فلك ، وطب ، ورياضيات وغيرها من العلوم الطبيعية (العقلية) ، ذلك لأن العلم في القرآن الكريم يشمل علوم الدين والدنيا في شتى أنواعها وفروعها . وكانت فرصتهم كبيرة لتحقيق هذا الهدف النبيل ذلك لأن البلاد التي فتحوها كانت موطنا لحضارات إنسانية عريقة لها أهميتها في تاريخ

الحضارة الإنسانية ، حيث أن موضع الدولة الإسلامية كان يمتد بين الثلاث قارات التي تكون منها العالم القديم .

وقد تعرف العرب على أهم الحضارات التي كانت معروفة حينذاك ، وكانت لديهم المقدرة على اختيار أفضل ما وجدوه يتناسب معهم في تلك الحضارات ومزجوا بينها مزجا جيدا ، ليقيموا حضارة جديدة عرفت بالحضارة العربية الإسلامية .

ولم يتوقف العرب في تلك الحضارة عند النتائج التي توصل إليها من سبقهم في الحضارات السابقة عليهم ، وإنما تابعوا الدراسة والبحث ، وتوصلوا إلى نتائج علمية جديدة مبتكرة .

هذا وكان للإسلام أثراً رئيسياً في قيام وتطور الحياة الفكرية والثقافية في دار الإسلام ، فقد أقبل عدد من العلماء من أهالي البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية ، والمساهمة في النشاط الفكري ، والثقافي ، كما سمح مناخ التسامح الديني الذي جاء به الإسلام للمشتغلين بالعلوم من أهالي تلك البلاد ممن بقوا على دينهم ، بمواصلة نشاطهم العلمي مع ملاحظة أنهم أصبحوا يسجلون دراساتهم العلمية باللغة العربية لغة القرآن الكريم التي أصبحت بمرور الوقت اللغة الرسمية للدولة الإسلامية .

وهكذا فإن الحياة الفكرية عند العرب دخلت منذ صدر الإسلام مرحلة جديدة متميزة تختلف عنها في عصر ما قبل الإسلام . وقد مرت هذه الحياة الفكرية في العصر الإسلامي في مراحل أساسية مختلفة ما بين النشأة والنضوج والازدهار ، ثم التجمد والاضمحلال في أخريات العصور الوسطى وباكورة العصر الحديث .

على أية حالة ، فبدءاً من المرحلة التي نشأت فيها الحضارة العربية الإسلامية نلحظ أن المعارف بدأت تستقل وتتسق وتتميز بخصائص مميزة .

خاصة وأن الحاجات الجديدة في المجتمع الإسلامي المتطور اقتضت نشوء علوم جديدة لم يعرفها العرب قبل هذه الفترة ، لذا أخذوا يميزون بين العلوم الدينية ، والعلوم غير الدينية ، وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية ، والأخرى العلوم العقلية والتي سوف نتحدث عن بعض منها فيما يلي .

ومن المعروف أن العلوم النقلية تشمل علم القراءات والتفسير والحديث ، والتاريخ ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، وغيرها من العلوم التي تندرج تحت هذا المسمى . أما العلوم العقلية فتشمل كل ما يدخل في مجال الفلسفة والهندسة والطب والكيمياء والجغرافيا وغيرها .

أهم مظاهر الحياة الفكرية والثقافية

القرآن الكريم :

كان من الطبيعي أن يتصدر الفكر الديني الحركة العلمية في الإسلام فقد كان منطقيا أن يبدأ المسلم بتفهم أصول دينه والأبعاد والأهداف الحقيقية لذلك الدين ، فالغرض من التعليم كما قال أحد الفقهاء هو أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الدين . من هذا المنطلق أدت الحماسة للإسلام فضلاً عن الحرص على تفهم روحة إلى عكوف المسلمين على دراسة القرآن بوصفه دستور الإسلام . وبعد القرآن تأتي سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وعلى أساس هاتين الدعامتين القرآن والسنة قامت مجموعة من العلوم الدينية ومنها على سبيل المثال لا الحصر علم القرآن ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث ، وعلم التشريع وسنتناول فيما يلي بعضا منها .

علم التشريع :

هذا العلم له أهميته الكبيرة في تنظيم كيان الأمة وتحديد العلاقات بين أبنائها وتقنين المعاملات الاقتصادية والاجتماعية ، وبيان العقوبات التي توقع على المخالفين والخارجين . أخذ التشريع ينمو بنمو الدولة الإسلامية بعد اتساع نطاق العلاقات بين أفرادها ، وظهور مشاكل جديدة لم يعهدها المسلمون في مجتمعهم الأول .

والمعروف أن التشريع في الحجاز ارتقى نسبياً قبيل ظهور الإسلام في مكة بسبب وجود الكعبة وما ارتبط بذلك من حج العرب إليها . وفي المدينة لاختلاط العرب فيها باليهود التي كانت لهم شرائعهم المستمدة من التوراة .

ثم جاء ظهور الإسلام مستهدفاً الإصلاح ، وليس التمييز لمجرد الرغبة في التغير ، فتعرض الإسلام لعرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية فأقر منها ما لا يتعارض مع أحكامه وآدابه وروحه ، وعدل منها ما يمكن تعديله لينسجم مع تلك الأحكام والآداب ورفض كل ما لا يتفق وروحه وآدابه وأحكامه .

مصادر التشريع :

القرآن هو المصدر الأول للتشريع ، وقد نزل في بضع وعشرين سنة جزء في مكة وجزء في المدينة . ورغم أن ثلثين القرآن نزل بمكة ولم ينزل بالمدينة سوى الثلث ، إلا أن الآيات المدنية تتمتع بأهمية خاصة في مجال التشريع . فالآيات المكية تكاد تقتصر على بيان أصول الدين ، والدعوة للتمسك بمكارم الأخلاق ، والأمر بالمعروف والثواب والعقاب ، والجنة والنار . أما الآيات المدنية فتعالج كثيرا من من جوانب المعاملات الخاصة والعامة : كالزواج والطلاق ، والبيع والشراء ، والأمور الجنائية مثل القتل والسرقة والزنا .

وكان هذا طبيعيا ، فحتى هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان هناك إسلام ولكن لم تكن هناك دولة للإسلام ، لأن هذه الدولة لم تولد إلا بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، وعندئذ أخذ ينظم شئون المجتمع الإسلامي من الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وكان لا بد من تشريع ينظم كل هذه الأمور . ثم أخذ هذا التشريع ينمو وفقاً لحاجات المجتمع . فنمو التشريع في المدينة سار سيراً مطرداً مع نمو الجماعة الإسلامية ، واستهدف إقامة صرح كبير على أسس من الخير والحق والعدل . ولم يترك الإسلام جانبا من جوانب الحياة الخاصة أو العامة إلا وشرع له ، فشرع للمرأة أما ، وزوجة ، وابنه ، وأختا ، ولحقوق الوالدين على الأبناء ولحقوق المحكوم على الحاكم ولحقوق الجار على جاره .

ورغبة من المسلمين في التمسك بروح الإسلام وآدابه ، والعمل بأحكامه حرصوا على الإحاطة بأصول التشريع ، فعكفوا على جمعه من مصادره وتبويبه ودراسته ، مما جعل الشريعة محور علم من أهم علوم الإسلام .

وإذا كان القرآن هو المصدر الأول للشريعة ، بوصفه دستور الإسلام فيلاحظ أنه بحكم كونه كتاباً سماوياً قصد به أن يكون دستوراً لكل زمان

ومكان، لهذا فهو يتجه إلى الأمور الكلية ولا يتعرض للمسائل الصغيرة أو الجزئية لهذا لجأ المسلمون في المسائل الجزئية التي لم يفصلها القرآن إلى الرسول (ﷺ) يسألونه ويستفتونه، مما جعل السنة النبوية هي المصدر الثاني للشريعة. ففي غياب وجود نص صريح عن مسألة ما في القرآن، وثبت فيها رأي للرسول (ﷺ)، كان ذلك تشريعاً على المسلمين الأخذ به.

ولكن اتساع الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول أدى إلى ظهور مشاكل جديدة متنوعة لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل، مثل طبيعة حركة الفتح وتنوع الأجناس التي دخلت الدولة الإسلامية وتباين جذورها وعاداتها وتقاليدها، كل هذا أدى إلى ظهور مشاكل ليس لها أحكام صريحة في الكتاب أو السنة مما تطلب الاجتهاد وإعمال الرأي والفصل لحلها.

وكانت أول مشكلة واجهت المسلمين عقب وفاة الرسول (ﷺ) مباشرة هي نوع الحكم الذي تحكم به الدولة الإسلامية وكيفية إختيار من يخلف الرسول، ثم استجدت مشاكل أخرى مع اتساع الدولة مثل: من أي جماعة يختار خليفة المسلمين، من الأنصار أو من المهاجرين؟ وتحديد قيمة الخراج من أرض زراعية إلى أخرى.

وهكذا اضطر الصحابة إلى ادخال مبدأ الاجتهاد في التشريع، واتسعت هذه الظاهرة خاصة في أيام عمر بن الخطاب لاتساع الدولة في عهده مما أوجد مشاكل جديدة كان لا بد من حلها حلولاً حاسمة بمثابة سوابق وأحكام يعمل بها في المشاكل المشابهة.

وهكذا انتشرت مدرسة الرأي والاجتهاد والقياس في التشريع في القرنين الأول والثاني للهجرة. وكان لهذه المدرسة شأن في العراق. والأصل في القياس أن يعلم حكم الشريعة لشيء ما، فيقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما. ولكن مصطلح القياس أطلق أحياناً على الاجتهاد فيما لا نص فيه، وبذلك صار مرادفاً

للرأي وكان المفروض فيمن يتصدى للإفتاء بالرأي والقياس أن يكون من أهل الدين والعلم ، قوي العقيدة وصادق الإيمان ، واسع المعرفة والعلم حتى يكون أهلا للاجتهاد .

ويلاحظ أن أصحاب مدرسة الرأي والاجتهاد اتصفوا بصفتين :

١ ـ كثرة التفريعات والجري وراء المفروض .

٢ ـ التقليل من شأن الاعتماد على الحديث واشتراط لصحة الحديث شروطاً صعبة لا تتوافر في كثير من الأحاديث ، والتشكك في معظم رواة الحديث .

ولقد قوبل تطرف أصحاب الرأي والاجتهاد في الإقلال من شأن الحديث بمعارضة قوية من أصحاب مدرسة الحديث ، ومركزها الحجاز . وكان أصحاب مدرسة الحديث إذا سئلوا عن شيء عرفوا فيه آية قرآنية أو حديثاً من أحاديث الرسول (ﷺ) أفتوا ، وإلا سكتوا . وبلغ من احترامهم للحديث أنهم اعتدوا بالحديث حتى الضعيف وتساهلوا في شروطه في الوقت الذي كرهوا فيه إعمال الرأي .

وحين اشتدت الخصومة بين مدرسة الاجتهاد (العراق) ومدرسة الحديث (الحجاز) ، ظهرت مدرسة ثالثة تحتل مكاناً وسطاً بينهما ، فلا هي تؤمن بالاجتهاد بشكل مطلق ، ولا هي تهمل الحديث أو تقلل من شأنه ، وكان على رأى هذه المدرسة الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، الذي رأى العمل بالاجتهاد في حالة تعذر العثور على حديث موثوق بصحته . وإذا القينا نظرة على تاريخ التشريع عند المسلمين منذ عهد الراشدين سنجد أن أبا بكر كان يفصل فيما يعرض عليه من قضايا بعد استشارة الصحابة والتابعين الذين توجهوا إلى الأمصار واستقروا فيها . أما في العصر الأموي فإن التشريع لم يحظ باهتمام كبير من الخلفاء الذين لم يتصلوا بالفقهاء ورجال التشريع إلا في حالات نادرة قليلة ،

واكتفوا بتعيين القضاة وتركوهم يحكمون بين الناس ويفتون كما يرون ، ويستثني من هذا الخليفة عمر ابن عبدالعزيز . وبقيام الدولة العباسية ، دخل التشريع مرحلة جديدة لأن العباسيين استغلوا وضعهم - بوصفهم من آل البيت النبوي - وأضفوا على أنفسهم وعلى خلافتهم صبغة دينية واضحة . ونتج عن هذه السياسة العباسية نمو الفقة نموا كبيراً ساعد عليه التوسع في الاجتهاد من ناحية ، واتساع رقعة الدولة وانتشار الإسلام من ناحية أخرى . وأدى التوسع في الاجتهاد إلى اختلاف وجهات نظر الفقهاء وكثرة المناظرات فيما بينهم ، مما ترك أثراً طيباً في إثراء الحياة الفكرية وفي نمو التشريع علي وجه الخصوص . كذلك أدى اتساع الدولة وزيادة أعداد الداخلين في الإسلام إلى تنوع المواهب وتباين وجهات النظر ، وزيادة في الإقبال على طلب العلم ، كذلك كان على فقهاء الإسلام تحديد موقفهم من تراث الأمم الجديدة التي دخلت الإسلام بتقاليدها وعاداتها وقوانينها .

وكان أهم ما ميز النشاط الفقهي في العصر العباسي ، ظهور المذاهب عند أهل السنة ، فضلاً عن فقه الشيعة والخوارج الذي لا يخلو من اجتهادات واضحة وتعبر عن وجهات نظرهم في كثير من المسائل العامة والخاصة ، أما عن مذاهب أهل السنة فاشتهر منها أربعة : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي .

١ - المذهب الحنفي :

ينسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان المتوفى في بغداد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م . وكان أبو حنيفة قد تلقى تعليمه في الكوفة وقد عرض عليه القضاء مرتين : مرة في العصر الأموي ، وأخرى في العصر العباسي . ولكنه رفض وتعرض بسبب ذلك للتعذيب ، وكان منهجه يقوم على التشدد في قبول الحديث والتدقيق فيه والتحري عنه ، ومعنى هذا أنه توسع في القياس والاجتهاد وإعمال العقل ، مما عرضه لنقمة المحدثين . ومن تلاميذه الذين حافظوا على

مذهبه أبو يوسف ، صاحب كتاب الخراج ت : (١٨٢هـ/ ٧٩٧م) ، ومحمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ/ ٨٠٤م) . وكان العراق هو الميدان الرئيسي لفقه أبي حنيفة .

٢ ـ المذهب المالكي :

ينسب إلى مالك بن أنس (ت١٧٩هـ/ ٧٩٦م) الذي عاش حياته في المدينة وارتبطت بها مدرسته . والمعروف أن المدينة اشتهرت بالمحدثين من الصحابة والتابعين . ولذا كان مالك يرى أن أهل المدينة أكثر دراية وإلماماً بالسنة النبوية الشريفة . وكان أساس التشريع عنده ـ بعد القرآن الكريم ـ هو الحديث الصحيح السند ، ثم يأتي بعد ذلك عمل أهل المدينة . فإذا اتفق أهل المدينة وعلماؤها على عمل معين ، رأى مالك في هذا العمل حجة تجعله يقوم على القياس لأنه بمنزلة الرواية . وكان من تلاميذه أسد بن الفرات .الذي اشتهر بين أصحابه المصريين مثل عبدالله بن وهب ، وابن القاسم ، وعبدالله بن الحكم . ومن أشهر كتبه الموطأ والمدونة .

٣ ـ المذهب الشافعي :

ينسب إلى محمد بن إدريس القرشي (ت : ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م) نشأ في الحجاز ، وتلقى العلم على مالك وأخذ عنه فقهه ولازمه حتى مات ، وقد تنقل الشافعي بعد ذلك بين اليمن وبغداد ومكة ، ثم نزح إلى مصر سنة ١٩٩هـ واستقر بها إلى أن توفي ودفن بها ، ومازال ضريحه بالقاهرة في حي يعرف باسمه . امتاز الشافعي بثقافة واسعة في اللغة والأدب والدراية بأهل البدو والحضر والبلاد التي زارها ، فضلاً عن تعمقه في الحديث والفقه . ويمكن القول إن الشافعي كان أحد رجال مدرسة مالك حتى سنة ١٩٥هـ ، وعندما ذهب إلى بغداد اتصل باصحاب أبي حنيفة ، وعندئذ اتخذ لنفسه وجهة نظر جديدة غدت عماد مذهبه ، وكانت تقوم على أساس التقريب بين مدرستي أبي حنيفة

ومالك ، أي بين مدرستي العراق والحجاز . فقد رفض مبدأ الأخذ بالحديث بسهولة ، كما رفض مبدأ التشدد في الأخذ بالحديث ، واشترط شروطاً عديدة فيه ، كذلك رفض تقديم القياس على الحديث . وهو في القياس يقف موقفا وسطًا فلم يتشدد فيه تشدد مالك ، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة . ومن آثار الشافعي رسالته في أصول الفقه ، رواها عنه تلميذه ربيع بن سليمان المرادي ، وكتاب «الأم» وهو أكبر أثر للشافعي . ومن أشهر تلاميذه في مصر يحيى البويطي ، وإسماعيل بن يحيى المازني ، والربيع المرادي .

٤ ـ المذهب الحنبلي :

ينسب إلى أحمد بن محمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) ولد ونشأ في بغداد وتنقل بين الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن والجزيرة لجمع الحديث . وقد صحب الشافعي وأخذ عنه .

وقد بنى مذهبه في الفقه على الحديث ، فإذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت إلى غيره . وإذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها ، وإذا وجد حديثاً مرسلاً أو ضعيفاً رجحه على القياس . وكان يكره الفتوى في مسألة ليس فيها أثر ، ولا يستعمل القياس إلا عند الضرورة القصوى . ولم يضع ابن حنبل كتاباً أو رسالة في الفقه ، وينحصر أثره في الفقه في مسائل سئل عنها فأفتى فيها .

ولا شك في أن تبلور المذاهب في العصر العباسي جعل الناس ينحازون إلى هذا المذهب أو ذاك . وصار لكل مذهب علماؤه وتلميذه . وربما جلس في المسجد الواحد أربعة مدرسين كل منهم يدرس الفقه والشريعة وفق مذهب من المذاهب الأربعة وحول كل مدرس حلقة من الطلاب ، وهكذا تعاقب العلماء في كل مذهب ، ووضعت كتب التراجم والطبقات في كل فريق .

علم الحديث

ما هو الحديث (أو السنة)؟ هو ما ورد عن رسول الله (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة . والحديث والسنة مترادفين متساويين ، ففي كل منهما إضافة قول أو فعل أو تقرير أو صفة عن رسول الله (ﷺ) . ولكن هناك فرق بين هاتين اللفظتين في الاستعمال لغة واصطلاحاً .

فالحديث : هو اسم من التحديث وهو الأخبار أو القصص ، وقال تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾(الطور ٣٤) . و﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ (الزمر ٢٣) . وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ (طه ٩) ، أما السنة : فهي في الأصل متساوية للحديث ، حيث أن معناها اللغوي يطلق على الطريقة الدينية التي سلكها الرسول الكريم (ﷺ) في سيرته المطهرة لأن معنى السنة لغة : هو الطريقة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ . إذن السنة خاصة بأعمال النبي الكريم (ﷺ) .

ما وجوب إتباعها :

وجب على المسلمين إتباع السنة ، حيث جاء في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب ٢١) ، الأمر الذي جعل للحديث قيمة كبيرة في الدين الإسلامي تلى القرآن في المكانة والمرتبة ، فطاعة الله هي إمتثال لما جاء في كتابه ، وطاعة الرسول (ﷺ) هي إمتثال ما بينه لنا من تشريع ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ و ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾(النساء ٦٩) . والرسول الكريم يقول : «يا أيها الناس أني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي» .

أما قـول الرسـول (ﷺ) ، فـالمراد به ، كل مـا تـلفظ به في جمـيع أحـواله ، جداً أو هـزلاً ، تشـريعـاً أو غـيـر تـشـريع ، فـهـو كـمـا قـال الله سبـحـانه وتعـالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾(النجم ٣) .

أمـا المـراد بأفـعـاله : سـواء في الحـرب أو السلم ، أو في السـفـر ، أو في الاستقرار ، فهو تشريع ، ومثال على ذلك قول أنس «صليت الظهر مع النبي (ﷺ) بالمدينة أربعا ، وبذى الحليفة ركعتين «وأما تقريره : فهو سكوته (ﷺ) عن أقوال أو أفعـال تفعل بحضرتـه ، فإن سكت عنها يفهم من سكوته إقراره لها على أنها مشروعة ، لأنه (ﷺ) لا يسكت عن باطل .

«ومعنى الـصفـة : هي صفـاته ، وأخـلاقه عليه أفضل الصـلاة والسـلام كوصف السيدة خديجة رضي الله عنهـا له «إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعـدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق» . وترجع أهـمـية هذا النوع أنها من صفات يقتدى بها أسوة برسول الله ﷺ .

والحديث القـدسي : ويراد به الحديث الذي يـرويه النبي (ﷺ) عن ربه عـز وجل . وهو يلقـيـه أحيـانا على أصـحابه وليس منزلاً كالقـرآن ، ولا قـولاً صريحـاً يسند عليه إسناداً مباشراً كالحديث ، وأنما هو مجموعة أحـاديث حرص الرسول الرسول الكريم على تصديرها بعبارة تدل على نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى ، لكي يشيـر إلى أنها بـأسلوب يختلف اختلافاً ظاهراً عن أسلوب القرآن ، ولكن فيـهـا مع ذلك نفـحة عـالم القـدس ونوراً من الغـيب ، لذا سميت بالأحـاديث الإلهـية ، والربانية . ومثال عليـهـا : قـال الله سبـحـانه وتعـالى : «يا عبـادي أني حـرمت الظلم عـلى نفسي وجعلته بينكم مـحرمـاً فلا تظالموا . .» إذن الحديث القـدسي معناه من الله سبحانه وتعـالى ، ولكن ألفـاظه من النبي (ﷺ) بخلاف الحديث النبوي فـهـو معنى ولفظاً من النبي الكريم ، أما القرآن فـهو معنى ولفظاً كلام الله .

أهمية الحديث :

تكمن أهمية الحديث كونه منبع أصلي للتشريع بجانب القرآن الكريم فقد شرح رسولنا الكريم كثيراً من أحكام الشريعة السمحاء خلاله لورود بعض آيات القرآن مجملة أو مطلقة أو عامة ، فبينها رسول الله (ﷺ) أو خصصها . ومثال على ذلك أحكام الصلاة ، تحريم الخمر ، مناسك الحج والعمرة . . . الخ .

كذلك عرضت لرسول الله (ﷺ) حوادث قضى فيها ، وأسئلة أجاب عنها ، ومبادلة أخذ وعطاء وتصرف في الشئون السلمية والحربية . وكل هذه الجوانب كان حيناً ينزل فيها قرآن وأحياناً لا ينزل .

تدوين الحديث :

ظهرت عناية المسلمين بالحديث في حياة الرسول الكريم ، ولكن أحجم عن تدوينه ، والمعروف أن الحديث لم يدون كما دون القرآن الكريم والثابت أن الرسول (ﷺ) اتخذ كتبه للوحي يكتبون آيات القرآن ، لكنه لم يتخذ كتبه يكتبون ما ينطق به من غير القرآن .

وهناك أحاديث نهت عن تدوين أقوال نبي الإسلام (ﷺ) ، كما أن هناك أحاديث سمحت بالكتابة أيضا . ومراد هذا أن النهي كان وقت نزول القرآن ، أو النهي كان عن تدوين الأحاديث جنبا إلى جنب مع آيات القرآن لئلا يلتبس القرآن بالحديث لا سيما إذا كتب في صحيفة واحدة ، ومن الأحاديث التي نهت «لا تكتبو عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه» . وهناك روايات تدل على السماح ولكن بشكل محدود بكتابة الحديث ، ومثال على ذلك تلك الرواية التي رواها رافع بن خديج الذي قال : «قلت يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال اكتبوا ولا حرج» . وهناك من يضعف هذا الحديث . ولكن هناك من يقول : أن النبي (ﷺ) قد أذن لعبدالله بن عمرو بن العاص فوضع لذلك الصحيفة الصادقة كما أسماها .

وقد يكون مرد هذا ، أن منع تدوين الحديث كان أول الأمر كي لا ينشغل المسلمون بالأحاديث عن القرآن الكريم ، ولايختلط القرآن بالحديث . ولكن بعد

أن نزل أكثر الوحي وحفظه الناس وأمن اختلاطه بغيره ، أذن عليه «أفضل الصلاة والسلام» ، بتدوين الحديث حيث قال : «قيدوا العلم بالكتاب» .

وهناك من يرى أن الإذن بتدوين الحديث كان إذنا خاصاً وليس عاماً ، أي لبعض أصحابه الذين رأى فيهم أنهم أقل من غيرهم حفظاً وضبطاً لأحاديثه ، لذا فقد رأى (ﷺ) ، أن في كتابتهم لأحاديثه معونة لهم على نسيانهم لها ؛ أو أوثق حفظاً لهم بها . فكان أذنه لهؤلاء أشبه بالاستثناء الذي خص عليه السلام نفراً من أصحابه لأسباب رآها وجيهة تبعاً للظروف والأشخاص مثل عبدالله بن أبي الذي كان يكتب الأحاديث بيده ، وكان الناس يقرؤون عليه ما جمعه بخطه . وسعد بن عبادة الأنصاري المشهور «بصحيفته» وسمرة بن جندب . ولكن أكثرهم قيدوا ما جمعوه في السنوات الأخيرة من حياة رسول الله (ﷺ) حيث أذن لمن يرغب بالكتابة بعد أن أمن عدم اختلاط السنة بالقرآن ، ومن أشهر الصحف المكتوبة في العصر النبوي «الصحيفة الصادقة» التي كتبها وجمعها عبدالله إبن عمرو بن العاص ، والتي اشتملت على ألف حديث كما يقول ابن الأثير . وهي محفوظة في مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وهي أثبت وثيقة تاريخية تبرهن على كتابة الحديث في عهد النبي (ﷺ) . وتقول الروايات أن عبدالله قال للنبي الكريم «أأكتب كل ما أسمع؟ قال : نعم . قال : «في الرضى والغضب؟ قال : «نعم ، فأني لا أقول في ذلك إلا حقاً» . كذلك كتب عبدالله بن العباس كثيرا من أحاديث النبي (ﷺ) في ألواح كان يحملها معه إلى مجالس العلماء ، وكان تلميذه سعيد بن جبير يكتب عنه ، وإذا خلص منه القرطاس كتب على ملابسه أو كفه .

هذا ، وقد شجع أحجام بعض الصحابة عن رواية الحديث بعض الناس على استباحة وضع أحاديث ونسبتها كذباً إلى رسول الله (ﷺ) وساعد على ذلك أمور كثيرة منها :

١ ـ السعي للفخر والرياسة بين القبائل العربية .

٢ ـ الخصومة السياسية بين الأفراد والدول مثل الأمويين والعباسيين .

٣ ـ سعي بعض الأمم مثل الفرس ، والروم ، والأتراك إلى وضع أحاديث لتبيان فضلهم على الآخرين .

٤ ـ الخلافات الكلامية والفقهية ، واختلاف العلماء بينهم .

٥ ـ وضع أحاديث تبرر العصبية لبلد دون غيره .

٦ ـ وضع أحاديث لمراضاة الخلفاء مثل غياث بن إبراهيم النخعي حينما دخل على الخليفة المهدي ووجده يطير الحمام فقال : «قال جدك ، (ﷺ) إنه لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل (جناح)» فقال المهدي عندما خرج غياث من مجلسه أشهد أنك كذاب» .

٧ ـ عدم إقبال الناس على علم إلا إذا كان متصلاً بالكتاب والسنة .

ولهذه الأسباب وغيرها كثر وضاع الحديث ، وازداد الموضوع والمدسوس منها ، مما أدى إلى نوع من الفوضى روعت جماعة من العلماء الصادقين ، فقاموا بحركة واسعة لتنقية الحديث من المدسوس والموضوع ، وتميز الجيد من الرديء .

دواعي تدوين الحديث :

١ ـ موت كبار الصحابة بعد عهد الخلفاء الراشدين .

٢ ـ ظهور الفرق المختلفة في المذاهب والأهواء مثل الخوارج ، والشيعة ، والزنادقة وغيرها .

٣ ـ حدوث أمور اقتضت معرفة حكم الدين فيها .

٤ ـ كثرة البدع من قبل بعض الفرق .

غربلة أو نخل الحديث :

وجدت جذور حركة غربلة الحديث في عهد الصحابة مثل أبي بكر الصديق ، الذي لم يقبل حديث سدس الجدة في الميراث إلا بعد أن أكده له اثنان من الصحابة المشهود لهم بالصدق والشهادة العادلة .

كذلك ظهرت طائفة من العلماء الأعلام في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) الذين سمو بـ «علماء الجرح والتعديل» ، والذين كان هدفهم غربلة الحديث ، والبحث عن حالة رواته والتابعين لهم ، ومن جاء بعدهم ، فاهتموا بهم وبحثوا عن صحة رواتهم للحديث وأمانتهم في النقل ، كما درسوا تاريخهم وأخبارهم ، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم ، فكان ذلك نواة صالحة ، وثروة غزيرة لعلم التاريخ والرواة . وقاد هذا كله إلى الاعتماد على الإسناد وهو «سلسلة الرواة الذين نقلوا إلينا الحديث عن رسول الله ﷺ ، وسموا بذلك لأن المحدث يصعد عليه حتى يصل به إلى النبي (ﷺ) فما وجدوه عند أهل السنة أخذوه ، وما لم يجدوه عندهم تركوه .

الشروط الواجب توافرها في الراوي :

١ ـ بيان شخصية الراوي .

٢ ـ مدى صدقه وحفظه للحديث .

٣ ـ توفر صفة العدل فيه .

٤ ـ امتيازه بالدقة والإتقان .

وعند تطبيق هذه المقاييس على المحدثين أخذوا أحاديث من عدلوه ، ومن جرحوه تركوا أحاديثه . وقد اعتمد هؤلاء العلماء «علماء الجرح والتعديل» على الإسناد ، ولم يكن السند معروفاً من قبل لقرب الناس من الرسول الكريم (ﷺ) ، ولكن عندما وقعت الفتنة وانقسم الناس شيعاً ، اندس بينهم أصحاب البدع والأهواء ، مما أدى بالناس إلى البحث عن السند ليعرفوا صحة ما روى عن النبي (ﷺ) ، وكانوا قبل ذلك لا يسألون عن سند الحديث ويأخذونه دون سند .

على أية حال ، لم يدون الحديث بالمعنى المفهوم من التدوين إلا في أوائل القرن الثاني من الهجرة . وذلك لانتشار أهل الحديث ، وعلماؤه في الأمصار ، وخاصة عندما كثر الابتداع من الخوارج وغيرهم .

وهناك اختلاف حول أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه بالكتابة . ويذهب البعض إلى أن عمر بن عبد العزيز كان أول من فعل هذا رسمياً ، وذلك عندما كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم ، يقول له : «أنظر ما كان من حديث رسول الله (ﷺ) أو سنته ، فاكتبه فإني خفت درس العلم وذهاب العلماء» . وهناك من يقول إن أول من دون الأحاديث الصحيحة هما الربعي بن صبيح ، وسعيد بن أبي عروبة .

ومعنى اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر تدوين الحديث ، وهو خليفة المسلمين ، هو اهتمام الدولة رسمياً بعملية التدوين ودعوتها العلماء المتخصصين لفعل ذلك . وقد يكون عمر بن عبد العزيز فعل هذا لزوال أسباب اختلاطه بالقرآن ، أو انصراف الناس عن القرآن إليه ، بل وجدت أمور استوجبت الإسراع بعملية التدوين أهمها حفظ مصادر التشريع ذلك لأهمية الحديث لكونه المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن . ومن أوائل من دون الحديث هو ابن شهاب الزهري (١٢٣هـ/ ٧٤٠م) ، وسعيد بن أبي عروبة (١٥٦هـ/ ٧٧٢م) وغيرهم .

طريقة تدوين الحديث :

١ ـ جمع أحاديث كل باب على حدة ، وأساس هذه الطريقة التي سميت بـ«الأبواب» أن يقوم تقسيم الحديث على أساس وحدة الموضوع كالطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، . . .الخ .

٢ ـ ترتيب الحديث على حسب الرواة من الصحابة مهما اختلفت موضوعات الأحاديث المنسوبة إليهم . وهذه الطريقة تسمى «الأسانيد» وكان الهدف من هذه الطريقة هو تدوين الأحكام لخدمة التشريع ، وذلك بتسهيل استنباط الأحكام من الأحاديث الصحيحة . وأشهر الأسانيد الموضوعة حسب هذه الطريقة مسند أحمد بن حنبل .

٣ ـ الاقتصار على تدوين ما روى عن النبي (ﷺ) .

٤ ـ التدوين على حسب طريقتي الأبواب والأسانيد معاً ، وأشهر من اتبع هذه الطريقة هم :

البخاري (محمد بن إسماعيل المعروف بالبخاري (ت٢٥٦هـ) ، ومسلم (مسلم بن الحجاج المشهور بمسلم) (ت ٢٦١هـ) ، وابن ماجه (محمد بن يزيد المعروف بابن ماجه) (ت ٢٧٣هـ) ، وأبو داود (سليمان بن الأشعث المشهور بأبي داود) (ت٢٧٥هـ) ، والترمزي (محمد بن عيسى المعروف بالترمزي) (ت٣٠٣هـ) .

٥ ـ الاقتصار على ذكر الصحابي ، وترك سند الحديث . وأشهر من اتبع هذه الطريقة عبد الله بن عباس الذي اعتمد على كتاب واحد من كتب الأحاديث فقط مع ترك الإسناد .

قواعد علم الحديث :

١ ـ تحليل الرواية :

ويقوم على نقد الحديث من حيث (السند) أي من روى الحديث ، ونعني الأشخاص الذين تعزي إليهم الرواية .

٢ ـ شروط الرواية :

وتعنى طريقة سماع الحديث (أي كيفية التقاطه وأخذه من رواته) ، مثل : هل تمت الرواية سماعا (سمعت من فلان) ، أو قراءة (أخبرني) ، أو الإجازة (الاذن بالرواية لفظاً أو كتابة) ، أو مناولة ، وهو أن يدفع الشيخ إلى تلميذه كتابه ، ويقول له هذه روايتي عن فلان فاروه عني . أو كتابة (أي أن يكتب الشيخ ما يقوله لحاضر أو غائب بخطه) ، أو توصية (أي أن يوصي الشيخ عند موته أو سفره لشخص) .

٣ ـ تعديل وجرح الرواة :

اهتم علماء الحديث برواته ، والسبب هو أن حديث رسول الله (ﷺ) ، ما وصلنا إلا عن طريق الرواة ، لذا فالرواة هم الركيزة الأولى في معرفة صحة الحديث أو عدم صحته . لذا وضعوا شروطا دقيقة محكمة لقبول رواة الحديث دلت على بعد نظر أولئك العلماء وسداد تفكيرهم ، وحسن طريقتهم . كما دلت على منهجية ودقة ، فكثيراً ما تنقل أخبار لا يوثق بها بسبب رواتها المجهولين . وقد اشترط العلماء في رواة الحديث شرطان : العدالة والضبط . أما العدالة : هي أن يكون الراوي مسلماً ، بالغاً ، عاقلاً ، سليماً عن الفسق ـ سليماً عن خوارم المروءة . وأما الضبط : أن يكون الراوي غير مخالف للثقاة ، جيد الحفظ ، بعيداً عن فاحش الغلط ، ناضجاً غير مغفل ، بعيداً عن الأوهام . وإذا ثبتت عدالته عند تطبيق هذه الشروط عليه عدل ، واعتد بما روى من أحاديث وذاعت شهرته بين أهل العلم وكثر الثناء عليه ، ومن هؤلاء الأئمة الأربعة ، وسفيان الثوري ، والأوزعي وغيرهم . إذن التعديل هو عدالة الرواة وضبطهم والتجريح هو الطعن في عدالتهم وضبطهم .

ولقد صنف علماء الحديث الرواة الذين رووا الحديث ، ووضعوا كتباً كثيرة بينوا فيها تراجم لهؤلاء الرواة وبيان الجرح والتعديل الموجه إليهم . ثم بيان من أخذوا منه ومن أخذ عنهم ، وأين رحلوا ، ومتى التقوا ببعض من نقلوا منهم من علماء الحديث ، ثم تحديد الزمن الذي عاشوا فيه ، وقد وصل إلينا ما كتب عن تراجم رواة الحديث ونقلته ، مما لا يدع مجالا للشك بأن ما وصل إلينا من أحاديث غير منقحة أو مؤكدة ، ومن بعض الكتب التي وضعت في هذا المجال «التاريخ الكبير للبخاري» ، وهو كتاب عام خصصه عن الرواة الثقاة والضعفاء . «الجرح والتعديل» لأبي حاتم و «الثقاة» لابن حيان ، وغيرها من الكتب .

مراتب التعديل : (من ناحية الرواة) :

فلأن أثبت الناس أو ثقة فلان صدوق ، أو لا بأس به ، أو صالح الحديث .

مراتب الجرح :

فلان لين الحديث أو فيه مقال ، لا ينج به ، أو ضعيف لا يكتب حديثه أو ضعيف جداً متهم بالكذب ، أو بسرقة الحديث ، ليس بثقة . فلان كذاب ، أو دجال . فلان أكذب الناس ، أو هو ركن الكذب .

أحكام التجريح :

١ ـ البدعة : وهي أن يأتي المحدث بآراء تخالف مجموع الآراء .

٢ ـ المخالفة : وهي أن يأتي المحدث بحديث يختلف عن الذي يأتي به من هو أحفظ منه ، أو الذي يتفق عليه عدد من المحدثين .

٣ ـ الغلط : وهو التأكد من وجود الخطأ بحديثه .

٤ ـ جهالة الحال : أي أن يكون الراوي غير معروف .

٥ ـ الانقطاع في السند : ويحدث هذا حين يدس الراوي رواة من غير رواة الحديث أو أن يذكر أحاديث دون إسنادها .

٦ ـ تصنيف الرواة من حيث الثقة فيهم وصحة روايتهم من حيث تعديل وجرح المنقول عنهم من السلف .

٧ ـ أنواع الحديث :

ذهب البعض إلى أن علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ حوالي ١٠٠ حديث ، كل نوع منها علم مستقل بنفسه ، ولكن أنواع الأحاديث المتعارف عليها لا تخرج عن ثلاثة أنواع هي :

١ ـ الحديث الصحيح :

وهو ما اتصل سنده بنقل العدل والضبط وسلم من شذوذ وعله .

٢ ـ الحديث الحسن :

وهو المسند إلى من قرب من درجة الثقة ، وسلم من شذوذ وعله ، وسمي حسناً لحسن الظن به .

٣ ـ الحديث الضعيف :

وهو ما لا تتوافر فيه شروط الصحة ولا شروط الحسن . ولا شك في أن هذه الضوابط أدت إلى ضبط الحديث ، وإنقاذه من الدس والوضع .

وكان علماء الحديث يتجشمون متاعب السفر وأخطاره للطواف على العلماء للتأكد من صحة أحاديث لديهم ، وهذا ما جعل علم الحديث من العلوم الدقيقة المحققة .

وقد تفرعت من علم الحديث علوم كثيرة مثل : علم التشريع الذي وجد في علم الحديث منافذ واسعة في العبادات والمسائل المدنية والجنائية وعلم التاريخ ، وغيرها من العلوم التي وجدت في علم الحديث منابع واسعة اعتمدت عليها في إزدهارها .

علم التفسير

التفسير لغويا يعني التبيين والإيضاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(الفرقان ٣٣) ، أي تبياناً وتوضيحاً ، والتفسير اصطلاحاً هو علم يبحث أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

والمعروف أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين لغته هي لغة العرب الذين ينسب البعض تسميتهم إلى يعرب بن قحطان ، أول من تكلم بالعربية حسب رأي فريق من الباحثين . كما أن أساليب القرآن هي نفس أساليب العرب التي عرفوها ، بما فيها من حقيقة ومجاز وكناية وغير ذلك ، ويدل ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(إبراهيم ٤) . حيث حكمة الله أن يتخذ كل رسول في التبشير عن رسالته لسان قومه ، لأن ذلك أدعى إلى سرعة فهم الرسالة واستيعابها ، والعمل بها ، مما يحقق لها النجاح وسهولة الانتشار .

وقامت على القرآن الكريم علوم كثيرة منها علم التفسير ، وعلم معرفة أسباب النزول ، وعلم القراءات ، وكثير من العلوم . وبرغم أن القرآن نزل بلغة العرب ، إلا أنه لم يكن من السهل على معظمهم فهم بعض أجزاءه جملة وتفصيلاً ، إذن نزوله بلغتهم لا يعني أنهم جميعاً فهموا مفرداته وتراكيبه . وذلك لأن لغة (لهجة) قريش المشتركة بينهم لم تكن لغة التخاطب المحلية لجميع القبائل العربية ، إنما احتفظت كل قبيلة بلهجتها في التخاطب العادي بينها . وكانت لغة (لهجة) قريش كلغة نموذجية للخاصة منهم يقرض فيها الشعر ، ويكتب فيها الأدب وينطق . ولكن ما أن حل القرن السادس الميلادي حتى ضاقت الفروق ، وتوحدت الألسن بلغة قريش . ولكن ظل البعض مع هذا يستخدم لهجته للتخاطب العادي بينهم .

وسبب صعوبة فهم البعض منهم لبعض مفردات القرآن انه استخدم ألفاظاً لم يستعملها العرب قبل الإسلام ، وخصص ألفاظاً لمعاني لم تكن مخصصة لهم من قبل ، لذا كان من العسير على بعضهم الإحاطة بكل معاني القرآن حيث جاءت فيه استعارات ومجازات خاصة خارجة عن حدود الدائرة التي عرفها العرب في الجاهلية . ذلك لأن فصاحة القرآن جعلته يحتوي أرقى ما وصلت إليه اللغة العربية من أساليب الصنعة اللغوية كالتشبيه والمجاز وهو (إطلاق اسمين على شيء واحد وهو ما يسمى بالتجوز) ، والترادفات (وهو صفة الشيء عليه كاسم آخر له) . والكناية فضلاً عن جمال اللفظ ، وحسن اختياره ، ونقاوته ، ودقة التركيب ، بالإضافة إلى أن الإعجاز الإلهي يتطلب أن تكون بعض أحكام القرآن عامة ، صالحة لكل زمان ومكان .

لذا تعذر على بعضهم فهم بعض معانيه . ومثال على ذلك ، عندما سأل عمر بن الخطاب عن معنى (فاكهة وأبّا) . أجاب : «نهينا» عن التكلف . وإذا كان هذا مبلغ عمر مع مكانته ، وقربه من الرسول (ﷺ) ، فما الحال مع بقية الصحابة ، وبقية المسلمين؟

ومع أن الصحابة كانوا أكثر الناس علماً بمعاني القرآن لقربهم من الرسول الكريم ؛ إلا أن هناك من المعاني ما خفي عنهم ، ولذلك تفاوتوا في فهم القرآن لأسباب كثيرة منها : أنهم لم يكونوا سواء في فهمهم العقلي ، ومستواهم الفكري ، خاصة وأن القرآن وردت فيه أحداث تاريخية وظواهر طبيعية ، وأمور ذكرت في التوراة والإنجيل مما لا يكفي لفهمها إجادة اللغة فحسب . وما كان ينطبق على الصحابة ينسحب على العرب كافة .

أسباب تفاوت العرب في فهم القرآن بالآتي :

١ ـ تفاوتهم في إجادة اللغة العربية ، ومعرفة الأدب الجاهلي وتفصيلاته .

٢ ـ منهم من كان ملازماً للنبي (ﷺ) وقت نزول الآيات ، لذا فله معرفة

بالأسباب التي دعت إلى نزولها ، لهذا كان أقدر من غيره على تفسير هذه الآيات .

٣ ـ اختلافهم في معرفة عادات العرب في الحج وغيره من عادات العرب في الجاهلية ، وعاداتهم وأفعالهم ، وتقاليدهم الاجتماعية والدينية وهي أوضاع تعرض لها القرآن الكريم .

٤ ـ تفاوتهم في معرفة عادات اليهود والنصارى وأوضاعهم ، وآرائهم وكلها أوضاع أشار إليها القرآن في أكثر من موضع .

على أية حال لم تقف هذه الأسباب دون سعيهم إلى محاولة فهم القرآن الكريم فهماً دقيقاً واضحا منذ وقت مبكر ، وذلك للعمل بأحكامه ، وتشرب روحه . لهذا كان علم التفسير من أولى العلوم الدينية التي حظيت باهتمامات المسلمين فجلس الصحابة ثم التابعون في المساجد يفسرون للناس آيات القرآن والذكر الحكيم .

وقد اتجه المسفسرون لآيات القرآن إلى اتجاهين هما :

١ ـ تفسير مأثور أو منقول .

٢ ـ تفسير بالرأي او بالاجتهاد .

أما التفسير المأثور ، أو المنقول ، فالمقصود به ما نقل عن النبي (ﷺ) أو أثر عنه ، مثل تفسيره للصلاة الوسطى (بأنها صلاة العصر) . وهذا النوع كثير ووردت فيه أبواب عديدة في كتب الصحاح لما نقل عن الصحابة والتابعين . وقد زاد الوضاع والقصاص من عندهم في هذا النوع الشيء الكثير ، بل واختلق البعض أحاديث نسبوها إلى رسول الله (ﷺ) ، حتى أن الآية الواحدة وجد لها أحياناً تفسيران متناقضان منسوبان إلى النبي (ﷺ) في الوقت نفسه . وبالطبع هذا لا يمكن أن يحدث أبداً . كما قام آخرون بوضع أحاديث للترغيب في الأعمال الصالحة كقراءة القرآن مثلاً . وهذا مما دفع بعض العلماء إلى تحكيم العقل بالاجتهاد بهدف الوصول إلى المعنى الصحيح .

هذا وقد دفع ما عمله الوضاع علماء الحديث إلى التعرض لتلك الأحاديث بالنقد ، فمنها ما صححوه ومنها ما ضعفوه ، وقد أدى هذا إلى عدم ثقة علماء التفسير المسلمين بما ورد في هذا النوع من التفسير . فلم يقفوا عند ما ورد به ، بل لجأوا إلى الاجتهاد لمعرفة التفسير الصحيح .

التفسير بالاجتهاد والرأي :

فقد اعتمد أهله على العقل أكثر من اعتمادهم على النقل .وساعد على الاتجاه إلى إعمال العقل والاجتهاد احترام الإسلام لعقل الإنسان وحثه على العمل به . وذلك بحيث يُحكم المسلم فكره في كل ما يراه أمامه من ظواهر طبيعية وغيرها . وقد وردت في القرآن إشارات كثيرة تحث المسلم على إعمال عقله بما يراه ويتعامل معه ، ولا يأخذ الأمور على علاتها . ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾(ص ٢٩) . ولا شك في أن التدبر لا يكون إلا بإعمال العقل والفهم الذي يقوم على التأمل والتفكير .

لذا اجتهد هذا الفريق من العلماء باستخدام عقولهم بجانب معرفتهم باللغة العربية ، وأساليبها ، ومفرداتها ، وعلى معرفتهم الجيدة بأحداث تاريخ الأمم على وجه العموم ، وبتاريخ العرب على وجه الخصوص . كذلك على معرفتهم بالإسرائيليات والنصرانيات وما ورد من قصص مشابه لما جاء في التوراة والإنجيل . بالإضافة إلى هذا وذاك ، تقصي أسباب نزول الآيات ، والظروف التي نزلت فيها .

ومهما يكن من أمر ، فقد انقسم المفسرون من الصحابة والتابعين إلى قسمين : فريق خشي أن يقول في القرآن شيئًا برأيه . وآخر ، وهو يمثل الغالبية لم ير مانعاً في إعمال الفكر والرأي لتفسير آيات القرآن الكريم ، وذلك كي تتحقق الفائدة للجميع من كتاب الله . ولعدم كتمان العلم الذي نهى عنه النبي الكريم(ﷺ) ومن هؤلاء المعتزلة الذين بذلوا جهدا كبيراً في دحض آراء من

يعارضهم عن طريق تفسير الآيات القرآنية تفسيراً يعتمد على العقل . ومنهم ابن جرو الأسدي (عاش في القرن الرابع الهجري) .

ومن الطبيعي أن يؤدي الاجتهاد إلى اختلاف وجهات النظر في تفسير بعض الألفاظ والعبارات والآيات ، وإن كان اختلافهم لم يصل إلى درجة التناقض . وبالتالي لم يؤثر في الأهداف والأساسيات . ومثال على ذلك تفسير كلمة «أبا» قال بعضهم إن «الأب» هو نوع من أنواع الفاكهة ، واستندوا إلى أساليب البلاغة في اللغة العربية التي تذهب إلى التخصيص بعد التعميم كقوله : «الأرض والجبال» علماً بأن الجبال جزء من الأرض . وذهب آخرون إلى أن «الأب» غذاء للأنعام وغيرها . والدليل قوله تعالى : «متاعاً لكم ولأنعامكم» فالفاكهة متاع للإنسان ، والأب متاع للحيوان .

وقد صحب علم التفسير نوع من حب الاستطلاع ، والتقصي ، والجري وراء التفريعات التي قد لا تفيد . ومثال على ذلك سفينة نوح ، فقد أرادوا معرفة حجمها ، وكلب أهل الكهف أرادوا معرفة لونه ، وحجمه ، وإذا لم تسعفهم معرفتهم لإدراك مثل هذه الأمور الدقيقة لجؤا إلى الإسرائيليات والنصرانيات بل إلى الأساطير للوقوف على إجابات شافية لهم .

على أية حال ، نشأ علم التفسير كفرع من فروع علم الحديث ، وبدأ بتناول فضائل القرآن الكريم ، وتفسير بعض آياته اعتماداً على أحادث النبي (ﷺ) ، كان من الطبيعي أن يبدأ علم التفسير موجزاً مقتصراً على توضيح المعنى اللغوي بإيجاز ، وكان ذلك في عصر الصحابة والتابعين . ولكن مع اتساع الحركة الفكرية أخذ هذا العلم يتأثر بالحركة العلمية ليصبح صورة تعكس ما في العصر من آراء ونظريات علمية ، ومذاهب دينية مختلفة .

ولما كان علم التفسير هاماً للمسلمين في كل زمان ومكان لذا أخذ ينموا جيلاً بعد جيل خاصة بعد أن اختلط المسلمون بالذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل : وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وابن جريج وغيرهم ، حيث

أضاف هؤلاء إلى علم التفسير ما ورد في كتبهم من تفسير لبعض الأحداث التي وردت في كل من التوراة والإنجيل والقرآن مثل قصة الطوفان ، وتفاحة سيدنا آدم وغيرها .

وكان علم التفسير في بداية أمره عبارة عن تفسير لآيات متناثرة ، وليس وفق ترتيب آيات القرآن . إلا أنه بعد ذلك تطور وأخذ المفسرون يتعرضون للآيات ويذكرون ما يستنبط منها من أحكام ، وقواعد في شتى آفاق الحياة الخلقية ، والأسرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية وغيرها ، فضلاً عن قواعد اللغة والنحو والبلاغة .

ومن أهم المفسرين محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) الذي كان ولا زال تفسيره يعد من أفضل ما قدم في هذا المجال وذلك لأنه اعتمد في تفسيره على التفاسير الأولية التي اختفت . كما اتبع طريقة المفاضلة بين الروايات التي اعتمد عليها واختار أفضلها ، وجمع في تفسيره بين ما أوردته مدارس الصحابة ، وآثار السلف الأول ومذاهب علماء العصر العباسي في هذا العلم ، وكذلك البصريين وعلماء أهل الكوفة وطرقهم في النحو والصرف وتطبيقها على القرآن الكريم . ورغم أن الطبري لم يتعرض لآراء المتكلمين ، والمعتزلة ، ولم يتعمق في اتجاهاتهم الفكرية . فقد جاء تفسيره من أفضل ما كتب في هذا العلم . هذا ، ولم تلبث أن أصبحت كتب التفسير موسوعات ضخمة لغوياً وأدبياً وفقهياً ، وتاريخياً وعلمياً .

وبجانب الطبري هناك مفسرون آخرون كان لهم باع طويل في علم التفسير منهم على سبيل المثال :

- الرازي (ت٦٠٦هـ) ، والزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، والبيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، وجلال الدين المحلي (ت٨٦٤هـ) وتلميذه جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، وبطبيعة الحال لا زال المفكرون وكبار علماء المسلمين يعالجون علم التفسير إلى يومنا هذا .

علم اللغة العربية

تعد اللغة العربية من أغنى اللغات السامية وأرقاها . فهي تتصف بالمرونة وكثرة المرادفات ، والقدرة على صياغة المشتقات من ألفاظها مع سهولة التعبير الدقيق في إطار من سمو البلاغة وسحر البيان وهي باعتراف الباحثين ، أدسم وأثرى اللغات السامية ، وأوسعها أفقا . وقد سمت بالشعر العربي قبل الإسلام ، وبعده علا شأنها وتثبتت أركانها أينما حل الإسلام وانتشر . وقد أصبحت لغة حضارة جديدة ارتبطت بالإسلام كدين ودولة وتاريخ في نشأتها وأثناء نموها ، وحين ازدهارها .

وبفضل خصائصها استطاعت أن تكون أداة صالحة للتعبير عن أعظم حضارة عرفها العالم أجمع في العصر الوسيط . فهي لم تقف عاجزة أمام علوم اليونان والفرس والهنود وغيرهم من أصحاب الحضارات السابقة وإنما عبرت عن علومهم بما فيها من معان ومصطلحات لم يعرفها العرب من قبل .

ولقد حاول البعض أن يرجع سبب انتشارها في البلاد التي فتحها المسلمون إلى حاجة أهالي تلك البلاد إلى تعلم لغة الحكام العرب الجدد كي يخاطبوهم بلسانهم لأمور عديدة أهمها تيسير مصالحهم الاقتصادية والادارية وغيرها ، ومهما كان هذا الرأي وصحته فإن العامل الأساسي في انتشار اللغة العربية بين أهالي البلاد المفتوحة هو ارتباط هذه اللغة بالإسلام فهي لغته وانتشاره مرتبطا بحركته . وذلك لأن دخول أهالي البلاد المفتوحة في الإسلام ترتب عليه حرصهم على الوقوف على أحكام الدين الجديد . وذلك بالرجوع إلى القرآن الكريم ، وتلاوته بلسان عربي مبين ، وأداء مناسك الإسلام ، والإحاطة بسيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام .

وكان من الطبيعي أن يهتم المسلمون منذ وقت مبكر بعلم اللغة العربية ، فاتجه العلماء إلى البادية يجمعون الكلمات والمفردات التي استعملها العرب ،

وعلى الرغم من أن علماء اللغة ساروا على نهج علماء الحديث فكانوا يذكرون السند ويرتبون الأفصح بالفصيح ، إلا أن هناك صعوبات عديدة اعترضت عملية جمع اللغة منها :

أ - أن اللغة العربية في تلك المرحلة الأولى لم تكن مشكلة أو منقوطة .

ب - كانت معرفة العلماء الأوائل بلغة من حولهم من الشعوب كالفرس والروم والسريان ضعيفة . والمعروف أن اللغة العربية فيها الكثير من الكلمات من هذه اللغات .

جـ - إن بعض علماء اللغة لم يكن ثقة فيما يرويه .

وكان القرآن الكريم هو أول مصدر جمع منه العلماء مفردات اللغة العربية ، وذلك بحكم روعة بيان لغته من ناحية ، ولما يحويه من ثروة لغوية هائلة من جانب آخر . ويأتي الشعر بعد القرآن كمصدر موثوق بصحته ونسبته .

جمع اللغة العربية :

في أول الأمر تم الجمع على أساس جمع الكلمات ، كجمع كلمات تخص النبات من شجر وثمر وغيره ، وأخرى تخص السلاح والمعارك ، وثالثة تتناول الحيوان من أبل وضواري وغيرها . ثم أتت مرحلة ثالثة وهي جمع كلمات موضوع بعينه . فهذا كتاب في الإبل ، وذاك في المطر ، وهكذا . . .

وبعد ذلك جاءت الخطوة الثالثة ، وهي وضع معجم شامل لجميع الكلمات في اللغة العربية . وكان أول من فكر في اتخاذ هذه الخطوة هو الخليل بن أحمد في القرن الثاني للهجرة . (ت ١٨٠هـ) . ولقد رتب الخليل بن أحمد الكلمات حسب أوائلها مراعيا ترتيب مخارج الحروف . فبدأ بحروف الحلق ، مثل ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ع ، وبعدها أتت حروف الحنك مثل ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، د ، ت ، ث ، ر ، ل ، ن . وأخيراً أتت مرحلة الحروف الهوائية ، وهي حروف العلة مثل : و ، أ ، ى .

ولقد سمي الخليل بن أحمد كتابه «كتاب العين» باعتباره بدأ بحرف العين . ولما كان هذا الكتاب يعد أول معجم لمعجم عربي ، فقد كانت به عيوب منها :

أ ـ صعوبة الكشف على الكلمات فيه . لأن ترتيبه حسب مخارج الحروف .

ب ـ عدم استخدام التنقيط في ذلك العصر أدى إلى صعوبة استخدامه .

على أية حال ، مهما كانت عيوب هذا المعجم ، فإنها لا تقلل من شأنه . فهو عمل كبير يحتسب للخليل بن أحمد . ويكفيه أنه كان أول من حاول وضع معجم لمفردات اللغة العربية . وقد جرى عليه فيما بعد القاموس المحيط ، ولسان العرب وغيرها من المعاجم في اللغة العربية .

علم الأدب

اشتهر الأدب العربي بالقوة والثراء منذ العصر الجاهلي ، وخاصة في مجال الشعر . فطبيعة بلاد العرب ساعدت على إنتاج نوع من الشعر الرقيق في الغزل والفخر والمدح والهجاء . وساعد ثراء اللغة العربية بالألفاظ والمترادفات على نظم القصائد الطويلة . والتي تأتي في مقدمتها المعلقات ، فضلاً عن أخبار أهل البادية وحكمهم ، وقصصهم وأمثالهم .

ثم جاء الإسلام كظاهرة حضارية ليساعد على انتعاش الأدب العربي . وليس صحيحاً ما قاله بعض المستشرقين من أن الدين الإسلامي قلل من أهمية الشعر حتى لا يطغى على القرآن لأن القرآن لم يكن شعراً ، وقد نفى القرآن عن النبي محمد «عليه الصلاة والسلام» أن يكون شاعراً . «وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون» ولكن يجب أن نذكر هنا أن القرآن قلل من شأن المنافقين من الشعراء لأنهم دعاة الفوضى وأعداء الإصلاح . وقد قال الله سبحانه وتعالى فيهم : «والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون» . ومن الواضح أن هذا القول يعني فئة محدودة من الشعراء المنافقين ، فهم الذين يقولون ما لا يفعلون . ولم يتعرض الإسلام لغيرهم من المؤمنين الصادقين فها هو الرسول (ﷺ) يقول : «إن من البيان لسحراً وإن في الشعر لحكمة» . واشتهر من شعراء فجر الإسلام حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وفي الحقيقة أن المنافقين والمشركين دأبوا على معارضة القرآن والإتيان بكلام يشبه في صورته . ولكن القرآن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله . وهذا واضح من قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

ولما كان هناك ارتباط بين اللغة والأدب ، فإن العلماء الذين ذهبوا إلى

البادية صدر الحركة العلمية لجمع لغة العرب ، جمعوا أيضا أدبهم ، وخاصة : الشعر والقصص والأمثال والحكم والأخبار والأيام ولما كان التراث ضخماً لهذا استحال عليهم جمعه كله ، فاكتفوا بجمع مختارات من الشعر بصفة خاصة مثل : جمهرة أشعار العرب والأصمعيات نسبة إلى الأصمعي وغيرها ، وكلها مجموعات من القصائد لمشاهير شعراء الجاهلية وصدر الإسلام .

وحين تطورت الدولة الإسلامية ، كان طبيعياً أن يتطور الأدب العربي فأصبح الأدب الذي يعالج في صدر الإسلام موضوع الجهاد والثواب والعقاب والجنة والنار يعالج موضوعات أخرى تنسجم مع تطور الحياة في فترة إزدهار الحياة الأدبية في الدولة الإسلامية ، وبقيام الدولة الأموية ، أخذ خلفاء بني أمية يشجعون المادحين من الشعراء ، لأنهم (أي الخلفاء) كانوا يبحثون عن دعامة تبرر قيامهم في الحكم وبقاءهم فيه وتوارثهم للخلافة ، كما كانوا في حاجة إلى هالة تتحقق لهم بعض المجد الذي أحسوا أنهم يفتقرون إليه . كذلك أدى ارتقاء مستوى المعيشة إلى تطور في الحياة الاجتماعية ، وانعكس ذلك على الشعر ، فظهرت ألوان جديدة منه لم تكن معروفة من قبل . معنى هذا أن الرخاء المادي بالإضافة إلى اتصال العرب بغيرهم من الشعوب ذات حضارات عريقة ـ كالروم والفرس قد أدى إلى صبغ الحياة الاجتماعية في العصر الأموي بلون جديد ، فانتشر الغناء والموسيقى ، ووصف بعض خلفاء الأمويين بالإقبال على مجالس الشراب والطرب وترك هذا كله أثره في الأدب والشعر . وفوق هذا وذاك فبسبب النزعة البدوية التي ميزت الأمويين نجدهم يميلون إلى الشعر في العصر الأموي بلون جديد ، فانتشر الغناء والموسيقى ، وكان لهذا أثره في ارتقاء الشعر في العصر الأموي . واشتهر من بني أمية أنفسهم بعض الشعراء مثل : يزيد بن معاوية .

وساعد على ارتقاء الشعر ووفرته في ذلك العصر ظهور أحزاب سياسية

وفرق مذهبية متطاحنه دخلت في مساجلات ومنازعات ومناظرات استخدم فيها الشعر . فضلاً عما يجري من مناقشات بين الشعراء وخاصة ما كان بين جرير والفرزدق .

على أية حال شهدت الدولة الإسلامية بعد ذلك نقلة أخرى على طريق التطور الفكري والاجتماعي في العصر العباسي انعكست في الأدب فقد شهد الأدب العربي ثورة ضخمة واسعة النطاق في هذا العصر ، إذ نهج الشعراء فيه مناهج جديدة في معاني الشعر وموضوعاته وأساليبه فمثلاً نظم الشاعر أبو نواس الشعر في الخمر ، والغزل ، والصيد . كما نظم أبو تمام الطائي ، الذي اشتهر بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر ، والبحتري صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة ، وابن الرومي صاحب المعاني النادرة ، وأبو العتاهية صاحب قصائد الغزل والحكمة والموعظة .

أسباب ارتقاء الشعر وتطوره في العصر العباسي :

بالإضافة إلى ظهور مفاهيم جديدة في هذا يمكن أن نجمل الأسباب في الآتي :

١ ـ اختلاف صور الحياة في هذا العصر ، واختلاف قيم الأشياء عما كانت عليه من قبل ، حيث ظهرت مفاهيم جديدة .

٢ ـ تأثير الثقافة الأجنبية بصفة عامة والفارسية بصفة خاصة في الشعر والأدب العباسي .

٣ ـ انتشار الشعوبية التي قامت على الحط من شأن العرب ونقد أشعارهم .

٤ ـ تشجيع الخلفاء والوزراء والأفراد للشعراء .

٥ ـ الخلافات بين الفرق المختلفة كالشيعة والمعتزلة ، واستعانة كل فريق منهم بالشعر والشعراء للدفاع عن مبادئه والتغلب على خصومه .

وإذا كان هذا هو حال الشعر ، فإن النثر لم يكن أقل إزدهارا من الشعر في العصر العباسي ، فظهر في هذا المجال عبدالله بن المقفع الذي نقل الكثير من الكتب الموضوعة باللغة الفهلوية إلى العربية ، ومنها كتاب كليلة ودمنة ، وعبدالحميد الكاتب الذي يعتبر شيخ صناعة الكتابة ، وابن قتيبة الذي نادى بالتجديد في الكتابة ، والجاحظ البصري الذي اتصف بحرية الفكر .

النحو والصرف :

ترتبط نشأة علم النحو بالبصرة والكوفة . وكان لهاتين المدينتين دور في نشأة الحركة العلمية في الدولة الإسلامية في القرن الأول الهجري ، ففيهما وضعت أصول علم العقائد والفقه ، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين .

وكما هو معروف كانت البصرة والكوفة أولى مدرستين أسسهما العرب في الأمصار التي فتحوها ، وبعد وقت قصير سرعان ما اكتظتا بالسكان النازحين إليهما من شتى القبائل العربية المتباينة اللهجات ، كذلك أصبحت البصرة بالذات مركزاً تجاريا هاما بسبب موقعها فاكتظت بآلاف التجار من الفرس والهنود والصينيين وغيرهم . ولكن وجود هذه التشكيلة الكبيرة من الأجناس المختلفة في مدينة محدودة هدد بانحراف اللسان العربي وآثار هذا ضرورة العمل على تقويمه والمحافظة عليه ، ووضع طريقة لضبط الكلمات كي لا يصاب اللسان العربي بالتحريف .

ويقال أن أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) هو أول من اشتغل بالنحو في البصرة على عصر الأمويين ، وأنه تلقى أصول هذا العلم على يد الخليفة علي بن أبي طالب . وتروي الروايات أن أبا الأسود سمع شخصاً يتلو قوله تعالى «أن الله بريء من المشركين ورسوله» بكسر اللام (ورسوله) ، فغضب وقال : «عز وجل الله أن يبرأ من رسوله . ثم اجتهد في تشكيل القَرآن الكريم ولكنه لم يستعمل

أدوات التشكيل المعروفة لدينا ، وإنما استعمل النقط بدلاً منها . فوضع نقطة فوق الحرف دلالة على الفتحة ، ونقطة تحته دلالة على الكسرة ، ونقطتين دلالة على السكون . أما عن الضمة فكان يشير إليها بوضع نقطتين بين الحروف .

وهكذا قامت في البصرة أول مدرسة اهتمت بالنحو واللغة ووضع القواعد لها . وفي هذا المجال سبقت البصرة مدرسة الكوفة بنحو مائة عام ، حتى ظهر أبو جعفر الرؤاس أول من ألف في النحو من أهل الكوفة .

وكانت النتيجة الطبيعية للخطوة التي قام بها أبو الأسود هي نشأة الإعراب ووضع قواعده ، إذ بدأ بعده كلام العلماء حول الرفع والنصب والجر والتنوين . واستعان علماء البصرة في ذلك بالقياس ، فوسطوا به مسائل النحو ، وبرز من العلماء في هذا المجال أبو إسحق الحضرمي (ت١١٧هـ) . ثم ظهر الخليل بن أحمد ، الذي لم يكتف بابتكار فكرة المعجم العربي ، بل بسط النحو وسبب علله ووفق معانية ، ثم حمل سيبويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم من قبله ؛ فكتاب سيبويه لا يحوي فقط أقوال الخليل بن أحمد وآرائه ، وإنما أيضاً الكثير من أقوال غيره من العلماء السابقين عليه والمعاصرين له ، ويعتبر كتابه هذا تتويجاً لمدرسة البصرة في النحو . وإذا تساءلنا عن الفرق بين مدرستي البصرة والكوفة في النحو ، سنجد أن علماء البصرة رأوا أن يتركوا الشواذ بحيث لا يقاس عليها . أما علماء الكوفة وعلى رأسهم أبوجعفر الرؤاس وتلميذاه الكسائي والفراء ، فرأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ، ويجيزوا استعماله للناس حتى لو كان من الشاذ الذي لا يتمشى مع القواعد العامة . معنى هذا أن مدرسة البصرة كانت أكثر تحرراً وأقوى عقلاً وأكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة ، بينما كانت مدرسة الكوفة أقل تحرراً وأكثر التزاماً وأشد حرصاً على ما ورد عن العرب حتى الشاذ منه . على آية حال ، بعد أن تأسست بغداد سنة ١٤٥ هـ تسابق إليها العلماء وأختلط فيها في رحاب قصور الخلفاء علماء البصرة والكوفة مما أدى إلى تداخل المدرستين وتعرضهما

للنقد وساعد هذا كله على بلورة علم النحو . وإن كان النزاع بين المدرستين قد أستمر حتى أواخر القرن الثالث الهجري .

وبالتدريج أمتد الاهتمام بعلم النحو إلى خارج العراق بعد ذلك فظهر في مصر في القرن الرابع الهجري أبن ولاد وهو ، أحمد بن محمد بن ولاد (٣٣٢هـ) ، وأبو جعفر النحاس ، وهو احمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (٣٣٨هـ) .

وظهر في الأندلس أبو علي القالي - إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت٣٥٦هـ) وأبن عبد ربه - أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (ت٣٢٨هـ) وأبن القوطية - أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب (ت٧٧٦هـ) . وبصفة عامة يمكن القول إن النحو والصرف قد أستمرا على الوضع الذي تركهما عليه سيبويه مع بعض الشروح والاختصارات .

العلوم الاجتماعية والإنسانية :

الحضارة الإسلامية هي في الأساس حضارة إنسانية اهتمت بالإنسان ، فكره وجسده وروحه وحياته ، لذلك كان من الطبيعي أن تحتل العلوم الإجتماعية أو الإنسانية ركناً أساسياً في النشاط الفكري والعلمي الذي تميزت به تلك الحضارة وعلى رأس هذه العلوم يأتي علما التاريخ والجغرافيا .

علم التاريخ :

يعتبر من أهم العلوم الإنسانية ، فهو المدرسة التي يستمد منها الناس الدروس التي تساعد على مواجهة مشاكل الحاضر والتخطيط لمستقبل أفضل ، هذا فضلاً عما يثيره القصص التاريخي في النفس البشرية من المتعة . ومنذ القدم أهتم العرب بالتاريخ فتطلعوا إلى سماع تاريخ الأمم البائدة وأخبار أيامهم قبل الإسلام ، فضلاً عن الحوادث التي وقعت في بعض أنحاء شبه الجزيرة العربية

قبل الإسلام مثل : انهيار سد مأرب ، وهجرة الأزد ، وظهور قصي بن كلاب وغلبته على أمر مكة . وقد قامت تجارة العرب مع الشام وفارس بدور كبير في تعرف العرب على أخبار الأمم المجاورة .

وبعد ظهور الإسلام وانتشاره وأتساع الدولة الإسلامية بدأت النهضة الحضارية ، وهي النهضة التي كان لعلم التاريخ نصيب واضح فيها . والسؤال هنا ما هي الأسباب التي أدت إلى ازدهار الحركة التاريخية في صدر الإسلام؟

أسباب ازدهار الحركة التاريخية في صدر الإسلام :

١ - إحساس بعض الخلفاء بالحاجة إلى الوقوف على أخبار السابقين وخاصة ملوك وحكام الأمم الأخرى للاستفادة من خبراتهم وتجاربهم في توجيه مسيرة الدولة الإسلامية وتنظيم أدارتها ، ويقال أن معاوية بن أبي سفيان خصص نصيباً من وقته لسماع القصص التاريخي ، وقد استمرت هذه النزعة نحو الإفادة من دروس التاريخ عند حكام الدولة الإسلامية قرون طويلة .

٢ - بأتساع الدولة الإسلامية دخل في نطاقها عديد من الشعوب العريقة ذات التاريخ الحافل ، مثل أهل مصر ، والشام ، والعراق ، وفارس فهؤلاء دخلوا الإسلام بتاريخهم وآثارهم . فمصر مثلاً كانت ذات تاريخ تمتد جذوره آلاف السنين وتقف معابدها ومسلاتها شاهداً على ذلك لتذكير الفاتحين الجدد بأن هذه البلاد لها تاريخ عريق أشار القرآن الكريم إلى لمحات منه .

٣ - وجه القرآن أنظار المسلمين إلى الاهتمام بالتاريخ بحكم ما فيه من قصص وأخبار تناولت أنباء السابقين من الأمم والشعوب . ففي القرآن الكثير عن أخبار الأمم البائدة مثل قوم عاد وثمود ، ومن أخبار الملوك مثل فرعون مصر ، وملكة سبأ ، ومن أخبار الفاتحين مثل ذي القرنين ، هذا بالإضافة إلى أخبار الأنبياء من آدم إلى خاتم الرسل محمد (ﷺ) . هذا الكم الكبير

من المعرفة التاريخية التي وردت في القرآن ، شدت إنتباه المسلمين نحو التاريخ .

٤ - ويأتي بعد القرآن في مكانته لدى المسلمين الحديث النبوي الشريف ، الذي عكف علماء المسلمين على جمعه في مرحلة معينة كما سبق أن ذكرنا . وبالطبع كان الحديث يحتوي على جانب هام من المعرفة التاريخية وخاصة ما يرتبط منها بسيرة الرسول (ﷺ) ، وهجرته وغزواته وجهاده ، وجهوده في وضع أساس مجتمع الدولة الإسلامية .

٥ - مع نمو الحاسة التاريخية عند كثير من المسلمين ، وسعادتهم بسماع أخبار السابقين ، أنتشر القصاصون (القصاص) في كثير من الدولة الإسلامية . وكانوا يجلسون في المساجد ليقصوا على الناس قصصاً ذات صبغة تاريخية ، هي في الحقيقة مزيج من الواقع والخيال ، ولا شك في أن هؤلاء القاصين بالغوا في ذكر بعض الأحداث وحوروا في البعض الآخر . كما أضافوا واختلقوا ليرضوا أذواق المستمعين ويشدوا انتباهم ، فبقدر انبساط المستمع سيكون الأجر والعطاء . ثم توسع القصاصون بعد ذلك إلى سرد المواعظ والحكم ، مما جعل رواياتهم تأتي على هامش التاريخ وليس في صلبه ، ومع ذلك كان لهذا كله أثر في تنمية الحاسة التاريخية عند الناس .

على أية حال ، بدأ التاريخ عند المسلمين متأثراً بالحديث وبأسلوب المحدثين . ويبدو أن الكتب الأولى من التاريخ الإسلامي (كتب السيرة وفتوح البلدان) قد اتبع فيها المؤرخون الأوائل نمط المحدثين وأسلوبهم وخاصة الإسناد . ثم أخذ التاريخ ينفصل بالتدريج عن الحديث ليصبح علماً قائماً بذاته له منهجه وأسلوبه الذي وبرع فيه المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى ، وفاقوا فيه الغرب الأوروبي الذي كان تدوين التاريخ فيه لا يزيد عن تدوين حوليات موجزة في بعض الأديرة تتناول أحداث السنوات بإيجاز شديد بينما كان المسلمون

يدونون الموسوعات التاريخية . كذلك وضع مؤرخو الإسلام منهجاً ثابتاً يعتمد على صدق الروايات لاستبعاد الضعيف منها .

ولم تكن صورة الكتابة التاريخية عند المسلمين مشرقة دائماً ، فهناك مآخذ عليها منها :

١ - تلوين التايخ أحياناً ببعض العقائد .

٢ - تعصب المؤرخ في بعض الحالات لقبيلة أو مدينة أو دولة أو حاكم أو خليفة بعينه .

٣ - اتخاذ الخلفاء والحكام وليس الأمم والشعوب محاور لتدوين التاريخ .

٤ - كذلك حرص بعض المؤرخين في مرحلة لاحقة على تملق الخليفة أو السلطان وإهمال دراسة الجوانب الإجتماعية للشعوب ، مع تغليب الجوانب السياسية ، وتحكيم النزعة الدينية والمذهبية .

٥ - تحرج كثير من المؤرخين المسلمين من ذكر الأخطاء والعيوب والمثالب ، واكتفائهم بذكر حسنات من يتعرضون له من السابقين وذلك عملاً بالحديث القائل «اذكروا محاسن موتاكم» . مما يجعلنا في كثير من الأحيان لا نر إلا وجهاً واحداً من وجه التاريخ . وبالطبع لا تقلل كل هذه المأخذ من قيمة ما بلغه التاريخ من رقي على أيدي المؤرخين المسلمين . كذلك يجب آلا ننسى أن هذه المآخذ تعبر عن روح العصر الذي عاش فيه المؤرخون المسلمون ، ولكل عصر بالطبع مستواه الفكري ومقاييسه ، ونظرته إلى الحياة .

ونستطيع أن نجمل أهم ألوان الكتابة التاريخية لدى المسلمين كالآتي :

١- كتب السيرة والمغاز :

ويقصد بها سيرة الرسول (ﷺ) وغزواته . هذا النوع من أنواع الكتابة التاريخية كان في البداية جزءاً من الحديث ، يرويه الصحابة لهذا اتبع أسلوب الإسناد . وكان أكثر كتاب السيرة الأوائل من أهل المدينة نظراً لما شهدته المدينة من أحداث منذ الهجرة إليها وقيام الدولة فيها ، وانتشار الدعوة وخروج الغزوات منها . ومن أهم كتاب السيرة الأوئل : أبن اسحق (ت١٥٣هـ) وهو أول من كتب سيرة منتظمة لحياة الرسول (ﷺ) . والمعروف عن ابن اسحق أنه بذل جهداً كبيراً في جمع الحديث ، وخاصة ما يتصل منه بالسيرة والمغازي ، وتنقل من أجل ذلك من مكان إلى آخر ليجمع الأحاديث من الصحابة والتابعين ، ولم يصلنا كتاب ابن اسحق إلا في صورة مختصرة ضمن السيرة التي كتبها ابن هشام (ت٢١٨هـ) .

ومن مؤرخي المغازي مؤرخ آخر عاصر ابن اسحق وهو الواقدي (ت٢٠٧هـ) الذي اعتمد محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ) والطبري (ت٣١٠هـ) على كتابه .

٢ - كتب الوقائع الإسلامية :

أي تسجيل الأحداث الهامة داخل الدولة الإسلامية من خلافات وفتن وحروب وقيام دول وتعاقب حكام وعلاقات مع الدول المجاورة . . .الخ . ومن العوامل التي أدت إلى اهتمام المسلمين بتدوين أخبار هذه الوقائع أنها أصل من أصول التشريع الإسلامي وما يرتبط بها من أمور الجهاد ، وما يدخل في ثناياها من معاملة أهل الذمة وتحديد الجزية والخراج وغيرها . كذلك يجب ألا ننسى أن الخلافات التي دبت بين المسلمين بسبب مشكلة الخلافة ، وكيف أدى هذا إلى حدوث إنشقاقات مذهبية وفكرية وسياسية .

ولهذا أخذ كل فريق يبحث في التاريخ عن أحداث يبرر بها موقفه ويدعم بها وجهة نظره ويبرأ نفسه مما يرميه به خصومه .

ورغم أن الإسلام بذل جهوداً كبيرة في محاربة العصبية والقبلية والعنصرية فإن هذه العصبيات ظلت متأججة أثناء حركة الفتوح وبعدها ، حيث أن الأمر لم يقتصر على إفتخار كل قبيلة بأيامها وأمجادها في الجاهلية ، بل زاد على ذلك افتخار العرب على الفرس ، والفس على العرب ، ثم إفتخار العراق على الشام ، والشام على العراق . . . وكانت هذه كلها مهاترات تتعارض مع روح الإسلام الذي جعل من المؤمنين أخوة ، وبالتدريج أخذت كتابة الوقائع ترتقي على يد البلاذري صاحب فتوح البلدان (ت٢٧٩هـ) والطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك .

٣ ـ الأنساب :

أحتل هذا اللون من التدوين التاريخي مكانة خاصة عند العرب ، بسبب النزعة العصبية التي جعلت كل قبيلة تحرص على كيانها وتعتز بأصولها ورغم تعاليم الإسلام الصريحة التي نادت بأن المؤمنين أخوة فإنها لم تفلح في استئصال النعرة القبلية استئصالاً جذرياً مفاجئاً ، فظل كل عربي ـ خاصة في صدر الإسلام يعتز بالانتساب إلى قبيلته ، ويفتخر بها وبأمجادها ويحرص على تدوين أنسابها . ولقد أشتهر من النسابة الذي عنوا بحفظ الأنساب بعض الصحابة مثل أبي بكر الصديق . ولما جاء دور التدوين أشتهر هشام الكلبي (ت٢٤٦هـ) . صاحب كتاب الجمهرة في الأنساب . ويقال أنه أتصل بالخليفة المأمون العباسي وصنف له كتاب «الفريد» في الأنساب ، كما ألف كتاب «الملوكي» في الأنساب لجعفر بن يحي البرمكي .

وبمرور الوقت وتغلغل روح الإسلام في القلوب ، أخذت النزعة القبلية تخف تدريجياً ـ وخاصة خارج شبه الجزيرة ـ مما أدى إلى تناقص الاهتما بتاريخ

الأنساب ، وزيادة العناية بألوان أخرى كانت في حقيقة الأمر أكثر تعبيراً عن أوضاع وتطورات حضارة الدولة الإسلامية في مرحلة إزدهارها .

٤- كتابة تاريخ الأمم والأديان الأخرى :

وهو عبارة عن تدوين تاريخ الأمم والأديان الأخرى التي دخلت في الإسلام ، أو التي أحتك بها المسلمون : كالفرس ، والروم واليهود ، والنصارى . وكان السبب في ظهور هذا اللون رغبة المسلمين في التعرف على أصول الأمم التي فتحوها ، ومعرفة تاريخها وعقائدها . وكان الهدف من ذلك تنظيم العلاقة بين العرب وغير العرب بين المسلمين وغير المسلمين من عناصر الدولة الإسلامية الجديدة . وهنا تجدر الإشارة إلى أن القرآن أشتمل على كثير من أخبار النصارى واليهود ، وفرعون مصر ، والروم وكل هذا كان كفيلاً بشد انتباه المسلمين نحو تاريخ الأمم الأخرى . كذلك هناك نقطة أخرى وهي أن انتشار الإسلام في تلك الأمم جعل بعض أبنائها ممن دخلوا الإسلام يحرصون على كتابة تواريخ آبائهم وأجدادهم اعتزازاً بأصولهم . ولعل هذا هو الذي دفع ابن المقفع إلى ترجمة العديد من الكتب في تاريخ الفرس ونظمهم وعاداتهم ، كذلك أهتم السريان بترجمة أخبار قومهم . . . . . .ألخ .

٥- كتب التراجم والطبقات :

المقصود بالتراجم سير مشاهير الناس الذي لهم أثر في علم أو سياسة أو تجارة أو حرب ، . . . . ألخ . ، والمرجح أن عناية مؤرخي المسلمين بتسجيل فضائل الصحابة كان لها أثر كبير في نشأة التراجم عند المسلمين . كذلك ارتبطت الخلافات بين الفرق بأسماء شخصيات معروفة .

ولقد بدأ هذا اللون من الكتابة التاريخية عندما أخذ المحدثون يُشَرِّحون الرجال ليعرفوا من تصح الرواية عنه ومن لا تصح . ثم بدأ المهتمون باللغة والأدب يتبعون نفس المنهج فظهرت كتب في سير الشعراء وطبقاتهم ثم تطور

الأمر إلى جمع تراجم المشاهير في شتى ضروب النشاط الإنساني في كتاب واحد ، كما فعل ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) في وفيات الأعيان وربما جمع بعضهم أهل الفن الواحد أو المهنة الواحدة في كتاب واحد ، مثل كتاب أخبار الحكماء للقفطي (ت٦٤٦هـ) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن ابي صيبعة (ت٦٦٨هـ) ، ومعجم الأدباء لياقوت (٦٢٦هـ) . وربما أراد الكاتب جمع أعلام المذهب الواحد ، مثل طبقات الشافعية ، أو جمع سير وتراجم مشاهير الناس الذين عاشوا في حقبة واحدة على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم مثل : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي .

ولا شك أن هذا النوع من الكتابة التاريخية يحوي إشارات عارضة تلقي أضواء على شتى جوانب الحياة السياسية ، والنظم الإجتماعية والاقتصادية . والنشاط العلمي ، في العصر الذي يعيشه المترجم له . لأن المؤرخ حين يفرد كتاباً لسرد سيرة حاكم مثلاً مثل صلاح الدين ، أو الظاهر بيبرس ، فإن هذه السيرة تعبر في الغالب عن روح العصر وأهم أحداثه السياسية واتجاهاته الفكرية . وهنا يجب أن نشير إلى ان المؤرخين المسلمين في كتب التراجم اتخذوا سنة الوفاة أساساً للتأريخ وتحديد الوضع الزمني للمترجم لهم ، لأن سنة الوفاة أثبت دائماً من سنة المولد في تلك العصور التي لم تعرف تسجيل أسماء المواليد الجدد واستخراج شهادات الميلاد كذلك ولد كثير من المشاهير مغمورين لم يشعر أحد بمولدهم ، حتى إذا ما أصاب أحدهم النجاح والشهرة اتجهت إليه الأنظار تناقلت الألسنة أسمه . فإذا ما شاع خبر موته ذكر سيرته الذاكرون ، ويتحقق الجميع من خبر وفاته مما يجعل تاريخ وفاته أمراً ثابتاً لا خلاف عليه .

كتب الحوليات :

وهي الكتب التي تعالج التاريخ مسلسلاً وفق تعاقب السنوات . وعادة ما يبدأ المؤرخون بالكلام عن بدء الخليقة وقصة آدم وحواء ثم يتدرجون لذكر

الأنبياء والرسل والأمم البائدة ومشاهير الحكام ، حتى يصلون إلى عصر ما قبل الإسلام فيتكلمون عن أخبار قريش ليكون ذلك مدخلاً لذكر مولد الرسول (ﷺ) وفي هذه المرحلة يلتزم المؤرخ بالتاريخ الهجري ، فيعالج الأحداث سنة بعد أخرى متتبعاً مسيرة التاريخ الإسلامي : فمثلاً في السنة الخامسة للهجرة حدث كذا وكذا . . . وفي ختام أحداث السنة غالباً ما يشير إلى مشاهير من توفوا في تلك السنة .

ورواد الكتابة التاريخية الذين أتبعوا نظام الحوليات في كتابة التاريخ ، محمد بن جرير الطبري ، المسعودي (ت٣٤٦هـ) مسكوية (ت ٤٢١هـ) ، ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) المقريزي في القرن التاسع الهجري . . . إلخ .

وعيوب طريقة الحوليات في كتابة التاريخ هي عدم وحدة الموضوع أو الحادث إذا كان قد استغرق عدة سنوات فالحرب الواحدة إذا استمرت تسع سنوات مثلا تأتي مجزأة في تسعة أماكن متفرقة ، فلا يذكر منها في أحداث السنة الواحدة إلا ما حدث فعلاً في تلك السنة .

٧ ـ كتب التواريخ :

أي كتب التاريخ التي يعالج الواحد منها تاريخ مدينة معينة مثل أخبار مكة أو أخبار المدينة ، أو تاريخ بغداد ، أو تاريخ حلب ، أو تاريخ دمشق ، أو تاريخ القاهرة وربما اتخذ المؤرخ من تاريخ مدينة أو إقليم محوراً ليعالج حوله تاريخ هذه المدينة أو ذاك الإقليم من دائرة أوسع من دوائر التاريخ الإسلامي ، مثل : كتاب «أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من الدول» للاسحاقي ، وكتاب «المغرب في ذكر بلاد أفريقة والمغرب» للبكري ، وكتاب «المؤنس في أخبار أفريقية وتونس» لابن أبي دينار ، هذا فضلاً عما كتبه مؤرخو وأدباء الأندلس مثل : ابن حيان ، وابن بشكوال ، وابن بسام من تواريخ محلية كثيراً ما اتسعت دائرتها لتضيف الجديد إلى معارفنا عن أجزاء بعيدة من العالم الإسلامي .

٨ ـ كتب الخطط :

التي تعبر عن نوع من الموسوعات التاريخية والأثرية والجغرافية . وقد ارتقى هذا النوع عند المسلمين في أواخر العصور الوسطى ، وفيه يتناول المؤلف بلداً من البلدان أو مدينة من المدن فيشرح معالمه الطبيعية وأقسامه الإدارية ، وأقاليمه الجغرافية ، ويتعرض لتاريخه منذ القدم ، وآثاره ، وعجائبه وأشهر ما فيه من مدن . ويذكر خطط تلك المدينة وطرقاتها وحاراتها ودروبها وأسواقها وأشهر ما فيها من منشآت كالخانات والوكالات والفنادق ، أو منشآت اجتماعية كالحمامات ، ودينية كالمساجد ، والزوايا وغير ذلك من قصور وبساتين وبرك ومنتزهات .

وهكذا أصبحت كتب الخطط دوائر معارف واسعة تحوي مزيجاً من التاريخ السياسي والعمراني والاجتماعي والثقافي والديني فضلاً عن المعالم الجغرافية . ومن أشهر كتب الخطط والآثار للمقريزي (ت٨٤٥هـ) . وقد تعرض فيه لمصر بوجه عام والقاهرة بنحو خاص . من كل هذا يتضح أن علم التاريخ بلغ عند المسلمين درجة فائقة من الرقي في العصور الوسطى لا نظير لها .

علم الجغرافيا :

عرف المسلمون علم الجغرافيا نظراً للحاجة إليه في الحل والترحال ، في العبادة ، والحج ، وطلب العلم ، في الزراعة ، والتجارة . والمعروف أن الإسلام حث المسلمين على السفر وجعل في السفر فوائد شتى ترتبط بالدين وطلب العلم والرزق . وساعد على كثرة الرحلات داخل الدولة الإسلامية وخارجها وحدة الدولة الإسلامية . وما وفره الحكم الإسلامي من أمن واستقرار .

لقد طاف عدد كبير من السفراء ، والرحالة ، والتجار المسلمين البلاد من شرق آسيا إلى مجاهل أفريقية ، وسواحل المحيط الأطلسي ، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون عنها في العصور الوسطى ، وصححوا كثيراً من المعلومات الجغرافية التي وقع فيها علماء الجغرافيا في العصور السابقة .

ولقد بدأ أدب الرحلات عند المسلمين قرابة منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) على يد تاجر يدعى سليمان البحار، جاب البحار إلى الهند والصين، وكتب أخبار مشاهداته في البلاد التي زارها ونُشر كتابه في فرنسا سنة ١٩٢٢ مع إضافات لأبي زيد حسن السيرافي .

ومما شجع المسلمين على الرحلة حصرهم داخل الدولة الإسلامية على إقامة مؤسسات ينزل فيها التجار المسافرون كالخانات والوكالات والفنادق (سواء في المدن أو على امتداد الطرق التجارية) . فضلاً عما أقاموه على أطراف الدولة وحدودها وثغورها من رباطات كان الهدف منها الجهاد والعبادة، ولكنها استخدمت أيضا نزلاً يستريح فيها المسافرون . يضاف إلى هذا كله حرص المسلمين على إقامة منارات عالية في الموانئ والثغور والمدن والواحات في الصحراء، يهتدي بها المسافرون في البحر والبر .

ولقد تعجب الرحالة ابن جبير عندما زار مصر في عصر صلاح الدين في القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) حين وجدها ترفل في حالة الأمن والاستقرار سادت البلاد ليلاً ونهاراً . كما ذكر نفس هذا الرحالة أنه من مناقب مصر العناية بالوافدين عليها من الأعراب ورعايتهم . ويضيف المقام هنا للحديث عن أسماء الرحالة الجغرافيين المسلمين لذا سنكتفي بالتعريف الموجز ببعضهم . من هؤلاء :

١ ـ اليعقوبي (ت : ٢٨٤هـ)

هو أول جغرافي من المسلمين وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة . فسافر كثيراً وطاف أنحاء الدولة الإسلامية . فزار أرمينية وخراسان وأقام بمصر والمغرب ورحل إلى الهند . وكان كلما لقي رجلاً سأله عن وطنه وإقليمه وعن زرعه ما هو، وساكنيه من هم، وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم، ثم أثبت كل ما يعتقد في صحيته وصدقه . وعُرف كتاب اليعقوبي

في الجغرافيا باسم كتاب «البلدان» ، كما أن له كتاب في التاريخ استهله ببداية الخليقة واستمر فيه حتى سنة ٢٥٩هـ .

٢ ـ ابن خردا ذبه (ت في حدود ٣٠٠هـ) :

وله كتاب المسالك والممالك ، واعتمد في بيان حدود الارض ومساكلها على ما كتبه بطليموس الكسندري . ويلاحظ على كتابه أنه لم يهتم بالجانب الفلكي والرياضي ، في حين أنه توسع في وصف البلدان ، مع العناية بذكر أبعاد الطرق وتحديد المسافات بين البلدان تحديداً دقيقا .

٣ ـ المسعودي (ت : ٣٤٦هـ) :

كان من أبرز الجغرافيين المسلمين كتب كتابه الشهير «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وقال في مستهل كتابه هذا : أما بعد ، فإنا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان ، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها ، . . . الخ) . وتميز المسعودي بالتواضع فهو يعتذر عن أي تقصير قد يكون وقع فيه أو لبس اختلط عليه .

٤ ـ المقدسي (ت ٣٧٥هـ) وابن حوقل (ت في أواسط القرن الرابع الهجري) :

فعلى يدي هذين العالمين بلغ علم الجغرافيا ، ووصف البلدان ذروته في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أما المقدسي فقد أنفق على أسفاره ما يزيد عن عشرة آلاف درهم وهو مبلغ ضخم بمقياس ذلك العصر . ومن حصيلة رحلاته وقراءاته ألف كتاب : «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وأضاف إلى هذا الكتاب خريطة لم تصلنا للأسف ، بين فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفر ، والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة .

أما ابن حوقل صاحب كتاب في «المسالك والممالك» أسماه «صورة الأرض» فقد نسج على منواله كثير من الجغرافيين المسلمين الذين جاءوا من

بعده . ويقول أنه عكف منذ صباه على قراءة كتب المسالك ، وقد زود كتابه بخريطة لكل إقليم .

٥ ـ الهمذاني (٢٨٠هـ) :

وضع كتاب «وصف جزيرة العرب» وفيه وصف جزيرة العرب وعدد أقاليمها ومواضيعها بلغة بليغة .

٦ ـ الشريف الادريسي (٤٨٧هـ) :

ولد وتلقى تعليمه في قرطبة ، ولذا عرف أحيانا بالقرطبي . ولكنه عاش بعد ذلك في بالرمو بصقلية ، حيث حظى برعاية الملك النورماني روجر الثاني ، مما جعل صفة الصقلي تطلق أحياناً أخرى عليه . ألف الإدريسي كتابه الشهير : «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» . وضم هذا الكتاب أكثر من أربعين خريطة . ولقد أعجب الأوروبيون بهذا الكتاب حتى أنهم ترجموه إلى اللاتينية في وقت مبكر . ويكفي أن الإدريسي قال بكروية الأرض ، ورسم خرائط تتفق وهذه الحقيقة ، كما قسم العالم إلى سبعين جزءاً ورسم لكل جزء تصور جغرافي محدد .

٧ ـ ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) :

ألف موسوعته الشهيرة «معجم البلدان» وفيها جمع أسماء البلدان والمدن والقرى الشهيرة وغيرها من المواضع الجغرافية ورتبها حسب حروف المعجم ، مع نبذة عن كل موضع ، وكانت النبذة تحوي على بعض المعلومات الطبيعية والجغرافية والتاريخية والأثرية والاجتماعية والاقتصادية ، وهو شيء لا نجده في كتاب واحد آخر . وهنا يجب أن نشير إلى أن ياقوت تجول في كثير من البلدان ، وأطلع على مكتبات مرو ، وطشقند ، وبلخ وكان لهذا أكبر الأثر على كتابه معجم البلدان .

على أية حال ، كانت حصيلة علماء المسلمين في علم الجغرافيا ضخمة واسعة . فقد صححوا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها بطليموس السكندري وغيره من السابقين ، كذلك أضافوا معلومات جديدة غزيرة عن طبيعة الأرض وشكلها ، كما فسروا العديد من الظواهر الطبيعية والجغرافية تفسيرا علميا يتفق مع ما أثاره علماء الجغرافية الحديثون ، فمثلاً تمسك الجغرافيون المسلمون بفكرة كروية الأرض ، وبنوا على هذه الفكرة كثيراً من الاستنتاجات الصحيحة فابن خرداذبه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يقول :

«إن الأرض مدورة كتدوير الكرة ، موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة» . وكرر هذه الفكرة ابن رستة المعاصر له ، والمسعودي الذي عبر عن الأرض بعبارة «كرة الأرض» . والطريف أن علماء المسلمين استندوا في إثبات كروية الأرض على نفس الأسانيد التي رددها العلماء اليوم ، وهي أن الشمس لا تطلع على جميع أجزاء العالم في وقت واحد ، ولا تغرب عنه في وقت واحد : «بل نرى طلوعها على المواضع المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية» على حد قول ابن رستة فإذا غابت الشمس في الغرب كان طلوعها في أقصى الصين» ، على قول المسعودي .

وحين طلب روجر الثاني ملك صقلية من الإدريسي وضع صورة جامعة للأرض ، أجاب الإدريسي بأن الأرض كروية ، فصنع له الملك كرة كبيرة من الفضة رسم عليها الإدريسي معالم الأرض . والمعروف أن الرسم على سطح الكرة يختلف في قواعده عن الرسم على مسطح منبسط .

ويمكن القول إن علماء المسلمين هم باعتراف الغرب أول من وضعوا أصول الرسم على مسطح كروي ، مما كان له أثره جغرافياً في تحديد معالم الكرة الأرضية تحديداً واقعياً سليماً .

ولما كان المسلمون مؤمنين بفكرة كروية الأرض ، من ناحية ، وتوسعهم

في استخدام البوصلة من ناحية أخرى ، فمن المرجح أن المسلمين هم أول من حاول الدوران حول الأرض ، وأنهم أول من وصل إلى العالم الجديد قبل عصر كريستوفر كولمبس بعدة قرون .

وجدير بالذكر أن البوصلة كانت اختراع صيني ، ولكن أهل الصين كانوا ضعافاً في الملاحة ، وليس لهم نشاط ملاحي ملحوظ عبر عصور التاريخ . لهذا يرجع الفضل إلى المسلمين الذين أخذوا فكرة البوصلة عن الصينيين وطبقوها ، على نطاق واسع في ارتياد البحار . ويقول صاحب كنز البحار في القرن الثالث عشر الميلادي الآتي : «لقد ذكر الإدريسي البوصلة في مؤلفاته . وعن طريق المسلمين عرف الأوروبيون البوصلة واستخدامها» . وما زالت البوصلة تحتفظ باسمها العربية في كثير من اللغات الأوروبية فهي بالفرنسية **Boussole** وبالإيطالية **Bossala** .

أما عن القول بأن المسلمين هم أول من حاول الطواف حول الكرة الأرضية ، فيرتبط ما ذكره الإدريسي في كتابه «نزهة المشتاق» عن الأخوة المغربيين الذين أبحروا من لشبونة في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) «كانوا ثمانية رجال كلهم أولاد عم ، فأنشأوا مركبا حمالاً ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد كي يكفيهم لأشهر ثم دخلوا البحر في أول طاروش الريح الشرقية ، فجروا بها نحواً من أحد عشر يوما ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح ، كثير القروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلوعهم في اليد الأخرى وجروا في البحر من ناحية الجنوب أثني عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا يأخذ عد ، وهي سارحة لا راعي ولا ناظر لها ، ثم ساروا مع الجنوب أثني عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث ، فاعتقلوا ثلاثة أيام ثم جاءهم في اليوم الرابع ترجمان للملك يتكلم اللسان العربي وأحضروا بين يدي الملك ، فسألهم عن حالهم فأخبروه بخبرهم ، ثم صرفوا إلى

موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الرياح الغربية ، فوضعوا في قارب وعصبت أعينهم وجرى بهم في البحر برهة قدرها بثلالة أيام ، حتى انتهوا إلى بر ، فأخرجوا وكتفوا إلى خلف وتركوا بالساحل حتى طلع النهار . وجاء قوم برابر فحلوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين» .

يرجح أن الجزر التي وصل إليها هؤلاء البحارة المسلمون هي بعض الجزر القريبة من الشواطئ الأمريكية في أمريكا الوسطى . والمعروف أن كولمبس أطلع على بعض الكتب الجغرافية العربية . وبعض الخرائط التي وضعها علماء الجغرافيا المسلمين ، قبل أن يقوم برحلته التي أدت إلى الكشف عن أمريكا في مطلع العصر الحديث .

والواقع أن النتائج التي توصل إليها علماء المسلمين في كل فروع الجغرافيا سواء كانت طبيعية أو بشرية أو مناخية أكبر من أن يتسع لها هذا المكان . ويكفي أن نذكر أن عالماً مثل الإدريسي الذي رسم ، في خريطة له محفوظة اليوم في أحد متاحف فرنسا ، نهر النيل نابعاً من بحيرات كبيرة تقع إلى الجنوب من خط الاستواء . وهذا هو أول تحديد واقعي لمنابع نهر النيل بعد أن كان القدماء يرددون أنه نابع من الجنة .

كذلك تعرض ابن سينا لنشأة الجبال فقال أنها تنشأ إما نتيجة للزلازل الشديدة التي قد تؤدي إلى ارتفاع في القشرة الأرضية ، وإما نتيجة لأثر المياه الجارية وعوامل النحت . ويستدل على ذلك بوجود كثير من بقايا الحيوانات المائية في الصخور . وهكذا كان للجغرافيين المسلمين فضل كبير على علم الجغرافيا .

العلوم العقلية والتجريبية :

بالنسبة لهذا النوع من العلوم ، فالمعروف أن المسلمين اعتمدوا في بداية نهضتهم الفكرية على ما كتبه غيرهم من أصحاب الحضارات السابقة كاليونان

والفرس والهنود . وفي الحقيقة لا يمكن أن ندعي أن العرب عند ظهور الإسلام كان لهم تراث علمي في العلوم العقلية والتجريبية ، وإنما أقصى ما يمكن أن نقوله هو أن بعض أجزاء شبه الجزيرة ، وخاصة اليمن وعُمان ، شهدت نشاطاً حضارياً ساعد أهلها على الوقوف على نظريات علمية وهندسية استخدموها في بناء السدود وخزن مياه الأمطار والإفادة من المياه الجوفية .

على هذا فإذا كان العرب قد افتقروا إلى تراث قديم في العلوم العقلية والتجريبية مثل الفلسفة ، والطب ، والكيمياء والفيزياء ، إلا أنهم امتازوا بنعمة الرغبة في التعلم وسرعة التقاط واستيعاب المعارف . وجاء الإسلام ليحث على طلب العلم النافع من ناحية ، والتسامح إزاء الحضارات الأخرى من ناحية أخرى ، مما كان له أكبر الأثر في دفع المسلمين إلى الإفادة من كل ما هو نافع من تراث السابقين طالما أنه لا يتعارض مع تعاليم الإسلام وروحه وآدابه . فتفحص المسلمون كتب السابقين يدرسونها ويناقشون ما فيها من آراء ويصححون ما بها من أخطاء ويضيفون إليها الجديد من المعلومات . وكانت نقطة البداية للوقوف على تراث السابقين وتفهمه هي ترجمة ذلك التراث إلى العربية .

حركة الترجمة

أدت فتوح الإسكندر إلى انتشار الحضارة اليونانية في غرب آسيا ومصر ، مما أكسب هذه المنطقة طابعاً خاصاً جعل المؤرخين يطلقون اسم العصر الهلينستي على الفترة الممتدة من وفاة الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٣ ق .م حتى الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي . وفي ذلك العصر وجدت في تلك المنطقة عدة مراكز للحضارة اليونانية أو الهلينية أشهرها الإسكندرية ، وإنطاكية ، ونصيبين وغيرها .

وقبل ظهور الإسلام قام السُريان بدور كبير في ترجمة معارف اليونان وعلومهم إلى اللغة السريانية . وساعد السريان على ذلك أن كثيراً من علماء

اليونان غادروا بلادهم تحت تأثير الاضطهادات الدينية والمذهبية واتجهوا شرقاً حيث استقروا في مدينة الرها شمال العراق وهناك أسس النساطرة مدرسة انتعشت في القرن الخامس الميلادي وعندما أغلق الامبراطور زينون ـ امبراطور القسطنطينية ـ هذه المدرسة سنة ٤٨٩م رحل علماؤها إلى نصيبين حيث أسسوا مدرسة اشتهرت في ميادين الفلسفة اليونانية والطب اليوناني .

وفي سنة ٥٢٨م أغلق الامبراطور جستنيان الأول مدرسة أثينا الوثنية ، فهجرها علماؤها واتجهوا شرقاً يبحثون عن مأوى في أحضان الدولة الفارسية . وبالفعل استقروا في جنديسابور حيث أقام كسرى أنوشروان (٥٣١ـ٥٧٩م) بيمارستان ومدرسة للطب . وتقع جنديسابور في إقليم خوزستان في إيران اليوم ، أسسها سابور الأول لتكون معسكراً ومعقلاً لأسراه من الروم ، ولذلك كانت اللغة والثقافة اليونانية معروفة فيها ، رغم أن العلوم اليونانية كانت تدرس بالآرامية فيها .

على كل حال ، بعد أن استقر علماء الروم في جنديسابور اشتهرت هذه المدينة بالدراسات الطبية وذاعت شهرتها في العالم ، وأصبح علماؤها «يرتبون قوانين العلاج» على قول القفطي . وفي ظل الإسلام استمرت مدرسة جنديسابور قائمة ، حتى أن الخليفة أبا جعفر المنصور عندما مرض استحضروا له جورجيوس بن يختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ومنذ ذلك الوقت اشتهر آل بختيشوع في بلاط الخلافة ببغداد ، وفي الوقت الذي ازدهرت فيه مدرسة جنديسابور ، ظلت الفلسفة والمعارف والعلوم اليونانية تجد قواعد ثابتة لها في مدينة الإسكندرية وإنطاكية منذ تأسيس هاتين المدينتين . الأولى سنة ٣٣١ق .م والثانية سنة ٣٠٠ ق .م .

على كل حال ، استوعبت هذه المدارس الفكر اليوناني والعلوم اليونانية في الشرق وأصبحت بالتالي مراكز إشعاع للحضارة اليونانية ، فاشتهر من علمائها بعض من اشتغل بالفلسفة ، والطب ، والتشريح ، والرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، وغيرها من العلوم .

وجاء هذا النشاط العلمي في تلك المدارس مصحوباً بنشاط آخر في مجال الترجمة ، إذ حرص السريان على نقل الكتب اليونانية إلى اللغة السريانية ـ وهي إحدى اللغات الآرامية ـ وكان جزء من السريان وثنيين ، ومن أشهر مراكزهم مدينة حران الواقعة جنوب الرها . وأصبحت اللغة السريانية بمثابة لغة عالمية للمعرفة والعلم في هذا الجزء من العالم ، وذلك قبل ظهور الإسلام . فتم ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى السريانية لتعيش هذه الترجمات بعد أن فقدت أصولها في بلادها ويغلب على الترجمات السريانية أنها كانت ترجمة حرفية ، بمعنى أن السريان نقلوا عن اليونانية بدقة وأمانة . كذلك أسهم السريان في ترجمة بعض الكتب عن الفهلوية .

جذور حركة الترجمة :

وبعد ظهور الإسلام ، وفتح المسلمين للعراق والشام ومصر في القرن السابع الميلادي ، وجد المسلمون في هذه البلاد مدارس تتضمن حضارة اليونان وفكرهم وعلومهم . ويبدو أن العرب في ذلك الوقت لم يجهلوا تلك الثقافات جهلاً تاماً ، إذ كانت بعض المؤثرات الثقافية من المدارس السابقة قد تسربت إليهم . ومن ذلك ما يرويه القفطي في أخبار الحكماء من أن الحارث بن كلدة رحل إلى أرض فارس ، وأخذ الطب عن أهل جنديسابور ، حتى اشتهر أمره بين العرب ، فأمر الرسول (ﷺ) باستدعائه رغم أنه لم يكن مسلماً لعلاج سعد بن أبي وقاص عندما مرض في حجة الوداع .

ولكن باستقرار المسلمين في البلاد المفتوحة ، واحتواء دولتهم الجديدة على مراكز الثقافتين اليونانية والسريانية في بلاد الشام ومصر وفارس والعراق وغيرها من البلاد التي شهدت ازدهار الحضارتين اليونانية والفارسية ، تغيرت الأوضاع ، إذ تطلع العرب بفضل ما أثاره الإسلام فيهم من حماسة للعلم وما حثهم عليه من تسامح إزاء الديانات الأخرى ، إلى التزود بقسط نافع من تلك الثقافات التي التقوا بها . ولا سبيل إلى ذلك إلا بترجمتها إلى لغتهم .

وترجع الجذور الأولى لحركة الترجمة إلى العربية ، إلى أوائل العصر الأموي ، إذ تردد في المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية - الملقب بحكم آل مروان - والمتوفى سنة (٨٥ هـ/ ٧٠٤م) أرسل بعد أن أقصي عن الخلافة إلى الإسكندرية في طلب بعض الكتب في الطب وعلم الصنعة (الكيمياء) لترجمتها إلى العربية .

على أية حال ، إذا كانت جهود خالد بن معاوية هي نقطة البداية في حركة الترجمة إلى العربية ، فقد أعقبتها جهود أخرى . فنحن نسمع بعد ذلك أن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز اصطحب أحد علماء مدرسة الإسكندرية بعد أن أسلم على يديه ، ويعرف هذا الرجل «بابن أبجر» واعتمد عليه في صناعة الطب .

ويمكن القول ، أن حركة الترجمة ظلت في العصر الأموي تعبر عن محاولات فردية تزول بزوال رعاتها من الأفراد ، حكاماً كانوا أو غير حكام . ولقد بالغ بعض الباحثين في التحفظ في نسبة بداية حركة الترجمة العربية إلى العصر الأموي ، وقالوا أن ما نسب إلى خالد بن يزيد ليس إلا نوعاً من المبالغة التي قد تصل إلى حد الأساطير المتداولة ، وأن الأصول الحقيقية لهذه الحركة ترتبط بالعصر العباسي . والمرجح أن حركة الترجمة ولدت في العصر الأموي حيث بدأت بداية بسيطة ، إلا أنها في العصر العباسي اشتد ساعدها وأصبحت تمثل ركنا من أركان سياسة الدولة وحكامها . هذا فضلاً عن أنها في العصر الأموي اقتصرت على الكيمياء والفلك والطب ، أما في العصر العباسي فقد صارت أوسع أفقاً فشملت الفلسفة والمنطق ، فضلاً عن بقية العلوم التجريبية والكتب الأدبية والاجتماعية وغيرها . والثابت أن الخلفاء العباسيين فتحوا أبواب عاصمتهم بغداد أمام العلماء وأجزلوا لهم العطاء وشجعوهم ، بصرف النظر عن مللهم وعقائدهم ، فنزح كثيرون إلى بغداد من جنديسابور ، وحران ، ونصيبين ، وغيرها من مراكز العلم والفكر القديمة . من ذلك ما يقال من أن

الخليفة أبا جعفر المنصور عني بترجمة الكتب إلى العربية ، سواء الكتب اليونانية أو الفارسية وفي تلك المرحلة نقل حنين بن اسحق بعض كتب أبقراط وجالينوس في الطب في حين نقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية . وشارك عدد آخر من المترجمين في النقل من اليونانية والسريانية والفهلوية إلى العربية ومن الأمور التي يسرت للمسلمين الحصول على الكثير من الكتب اليونانية توسعهم على حساب الروم الذين كانت دولتهم مركزا رئيسيا للحضارة اليونانية .

وعندما ازدادت أعداد العلماء في بغداد أنشأ لهم هارون الرشيد «بيت الحكمة» ليكون بمثابة أكاديمية علمية ، يجتمع بين رحابها المعلمون والمتعلمون ، وحرص على تزويدها بالكتب التي نقلت من آسيا الصغرى ، والقسطنطينية ، ومصر ، والشام ، وغيرها . وفي بيت الحكمة هذا عكف المترجمون على ترجمة أمهات الكتب في شتى العلوم والفنون إلى العربية .

وفي عهد المأمون ازدادت العناية ببيت الحكمة فوسع الخليفة من نشاطه واحتفى بالمزيد من العلماء العاملين فيه ، كما ضاعف العطاء للمترجمين إلى العربية ، كذلك دأب المأمون على إرسال البعوث إلى القسطنطينية لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من المؤلفات اليونانية في شتى ألوان المعرفة ويقول ابن النديم في الفهرست أن المأمون «كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إليه يسأله الأذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وغيرهما فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله إلى العربية فنقل . . .» .

واشتهر من المترجمين في صدر العصر العباسي : ثيوفيل بن توما الرهاوي ، وجورجيس بن جبرائيل ، ويوحنا بن ماسويه ، ويحيى بن البطريق ،

والحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي ، وقسطا بن لوقا البعلبكي ، وعبدالمسيح بن ناعمة الحمصي ، وحنين بن اسحق ، وابنه اسحق بن حنين ، وثابت بن قرة ، وحبيش بن أعشم . وكانت الترجمة من الكتب اليونانية في الفلسفة وشتى العلوم العقلية .

ومن أعظم الأسماء سالفة الذكر حنين بن اسحق الذي ترجم كتباً عديدة في المنطق والفلسفة والطبيعة ولكن أغلب ما ترجمه كان في علم الطب ـ وكان يترجم من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى العربية . وقيل أنه ترجم ٩٥ كتاباً إلى السريانية من كتب جالينوس ، نقل إلى العربية ٣٩ كتاباً منها .

كذلك كانت هناك حركة ترجمة عن الفهلوية ، وهي لغة الفرس في عهد بني ساسان ، وقد أدى انتشار الإسلام بين الفرس وتعلمهم العربية ، وإحلال الحروف العربية محل الحروف الفهلوية في الكتابة إلى تسهيل حركة الترجمة من الفهلوية إلى العربية ويلاحظ أنه إذا كان تأثير التراث اليوناني في الحضارة العربية واضحاً في ميادين الفلسفة والفكر والعلوم ، فإن تأثير التراث الفارسي في الحضارة العربية كان أكثر وضوحا في الأدب . وكان الأدب الفارسي الشرقي أقرب إلى ذوق العرب وأحاسيسهم من الأدب اليوناني .

وبنشاط حركة الترجمة في العصر العباسي عكف بعض من أجادوا اللغتين الفارسية والعربية على الترجمة من الفارسية ، من هؤلاء عبدالله بن المقفع ، إل نوبخت ، وموسى ويوسف ابنا خالد ، الحسن بن سهل ، البلاذري وغيرهم . ومن المعروف أن ابن المقفع ترجم أكثر من كتاب في تاريخ الفرس ونظمهم وعاداتهم وآدابهم منها كليلة ودمنة ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير وغيرها .

بالنسبة لأثر الحضارة الهندية فكما نعرف امتدت حركة الفتوح الإسلامية إلى الهند في أواخر القرن الأول الهجري في خلافة الوليد بن عبدالملك بن مروان

(٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ـ٧١٥م) . ثم استأنفت قبيل منتصف القرن الثاني الهجري في خلافة المنصور (١٣٦ـ١٥٨هـ/ ٧٥٤ـ٧٧٥م) ، ونشطت مرة أخرى في عهد الغزنويين في القرن الخامس الهجري . وقد أشاد علماء المسلمين بحضارة الهند ، فقال الجاحظ : (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) . اشتهرت الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب» .

والمعروف أن جزءاً كبيراً من ثقافة الهنود وعلومهم قد انتقل إلى الفرس بحكم العلاقات التي ربطت الطرفين قبل الفتوح الإسلامية من ذلك أن كسرى أنوشروان أرسل طبيبه برزوية إلى الهند لاستحضار كتب في الطب فعاد بالكثير منها .

ومن العلوم التي أخذ المسلمون فيها الكثير عن الهنود الرياضيات والفلك . ويكفي أن نشير إلى أن الأرقام الحسابية المستخدمة في العالم حالياً عرفها المسلمون عن الهنود ، وعن طريق المسلمين انتقلت إلى الغرب الأوروبي . وعرف المسلمون هذه الأرقام باسم «راشيكات الهند» . والشيء نفسه يقال عن بعض المصطلحات الرياضية ، مثل مصطلح «الجيب» في علم حساب المثلثات . ومن الثابت أن أبا جعفر محمد بن موسى الخوارزمي عالم الرياضيات الشهير ـ استفاد من معارف الهنود في الرياضيات .

أما في الفلك ، فيقال أن الخليفة المنصور أمر سنة ١٥٥هـ/ ٧٧١م بترجمة كتاب في الفلك إلى العربية من الهندية مباشرة . وكان لترجمة هذا الكتاب أثر كبير في وضع قواعد دقيقة لدراسة حركات الكواكب وهو عمل أنجزه الفزاري ، والمرجح أن المسلمين نقلوا الكثير عن الهنود في علم الفلك أما في علم الطب فمن الثابت ترجمة بعض كتابات الهنود في هذا العلم إلى العربية مثل كتاب «سيرك» الذي نقل أولاً إلى الفارسية ثم إلى العربية . فضلاً عن غيره من كتب الطب ، والمعروف أن أطباء الهنود نبغوا منذ القدم في استخدام الأعشاب الطبية

في مداواة كثير من العلل ، وانتقلت هذه المعرفة إلى المسلمين ولا شك في أن الاتصال بالحضارة الهندية جاء مصحوبًا بتعريب كثير من الأسماء مثل : زنجبيل ، كافور ، فلفل . . . الخ .

وهكذا استطاع المسلمون عن طريق حركة الترجمة الواسعة أن يتعرفوا على التراث الذي خلقته كبرى الحضارات البشرية القديمة . ولم تقف جهودهم عند هذا الحد ، بل عمدوا إلى فهم هذا التراث واستيعابه ، ثم تصحيح ما وجدوا فيه من أخطاء ثم إضافة ما توصلوا إليه من إضافات علمية هامة إلى ذلك التراث في شكل نظريات علمية أصيلة مبتكرة أصبحت بعد ذلك أسسًا لبعض المباحث الطبيعية في الحضارة الحديثة التي نعيشها .

وبالإضافة إلى ما قدموه في هذا المجال العلمي الهام ، والذي سوف نتطرق إلى بعض جوانبه لاحقاً ، وضعوا أساس البحث العلمي الحديث ، ألا وهو المنهج العلمي التجريبي ، وذلك لأنهم حين قويت لديهم حاسية الملاحظة وحب الاستطلاع العلمي ، رغبوا في إجراء التجربة والاختبار ، فأنشئوا المعمل ليتحققوا من نظرياتهم وليستوثقوا من صحتها . فكان أن تبنوا المنهج العلمي التجريبي أساساً للبحث العلمي السليم الذي يقوم على الملاحظة الحسية الدقيقة كمصدر للمعارف العلمية الصحيحة . وكان هذا هو أهم الأسس التي قامت عليها نهضتهم العلمية في العصور الوسطى ، بل قامت عليها لاحقاً حضارة العصر الحديث بأكملها . ذلك لأن العلوم الطبيعية والتطبيقية تتميز بأنها علوم الواقع والتجربة والدليل والبرهان .

والمعروف أن الإنسان منذ أن وجد على الأرض أخذ يبحث عن أدلة لفهم كافة الظواهر الكونية المحيطة به ، حيث أن الأرض شغلته بجبالها وأنهارها وبحارها ، فحاول قدر استطاعته أن يفسر ما يجري حوله من أمور كي يتعرف على حقيقتها وبالتالي بسط سيطرته عليها وتسخيرها لخدمته وسعادته .

واستطاع على مر العصور أن يهتدي إلى بعض الآلات والأجهزة ، حتى تمكن أخيراً من وضع أسس العلوم الطبيعية ، وإقامة صرح العلوم التطبيقية . وكان إسهام العلماء المسلمين في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية عظيماً في هذا المجال ، حيث ضمن استمرار تقدم العلوم في عصر النهضة الحديثة ، ودفع مسيرة تطورها حتى العصر الحديث الذي نعيشه . فبعد أن نقل علماء أوروبا علوم المسلمين واستوعبوها ، اكتشفوا أن سر تطور هذه العلوم وازدهارها يكمن في إتباعهم لأسلوب علمي سليم ، واستخدام الآلات والأجهزة في الكشف عن الظواهر الطبيعية ، مما مكنهم من تفسير الكثير من المسائل التي عجز عن حلها القدماء وتمكنوا من فتح آفاق جديدة في مختلف فروع المعرفة .

ولا شك في أن التجربة العملية التي تقوم على أساس علمي سليم هي التي تصنع المعرفة ، لذا فقد حرص العلماء المسلمون على إجرائها بدقة متناهية لإثبات صحة أفكارهم النظرية . ولكي نفهم سبق المسلمين إلى اتباع المنهج العلمي في المباحث العلمية التي درسوها ، فإننا يجب أن نعرف مضمون هذا المنهج كما نعرفه اليوم ثم نقارن بينه وبين نظيره الذي عرفه علماء الحضارة العربية الإسلامية في وقت ازدهارها .

ومن المعروف أن الطريقة الحديثة التي يتبعها الباحثون في مجال العلوم التطبيقية تقضي بأن يبدأ الباحث بدراسة الأمور أو الظواهر الطبيعية كما هي موجودة بالفعل في الواقع عن طريق ملاحظتها ، وجمع الحقائق المشاهدة ، وتبويبها ، وترتيبها للبحث عن علاقة تربط بين تلك الحقائق في صورة نظرية أو قانون يستطيع الباحث بواسطته أن يسيطر به على الظاهرة الطبيعية التي يدرسها . وبالتالي تسخير ظواهرها ، ومواردها لتحقيق رخاء الإنسان ورفاهيته . وبعد الوصول إلى قانون أو نظرية يمكن بالقياس استنباط النتائج التي يسهل إثبات صحتها ومطابقتها للواقع عن طريق التجربة أيضاً .

والواقع أنه لا يمكن تطوير العلوم الطبيعية بغير هذا المنهج العلمي الذي يطلق عليه اسم «المنهج الاستقرائي التجريبي» وهو منهج يستند أساساً إلى الملاحظة والتجربة . ويرى بعض العلماء الغربيين أن المنهج العلمي التجريبي على شكله في الوقت الحاضر ظهر أول مرة في أوروبا في القرن الثالث عشر على يد روجر بيكون . ومن المعلوم أن روجر هذا كان قد درس اللغة العربية والعلوم الطبيعية في جامعة أكسفورد في إنجلترا على أيدي أساتذة درسوا هذه العلوم على أيدي العلماء المسلمين في الأندلس . ومن غير المستبعد أن يكون روجر بيكون قد نقل هذا المنهج الذي كان يتبعه العلماء المسلمون في الأندلس حينذاك .

ويرون كذلك أن معالم هذا المنهج العلمي التجريبي اتضحت تماماً على يد العالم الإنجليزي «فرنسيس بيكون» الذي ضمنه كتابه «الأرجانون الجديد» والذي كتبه في القرن السابع عشر الميلادي ، وتسمية الكتاب باسم «الأرجانون» تعني «منهج البحث التجريبي» ووصفه «بالجديد» ليخالف به أرسطو الذي عنون كتابه هو الآخر «بالأرجانون» ويتلخص مفهوم الكاتبين في أن أرسطو حاول تفسير الظواهر الطبيعية مستخدماً القياس النظري المجرد لاعتقاده أن المشاهدة الحسية والتجربة المادية لا تمتاز باليقين ولا تقود إلى البرهان السليم ، وهذا بالطبع أدى إلى نشأة الفلسفة النظرية عند اليونان ، وظهور العلوم الرياضية البحتة في عصور فيثاغورث واقليدس .

أما بيكون فقد قال «إن المنهج العلمي يبدأ بمرحلة يسميها التاريخ الطبيعي ، وفيها يشرع الباحث في المشاهدات التي لها صلة بالظواهر المراد البحث عن قانون لها ، ثم يعمد بعد ذلك إلى تبويب الشواهد التي يستطيع من خلالها تفسير الظواهر العلمية التي يدرسها .

والواقع أن الفضل في التوصل إلى المنهج العلمي الذي يشابه ما لدينا اليوم ، لا يرجع إلى روجر بيكون ولا إلى فرنسيس بيكون ، لكن الفضل في

ابتكار هذا المنهج يرجع إلى العلماء المسلمين . وهذا هو ما شهد به بعض العلماء الأوروبيين المنصفين مثل «بريفولت» الذي اعترف بأسبقية العلماء المسلمين بمعرفة «المنهج العلمي» الذي هو أساس المنهج الحالي وذلك بقوله+ «لقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ، ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني ، أما ما ندعوه بالعلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العلماء المسلمون إلى العالم الأوروبي» .

كما شهد لهم «درابر» الذي قال ما معناه أن تفوقهم «أي المسلمين» في العلوم كان ناشئًا عن الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم وهو أسلوب البحث العلمي التجريبي الذي دفعهم إلى التفوق العظيم في الهندسة وحساب المثلثات والفلك والجبر والطبيعة وغيرها من العلوم فالعلماء العرب هم واضعوا أسس البحث العلمي بالمعنى الحديث ، وقد تميزوا بالملاحظة والرغبة في التجربة والاختبار .

ومن هذا نخرج بأن الفضل في ابتكار المنهج العلمي التجريبي الذي عرفه المسلمون كان ولا يزال أساس التطور العلمي الذي عرفته البشرية ، كما يتضح أن كلا من المنطقين اللذين قال بهما أرسطو وبيكون من بعده بعيدان كل البعد عن المنهج العلمي التجريبي بمفهومه الحالي .

والجدير بالذكر أن العلماء المسلمين كانوا أسبق من العلماء الأوروبيين إلى نقد منطق أرسطوا في منهجه العلمي ، وابتداع المنهج العلمي السليم بكل خطواته ومراحله قبل بيكون بعدة قرون . كما استطاعوا أن يميزوا بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة ، والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى ، وفطنوا إلى أن الوسيلة أو الأداة التي تستخدم في هذه الظواهر يجب أن تختلف حسب طبيعة كل منها . ويعد «ابن تيمية» من أوائل المفكرين المسلمين الذين نقدوا منطق أرسطو الصوري ، وهاجمه بعنف في كتابه «نقض المنطق» ، ودعا

إلى الاستقراء الحسي الذي يأتي بالمعارف الجديدة، والذي يصلح للبحث في الظواهر المادية الطبيعية، لأن الأسلوب العلمي السليم هو الذي يصنع المعرفة الحقيقية.

على أية حال كان اتجاه العلماء المسلمين إلى هذا المنهج الجديد في البحث العلمي، الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة في دراسة الظواهر الطبيعية، توطئة لوضع قوانين عامة في تفسير الوقائع الكونية، وهذا ما جعلهم يحرزون تقدماً ملموساً في كثير من العلوم الطبيعية لم يصل إلى مستواه اليونان أو غيرهم.

ومن أعظم رواد المنهج العلمي التجريبي من العلماء المسلمين «جابر بن حيان» (ت٢٠٠هـ/ ٨١٤م) في الكيمياء، و«الرازي» (ت٣١٧هـ/ ٩٢٥م) في الطب، و«ابن الهيثم» (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) في الفيزياء، و«البيروني» (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) في الفلك وعلوم الأرض الذين كانت إسهاماتهم في تكوين هذا المنهج ووضع أسسه وأصوله وتطبيقه على ما تخصصوا به من علوم لا يمكن لعاقل أن ينكرها. بل كانوا دقيقين في تطبيق هذا المنهج إلى درجة أن جابر بن حيان يوصي تلاميذه بالاهتمام بالتجربة، وعدم الركون إلا عليها مع التدقيق، والملاحظة والاحتياط، وعدم التسرع في الاستنتاج ويقول في هذا الخصوص و«أول واجب أن تعمل (وهو هنا يخاطب تلاميذه) وتجري التجارب، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة».

كما دعا القزويني إلى الصبر والمثابرة على البحث العلمي بقوله: «إياك أن تفتر أو تعتل (وهو هنا يخاطب الباحث العلمي) فإذا لم تصب في مرة أو مرتين فإن ذلك قد يكون لفقد شرط أو حدوث مانع، فإذا رأيت مغناطيسا لا يجذب الحديد فلا تنكر عليه خاصيته، واصرف عنايتك إلى البحث عن أحواله حتى يتضح لك أمره».

وحسبنا لإيضاح سبق المسلمين إلى وضع وتطبيق المنهج العلمي السليم ، أن نورد فقرات وردت في كتاب «المناظر» للحسن بن الهيثم عن حقيقة حدوث الإبصار فيقول : «رأينا أن نصرف الاهتمام إلى هذا المعنى (حقيقة حدوث الإبصار) بغاية الإمكان ، ونخلص العناية به ، توقع الجد في البحث عن حقيقته ونستأنف النظر في ميادينه ومقدماته ، ونبتدئ باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات ، ونميز خواص الجزيئات ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ونتصفحه باستعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه ونتقده طلباً للحق لا الميل مع الآراء» .

ومما سبق رأينا أن ابن الهيثم وغيره من علماء المسلمين تبعوا منهجاً علمياً تجريبياً أكدوا فيه على أن الظواهر الطبيعية يسري عليها مبدأ الحتمية ، بمعنى أن جميع الظواهر تخضع لقوانين ثابتة في استطاعة العالم الذي يجري التجارب كشف غموضها ووضع نظريات علمية للتأكد من وقوعها . وهذا ما أوصل هؤلاء العلماء إلى تثبيت مبدأ الحتمية الذي ظل مسيطراً على الفكر العالمي حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

وكذلك رأينا أن المسلمين في عصر إزدهار الحضارة العربية الإسلامية توصلوا إلى أصول المنهج العلمي التجريبي الذي تأثر به بيكون ، وكبلر ، وجاليليو ، ونيوتن وغيرهم ممن تأثروا بالتراث العربي للحضارة العربية الإسلامية . مما كان له أكبر الأثر باتجاههم التجريبي الذي كان نواة لتطور العلوم التكنولوجية في العصر الحديث .

علم الكلام

وهو ذلك العلم الذي يتضمن بحث العقيدة ومناقشتها بالأدلة العلمية والمنطقية ، والرد على المنحرفين ، وإذا كان علم الكلام قد بدأ في أواخر العصر الأموي ، فإنه ازدهر في العصر العباسي . وقد اختلف الباحثون في أصل تسمية هذا العلم بعلم الكلام . لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في تلك العصور كانت مسألة كلام الله وخلق القرآن ، فسمي العلم كله بأهم مسألة فيه . كما قال البعض بأن السبب يرجع لأن أساس هذا العلم كلام حرفي في العقائد ولا يوجد به عمل ، والظاهر أن إطلاق هذا الاسم كان في العصر العباسي ، وقبل ذلك كان البحث في هذه الموضوعات يعتبر من فقه الدين .

الالتجاء إلى الفلسفة اليونانية :

ومن أهم ما طرأ على علم الكلام كان إلتجاء المشتغلين به إلى الفلسفة اليونانية والانتفاع بالمنطق اليوناني القديم ، في الرد على أعداء الإسلام والمنحرفين عن العقيدة ، وذلك أن اتباع الأديان السابقة على الإسلام مثل اليهودية والمسيحية ، كانوا قد تأثروا بالفلسفة اليونانية القديمة واستعانوا بها في تطوير وصياغة عقائدهم . وقد أخذ بعلم الكلام المعتزلة ، وكذلك اتباع فرق أخرى كالشيعة والمرجئة والخوارج . وكان المعتزلة (أو القدرية) من أهم فرق المتكلمين . وتتلخص آراؤهم بعدم تكفير مرتكب الكبائر . بمعنى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق يستحق النار لفسقه ، أي يكون بمنزلة بين المنزلتين أي بين منزلة الكفر والإيمان .

ومن آرائهم كذلك القول بالقدرة أي أن الله لا يخلق أفعال الناس وإنما هم يخلقون أفعالهم ، وذلك على عكس ما قال به خصومهم الذين أسرفوا في سلب الإنسان قدرته وحريته في التصرف . ومن هنا كانت شهرة المعتزلة باسم

القدرية على أساس أنهم ما لبثوا أن خاضوا غمار السياسة وكانت لهم آراؤهم في الإمامة وشروطها .

وعلى العموم فإن قضايا علم الكلام والجدل الذي أثير حول هذه القضايا ، واستخدام المنهج الجدلي والمنطق في المناقشة ، كل ذلك يجعل من علم الكلام باباً من أبواب الفلسفة أو مقدمة لظهور الدراسات الفلسفية .

علم الفلسفة :

كلمة الفلسفة يونانية الأصل معناها الحكمة (العلم الشامخ النافع) . والفيلسوف هو محب الحكمة . وقد تزايد اهتمام العرب بعلم الفلسفة في العصر العباسي ، خاصة بعد حركة الترجمة ونقل كتب الفلاسفة القدامى إلى اللغة العربية وتعرف العرب عليها ، مما جعل لهم معرفتهم الخاصة بهذا العلم .

والفلسفة الإسلامية تصدت لمعالجة المسائل التقليدية الكبرى ، وهي مسألة الإله والعالم والإنسان . وفصلت القول فيها . وقد ظهرت هذه الفلسفة الإسلامية متأثرة بالبيئة العربية الإسلامية التي قامت بها ، والظروف المحيطة بها ، كما استعانت هذه الفلسفة بما وصل إليها من دراسات فلسفية سابقة . وقد أصبحت للفلسفة الإسلامية خصائص معينة وهي كالآتي :

١ - هي فلسفة دينية وروحية تقوم على أساس من الدين ، فقد نشأت في قلب الإسلام وتربى رجالها على تعاليمه . وفضلاً عن هذا فكثيرًا ما لجأ فلاسفة الإسلام إلى دعم آرائهم بأسانيد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وقد جاءت الفلسفة الإسلامية امتداداً لأبحاث دينية ودراسات كلامية سابقة ، والدراسات الكلامية في صميمها باب من أبواب الفلسفة ، ولا يكون من الصواب القول بأن الفكر الفلسفي الإسلامي لم يظهر إلا في القرن الثالث للهجرة على أيدي الفيلسوف الكندي والملقب بفيلسوف العرب . وإنما سبقه مفكرون آخرون أصحاب مذاهب فلسفية

مكتملة من علم الكلام والمعتزلة بالذات مثل أبي الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م) .

٢ ـ فلسفة عقلية حيث كانت إلى جانب طابعها الديني تعتد بالعقل اعتداداً كبيراً ، ويبرز ذلك في تفسير مشكلة الألوهية والكون والإنسان . فالموضوعات الكبرى التي اهتمت بها الفلسفة عموماً وردت في القرآن الكريم الذي أكدت العديد من آياته على تعظيم العلم والحكمة . حيث جاءت مشتملة على الأمر على القراءة «اقرأ باسم ربك» ، والإشارة إلى الخالق وقدراته «إن في خلق السماوات والأرض لآيات لأولي الألباب» ، والتنبيه إلى تشكل الصورة الإنسانية من بداية بسيطة تطورت عنها «لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . . .» ، ثم فضل الله بتعليمه الانسان العلوم المختلفة ونعمه التي لا تعد ولا تحصى «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» .

٣ ـ فلسفة علمية لارتباطها الوثيق بالعلم وقضاياه المتعددة . وفي البحوث العلمية مبادئ ونظريات فلسفية ، وكان فلاسفة الإسلام يعتبرون العلوم العقلية جزءاً من الفلسفة ، ومن أفضل الأمثلة على ذلك «كتاب الشفاء» لابن سينا ، فقد كان موسوعة فلسفية عربية . وكان يشتمل على أربعة أقسام أولها عن المنطق ، والثاني عن الطبيعات ، والثالث عن الرياضيات ، والرابع عن الإلهيات ، هذا وكان فلاسفة الإسلام علماء ، ومن بينهم علماء مبرزون ، فالكندي عالم قبل أن يكون فيلسوفاً ، وقد عنى بالدراسات الرياضية قبل أن يدرس أي شيء آخر ، ويمكن أن نلاحظ أن الحركة العلمية في الإسلام سبقت الدراسة الفلسفية ، وكان ذلك طبيعياً ، فلابد أن يعيش الإنسان ويتعلم قبل أن يتفلسف .

٤ ـ محاولة الفلاسفة المسلمون التوفيق بين ثقافتهم الإسلامية والفلسفات الأخرى . وقد قرءوا في الفلسفات الشرقية القديمة وكذلك فلسفات

اليونان ، وعنوا بشكل خاص بأفلاطون وأرسطو وترجموا لهما الكثير ، ثم عمد المسلمون إلى شرح كتبهم والتوفيق بين آرائهم والعقيدة الإسلامية .ومن أشهر من نبغ في الفلسفة في الإسلام في المشرق الكندي / ت حوالي ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) والفارابي (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٨م) والغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٢م) .أما في المغرب والأندلس فقد ظهر فيه من عظماء الفلاسفة مثل ابن باجة (ت٥٢٣هـ/ ١١٣٨م) وابن طفيل (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) ، وابن رشد (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) الذي يعتبر أشهر فلاسفة الأندلس .

٣ـ علم الرياضيات :

ومن العلوم التي طبق المسلمون منهجهم العلمي التجريبي عليها علم الرياضيات ، ومن المعروف أن هذا العلم قد قطع أشواطاً طويلة قبل أن يستقر على وضعه الحالي ، فقد وصلت الأمم القديمة إلى معرفة متواضعة في بعض التصورات والمبادئ العامة في هذا العلم وذلك عن طريق النظر العقلي والتجريدي .

وكاد أن ينسى ما توصلت إليه الحضارات القديمة من معرفة متقدمة في هذا العلم ، لولا جهود علماء الحضارات اليونانية مثل ارخميدس (القرن ٢ق .م) وهيرون (القرن ١م) وغيرهم ، ويعد اقليدس (القرن ٣ق .م) أول من نسق علم الرياضيات عند اليونان بعد أن كان هذا العلم عبارة عن نظريات متفرقة . كما يعد فيثاغورث (فيما بين القرنين ٥ـ٦ ق .م) واضع حجر الأساس لعلم الرياضيات في بلاده .

أما العرب قبل الإسلام فكانت ممارستهم لمهنة التجارة اقتضت عليهم ضرورة الإلمام ببعض الحروف الأبجدية للدلالة على الأرقام التي لم يعرفوها كأعداد ومثال ذلك ٢٠٠٠ = بغ ، ٤٠٠٠ = دغ ، ٢٠٠٠٠ = كغ ، ١٠٠٠٠٠ = قغ وهكذا .

وقد استمر استخدامهم هذه الحروف الأبجدية للدلالة على الأعداد حتى توصلوا إبان النهضة العلمية في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية إلى معرفة الأعداد الغبارية والهوائية . فبعد ظهور الإسلام وازدهار حضارته أصبح دور المسلمين في العلوم الرياضية مثل الحساب والجبر وحساب المثلثات واضحاً ، والمعروف أن المسلمين بنوا معارفهم في الرياضيات على أساس من علوم اليونان والهنود ، إلا أنهم نهضوا بهذه العلوم ، وخطوا بها خطوات واسعة إلى الأمام .

علم الحساب :

وحين نستعرض التقدم الذي حققه العلماء المسلمون في كل علم من علوم الرياضيات على حدة ، نجد أنهم حققوا تقدماً كبيراً في علم الحساب الذي كانت له أهمية كبيرة لدى المسلمين حيث أنه علم ارتبط بمسألة تقسيم المواريث ، والأعمال التجارية ، وحسابات دواوين الخراج ، التي ظلت حتى سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م تستخدم لغات الأقاليم التابعة للخلافة دون تغير ، وبالإضافة إلى هذا رغبتهم في التوصل إلى طريقة أحدث للأرقام من طريقة الحروف الأبجدية التي كانوا يستخدمونها .

ولا شك في أن المسلمين خطوا بهذا العلم خطوات كبيرة إلى الأمام ، وأضافوا إلى معلومات اليونان فيه الكثير من النظريات التي أخذتها أوروبا عنهم بعد ذلك ، وكمثال على تقدمهم في هذا العلم توصلهم إلى طريقة سهلة لإجراء الضرب ، هي طريقة الشبكة ، وهي طريقة تمتاز بسهولة استخدامها وبساطتها .

ومن أهم ما توصل إليه العلماء المسلمون في هذا المجال طريقة الحساب بالأرقام أي طريقة العد المعروفة الآن ، بدلاً من طريقة حساب الجمل التي كانت سائدة عندهم في العصور القديمة ، وذلك حين اطلع العرب على طريقة الحساب المعروفة لدى الهنود فوجدوها أفضل من طريقتهم في الحساب

فأخذوها عنهم كما أخذوا الصفر أيضاً . وربما كانت ترجمة الفزاري للمراجع الهندية السبب في معرفة العلماء المسلمين للأرقام الهندية التي تقوم على القيمة العددية للرقم في الوضع الذي هو فيه سواء في الآحاد أو العشرات . ومن الجائز كذلك أنه قد ساعد على نشرها في أنحاء الدولة الإسلامية الجداول التي كتبها عالم الرياضيات المشهور موسى بن محمد الخوارزمي (ت٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) الذي يرجع إليه الفضل في وضع الأرقام الهندية في متناول الجميع من خلال مؤلفاته وكتبه في الحساب حيث بين فوائدها وعدد مزاياها . ولذا ظل علم الحساب يعرف في أوروبا باسم الغورتمي نسبة إليه إلى وقت طويل .

ورغم معرفة المسلمين بالأرقام بالهندية على يد الخوارزمي وغيره من العلماء المسلمين إلا أن استعمال العد بالأرقام بينهم لم يتحقق إلا في القرن الرابع الهجري .

والجدير بالذكر أنه عن طريق العرب المسلمين عرفت أوروبا العد بالأرقام ، وذلك في القرن الخامس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . وقد أخذت أوروبا الصفر من المسلمين باسمه CIPHER ، الذي حُرّف إلى CHEFFRE ، ثم تحول اللفظ إلى ZYPHRE ، ومن ثم وصل إلى وضعه النهائي الذي عليه الآن وهو ZERO .

ومن المعروف أن للصفر فوائد عظيمة منها أنه أصبح بإمكاننا حل الكثير من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات ، مما ساعد على تقديم العلوم المختلفة ، كما أدى إلى سهولة جميع العمليات الحسابية .

وليس ثمة وجه للمقارنة بين سهولة استعمال الأرقام الهندية التي طورها المسلمون ، وصعوبة حساب الجمل فمن السهولة بمكان تركيب أي عدد مهما كان كبيراً من الأرقام الهندية أو العربية . وتقوم هذه الأرقام على النظام العشري الذي ابتكره العرب بدلاً من النظام الستيني الذي كان شائعاً قبلهم ، حيث تتغير قيمة العدد وفقاً لموقعه في خانة الآحاد أو العشرات أو المئات وهكذا .

وهناك نوعان من هذه الأرقام :

أولاهما : يعرف بالأرقام الهندية : وهي المستعملة حالياً في الأقطار العربية ، وثانيهما يعرف بالأرقام الغبارية ، وهي الأرقام التي انتشرت في المغرب العربي والأندلس ، ومن ثم في أوروبا وعرفت فيها بالأرقام العربية لأن الأوروبيين أخذوها عن العرب الذين يرجع إليهم الفضل في تبسيط استخدام الكسور العشرية وكان علماء الهنود يكتبون البسط والمقام دون وضع شرطة (فاصلة) بينهما ، فأدخل المسلمون الخط الفاصل بين البسط والمقام كما ابتكروا علامة الكسر العشري على يد غياث الدين الكاشي . وتعني هذه العلامة «π» النسبة بين محيط الدائرة وقطرها .

الأرقام الغبارية العربية بشكلها الأصلي .

الأرقام الغبارية بعد أن حذف الأوروبيون منه النقط .

وقد وضع العرب المسلمون أسس علم الحساب من جمع وطرح وضرب وكسور وغيرها ، وعرفوا النسب العددية والهندسية . ولهم مؤلفات عديدة في علم الحساب ترجمت إلى اللغات الأجنبية .

علم الجبر والمقابلة :

الجبر يعني جبر الأعداد (أي حسابها) . والمقصود به استخراج المجهول من العلوم . وكان العرب المسلمون هم أول من استعمل كلمة جبر للدلالة على هذا العلم ، وما تزال كلمة (ALGEBRA) مستعملة في اللغات الأجنبية إلى الآن .

وعرف العرب المسلمون علم الجبر بأنه العلم الذي يحتفظ بتوازن المعادلة ، وعامة هو العلم الذي يناقش الكميات باستخدام حروف ورموز عامة . وهي الطريقة العلمية التي سهلت اكتشاف المجهول من المعلومات المعطاة إذا وجدت بينهما علاقة . وقد حقق استعمال الرموز أو الحروف الأبجدية للدلالة على الأرقام طفرة هائلة في الرياضيات .

ومن العلماء المسلمين الذين برزوا في هذا العلم الخوارزمي الذي كان أول من ألف في علم الجبر بطريقة منتظمة ، واستعمل فيه رموزاً للجذور ، والمربع والمكعب ، والمجهول . ثم قام من جاء بعده من العلماء المسلمين بتطوير ما توصل إليه الخوارزمي في هذا العلم .

ومن إنجازات المسلمين في هذا العلم أنهم اكتشفوا أصوله وأضافوا إليها ، وحولوها تحويلاً تاماً مما جعله علماً قائماً بذاته ، وفرقوا بينه وبين علم الحساب ووضعوا فيه كتباً خاصة من أهمها كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي الذي نقله إلى اللاتينية روبرت الشستر عام ١١٤٥م ، وقد ظل هذا الكتاب يدرس في مدارس أوروبا وجامعاتها حتى القرن السادس عشر الميلادي . وكذلك معرفتهم بالعلاقة بين الجبر والهندسة ومن ثم تطبيق هذا العلم على علم الهندسة ، وتوصلوا إلى حل معادلات من الدرجة الثالثة والرابعة .

ومن أشهر علماء المسلمين في هذا العلم محمد بن الحسن الكرخي عاش في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . وأشهر كتبه «الفخري في الجبر والمقابلة» ، وعمر إبراهيم الخيام (عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) ، والذي اشتهر كفيلسوف وشاعر وفلكي وعالم في الرياضيات .

علم الهندسة :

بدأ نشاط العرب المسلمين في هذا العلم في أوائل العصر العباسي . حيث تم في هذا العصر نقل المراجع الهندسية اليونانية ، ومنها كتاب «أصول الهندسة لاقليدس» وهو كتاب يبحث في هندسة الأشكال الكروية ، والذي حاول فيه أن يجمع خلاصة أبحاث اليونان في هذا الميدان . والذي نقله الأوروبيون عن النسخة العربية حيث ضاعت النسخة اليونانية .

ولم يقتصر دور المسلمين على ما عرفوه في الهندسة على ما أخذوه من اليونان بل جددوا ، وأضافوا إضافات جديدة لم يتوصل إليها اليونانيون أو غيرهم . ومنها على سبيل المثال : برهنة فرضية التوازي التي لم يستطع إقليدس أن يثبتها أو يقدمها على هيئة نظرية . كما أضاف نصر الدين الطوسي بعداً رابعاً لنظرية «الحيز الزائد» وهي النظرية التي تضيف الزمان إلى الأبعاد الثلاثة وهي الطول والعرض والارتفاع . وإثباته كروية الأرض . وأضاف البيروني برهانًا جديدًا على حساب مسافة المثلث بدلالة أضلاعه . كذلك سخر ابن الهيثم الهندسة في بحوث الضوء ، وفي تعيين نقطة الانعكاس في أحوال المرايا الكروية والأسطوانية والمخروطية والمحدبة منها والمقعرة .

لقد قسم العلماء المسلمون الهندسة إلى قسمين : هندسة عقلية وهي ما يعرف الآن بالهندسة النظرية وهندسة حسية ، وهي ما يعرف اليوم بالهندسة التطبيقية . هذا ، وللعرب مؤلفات كثيرة في علم الهندسة .

علم حساب المثلثات :

وهو علم يبحث في الزوايا ، وعلاقتها بالأبعاد ، وتقوم فكرته الأساسية على قياس المساحات الكبيرة ، والمسافات الطويلة بطريقة مباشرة كقياس الأهرام مثلاً . وقد سماه المسلمون علم «النسب» وكان هذا العلم يرتبط بعلم الفلك ، ولم يستقل عنه كعلم قائم بذاته إلا في عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م . ويعد هذا العلم

علماً عربياً إسلامياً ، وذلك لإنجازات العرب فيه . وبلوغهم مستوى جعلهم يستطيعون حل المثلث الكروي ، و«المستوى» . كما وضعوا المؤلفات الكثيرة فيه مثل مؤلف ابن الهيثم الذي أسماه «علم البصريات» الذي ظل مرجعاً وحيداً في هذا الميدان لفترة طويلة .

وتعد إنجازات العلماء المسلمين في هذا العلم رائدة ومفيدة ، ومن هذه الإنجازات على سبيل المثال ، ما توصل إليه الخوارزمي من طريقة هندسية لإيجاد الجذور أو الحلول للمعادلات ذات الدرجة الأولى والثانية ، وما وضعه البتاني من نظريات أصيلة ، وبحوثاً مبتكرة وما ألفه البيروني (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) فيه خاصة رسالته في «استخراج الأوتار في الدائرة» وقد نقل الأوروبيون معظم مؤلفاته إلى اللاتينية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والذي يقول عنه «السخاوي» أنه ذو عقلية جبارة ، بل أنه أعظم عقلية عرفها التاريخ .

وخلاصة القول ، أن العلماء المسلمين قطعوا شوطاً بعيداً في علم الرياضيات ، وأن أوروبا استفادت من كتبهم وأبحاثهم فائدة جمة وأن كتبهم تدل على مدى اتساع معرفتهم ودقة أبحاثهم في هذا العلم .

علم الفلك :

اهتمت معظم الأمم القديمة كالهنود ، والكلدان ، واليونان والفرس ، وغيرهم بعلم الفلك ، وربطته بعضها بالتنجيم . ولقد شهد هذا العلم نهضة حقيقية في عصر البطالسة في القرن الثالث ق .م في مدينة الإسكندرية .

وفي حقيقة الأمر ، إن مساهمة اليونانيين الفعالة لم تتجلَ في هذا العلم بصورة واضحة إلا في القرن الخامس ق .م حيث توصل علماؤها الفلكيون إلى عدة حقائق مثل : تعيين مواقع الأجرام السماوية ، وقياس أبعاد الشمس والقمر ، وقياس طول محيط الأرض عن طريق رصد الشمس وغيرها من الحقائق العلمية التي توصلوا إليها . وبذلك صار لهم فضل كبير على تقدمه .

هذا ، ولم تكن للعرب قبل الإسلام في هذا العلم دراسات منظمة أو مراصد قائمة على أساس الأجهزة العلمية وغيرها فقد كانت معلوماتهم في علم الفلك لا تزيد عن معرفة الضرورات مثل معرفة أسماء النجوم ، والأشهر القمرية ، والنظر إلى ظاهرتي الكسوف والخسوف . وقد استعانوا بهذه المعارف في معرفة الطرق في الصحراء ولا سيما في الليل وقد ربطوا بين علم الفلك والتنجيم ، حتى أنهم أسموه بعلم التنيجم .

ولكن بمجيء الإسلام ، وورود العديد من القضايا الفلكية في القرآن الكريم ، وظهور حاجة المسلمين إلى معرفة أمور يبحثها هذا العلم مثل تحديد اتجاه القبلة ، وتحديد مواسم الأعياد ، وحساب الأشهر والسنين ، ومعرفة مواقيت الصلاة ، وتحديد بدايات أشهر الصوم ، وبداية الحج وغيرها من الأمور التي تطلبت معرفتها ، وذلك لارتباطها بممارسة العقائد الإسلامية ، لذا كان على علماء المسلمين بذل المزيد من الاهتمام بهذا العلم والاجتهاد فيه .

بدأ اهتمام المسلمين بهذا العلم منذ عصر الدولة الأموية ، وذلك انطلاقاً من اهتمام خالد بن يزيد بن معاوية بعلم الفلك ، إلا أن النهضة الشاملة الحقيقية فيه حدثت في العصر العباسي ، خاصة بعد أن ترجمت الكتب والمخطوطات التي جلبها المسلمون من بلاد اليونان ، وفارس والهند وغيرها ، ولم يأخذ العلماء المسلمون المعلومات التي استقوها من الحضارات السابقة عليهم ، والمعاصرة لهم في هذا العلم دون تمحيص ونقد ، بل عمدوا إلى دراستها وتصحيح ما وجدوه فيها من أخطاء شائعة . وتبع ذلك وصولهم إلى معرفة معلومات جديدة أصيلة ونتائج باهرة لم يعرفها غيرهم من قبل . وساعد العلماء المسلمون على تفوقهم في علم الفلك أمران :

أ - تفوقهم في العلوم الرياضية والطبيعية .

ب - إنشاءهم مراصد لرصدهم النجوم في مدنهم المختلفة مثل بغداد ، ودمشق وطليطلة وقرطبة وغيرها من المدن الإسلامية وفي تلك المراصد استخدم

الفلكيون المسلمون أجهزة وآلات بالغة الدقة منها مقياس الارتفاع ، والاسطرلاب والمزولة وغيرها .

ومن أهم ما تمت ترجمته من الكتب الفلكية كتابا المجسطي لبطليموس السكندري ، والسندهند أو «السندهات» وهو كتاب يمثل معظم أرث العلماء الهنود في علم الفلك ، وأهمية كتاب بطليموس تكمن في أنه اشتمل على معظم المعلومات الفلكية اليونانية السابقة التي استقاها العلماء اليونانيون من الحضارات السابقة عليهم ، والمعاصرة لهم كما ضمنه ما توصل إليه علماء اليونان في هذا العلم بطبيعة الحال . أما كتاب السندهند ، فهو في حقيقته ليس كتاباً واحداً ، وإنما كان عبارة عن خمسة مؤلفات منفصلة جُمعت في كتاب واحد ، ويُعد أحد المذاهب الهندية في علم الفلك وهو المذهب الذي تبناه العلماء المسلمون بعد ذلك .

وقد نبغ من العلماء الفلكيين المسلمين كثيرون مثل :

١ - أحمد بن إبراهيم الفزاري (عاش فيما بين القرنين الثاني والثالث الهجري/ الثامن والتاسع الميلاديين) الذي كان من مآثره أنه ترجم بالاشتراك مع يعقوب بن طارق كتاب «السندهند» وصنع الاسطرلاب ، وهو جهاز يستعمل في رصد الأجرام السماوية ، وهو عبارة عن آلة تستخدم في تحديد ارتفاعات الكواكب من الأفق ، وتعيين الزمن ، وتتكون من قرص معدني مقسم إلى درجات ، ويدور على هذا القرص مؤشر ذو ثقبين في طرفيه ويعلق الاسطرلاب من حلقة مثبتة بشكل رأسي مع توجيه المؤشر نحو الشمس وعندما تمر أشعة الشمس من هذين الثقبين يقرأ ارتفاع الكواكب من المكان الذي يقف عليه المؤشر . كما كتب عدة مؤلفات فلكية أهمها كتاب في وصف جهاز الاسطرلاب أسماه كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح كما وضع كتاب في التقويم أسماه الزيج ، وهو اسم اشتقه

المسلمون من كلمة فارسية هي «زيك» من ضمن معانيها الدراسات في الفلك والجداول الفلكية .

٢ ـ الفرغاني (عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) وهو من أعظم العلماء الفلكيين المسلمين ، ومن أهم أعماله أنه حدد قطر الأرض وأقطار بعض الكواكب كما حدد الأبعاد بينها . وقام بأبحاث في تحديد طول السنة تحديدا مضبوطا ، وأطوال الليل والنهار ، وحركات الكواكب والنجوم . وألف كتابا في علم الفلك ترك أثرا كبيرًا في الغرب الأوروبي ، وظل متداولاً هناك حتى القرن الخامس عشر الميلادي .

٣ ـ عبدالله محمد بن جابر البتاني (ت٣١٧هـ/ ٩٢٩م) ويعد من أكبر العلماء الفلكيين المسلمين وكان من العلماء الذين صححوا أخطاء لبطليموس السكندري في هذا المجال وله رسالة هامة في علم الفلك اشتملت على مختصر للنسب المثلثية أدخل فيها الجيب والظل كما وضع بحوثاً مبتكرة في هذا العلم ، وعلم الرياضيات أيضا . وإنجازاته في علم الفلك كثيرة لا تحصى إلا أن جهوده في رصد أوقات الكسوف والخسوف مميزة ومن أهم كتبه كتاب أسماه بالزيج الصابي ، والزيج يعني جداول لحركة الكواكب كان له صداً كبيراً في المشرق الإسلامي ، وأوروبا حتى مطلع العصور الحديثة ، وقد ترجم كتابه هذا إلى اللاتينية عدة مرات وعده العالم الفلكي الأوروبي لالاند من أشهر علماء الفلك في العالم .

٤ ـ أبو الريحاني البيروني (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) وهو من أبرز العلماء المسلمين في مجال علم الفلك وعلوم أخرى أهمها الرياضيات والفيزياء . وإنجازاته في هذا العلم بارزة خاصة دراسته التي أعدها في كتابه الذي أسماه «القانون المسعودي» وهو من أشهر كتبه والذي يتناول فيه قطر الأرض ، وبين فيه كذلك أن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت ، كما تطرق إلى نظرية دوران الأرض حول محورها وله دراسات أخرى كثيرة

أهمها تلك التي حدد فيها بشكل دقيق خطوط الطول والعرض ومقدار محيط الكرة الأرضية .

٥ - محمد بن موسى الخوارزمي (ت٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) ويعد من أنبغ علماء المسلمين في علم الفلك رغم نبوغه أيضا في علم الرياضيات . ومن أهم أعماله قياس محيط الأرض ، ووضع جداول فلكية ضمنها كتابه المعنون بـ «السندهند الصغير» وهو كتاب مختصر عن الكتاب الأصلي الذي جلبه المسلمون من الهند وقد عدل فيه الخوارزمي التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على الطريقة الفلكية الفارسية ، ولكنه سار على نهج العلماء اليونانيين حين اتبع ميلهم في حساب ميل الشمس كما ساهم في قياس محيط الأرض مع علماء آخرين وكان من مآثره الجليلة أنه رسم صورة للأرض بطريقة أدق من طريقة بطليموس .

٦ - نصر الدين الطوسي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) ويعد من النبهاء في علم الفلك . ومن إنجازاته أنه وضع تقاويم فلكية تختلف عما كان دارجاً من قبله من تقاويم وقد أخذت تقاويمه هذه شهرة كبيرة لدرجة أنها انتشرت في بلدان عديدة من ضمنها الصين .

٧ - عمر بن الخيام (ت٥٢٦هـ/ ١١٣١م) اشتهر في مجالات كثيرة منها الرياضيات ، والشعر الذي ذاع صيته فيه ، وعلم الفلك الذي وضع فيه كتاب مشهور أسماه «الطريق الجلالي» نسبة إلى السلطان جلال الدين شاه»صحح فيه التقويم الفارسي القديم ، ووضع تقويما سنويا جديدا عرف باسم التقويم الجلالي ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن تقويمه هذا دقيقاً إلى درجة تضاهي دقة التقاويم الحديثة ، وذلك لأن التقويم الحديث الذي لدينا الآن يؤدي إلى فرق يوم كل ٣٣٣٠ سنة ، بينما الفرق في تقويم عمر بن الخيام يوم كل ٥٠٠٠ سنة .

ولا شك في أن جهود العلماء المسلمين في علم الفلك أدت إلى النهوض بهذا العلم ، والتقدم به خطوات واسعة إلى الأمام ، وما ذكرناه من أسماء لعلماء هي على سبيل المثال لا الحصر . فمن نبغ من العلماء المسلمين في هذا العلم عدد كبير لا يحصى .

ومن مآثر العلماء المسلمين في علم الفلك عديدة منها مثلا : أنهم عرفوا المزاول الشمسية والساعات المائية والرملية لتحديد الوقت وأنهم استخرجوا بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النار ، وهي من أعظم منجزاتهم ، وذلك لأنها ساعدت على معرفة نظرية دوران الأرض حول محورها كما استطاعوا تعيين انحراف سمت الشمس تعيناً دقيقاً حدوده بـ ٢٣ درجة ، وثلاث وثلاثين دقيقة و٥٢ ثانية ، وهو تقريباً نفس الرقم الذي توصل إليه علماء الفلك في العصر الحديث كما وضعوا جداول تبين مواقع الكواكب السيارة . وجداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت .

وهذا قليل من كثير من الإنجازات العلمية التي تحققت على يد علماء الفلك المسلمين ويكفيهم فخراً أن علم الفلك الحالي ما زال يزخر بمصطلحات فلكية ، وأسماء كواكب وأبراج تحمل أسماء ذات أصل عربي مما يشهد على فضل علماء المسلمين على هذا العلم وكأمثلة على بعض هذا الأسماء :

١ ـ الغـول ALGOL ٢ ـ العقـرب AKRAB ٣ ـ الراقـص WL-RAKIS
٤ ـ الغراب AL-GORAB ٥ ـ صدر الدجاجة SADER ٦ ـ الكف CAPH .

الطبيعة (الفيزياء)

هو علم يعنى بدراسة المادة ، والطاقة وتفاعلاتها ويعالج كثيراً من الظواهر الطبيعية المرتبطة بطبيعة المواد ، والصوت ، والضوء ، والمغناطيسية ، والحركة ، والروافع وغيرها من الظواهر التي تفسر كثيراً من طبيعة الكون وخصائص المواد التي تخدم الإنسان في حياته بشكل خاص .

على أية حال ، نقل العلماء المسلمون في هذا المجال عن اليونان الكثير مثل انكسار الضوء ، والجاذبية ، والثقل النوعي ، وغيرها من المباحث الطبيعية كما استفادوا منهم وخاصة ما توصلوا إليه من نتائج نقلوا بعضها إلى اللغة العربية بعد أن صححوا ما فيها من أخطاء ، وأكملوا ما بدأه العلماء اليونان من بحوث علمية في هذا العلم كما أنهم توصلوا إلى ما لم يتوصل إليه غيرهم من الأمم المتحضرة في علم الطبيعة .

وإذا كان لعلماء اليونان الفضل في أنهم وضعوا المبادئ الأولية في علم الطبيعة ، فإن للعلماء المسلمين الفضل الكبير في حفظ تراث الحضارات السابقة ومنها الحضارة اليونانية في هذا العلم وغيره من العلوم الطبيعية خاصة بعد أن فُقدت الأصول الأولى اليونانية في هذه العلوم هذا من ناحية ، ومن جهة أخرى يرجع كذلك الفضل للعلماء المسلمين في إيضاح ما غمض في علم الطبيعة وتصحيح ما اكتشفوه من أخطاء فيه ، ثم تهذيبه ، والتعريف به .

وقد لا يستطيع الباحث المدقق أن يحصر المجالات العديدة التي تناولها علماء الطبيعة المسلمون فقد بحثوا في جميع الظواهر الطبيعية فدرسوا ظاهرتي المد والجزر ، والزلازل ، والبراكين ، والضغط الجوي ، والرياح ، والأعاصير ، كما بحثوا في السحب والمطر والرعد . وتناولت دراساتهم آلات الجر والرفع والسحب ، وآلات الحركة ، وصنعة الأواني العجيبة والساعات والموازين ، وغيره

من الظواهر التي قادتهم بدورها إلى دراسة الصوت والضوء ، والذي عرف عندهم بعلم البصريات أو علم المناظر .

وتناول العلماء المسلمون هذا العلم تناولاً يختلف عما كان عليه في الحضارات الأخرى . وذلك أنهم لم يدرسوه على أساس أنه علم يبحث في مبحث واحد بل جعلوه مباحث عدة ، وبالتالي قسموه إلى عدة فروع علمية تكون على النحو الآتي :

١ ـ علم الحيل (الميكانيكا) :

وهو علم يبحث في حركة الأجسام أو تغير مواضعها ، ولذلك يعد مدخلا لجميع فروع علم الفيزياء ، وأساساً لفهم الظواهر الطبيعية ومن أشهر من كتب في الميكانيكا ابن سينا في كتابه «الشفاء» وبان المرزبان في كتابه «التحصيل» ، وابن الهيثم في كتابه «المناظر» .

٢ ـ علم الوزن النوعي والموازين :

وهذا العلم يدل عليه أسمه من حيث أنه علم يبحث في الأوزان النوعية للمواد الصلبة والسائلة وقد عين العلماء المسلمون بعض هذه المواد بدقة بالغة تطابق ما عليه أوزانها في وقتنا الحاضر ، ويعد أبو الريحان البيروني من أشهر من بحثوا في هذا النوع من العلوم ، كما برع المسلمون بدراسة مراكز الأثقال لعمل الموازيين . وكانوا يعرفون منها أنواعاً متعددة مثل الميزان العادي ، والقديم المعروف بالقبان ، ومن العلماء المسلمين الذين عنوا بدراسة هذا النوع من الدراسات أخوان الصفا الذين بحثوا في دراسة الأوزان باهتمام كبير ، وكذلك «الخازن» (عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) في كتاب له أسماه «ميزان الحكمة» وضح فيه أنه كان محيطا بأدق المبادئ التي يقوم عليها اتزان الميزان .

٣ ـ علم الجاذبية والضغط الجوي :

يبحث هذا العلم ظاهرة الجاذبية والعلاقة بين ثقل الجسم المجذوب ، والمسافة التي يقطعها ، والزمن الذي يستغرقه الجسم في عملية الجذب . أي أن حركة المقذوفات إلى أعلى تعاكس فعل عجلة الجاذبية الأرضية .

ويعد هبة الله البغدادي من أبرز العلماء الذين درسوا موضوع الجاذبية الأرضية في كتابه «المعتبر في الحكمة» وحسن الهمذاني (عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) في كتابه «كتاب الجوهرتين العقيقتين من الصفراء والبيضاء» .

٤ ـ الخاصية المغناطيسية :

توصل علماء الطبيعة المسلمين إلى معرفة خاصيتي المغناطيسية الجاذبية ، والاتجاه بأحد طرفي المغناطيس نحو الشمال والآخر نحو الجنوب . وقد استغلوا معرفتهم بهذه الخاصية في صنع البوصلة التي استخدموها في أسفارهم البحرية ورحلاتهم البرية .

٥ ـ البصريات (علم المناظر) :

وهو علم يبحث في الضوء ، والبصريات ، والمرايا المحرقة ، والمقطوع ، وضوء القمر ، وغيرها من الأبحاث التي تتعلق بهذا العلم . ومن أهم من بحث في هذا المجال الحسن بن الهيثم (عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) وقد تناول في كتابه «المناظر» عملية كيفية رؤية العين للأشياء وانكسار الضوء وانعكاسه .

وتعد أبحاث الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) رائدة في هذا المجال . فقد كان ابن الهيثم أول من أنشأ علم البصريات بالمعنى المتعارف عليه والحدود التي هو عليها الآن . وقد حظي كتابه الموسوم «بالمناظر» قبولاً جيداً لدى

الأوروبيين في العصور الوسطى ، حيث تُرجم أكثر من خمس مرات إلى اللاتينية وأكثر من مثلها إلى لغات أخرى .

إنجازات علماء المسلمين في علم الطبيعة :

ومن إنجازات العلماء المسلمين في علم الطبيعة ، إنهم توصلوا إلى أن الضوء يسبق الصوت ، وبرهنوا على ذلك برهنة علمية سليمة ، كما شرحوا ظاهرة قوس قزح شرحاً علمياً دقيقاً على أن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد . ومن مآثرهم العلمية أنهم سبقوا نيوتن في معرفة قوانين الجاذبية الأرضية ، تلك القوانين التي أثبتها وبرهن عليها كثير من علماء الطبيعة المسلمين مثل : محمد بن زكريا الرازي (ت٣٢٠هـ/ ٩٢٣م) ، وثابت بن قره الحراني (ت٢٨٨هـ/ ٩٠١م) ، والخازن البصري (ت٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) .

ولا نذهب بعيدا عن الحقيقة إذا قلنا أن نيوتن ما استطاع أن يضع قوانين الجاذبية في صورتها الحالية المعروفة لولا إطلاعه على أبحاث المسلمين في هذا المجال .

ومن منجزات المسلمين في هذا العلم أيضا أنهم عينوا الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعاً من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي تزيحه ، وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية ، والآبار الارتوازية بما يسمى نظرية الأواني المستطرقة ، وتصحيح أخطاء وردت في نظرية إقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسل الشعاعات البصرية إلى الأجسام المرئية ، حيث أثبت ابن الهيثم في كتابه «المناظر» عكس ذلك . ووضع بذلك قواعد معرفتنا الصحيحة التي تنص على أن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد .

كما اقترب علماء الطبيعة المسلمين من فكرة العدسات المكبرة ، ولا شك

في أن علماء أوروبا اعتمدوا كثيراً على أبحاث ابن الهيثم وغيره من العلماء المسلمين في هذا العلم فترة طويلة من الزمن وصلت حتى أوائل العصور الحديثة ، وهذا ما وضح من مؤلفات ليونارد دافنشي (١٤٥٢ـ١٥١٩) ، ويوهان كبلر (١٥٧١ـ١٦٣٠) وغيرهم مثل : روجر بيكون (١٢٢٠ـ١٢٩٢م) الذي اعتمد على رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي (ت٢٥٢هـ/ ٨٦٧م) في دراسة البصريات .

هذا وغير خاف على المختصين ما كان لعلم الروافع في الحضارة العربية الإسلامية من أثر كبير في التراث الإنساني حيث خلف المسلمون دراسات متقدمة في مجاله ، ودراسات الخوارزمي في هذا العلم خير دليل على كلامنا هذا ، حيث أشار في كتابه المعنون «مفاتيح العلوم» لأنواع عديدة منها مع شرح دقيق لكيفية عملها بل أكثر من ذلك فقد توصل علماء الطبيعة المسلمين إلى فكرة نقل الهواء للصوت ، كما بينوا كيفية حدوث الصدى .

وأيا كان الأمر ، فكل الشواهد تؤكد على أن علماء المسلمين في علم الطبيعة هم الذين توصلوا إلى صنع البوصلة وليس الصينيين أو غيرهم حيث لم تؤكد المخطوطات أن البوصلة استخدمت قبل استخدام المسلمين لها في القرن الخامس الهجري(الحادي عشر الميلادي) في أسفارهم العديدة في البحر وتنقلاتهم ورحلاتهم في البر . ولا شك في أن اختراع البوصلة يعد من المآثر العظيمة للحضارة العربية الإسلامية في علم الطبيعة .

الطب :

من المعروف أن معلومات العرب الطبية قبل الإسلام لم تكن تقوم على أسس علمية سليمة ، كما كانت عليها لدى كل الأمم الأخرى كالهنود ، والكلدانيين ، والفرس واليونانيين وغيرهم . ولكن ذلك لا يعني أن العرب كانوا لا يعلمون شيئا في هذا الميدان . فقد كانوا على معرفة بكثير من الأمراض وبالحذق في فهم خصائص الأغذية ، والعلاج بها كالعسل وغيره . وبالإضافة إلى هذا عرفوا العلاج بالعقاقير النباتية والمعدنية والأشربة . كما لجأوا إلى

الحجامة والكي والعيافة ، والنار لبتر الأعضاء الميئوس من شفائها بواسطة حديدة محماة على النار تسمى «الحاسمة» وعالجوا لسع الحشرات ، والزواحف السامة كالثعابين عن طريق الشد على موضع اللسعة ثم مص الدم قبل أن يسري داخل الجسم ، وعرفوا كذلك علاج الأسنان وشدها .

ولجأ بعضهم إلى المنجمين ، والكهان ، والسحرة ، والعرافين ، وكبار السن ذو الخبرة يلتمسون عندهم العلاج . كما اشتهر عندهم بعض الأطباء الذين استفادوا من معلومات الشعوب المجاورة لهم في مجال العلوم الطبية من خلال اتصالهم بهم أثناء سفراتهم ورحلاتهم إلى بلدان تلك الشعوب .

ومن أشهر الأطباء عند العرب قبل الإسلام «الحارث بن كلده الثقفي المسمى بطبيب العرب ، والذي خلف كتابا في الطب أسماه «المجاورة في الطب» ومن بين المشهورين عندهم أيضا في تلك الفترة النظر بن الحارث بن كلده ، والشمردل بن قباب الكعبي ، وابن حذيم الذي كان طبيبًا مشهوراً لدرجة أنه ضُرب المثل به . وابن أبي رمثة التميمي وغيرهم ممن كانت لهم مكانة بين العرب بخبرتهم وعلمهم في الطب ، ومن هؤلاء من كانت له منزلة قريبة من الرسول ﷺ كالحارث بن كلدة .

ولا شك في أن أهمية الطب والتطبيب زادت في ظل الإسلام الذي قضى على الكثير من الاعتقادات الزائفة بالكهانة وغيرها . وأمر أتباعه بطلب الشفاء من الله سبحانه وتعالى عن طريق التداوي لدى الأطباء المتخصصين ، كما فعل النبي ﷺ حين أمر باستدعاء الطبيب المعروف «الحارث بن كلده» ، وهو لم يدخل الإسلام بعد ، لمعالجة سعد بن بي وقاص حين مرض في حجة الوداع . بل أكثر من هذا ، دعا الإسلام أتباعه باتباع أساليب الرعاية الصحية والوقاية من الأمراض المختلفة بشكل عام ، والمعدية منها على وجه الخصوص ، وهناك الكثير من الأحاديث النبوية تدعو إلى الوقاية من الأمراض مثل «إياكم والبطنة فإنها مكسلة للصلاة ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالاعتدال في قوتكم ، فهو أفيد من السرف ، وأصح للبدن . .» .

ومن هذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تدعو إلى العناية بالصحة والسعي وراء الشفاء لدى الأطباء المتخصصين دون اللجوء إلى الكهانة والعرافة والسحر والتنجيم وغيرها من الأمور التي تقوم على التضليل والخداع والخرافات وهي أمور نهى الأسلام عنها ، مما زاد من أهمية ومكانة الطب والأطباء في الدولة الإسلامية ، وانعكس أثره على الارتقاء بعلم الطب وخاصة بعد أن ترجمت أمهات الكتب الطبية اليونانية وغيرها التي جلبت من البلاد التي فتحها المسلمون إبان حركة الفتح أو تلك التي جلبوها من الدولة البيزنطية والهند وغيرها . وقد شهد علم الطب نهضة حقيقية منذ عصر الدولة الأموية حيث أخذ المسلمون بالجانب العلمي والتجريبي فيه وابتعدوا عن أعمال الكهانة والتنجيم وغيرها ، مما كان معروفا لديهم قبل الإسلام .

ولكن الازدهار الفعلي في هذا العلم عندهم تحقق في عصر الدولة العباسية حين قطعت حركة الترجمة من اللغات اليونانية والفارسية وغيرها إلى اللغة العربية شوطاً كبيراً ، وأصبحت بفضلها كتب جالينوس ، وهيبوقراط وغيرها في متناول أيديهم هذا من ناحية ، وتوافد العديد من الأطباء والعلماء المشهورين على بغداد عاصمة العباسيين من جنديسابور وغيرها من المدن التي شهدت نهضة متطورة في علم الطب عند الفرس واليونان من ناحية أخرى .

ولم يقنع الأطباء المسلمون بما وجدوه من معلومات طبية في كتب الفرس واليونانيين ، بل عدلوها ، وأضافوا إليها إضافات مبتكرة أصيلة توصلوا إليها عن طريق المشاهدة والتجربة والدليل والبرهان الحسي وأتبعوا في ذلك منهجاً علمياً سليما يعتمد على التجربة والملاحظة التي كانت ولا زالت حجر الأساس للتقدم العلمي لأي علم . وقد قادهم هذا المنهج العلمي التجريبي إلى التوصل إلى معرفة الكثير من الأمراض بشكل يقوم على الوصف الدقيق للأعراض المرضية لكل مرض على حدة ، ومن ثم إيجاد الدواء الناجح له .

وقد سطع في سماء الحضارة العربية الإسلامية عدد من كبار الأطباء المسلمين الذين ظلت كتبهم مراجع أصيلة تعتمد عليها جامعات أوروبا ومعاهدها العملية حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، ومن أبرز هؤلاء الأطباء :

١ ـ الشيخ الرئيس ابن سينا (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) والذي يعد من أهم الأطباء المشهورين ليس بين أطباء المسلمين فحسب ، ولكن أيضا بين أطباء العصر الوسيط قاطبة ، إلى درجة أنه لقب بأمير الأطباء وزعيمهم ، كما لقب بالمعلم الثاني في الطب تشبيهاً له بأرسطو المعلم الأول في الفلسفة . وترجع أهمية ابن سينا إلى براعته وعلمه الغزير وخبرته الطويلة في هذا المجال مما كان له أكبر الأثر على آثاره العلمية حيث ترك مؤلفات عديدة بلغت قرابة المائة كتاباً ، وكان بجانب نبوغه في الطب له باع طويل في الفلسفة التي ترك فيها مؤلفات هامة لا تقل عن مؤلفاته الطبية وغيرها . والحق أن ابن سينا يعد عالما موسوعيا إذ كتب في عدة علوم كالطب والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك والموسيقى ، والمنطق ، والكيمياء ، وسائر فروع المعرفة .

وامتازت مؤلفاته بصفة عامة بالدقة والتعمق والسلاسة ، وحسن الترتيب والتنسيق ، وهي كثيرة ومتنوعة أشهرها على الإطلاق «كتاب القانون» في الطب ، وذلك بفضل شموله وحسن تبويبه وتصنيفه ، وغزارة مادته وعمق معلوماته في حقل الطب وكتاب القانون كمؤلف ضخم يقع في خمسة أجزاء تناول ابن سينا فيها علوم التشريح ، ووظائف الأعضاء ، وطبائع الأمراض ، والصحة والعلاج . وقد قسم كل جزء منه إلى أبواب عنونها بفنون ، أي فن الأمراض ، فن طبائع الأمراض ، وهكذا . والحقيقة أن ابن سينا جمع في كتابه القانون ما عرفه الطب القديم إلى ما توصل إليه هو شخصيا في الطب من نظريات ، وطرق علاج وأدوية وما اكتشفه من أدوية . وجمع ابن سينا في كتابه

هذا بين الفكر اليوناني والفكر العربي الإسلامي ، وكان يمثل آخر ما وصل إليه علم الطب في زمانه . ولأهمية كتاب القانون تُرجم إلى اللاتينية على يد جيراردو الكريموني ، وطبع في أوروبا خمس عشرة مرة ، وظل المرجع الأساسي في جامعات أوروبا لغاية منتصف القرن السابع عشر الميلادي . مما يوضح المكانة السامية التي وصل إليها ابن سينا في الطب .

٢ ـ محمد بن زكريا الرازي (ت٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) وكان من أشهر الأطباء المسلمين الذين تميزوا بالصدق والنزاهة العلمية ، ووفرة التأليف وتعدد المجالات العلمية التي كتب فيها كالطب والكيمياء ، وعلم النفس والرياضيات ، والطب النفسي وغيرها . وللرازي مؤلفات كثيرة في الطب أشهرها كتاب «الحاوي» الذي ضمنه ملاحظاته السريرية (وهو ما يعني سير المرض وتطور حالة المريض الصحية بما هو معروف اليوم بالطب الأكلينيكي) . وقد انتشر كتابه هذا انتشارا واسعًا في أوروبا في نسختيه الخطية والمطبوعة ، وطبع عدة مرات في القرن الثامن عشر وإلى جانب كتاب «الحاوي» وجدت له كتب لا تقل عنه أهمية منها «كتاب المنصوري» نسبة إلى السلطان المنصور بن اسحق حاكم خراسان والذي وضعه في علم التشريح .

وإلى جانب كتابيه الحاوي والمنصوري ترك كتباً عديدة قارب عددها ستة وخمسين كتابا أو رسالة . لقد امتاز الرازي بالقدرة الفائقة في ملاحظة أعراض المرض ، وبالدقة الكبيرة في وصفها كما تميز بالتصنيف والبحث والتأليف الذي يعتمد على البحث العلمي الذي يقوم على الملاحظة والتجربة والبرهان . مما أتاح له أن يطبق معلوماته في الكيمياء على علمي الطب والصيدلة ، مما جعله يتوصل إلى نتائج باهرة في هذا الميدان .

لقد بحث الرازي في كثير من الأمراض كالأمراض التناسلية والتوليد ، وجراحة العيون وعلم التشريح ، وغيرها من الأمراض المعروفة آنذاك ، ووضع

كتباً متخصصة فيها منها كتابه عن «الجدري والحصبة» الذي نُشر في لندن سنة ١٨٤٨م ، وكتابه عن «الحصى في الكلى والمثانة» الذي نُشر أيضاً في لندن سنة ١٨٩٦م ، وكتابه «برء الساعة» والذي ذكر فيه طرق علاج جميع الأمراض التي يمكن شفائها في ساعة واحدة مثل الصداع ، والزكام ، والرمد ، ووجع الأسنان ، وعرق النسا ، وغيرها . هذا إلى جانب موضوعات عديدة خاض فيها وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك في أنه صاحب عبقرية فذة وأمانة وأصالة علمية بمنهج علمي تجريبي أصيل .

٣ ـ خلف بن عباس الزهراوي (٤٠٣هـ/ ١٠١٣م) وسمي بالزهراوي نسبة إلى مدينة الزهراء القريبة من قرطبة وهو من الأطباء المشهورين في الأندلس ، بل ويُعد أشهر أطباء الجراحة في العصور الوسطى سواء في الأندلس أو المشرق الإسلامي وله مؤلفات عديدة أهمها كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» الذي يعد موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزء مزودة بأكثر من مائتي شكل للأدوات والآلات الجراحية التي كان يستخدمها هو بنفسه في عملياته الجراحية المختلفة وكان معظمها من ابتكاراته الشخصية .

وقد تحدث في كتابه التصريف عن أهمية التشريح في الطب ، كما شرح العمليات الجراحية ووصف الآلات الجراحية المستخدمة فيها . وتناول أيضا في هذا الكتاب علاج الكي ، وطرق الشق ، والبضع في أمراض العيون ، والأسنان ، والحصاة في المثانة ، والفتق . كما بين فيه أنواع الرضوض ، والكسور والخلوع ، وطرق معالجتها . ولأهمية كتابه هذا ، ترجم إلى اللاتينية بالبندقية عام ١٤٩٥م وفي عدة مدن أوروبية أخرى خلال القرن الخامس عشر الميلادي . كما نشر الجزء الخاص بالجراحة من كتابه التصريف مرتين أولهما كانت في لندن عام ١٧٧٨م وثانيهما في مدينة «لكنو» في الهند عام ١٩٠٨م وللزهراوي أسبقية في معالجة كثير من الأمراض بواسطة الجراحة كاستئصال حصى المثانة في النساء

عن طريق المهبل ، والجراحات النسوية الخاصة فيما يتعلق بالولادة والتوليد وبجانب اهتماماته هذه ، اهتم كذلك بشق القصبة الهوائية ، وتفتيت الحصاة في المثانة .

ولا شك في أن الزهراوي رفع من شأن الجراحة وجعلها فرعاً أساسياً من فروع الطب كما أن الآلات التي ابتكرها وصنعها واستخدمها في الجراحات التي باشرها ساعدت على وضع حجر الأساس لعلم الجراحة في أوروبا بل في العالم .

٤ - علي بن أبي الحزم القرشي المشهور بابن النفيس (ت٦٩٦هـ/١٢٩٨م) ويعد عالم متخصص في أعضاء الجسم البشري ، كما كان عالماً في علوم أخرى بعيدة عن الطب كالحديث ، والفقه وغيرها لذا عُين مديرا للبيمارستان (المستشفى) المنصوري في القاهرة .

تكن أهمية ابن النفيس أنه كان عالما لا يتقبل المعلومة سواء في الطب أو غيره بدون إعمال عقله فيها . بل وأنكر ما لم يشاهده بنفسه أو يتماشى مع منطق عقله فأخضع ما وصله من علوم ممن سبقه من الأطباء مهما كانت شهرتهم إلى الملاحظة والتجربة العلمية الدقيقة لذا انتقد أطباء مشهورين كجالينوس الطبيب اليوناني المشهور ، وابن سينا العالم المسلم ذائع الصيت ، وبكل جرأة استطاع أن يبين الأخطاء التي وقع فيها كل منهما .

ترك ابن النفيس تراثاً هائلاً في الطب حيث ألف في الرمد ، وعن أسباب الأمراض وكانت له شروحات كثيرة لكتب المشاهير من الأطباء اليونانيين والمسلمين ، مثل شروحه لبعض فصول كتاب أبقراط ، إلا أن أشهر ما وضعه من كتب كتابه الموسوم «موجز القانون» وهو اختصار لكتاب القانون لابن سينا . والذي تُرجم إلى اللغة الإنجليزية وعدة لغات أخرى ، ومن مؤلفاته شرح تشريح القانون وفيه انتقد القيود المفروضة على المتخصصين في العلوم الطبية . ونادى

بالتجـربة والمشاهدة الحسية والبرهان ، وأنكر ما لم يصدقه عقله . كما كان له كتـاب أسـماه «الشـامل في الطب» جمع فيه كل ما يتعلق بالطب إلا أنه توفي قبل أن يتمه .

وهناك من يرى أن أهم ما ترك ابن النفيس هو شرحه لكيفية وظيفة الرئتين وتركيبهما ، ووظيفة الحويصلات الرئوية ، والأوعية الشعرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية ، والعروق بين الرئة والقلب وبهذا يكون ابن النفيس قد توصل إلى كشف الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس الأسباني الذي ينسب علماء الغرب إليه كشفها بمائة سنة كاملة .

وما يميز ابن النفيس عن غيره من أطباء عصره أنه اعتمد في طريقة علاجه على تنظيم الأغذية أكثر من اعتماده على الأدوية والعقاقير ، وهذا في حد ذاته سبق يحسب له . والحقيقة أن ابن النفيس كان عالماً فاضلاً مطلعاً له باع طويل في علم التشريح والعلم عنده يكتسب بالدرس والخبرة والممارسة .

٥ ـ عمار بن علي الموصلي (ت٤٠٠هـ/ ١٠١٠م) وكان من أطباء العيون المشـهورين ، وكان هؤلاء يسمون في ذلك العصـر «بالكحالين» وقد ذاعت شـهرته في مصر الفاطمية وكان عمار الموصلي من أشـهر الأطباء من حيث الابتكار والأصالة في مجال تخصصه وقد عرفه الأوروبيون من خلال كتبه ومؤلفاته العديدة ، وكان من أهمها كتاب «المنتخب في علاج أمراض العيون» ومن أهم إنجازات هذا الطبيب دراسته العميقة في عمليات ماء العين (الكاتاراكت) كما كانت له ابتكارات واختراعات في طب العيون منها أبرة مجوفة لامتصاص الماء المسبب لعتمة العين .

وبرز في طب العيون بالإضافة إلى عمار الموصلي عدد آخر من أطباء العيون كذلك ، ومنهم علي بن عيسى (عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) الذي كان أول من استعمل التخدير في العمليات الجراحية في العيون

والذي ظل كتابه المعنون «تذكرة الكحالين» يدرس في جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر للميلاد . ومنهم كذلك حنين بن اسحق (ت ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) الذي وضع كتاب في أمراض العيون أسماه «العشر مقالات في العين» وكان هذا الكتاب من أهم المراجع العلمية في العيون وعلاجها في العصر الوسيط .

أهم إنجازات العلماء المسلمين في العلوم الطبية :

١ - أجروا عمليات جراحية كثيرة مثل جراحات البطن والمعي واستأصلوا الأورام السرطانية من مختلف أنحاء الجسم كالثدي والفخذ ، وأجروا جراحات في الجهاز التنفسي ، وفي الأنف والأذن ، والحنجرة ، وجراحات في المسالك البولية واستخرجوا حصاة المثانة . كما أجروا جراحات معقدة كالبواسير والنواسير .

٢ - عرفوا السل الرئوي ، ومرض الفيل وكيفية انتشاره في الجسم ، ووصفوا الجمرة الخبيثة وأطلقوا عليها (النار الفارسية) كما عرفوا دودة الانكلستوما وأثرها في الجسم .

٣ - شخصوا الأمراض النفسية ، ووصفوا لها الكثير من طرق العلاج ، وتوصلوا إلى علاج الشلل بالصدمات العصبية المفاجئة . كما فسروا بعض الأمراض العصبية والنفسية التي تصيب الشباب في سن المراهقة .

٤ - حققوا تقدمًا كبيراً في مجال طب الأسنان ، من قلع الأسنان واستخراج الجذور المكسورة في عظام الفك ، ومعرفة الخطورة الناجمة من قلع السن في حالة التهاب اللثة ، أو وجود عفن في عظم الفك ، كما عرفوا كيف يسكنون آلام الأسنان عن طريق الكي أو عن طريق استخدام الزيوت وغيرها ، وتمكنوا من حشو الأسنان التي أصابها السوس بعد تنظيفها ، واستخدموا لحشو الأسنان خليطا من الكبريت والقطران والشيح والكافور

والمصطكي ، بل وقوموا الأسنان المعوجة .

٥ ـ عرفوا الأمراض التي تصيب العين مثل التراخوما والرمد والماء الأبيض والأرزق ، ونجحوا في مداواة هذه الأمراض وقد بلغوا شأواً عظيماً في هذا المجال .

٦ ـ حققوا إنجازات كبيرة في مجال تجبير العظام ووصلوا إلى درجة كبيرة من الدقة والاتقان والبراعة فيما لم يصل إليها أحد في زمانهم وذلك لأنهم كانوا على دراية كاملة بأنواع الكسور ومعالجتها بالتجبير ، أو عن طريق تسويتها باليد أو برد العضو المخلوع إلى مكانه .

٧ ـ درسوا بشكل مفصل بعض الأمراض المُعدية كالجدري والحصبة ووصفوا أعراض هذه الأمراض بشكل دقيق .

٨ ـ كانت لهم دراية كبيرة في الطب النسائي كاحتباس الطمث وأسباب تأخره ، وأمراض الرحم من اختناق وسيلان ، وبثور ، وقروح ، وحكة وغيرها . هذا بالإضافة إلى إجراء جراحات الولادة المتعسرة كالولادة القيصرية وإخراج الجنين من بطن أمه بطريقة أسرع من الولادة الطبيعية .

٩ ـ وضعوا الأسس الصحيحة لما يسمى اليوم بطب الأطفال ، كما بحثوا في طب الأجنة والأعراض الناتجة عن الأمراض الوراثية ، وولادة الأطفال الخدج ، وعرفوا أن حليب الأم أفضل وأصح للطفل من غيره واهتموا بأمراض الأطفال كشلل الأطفال ، والتبول اللاإرادي في الفراش ، وطرق الختان السليمة وبهذا كان لهم السبق في هذا المجال من حيث دراسة أمراض الأطفال وتشخيصها وكيفية الوقاية منها ، ومعرفة الأعراض المصاحبة لها والأدوية الناجحة لها .

١٠ ـ أخذوا بنظام التخصص في الطب ، ولم يسمحوا بممارسته إلا بعد اجتياز

امتحان في كتب متخصصة فيه للتأكد من ثقافة الطلاب النظرية والعملية في مجال تخصصهم وعدم السماح لهم إلا بعد نجاحهم في مجال تخصصهم الذي اجتازوا الامتحان فيه .

١١ـ حققوا إنجازات كبيرة في مجال علم التشريح رغم موقف الإسلام الواضح من احترام جسد الميت ، وكان لهم باع طويل في التشريح إلى درجة أنهم جعلوه ضرورة لكل فروع الطب الأخرى . ولم يعتمدوا في هذا التخصص على كتب اليونان أو غيرهم بل اعتمدوا على مشاهداتهم الشخصية وتجاربهم الذاتية ، مما أدى إلى النهوض بعلم التشريح وبلوغه درجة عظيمة من التقدم ، ويدل على هذا كتبهم ومؤلفاتهم في هذا الشأن .

١٢ـ كانوا أول من وضع الأسس السليمة لإقامة (البيمارستانات) المستشفيات من حيث اختيار مواقع إقامتها وبنائها ، وتقسيمها حسب التخصصات المختلفة في الطب . ومن حيث نظافتها واستقبالها لمختلف الحالات ، وعزلهم أصحاب الأمراض السارية كالجذام والحميات المعدية وغيرها ، وتخصيص مستشفيات للرجال والنساء . وإعداد كوادر من الأطباء والممرضين والممرضات . كذلك كانت معاملتهم تقوم على أسس إنسانية بحتة ، من حيث تقديم الخدمات لهم في أثناء إقامتهم ووقت خروجهم من المستشفيات حيث تتم مساعدة المريض المحتاج بمبلغ من المال عند خروجه يستعين به إلى أن يستطيع العمل بنفسه ، كما أقاموا مستشفيات جامعية بالمعنى المتعارف عليه اليوم حيث ألحقوا بالمستشفيات كليات لتعليم الطب ، كما عرفوا المستشفيات المتنقلة واستخدموها بشكل خاص في أثناء الحروب وفي أثناء انتشار الأوبئة . وقدمت مستشفياتهم خدمات متنقلة كمرور الأطباء على السجون وغيرها من المؤسسات القائمة آنذاك .

والجدير بالذكر ، أن مهنة الطب خضعت لإشراف مستمر من قبل الدولة

فكان المحتسب يقوم بأخذ قَسم الطب على الأطباء ويجعلهم يحلفون بألا يصرفوا للمرضى أدية ضارة بهم ، وأن يحافظوا على أسرار مرضاهم ولا يضعوا دواء فيه قطع نسل للرجال ، أو فيه إنزال الأجنة للنساء ، وغير ذلك مما ورد في قَسْم أبقراط اليوناني . ورغم التشدد مع الأطباء ومراقبتهم إلا أنهم تمتعوا بمكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي ، ولقوا الترحيب من قبل الخلفاء وكبار رجالات المجتمع وعامة الناس مما زاد في عددهم حتى وصل كما ذكر ابن أبي أصيبعه في كتابه «طبقات الأطباء» إلى عدة مئات ، ومما يذكر أن الأمر لم يقتصر على وجود أطباء من الرجال بل وجدت طبيبات من النساء وجدن كل ترحيب وتمتعن بمكانة سامية وذاعت شهرة بعضهن ووثق بهن الناس لمهارتهن في الطب .

الكيمياء

المعروف أن بداية معرفة العرب المسلمين بعلم الكيمياء بدأت بالجهود الكبيرة التي بذلها خالد بن يزيد بن معاوية ، وذلك حين أمر بعض المختصين في هذا العلم ، ومنهم اصطفان السكندري بترجمة بعض ما كُتب فيه . وتلت هذه البداية مرحلة شهدت علامات النهوض في علم الكيمياء عند المسلمين . بعدها مر هذا العلم بنهضة حقيقية في العصر العباسي وذلك لأن العرب المسلمين لم يكتفوا ، كما أشرنا بنقل ما سبقهم من معلومات في هذا العلم أو غيره من العلوم ، بل أضافوا إلى ما عرفوه من تراث الحضارات الأخرى في علم الكيمياء ، مما كان له أكبر الأثر في تقدم هذا العلم ، وتطوره خاصة وأنهم أجروا التجارب والاختبارات في مجال العلوم كافة ، وفي هذا العلم على وجه خاص . بل أنهم أنشأوا لذلك مختبرات خاصة ليتحققوا من صحة النظريات التي توصلوا إليها في هذا العلم .

والتقدم الكبير الذي حققه العلماء المسلمون في علم الكيمياء حدث حين تخلوا عن الاعتقاد بأنه بالإمكان تحويل المعادن الرخيصة أو (الخسيسة) كالحديد والنحاس إلى ذهب أو فضة بواسطة مادة غامضة سموها «حجر الفلاسفة» . وهذا ما دعاهم إلى تعريف هذا العلم بأنه علم يشمل الأصول والقواعد التي يمكن عن طريقها تحويل مختلف المواد إلى ذهب وفضة .

وما تحقق على أيدي العلماء المسلمين في ميدان علم الكيمياء يعد مفخرة كبيرة للحضارة العربية الإسلامية ، وذلك لأنهم انتهجوا طريقة من أفضل طرق البحث والدراسة في العلوم العقلية وهي أنهم كانوا لا يقبلون شيئا يقرر حقيقة علمية ما لم تثبته المشاهدة أو تبرهنه التجربة الحسية العلمية .

وساعدهم في هذا تطبيق المنهج العلمي وابتكارهم وتصنيعهم لكثير من الأجهزة والأدوات مثل الكور أو الموقد (وهو عبارة عن فرن ذي منفاخ له جدار

يساعد على دخول الهواء ويستعمل في عمليات الصهر ، والتسخين ، والغليان ، والتسامي وغيرها من العمليات الكيميائية ، والبوطق ، (البوتقة) (وهو إناء غير عميق يصنع من الصلصال المحروق يستخدم لوضع وحفظ مواد به) والماشق (الماشة) ، والمعلقة أو المغرفة ، والهاون ويده ، والأحواض الزجاجية ، والقوارير ، والمكسر ، والمقراض ، والمبرد ، والقمع ، والمنخل ، والسفنجة ، والأقداح (الفناجين) ، والقطارة ، وآلة الكير (آلة النفخ) ، والراط (المسبكة) والآثال (وهي آلة من زجاج وفخار على هيئة الطبق ذي المكب) ، والأنبيق (الدورق) ، والقابلة (وهي أنبيق فيه ميزان) ، والعمياء (وهي إناءين على شكل نصف دائرة) ، وغيرها من الآلات التي زخرت كتبهم بصور لها مع شروح مسهبة لكيفية استخدامها ، وذلك لأهميتها الكبيرة في إجراء التجارب الكيميائية المعملية بها .

وقد أجرى علماء الكيمياء المسلمين الكثير من التجارب في معاملهم ، مما مكنهم من إضافة اكتشافات جديدة ، والوصول إلى حقائق علمية صاغوها على شكل نظريات أصيلة كان لها أكبر الأثر في تقدم علم الكيمياء عندهم .

ومن أبرز العلماء المسلمين في علم الكيمياء :

١ ـ جابر بن حيان الأزدي (٢٠٠هـ / ٨١٤م) :

وهو بإجماع الدارسين ، والمهتمين في العلوم عند المسلمين أبو علم الكيمياء ،في الحضارة العربية الإسلامية . وما يؤكد هذا مؤلفاته العديدة ، والتي كان من أهمها كتابة المعنون «كتاب السموم ودفع مضارها» . وهو من أروع ما كتب ، وكذلك كتبه الأخرى مثل : «كتاب الاستيفاء» ، و«كتاب التكليس» ، و«كتاب الاستتمام» الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٧٢م و«كتاب السبعين» الذي ترجم هو الآخر في القرن الثامن عشر الميلادي . ونلاحظ أن ما استعرضناه من أسماء لمؤلفاته من كتب ورسائل كانت على سبيل المثال لا الحصر .

وقد دلت آثار جابر بن حيان العلمية أنه اتبع منهجاً علمياً دقيقاً في البحث العلمي يطابق ما هو معروف لدى المشتغلين في مجال العلوم في العصر الحديث . لذا فهو يعد أول من وضع الأساس العلمي لعلم الكيمياء عند المسلمين ، وكان همه الشاغل هو إقامة التجربة والمشاهدة ، وتكرار التجربة بكل همة كي يصل إلى ما يبحث عنه من حقيقة معرفية مؤكدة بالبرهان العلمي الحسي .

وتكمن عظمة جابر بن حيان أنه لم يكتف بالسعي والحرص على الحقيقة العلمية بنفسه فقط ، بل وبحثه تلاميذه والعاملين معه بتحري الحقيقة ، والعمل بدقة متناهية للوصول إليها باذلين ما يستطيعون من جهد ، وألا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو لا فائدة منه ، وأن يلتزموا بالأسس العلمية السليمة الخاصة بكل موضوع يبحثون فيه . وأن يتحلوا بالصبر وبالمثابرة على العمل ، وعدم الملل واليأس . ولا شك في أن توصيات ونصائح جابر بن حيان هذه إن دلت على شيء ، إنما تدل على حرصه الشديد ودقته المتناهية في عمله ، وهذا ما جعله أن يتوصل إلى اكتشاف العديد من العناصر والفلزات الطبيعية مثل : حامض الكبريتيك بتقطيره من الشبه وسماه «زيت الزاج» ، كما استحضر حامض النتريك ، وكشف الصودا الكاوية ، واستحضر ماء الذهب ، وتوصل إلى طريقة لفصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض ، وعرف ما يحدث من راسب «كلورو الفضة» عند إضافة محلول ملح الطعام إلى نترات الفضة . وتوصل إلى معرفة كيف تكتسب مركبات عند تعريضها إلى اللهب لوناً أخضر . وقد أثبت صحة ذلك النظرية الذرية .

كما اشتغل جابر بن حيان بتطبيقات كيماوية مثل تنقية المعادن ، وتحضير الصلب ، وصنع البرنيق (الورنيش) والأقمشة العازلة للماء ، وذلك لتوصله لمعرفة أن أملاح الألمونيوم المشتقة من الأحماض العضوية تمنع البلل عن الثياب ،

وينسب إليه أيضا إدخال علم الميزان إلى علم الكيمياء حين نبه على ضرورة مراعاة العلاقة الوزنية بين الأخضر أو الأزرق الذي يميل إليه لون الزجاج الطبيعي . وشرح في كتاباته عمليات التكليس ، والتخثر ، والتبييض ، والتخمر ، والتثبيت ، والتقسية ، والتليين ،وغير ذلك من الأمور التي بحثها كعالم متبحر في علم الكيمياء .

والواقع أن مؤلفات جابر بن حيان تشكل موسوعة في مجال هذا العلم ذلك لأنها ضمت ما وصل إليه علم الكيمياء في عصره من تقدم سواء من وصف المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل ، أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والترشيح ، والتبلور ، والتذويب والتحويل وغيرها . ولا شك أن جابر بن حيان كان من أعظم علماء الكيمياء في عصره ، وحجة لا ينازعه أحد في ميدانه ، وكان له الفضل في إعداد تلامذة له مجتهدين تابعوا أبحاثه ودراساته ، ومهدوا الطريق لظهور علم الكيمياء الحديث .

٢ ـ أبو الريحان البيروني (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) :

هو من كبار العلماء الذين اهتموا بالتفاعلات الكيميائية ، كما كان من الذين لم يتبعوا علماء اليونان في هذا المجال بدون الاعتماد على التجربة المعملية في هذا العلم . وكان البيروني يرى أن العلم اليقيني لا يحصل إلا من احساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقي ، لذا انتهج أسلوبا علمياً تجلت فيه دقة الملاحظة والفكر المنظم .

ويُعد كتاب «الجماهير في معرفة الجواهر» من هم الكتب في علم الكيمياء ، وقد وصف فيه البللورات ، والأحجار الكريمة والفلزات ، وتكوين الزئبق والكبريت في باطن الأرض ، وتحدث فيه عن المعادن مثل الذهب والنحاس والفضة وغيرها . فوصف صفاتها ، وخواصها الطبيعية والكيميائية وبين أماكن وجود خاماتها ، وطرق استخراجها . مما جعل كتابة هذا مرجعا هاما

في علوم المعادن والبلورات والكيمياء والجيوكيمياء .

ومما يذكر له في علم الكيمياء أنه عرف كيفية تحضير الزنجار (كربونات النحاس القاعدية) ، واستطاع التمييز بينها ، ووصف الزاج الأزرق (كبريتات النحاس المتبلورة) . كما توصل إلى حقيقة غاز النشادر ومكوناته ، وفائدته في صنع الثلج . واستعمل الوزن النوعي للكشف عن تفاوت المعادن . وأشار إلى أن معدن النحاس يحتوي على بعض الرصاص ، وأنه أي النحاس لا يخلو من معدن الذهب ولو بنسبة بسيطة ، وهذا ما أثبته العلم الحديث . كما وأن وصفه لطريقة فصل الذهب من حجارته لا زالت مستخدمة اليوم في بعض المناجم .

٣ ـ محمد زكريا الرازي (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) :

لا يختلف اثنان على أن الرازي من مؤسسي علم الكيمياء الحديث ، حيث كان عالماً بارزاً في الكيمياء ، بل كان أحد عباقرة هذا العلم ، كما كان طبيباً مشهوراً يتحلى بآداب المهنة كالصدق والأمانة والنزاهة العلمية . ولقد نهج الرازي في كتاباته تصنيفاً منهجياً يقوم على الحقائق الخاصة بالمواد الكيميائية . ومن أهم كتبه في هذا المجال كتاب «سر الأسرار» الذي وضع فيه خلاصة تجاربه ودراساته ، وبين فيه طريقة عمله ، ووصف فيه منهجه وأسلوبه ، في إقامة التجارب العلمية في المعمل .

صنف الرازي في كتاب «الأسرار» المواد المتعلقة بعلم الكيمياء إلى أربعة أقسام هي :

١ ـ مواد معدنية ، ٢ ـ مواد نباتية ، ٣ ـ مواد حيوانية ، ٤ ـ مواد مشتقة .

وقد قسم الأخيرة إلى ست مجموعات نظراً لكثرتها ، واختلاف خواصها . وأهم ما جاء في القسم الثاني أنه وصف فيه الأدوات التي كان يستخدمها في تجاربه ، وهي عشرات الأجهزة . كما استعرض في القسم الثالث

أهم الطرق الموصلة إلى إعداد الخمائر المطلوبة ، واستعرض في القسم الرابع من كتابه كيفية تحضير زيت الزاج (حامض الكبريتيك) والكحول وغيرها . وأشار في كتابه «الأسرار» إلى أنواع العقاقير الثلاثة الترابية ، والنباتية ، والحيوانية .

على أية حال ، خلف الرازي أعمالا هامة في علم الكيمياء ، وتوصل إلى معرفة مواد كيميائية تدخل في العديد من الصناعات مثل : مركب لصنع نوع من الصبغة اللامعة من المرقشيتا المذهب (نوع من المعدن) ليحل محل الصبغة مرتفعة الثمن المصنوعة من الزاج . كما استحضر عقاقير جديدة في عملياته الكيميائية من تقطير وتصعيد لمواد طبيعية أصلا . ويذكر له أنه جرب ما توصل إليه من عقاقير على الحيوانات لمعرفة مضارها ومنافعها . كما استطاع أن يدرس خصائص المواد بدقة متناهية مثلما فعل مع الزئبق فعرف خصائصه ، ومركباته ، واستحضرها ، واستعملها ضد بعض الأمراض . كم اهتم بالأفيون والحشيش واستعملها كمخدر في عملياته الجراحية .

وهناك من العلماء من يضع الرازي في مرتبة العظماء لدوره العظيم في علم الكيمياء ، ولما خلفه من ثروة علمية كبيرة تمثلت في مؤلفاته العديدة التي وصلت إلى مائة وثلاثة عشر كتابا ، وثمان وعشرين رسالة منها اثنا عشر مؤلفا في الكيمياء . أشهرها على الإطلاق كتابه «سر الأسرار» الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية لأهميته وعرفته أوروبا من خلاله . ولا جدال أن فضل الرازي على علم الكيمياء كبير ، إلا أن فضله أكثر ما يكون وضوحاً في استخدامه هذا العلم لخدمة الطب ، حيث نسب الشفاء إلى التفاعلات الكيميائية التي تجرى في جسم الإنسان .

٤ ـ الحسن بن أحمد الهمذاني : المعروف بابن الحائك (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) :

يعد من عباقرة علم الكيمياء النابهين ، ورغم نبوغه في هذا العلم ، إلا أن له اهتمامات في علوم عديدة منها الفلك ، والحساب ، وعلى الحيوان ، والنبات ، وغيرها كثير . وكان باحثاً دقيق الملاحظة يتميز بالنقد الصائب . وكان

كغيره من علماء الكيمياء المسلمين اعتمد على المشاهدة والتجربة ، ولم يأخذ إلا بالبرهان الذي يوافق العقل . وقد نقد نظرية أرسطو الخاصة بالفلزات ، والمعادن النفيسة ، ونظريته عن الزئبق والكبريت . كما رفض تماما نظرية تحول النحاس إذا حرق إلى ذهب .

كان كتابه القيم «الجوهرتين العقيقتين» من أهم كتبه ، والذي خصص جزءاً كبيراً منه لمعالجة استخراج الذهب والفضة وتنقيتهما من الشوائب ، واهتم الهمذاني بالتعدين ، فوصف صناعة السبائك ، ومعالجة المعادن غير الذهب والفضة مثل الحديد الخام للحصول على الفولاذ لصناعة السيوف وغيرها من الأسلحة التي تتطلب معدناً صلباً . كما ضمنه معلومات قيمة عن علاقة الكيمياء بالطب ، وتأثير الأبخرة والغازات المنبعثة أثناء عملية الطبخ والتعدين على مختلف أنحاء الجسم . وبهذا نرى أن الهمذاني كان عالماً كبيراً في علم الكيمياء والتعدين ، ومن الذين أسهموا إسهامات طيبة سمت بهذا العلم ورفعت مكانته بين العلوم .

٥ ـ الشيخ الرئيس ابن سينا (ت٤٣٨هـ/ ١٠٣٦) :

رغم أن ابن سينا كان عالماً بارزاً من أعلام الطب في الحضارة العربية الإسلامية ، إلا أنه له إسهامات فعالة بارزة في علم الكيمياء ، وما يميزه عن غيره في هذا العلم أنه استوعب ما كُتب فيه في الحضارات السابقة ، والشروح والتعليقات الخاصة بهذا العلم ، وخاصة ما ورد عنه في التراث الحضاري اليوناني ، ثم أخضع ما توصل إليه إلى البحث والتقصي ، فتقبل ما أثبتته التجارب ، وبين أخطاء ما لم يثبت صحته عن طريق التجربة والدليل والبرهان . وساعده في ذلك ثقافته الواسعة ومعارفه المتنوعة ، وعبقريته الفذة .

والواقع أن مؤلفات ابن سينا كانت غزيرة في مختلف العلوم التي كتب فيها ، وما ميزه عن جابر بن حيان ، والرازي رغم عظمتهما ومكانتهما المميزة في

علم الكيمياء ، أنه رفض نظرية إمكان تحويل المعادن الرخيصة كالحديد والنحاس إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة . وقد أثبتت التجارب صحة ما ذهب إليه . ولابن سينا بحوث قيمة في المعادن وتكون الجبال والحجارة .

هذا ولم يخصص ابن سينا كتبًا بعينها لبحوثه في الكيمياء ، إلا أنه ضمن ما كتبه من أبحاث في هذا العلم في كتابه الشهير «الشفاء» . ولأهمية ما كتبه في علم الكيمياء ترجمت مقالاته بهذا الخصوص التي ضمنها كتابه «الشفاء» إلى اللغة اللاتينية ، وأصبح لها أثر كبير في معظم أنحاء أوروبا ، وظل علماؤها يعتمدون عليها في الجامعات هناك حتى مطلع العصور الحديثة .

٦ ـ مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) :

هو عالم أندلسي اشتهر بحبه للسفر والإطلاع الواسع ، وكان على صلة بأخوان الصفا ، ويعتقد أنه كتب بعض فصول رسائلهم بما في ذلك الفصل الخاص بالكيمياء . ولم تنحصر أبحاثه في مجال الكيمياء فحسب ، بل شملت علوم أخرى مثل الرياضيات ، والفلك وغيرها من العلوم .

لقد دفع حب المعرفة بالمجريطي إلى السفر إلى المشرق لمقابلة ومناقشة كبار علمائها في العلوم والمعرفة . وحين تم له ذلك رجع إلى الأندلس فبنى له مدرسة في قرطبة جلس فيها للتدريس مما كان له أكبر الأثر في تخرج عدد كبير من علمائها من هذه المدرسة وغيرها من المدارس في الأندلس في هذا العلم . وذاعت شهرة المجريطي في أوروبا ، وتداول علماؤها تعليقاته على الخريطة الفلكية لبطليموس . كما نال شهرة عظيم على تحريره زيج الخوارزمي للإضافات العلمية القيمة التي أضافها عليه .

كتب المجريطي أبحاثًا وكتبًا كان أهمها كتابه المعنون «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» ، و«رتبة الحكيم» ، وهو كتاب تكلم فيه عن السيمياء ، والفرق بينهما ، (والسيمياء كما عرفها بأنها علم الأرواح العلوية ، واستخراج

قواها للانتفاع بها ، كما عرف الكيمياء بأنها علم الأرواح الأرضية . ولقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، وعد من أهم كتب الكيمياء التي انتقلت إلى أوروبا .

ومن إنجازات المجريطي أنه عرَّف علماء الأندلس برسائل أخوان الصفا ، ووصفه لمادة أكسيد الزئبق ، وكيفية تحضيره ، وشرحه لكيفية تنقية الذهب من الفضة بحمض الآزوت . وبهذا كان المجريطي أحد أعلام علم الكيمياء الذين اعتمدت عليهم أوروبا ونهلت من علومهم .

أهم إنجازات العلماء المسلمين في علم الكيمياء :

١ ـ كانت جهود العلماء المسلمين عظيمة في النهوض بهذا العلم وجعله علماً بالمعنى الحديث لهذه الكلمة . وذلك لاستخدامهم المنهج العلمي التجريبي فيه للتثبت من صحة نظرياتهم بالدليل والبرهان والمشاهدة الحسية .

٢ ـ استخدامهم آلات حديثة ابتكروها وصنعوها خصيصاً للبحث في مختلف أقسام علم الكيمياء من موازين ومكاييل وآلات مختبر وغيرها .

٣ ـ اكتشافهم لكثير من المركبات الكيميائية مثل : الصودا الكاوية ، وأبيض الرصاص (كربونات الرصاص القاعدية) ، والزنجفر (كبرتيتيد الزئبق) ، وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليماني (الزئبق) ، والراسب الأحمر(أكسيد الزئبق) ، وملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، والكحول ، والأسرنج (ثاني أكسيد الرصاص) ، والأثمد (الكحل) ، والرهج (كبريتيد الزرنيخ) والاسفيداج (كربونات الرصاص) والماء الملكي (وهو خليط من حمض النيتريك ، وحمض الهيدروكلوريك) ، وحمض الطرطريك ، وحمض الليمونيك ، وهيدروكسيد الكالسيوم (الجير المطفأ) ، ومحلول النشادر ، والصودا الكاوية ، وغيرها من المواد الكيميائية العديدة .

٤ ـ ميزوا بدقة بين أملاح الصوديوم وأملاح البوتاسيوم ، وعرفوا كربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصاديوم ، والراسب الأحمر (أوكسيد الزئبق) .

٥ ـ كان لهم فضل السبق في التوصل إلى العديد من أوليات علم الكيمياء ، والقيام بكثير من الأعمال العلمية الهامة في مجال هذا العلم ،مثل معرفتهم بالأحماض المعدنية التي لا يمكن تصور علم الكيمياء بدونها ، وسموها الأحماض العدنية الأربعة وهي :

أ ـ ماء الفضة (حمض النيتريك) ، ب ـ حمض النيتروهيوكلوريك ، جـ ـ زيت الزاج (حمض الكبريتيك) ، د ـ حمض الهيدروكلوريك .

٦ ـ أسهموا في إثراء علم الكيمياء بإجراء العديد من العمليات الكيميائية ، وتطوير البعض الآخر المعروفة قبلهم مثل : التصعيد ، التبلور ، التكليس (وهو تسخين الجسم في الهواء كي يتأكسد) . والترشيح ، والملغمة (ذوبان المعادن في الزئبق دون مركباتها ثم استخلاصها بواسطة التصعيد) وتستخدم هذه العملية لاستخلاص الذهب . وعرفوا كذلك التذويب ، والتقطير ، والاستنزال ، والتسامي (وهو فصل الجسم الطيار بتسخينه حتى يتكثف بخاره إلى مادة صلبة دون المرور على الحالة السائلة) .

٧ ـ كان له الفضل في التوصل إلى صنع العديد من المواد النافعة مثل : الخشب الذي لا يحترق ، وذلك بطلائه بمادة تقاوم النار . واستخدم ثاني أكسيد الحديد في صناعة الزجاج كي يجعلوه أكثر صفاء ، ويخلصوه من اللون الأخضر أو الأزرق .

٨ ـ درسوا السموم ، وبينوا مضارها ، ومنافعها ، وقسموها إلى أنواع ، وعرفوا تأثيرها في أجسام الحيوانات ، ووضعوا فيها مؤلفات قيمة .

ونستخلص مما سبق أن علم الكيمياء اتجه عند المسلمين اتجاهاً علمياً صرفاً بعيداً عن الخرافات وما شابهها . وذلك بفضل جهودهم ، وميلهم العلمي ، ونزعتهم إلى التجربة والملاحظة والاستنتاج . فوضعوا بذلك علم الكيمياء التجريبي في مفهومه العلمي ، ووصلوا به إلى مرحلة هامة في سلسلة تطور هذا العلم في تراث الحضارات .

وقد دخل هذا العلم إلى أوروبا باسمه العربي (الكيمي) (AL-Ckimie) ومنه جاء أسمه باللغة الإنجليزية (Chemistry) وباللغة الفرنسية (Chimie) . كما دخلت أسماء الأدوات والمواد الخاصة بهذا العلم بأسمائها العربية إلى أوروبا مثل : التوتياء (Tutty) ، والأكسير (Elixir) ، والبورق (Borax) ، والصودا (Soda) ، والكحول (Al-cohol) ، ورهج القار (Realgar) ، والآثال (Aludel) ، والقلويات (Alkali) ، والأنبيق (Alambic) ، والكافور (Camphor) ، والأثمد (Antimony) ، وغيرها من الأسماء التي لا زالت باقية كما هي بأسمائها العربية في اللغات الأجنبية .

أما عن إنجازات علماء المسلمين في علم الكيمياء بما يعرف باسم الكيمياء الصناعية ، أي استخدام المواد والعمليات الكيميائية في خدمة الصناعة ، فالتطور الذي أحدثه علماء المسلمون فيه كان مذهلاً امتد أثره إلى الكثير من الصناعات سواء منها الطبية ، أو المدنية أو العسكرية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ، المجالات الصناعية الآتية :

١ ـ صناعة العقاقير الطبية :

طبق علماء الكيمياء المسلمون معلوماتهم على الطب خاصة حين عرفوا ما تحدثه المواد الكيميائية من تفاعلات في الجسم البشري ، مما يؤدي إلى حدوث الشفاء . وهذا ما جعلهم يتوصلون إلى مواد لها قوة شفائية وعلاجية مثل : الشراب الحلو ، الجلاب ، الروب ، الكحول ، السموم ، الزئبق ومركباته ، الاستفادة من الخاصية المخدرة للأفيون والحشيش .

٢ ـ صناعة الملابس :

استخدام مواد كيميائية في صباغة الأقمشة ، وتثبيت ألوانها ، دبغ الجلود ، صناعة ملابس مضادة للحريق والبلل ، استخدام الشب وهو أحد أملاح الأمونيا لربط جزئيات الأصباغ الملونة على القماش .

٣ ـ صناعة الأسلحة :

ساعدهم تقدمهم في علم الكيمياء لتحضير الفولاذ القاسي لاستخدامه في صناعة الأسلحة كالسيوف وغيرها . كما استغلوا القوة الناجمة عن انفجار ملح البارود ، أي (نيترات البوتاسيوم) ، وذلك بمزج ملح البارود بالفحم والكبريت بنسب متفاوتة بعد سحقها جيداً في صنع مواد متفجرة تستخدم في الأسلحة النارية من مدافع ومكاحل وغيرها ، حيث كانوا يحشون بها ثلث المدفع ، ويضعون أمام هذا الخليط كرة حديدة مثل القنبلة ويشعلون النار بالخليط فينفجر ويقذف بالكرة الحديدية إلى مسافة بعيدة .

وهذا ما يشابه المدافع التي نعرفها حالياً ، وصنعوا سلاحاً كيميائياً ، كان عبارة عن قدور خزفية مدورة الشكل تحشى بالنورة والنشادر والبول عرفت «بالكفيات» تخرج عند انفجارها رائحة خانقة على من تقذف عليه .

٤ ـ وهناك صناعات عديدة مختلفة كانت نتاج التقدم العلمي في علم الكيمياء مثل :

صناعة الزجاج التي استخدمت فيها مواد كيميائية مثل : ثاني أكسيد الحديد لجعله أكثر صفاءً وذلك بعد تخليصه من اللونين الأزرق والأخضر اللذان عادة ما يكونان في الزجاج . كما استخدموا المواد الكيميائية في تنقية المعادن ، وفي صناعة الصابون وفي تركيب العطور وتقطيرها ، كما استخدموا هذه المواد في تطبيق العناصر الزخرفية على شتي أنواع الخزف .

الصيدلة

الصيدلة هي علم الأدوية بأنواعها النباتية ، والحيوانية ، والمعدنية ، ومن المعروف أن تركيب الأدوية وتحضيرها يقتضي إلماماً تاماً بعلوم النبات والحيوان والمعادن والكيمياء . وقد عرف العرب قبل الإسلام التداوي من خلال استعانتهم ببعض النباتات ، والأعشاب التي كانت تنمو في بيئتهم الصحراوية بالإضافة إلى تلك التي كانوا يحصلون عليها عن طريق تجارتهم مع الأمم المتحضرة التي كانت قوافلهم التجارية تصلها ، لذا كانت كثير من مواد العطارة المستخدمة في الأدوية ترد إليهم عن هذا الطريق . والثابت أن معرفتهم لم تقتصر في علم الصيدلة على المواد المستخدمة في تركيب الأدوية فحسب ، بل تخطتها إلى معرفة خواص كثيرة من النباتات من حيث منبتها ومنافعها ، والتمييز بين النافع والضار منها ، وتفاوتها في القوة الشفائية لكل منها .

وكانت الصيدلة مرتبطة بعلم الطب كجزء منه ولم تنفصل عنه كعلم مستقل قائم بذاته إلا على أيدي العلماء المسلمين ، وكان الطبيب صيدلانيًا في الوقت نفسه ، وكان يحضر الدواء من الأعشاب المختلفة ويجربها على مرضاه ، وتقوم شهرته على مدى تأثير الدواء الشافي الذي توصل إليه .

ولا شك في أن هذا العلم شهد نهضة حقيقية وتطوراً كبيراً على أيدي العلماء المسلمين الذين استفادوا من علوم الحضارات المحيطة بهم في هذا العلم كالهنود ، واليونانيين والفرس وغيرهم خاصة بعد أن تمت حركة الفتوح واختلط العرب المسلمون بشعوب البلاد المفتوحة مما مكنهم من جعل علم الصيدلة علمًا مستقلا بذاته بعد أن كان تابعاً لعلم الطب .

ووضحت هذه النهضة تمام الوضوح بعد أن ترجمت المؤلفات الهندية واليونانية وغيرها إلى اللغة العربية ومن أهم هذه المؤلفات كتاب «مختصر الهند في العقاقير» وكتاب «أسماء عقاقير الهند» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب

«تركيب الأدوية» لجالينوس . وغيرها من الكتب التي وصلت إلى المسلمين من تراث الحضارات الأخرى والتي انكب علماء الصيدلة المسلمين عليها ، مما زاد في معرفتهم في مجال هذا العلم ونمت خبرتهم فيه ، فعرفوا أنواع الأدوية المركبة منها والمفردة وهذا ما أتاح لهم تحضير وتركيب أدوية جديدة ما كانت معروفة قبلهم .

ومما زاد في اتساع معرفة علماء الصيدلة المسلمين اهتمامهم بدراسة النباتات الطبية ، ومدى تأثيرها الشفائي ، وكيفية استحضار الأدوية المركبة منها وكانت النتيجة الطبيعية لهذه المعرفة أن توصل العلماء المسلمون في هذا العلم إلى أدوية كثيرة ومتنوعة مثل : الشراب الحلو للسعال ، والأمراض التنفسية ، ودهان البلسان لتضميد الجروح ، وماء الورد للصداع ، والكافور للأعصاب ، والزرنيخ لأمراض الدم ، والعسل كدواء ناجع لعدد كبير من الأمراض كفقر الدم ، والكساح عند الأطفال الرضع ، والتبول اللاإرادي في الفراش ، وتقيح الجروح وغيرها من الأمراض التي يستخدم العسل لها كدواء ناجح . وبجانب هذا صنع العلماء المسلمون في علم الصيدلة اللزقات ، والمراهم والدهانات ، والمياه المقطرة ، وغيرها . والسبب في تقدم علم الصيدلة عند المسلمين في هذا العلم أنه كان مرتبطًا بعلم الكيمياء الذي كان بدوره متقدماً كثيراً عندهم .

ومن أهم العلماء المسلمين في هذا العلم :

١ ـ محمد بن زكريا الرازي (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) فهو بجانب كونه طبيباً مشهوراً ، كان صيدلانيًا متمكنًا ، وضع في علم الصيدلة مؤلفات هامة عديدة منها كتاب «منافع الأغذية» وهو كتاب كبير يتكون من تسعة عشر باباً تعرض فيه لمنافع ومضار العديد من الأطعمة ويوضح كتابه هذا طريقته في معالجة مرضاه التي تعتمد على الأغذية قبل الأدوية . كما كان للرازي كتبًا أخرى تناول فيها الأدوية بأنواعها ومعادنها ، وجيدها ، ورديئها ،

وألوانها ، وطعومها ، وروائحها . ومن هذه الكتب كتاب «سر الأسرار» و«صيدلة العرب» و«الحاوي» .

٢ ـ ضياء الدين بن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) كان من أسباب اهتمامه بعلم الصيدلة معرفته الواسعة بالنباتات التي اكتسبها من خلال تجواله ورحلاته العديدة التي قام بها لأنحاء متفرقة من البلاد المعروفة آنذاك ويعد كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» من أهم ما كتب في هذا المجال والذي من خلاله أثبت ابن البيطار أنه من أعظم الصيادلة الذين عرفتهم الحضارة العربية الإسلامية .

لقد استقصى ابن البيطار في كتابه «الجامع» ذكر الأدوية المفردة ، وأسمائها ، وتحريرها وقوامها ومنافعها . ولم يقف في كتابه هذا عند حد النقل ، بل ضمنه ملاحظاته الشخصية . وقد وصف فيه أكثر من ١٤٠٠ عقار معدني ، ونباتي ، وحيواني . ومن كتبه في الصيدلة أيضاً كتاب «المغني في الأدوية المفردة» وهو عبارة عن بحث مختصر في الأدوية مرتب حسب مداواة الأعضاء المريضة وهذا الكتاب هو مختصر لكتابه الجامع سابق الذكر .

٣ ـ رشيد الدين الصوري (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م) وكان طبيباً وصيدلانياً في الوقت نفسه ، وكان مختصاً في الأدوية المفردة ، وماهيتها ، وتحقيق خواصها . ومن أهم كتبه «كتاب الأدوية المفردة» والذي تعرض فيه لذكر الأدوية المفردة ، فذكر خواصها ومنافعها . وقد اتبع طريقة خاصة به في دراسة النباتات التي يستخلص منها أدويته وهي أنه كان يصطحب معه مصوراً ليصور ما يريده من نباتات بألوانها الطبيعية ، بل ويتتبع مراحل نموها كي يستطيع الاستفادة منها في أكمل صورة .

٤ ـ أمين الدولة بن التلميذ (عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) وكان من المشهورين في علم الصيدلة ، وقد اكتسب خبراته في

النباتات من خلال تجواله في بلاد الأندلس والمغرب ، مما مكنه من جمع كم كبير من النباتات الطبية المختلفة ، فدرسها وعرف خواصها التطبيقية وضمنها كتابه المعنون «جامع الأدوية المفردة» الذي ذكر فيه انه اتبع منهجاً علمياً يقوم على التجربة والملاحظة ، وترك كل دواء لم يجربه صاحبه من قبل .

٥ ـ محمد بن محمد الشهير بالادريسي (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٦م) ويعرف بالشريف الادريسي ، وكان بجانب كونه من أعظم الجغرافيين المسلمين عالماً متخصصاً في علم الصيدلة ، فقد ألف عدداً كبيراً من المؤلفات في هذا العلم وكان أهمها كتابه المعنون «الصيدلة» والذي ضمنه معلومات دقيقة وهامة في علم النبات .

٦ ـ وارد بن أبي النصر (المعروف بكوهين العطار) (عاش في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي) وكان من العلماء المعروفين في علم الكيمياء وله إنجازات كثيرة تمثلت فيما ترك من تراث علمي من دراسات وكتب كان أهمها كتابه الموسوعي في هذا العلم والمعنون «في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان» والذي ضمنه نصائح قيمة للمتخصصين في مهنة الطب كما أورد فيه قائمة بالأدوية المفردة مرتبة ترتيبا معجمياً ، مع ذكر مجموعة مختارة من الأدوية التي كانت تستعمل في ذلك الوقت ، بعد فصحها والتحقق من فائدتها ولم يأخذ مادته إلا عن ثقة يتبع المنهج العلمي القائم على التجربة والملاحظة .

٧ ـ الشيخ داود الانطاكي (عاش في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي) ولا يستطيع أي باحث يتعرض لتاريخ علم الصيدلة أن يهمل ذكر شيخ الصيادلة في الحضارة العربية الإسلامية ، ألا وهو داود الأنطاكي ، والذي عد كتابه «تذكرة الألباب والجامع للعجب العجاب» من أشهر الكتب في هذا المجال . ورغم أن داود الأنطاكي يعد من المتأخرين حيث كان

ظهوره في وقت جمود الحضارة العربية الإسلامية ، إلا أن كتابه في علم الصيدلة يعد من أهم ما كتب في هذا المجال ، ونال شهرة واسعة ، لما تضمنه من أكثر من ألف وسبعمائة اسم لدواء من الأدوية المفردة والمركبة . ذات الأصول النباتية ، والحيوانية والمعدنية . بالإضافة إلى العديد من الوصفات العامة والكثير من الأكحال ، والأدهان ، وطرق تحضيرها وإعدادها . مما أكسب كتابة قيمة علمية كبيرة في هذا العلم .

إنجازات المسلمين في علم الصيدلة :

١ - يشهد العلم الحديث لعلماء الصيدلة المسلمين بأنهم كانوا على معرفة تامة بمواد تستحضر منها أدوية نافعة ومفيدة كثيرة مثل : الرواند ، الكافور ، الصندل ، الكحول ، القرنفل ، جوز الهند ، المر ، العنبر ، الكركم ، الكمون ، الحناء ، الحنظل ، وغيرها من المواد المستخدمة في تركيب الأدوية لغاية الوقت الحاضر . والتي لازالت تحتفظ بأسمائها العربية في اللغات الأجنبية .

٢ - إجرائهم البحوث والاختبارات على الأدوية ، وتجريبها على الحيوانات قبل الإنسان ، للوقوف على آثارها الضارة والنافعة ، وذلك لمعرفة تأثيرها الشفائي أو مفعولها الدوائي في تسكين الألم ، ومن هذه الأدوية : الأفيون ، والحشيش وغيرها .

٣ - استخدامهم المخدر في العمليات الجراحية باستعمالهم بعض الأدوية مثل : الزؤان ، والأفيون ، والحشيش وغيرها من الأدوية التي تفقد المريض حواسه في أثناء العمليات الجراحية مما سهل على الأطباء إجرائها .

٤ - وضعهم كتب احتوت على قوانين تركيب الأدوية والآثار الإيجابية والسلبية التي تحدثها في الجسم .

٥ - استخدامهم طرقا جديدة في معالجة بعض الأمراض بجانب الأدوية مثل : الرياضة ، التدليك ، النوم .

٦ ـ أنشئوا مخازن للأدوية (صيدليات) والحقوها بالبمارستانات (المستشفيات) . وأقاموا مدارس تدرس مناهج في علم الأدوية (بما يشبه كليات الصيدلة في الوقت الحاضر) .

٧ ـ جعلوا علم الصيدلة علماً مستقلا عن الطب ، ووضعوا له قواعد وفروع خاصة به ، قامت على منهج علمي تجريبي كما وضعوا لهذا العلم دستوراً تضمن آداب مهنة الصيدلة نص على الإشراف المباشر للمحتسب على هذه المهنة .

٨ ـ وصفوا أنواع الأطعمة ، وبينوا منافع ومضار كل نوع منها ، والحالات التي يجب الإكثار أو الإقلال من بعض أنواعها . وألفوا في ذلك كتب كان أهمها كتاب الرازي المعنون «منافع الأدوية ودفع مضارها» وحذروا من النهم في الطعام أو الإقلال منه عن اللازم . كما حذروا من تناول الأطعمة سريعة الهضم بعد أخرى بطيئة الهضم .

٩ ـ نقلوا وترجموا المؤلفات التي وضعت في علم الصيدلة في الحضارات السابقة ، وأضافوا عليها ما توصلوا إليه بأنفسهم وكان كثيرا وعظيماً ، مما ساعد على حفظ التراث الإنساني في هذا العلم من الضياع .

١٠ ـ حضروا أدوية جديدة من أصول متنوعة ، نباتية ومعدنية وحيوانية ، وأبدعوا في تحضير الأدوية المركبة التي استحدثوا الكثير منها كالأشربة والعجائن ، والمياه العطرية وغيرها .

١١ ـ غلفوا الأدوية المرة الطعم أو كريه المذاق ، بأغلفة حلوة من العسل أو عصير الفواكه أو السكر ، بل وتغليفها بالذهب والفضة كما فعل ابن سينا .

١٢ ـ توصلوا إلى طرق جديدة في تحضير الأدوية مثل : الطبخ والسحق ، والتحميص ، والتبريد لدرجة التجمد ، والحل (بتحليلها بالمياه) ، والمزج وذلك بمزج المعادن بعضها ببعض .

١٣ ـ برعوا في عمل المساحيق بأنواعها المختلفة من أكحال ، وبرادات لأمراض العين ، وسنونات لعلاج الفم ، وسعوطات لعلاج الصداع ، وذرورات للجروح والالتهابات .

١٤ ـ عرفوا إعداد الحقن والتحميلات ، والفتايل وغيرها .

١٥ ـ توصلوا إلى أنواع من الترياق ، المؤلفة من عشرات من الأدوية ، المضادة للسموم . مثل شراب الأصول .

وخلاصة القول ، يتضح مما سبق بأن علم الصيدلة قد وصل إلى درجة عظيمة من الدقة والإتقان ، والتنظيم ، والرقي والتطور إلى درجة أن أوروبا إعتبرته من أهم العلوم التي استفادت منها من تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وأصدر حكامها قرارات تنظم ممارسة الصيدلة والطب عندهم أسوة بما كان معمولا به عند المسلمين . كما يتضح أن العرب المسلمين لم يتأثروا بعلوم اليونان أو غيرهم من الأمم المتحضرة السابقة عليهم أو المعاصرة لهم فحسب بل أضافوا على ما أخذوه إضافات مبتكرة أصلية ، وابتكروا علوماً جديدة وضعوا لها نظريات أصلية نبعت من قريحتهم ، واستمدت أصولها من فكرهم وثقافتهم . والحقيقة التي ليس عليها غبار أن الدور الحضاري الكبير الذي قدمته الحضارة العربية الإسلامية في مسيرة الحضارة الإنسانية كان دوراً كبيرًا تميز بالاختراعات ، والابتكارات ، والاكتشافات . ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا أن الحضارة العربية المعاصرة هي إمتداد للحضارة العربية الإسلامية ، حيث ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه إلا بعدما سارت على نفس الأسس التي إتبعها علماء الحضارة العربية الإسلامية في مختلف التخصصات العلمية ، وخاصة المنهج العلمي التجريبي .

أهم المصادر والمراجع :

١ ـ أحمد ابراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي ، (القاهرة ، ١٩٧٦) .

٢ ـ أحمد عبدالرزاق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، ط١ (القاهرة/ ١٩٩١) .

٣ ـ آدم متز : الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة الإسلامية ـ تعريب : محمد عبدالهادي نويرة ، دار الكتاب العربي ، ط٤ (بيروت ، ١٩٦٧) .

٤ ـ أ .س .ترتون : أهل الذمة في الإسلام ـ تعريب حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ (القاهرة ، ١٩٩٤) .

٥ ـ أحمد عمر هاشم : السنة النبوية وعلومها ، دار الكتاب الإسلامي ، ط١ (القاهرة ، ٨٤ـ١٩٨٥) .

٦ ـ أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دار الرائد العربي ط٢ (بيروت ، ١٩٨١) .

٧ ـ أحمد فؤاد باشا : التراث العلمي للحضارة الإسلامية ، دار المعارف ، ط١ (القاهرة ، ١٩٨٣) .

٨ ـ أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ـ اشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية (يونسكو) الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٨٧) .

٩ ـ توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ط١ (المنصورة ، ١٩٨٨) .

١٠ ـ جلال محمد عبدالحميد موسى : منهج البحث العلمي عند العرب ، دار الكتاب اللبناني ، ط١ ، (بيروت ، ١٩٧٢) .

١١ ـ جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث ، مركز كتب الشرق الأوسط (القاهرة ، ١٩٦٩) .

١٢ ـ حكمت عبدالكريم فريحات : مدخل إلى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار الشروق ط ١ (عمّان ، ١٩٨٩) .

١٣ ـ حيدر بامات : إسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية ـ تعريب : ماهر عبدالقادر ، وعبدالقادر البحراوي ، دار المعرفة الجامعية ط ١ (الإسكندرية ، بدون تاريخ) .

١٤ ـ دومنيك وجانين سورديل : الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي تعريب : حسني زينة ، دار الحقيقة ، ط ١ (بيروت ، ١٩٨٠) .

١٥ ـ رينهرت دوزي : المسلمون في الأندلس ـ تعريب : حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ١٩٩٤) .

١٦ ـ سعيد عاشور وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، ذات السلاسل ، ط ٢ (الكويت ، ١٩٨٦) .

١٧ ـ شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ـ تعريب : حسين مؤنس وإحسان العمد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد نوفمبر ١٩٨٧ (الكويت) .

١٨ ـ صلاح حسين العبيدي ، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي ، دار الرشيد للنشر (بغداد ، ١٩٨٠) .

١٩ ـ السيد طه أبو سديرة : الحرف والصناعات في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٩١) .

٢٠ ـ عباس محمود العقاد : حضارة الإسلام ، المجلد العاشر ، دار الكتاب اللبناني ط ١ (بيروت ، ١٩٨٧) .

٢١ ـ عبدالحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، دار المعارف (القاهرة ، ١٩٨٠) .

٢٢ ـ عبدالرحمن جنكة الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ، دار القلم ، ط٢ (دمشق ، بيروت ، ١٩٨٠) .

٢٣ ـ عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ، دار الفكر العربي (القاهرة ، ١٩٨٧) .

٢٤ ـ عصام الدين محمد علي : جذور الحضارة الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية ، ١٩٨٣) .

٢٥ ـ عبدالله شحاتة : المرأة في الإسلام بين الماضي والحاضر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٨٤) .

٢٦ ـ علي حسني الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة الخانجي (القاهرة ، ١٩٧٥) .

٢٧ ـ علي عبدالله الدفاع : أثر علماء العرب والمسلمين ، مؤسسة الرسالة ، ط١ (بيروت ، ١٩٨٣) .

٢٨ ـ إسهام علماء في الرياضيات ، دار الشرق الأوسط ، ط١ ، (بيروت ، ١٩٨١) .

٣٠ ـ عمرو فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، منشورات المكتبة العصرية ، ط٤ (بيروت ، ١٩٨٠) .

٣١ ـ عون الشريف قاسم : الإسلام والثورة الحضارية ، دار القلم (بيروت ، ١٩٨٠) .

٣٢ ـ قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار الشرق (بيروت ، ١٩٦٣) .

٣٣ ـ علماء العرب وما أعطوه للحضارة ، دار الكاتب العربي (الرياض ، بدون تاريخ) .

٣٤ ـ قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، دار العلم للملايين ، ط ١ (بيروت ، ١٩٦٤) .

٣٥ ـ محمد إبراهيم الصيحي : الحضارة العربية وأثرها في أوروبا ، مكتبة الوعي العربي (القاهرة ، ١٩٨٤)

٣٦ ـ محمد عبدالرحمن مرحبا : الموجز في تاريخ العلوم عند المسلمين ، دار الكتاب اللبناني ، ط٢ (بيروت ، ١٩٧٨) .

٣٧ ـ محمد فتحي الشاعر : مآثر العرب في العلوم المترجمة في العصور الوسطى ، دار المعارف (القاهرة ، ١٩٩٣) .

٣٨ ـ محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، المكتب الإسلامي ، ط ١ (بيروت ، ١٩٧٩) .

٣٩ ـ محمد إسماعيل : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار الفلاح ، ط ١ (الكويت ، ١٩٨٩) .

٤٠ ـ محمود عرفة وآخرون : معالم تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، دار الكتاب الحديث ، (الكويت ، ١٩٩٣) .

٤١ ـ مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ـ تعريب : حسين أحمد أمين ، دار الشروق ، ط ١ (بيروت ، ١٩٨٣) .

٤٢ ـ ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ، دار الثقافة ، ط٣ (بيروت ، ١٩٧٥) .

٤٣ ـ هشام جعيط ، الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، ط ١ (الكويت ، ١٩٨٦) .

الفصل الثامن

فضل الحضارة العربية الإسلامية على النهضة الأوربية الحديثة

د. نايف السهيل

تميزت الحضارة العربية الإسلامية بصفة العالمية ، فلم تكن هذه الحضارة حكراً على أحد ، لذلك اتجهت مسيرتها لجميع شعوب العالم تتنقل فوق الحواجز الجغرافية ، والحدود السياسية تحمل لواء العلم والمعرفة إلى كافة شعوب الشرق والغرب .

وأستفادت أوروبا من الانجازات العلمية في الحضارة العربية الإسلامية . فخرجت بذلك من ظلام العصور الوسطى إلى نور العلم الذي أضاء لها طريق الحضارة .

تقول الأستاذة سيجريد هونكة : «لقد عرفت أوروبا تراث العالم القديم عن طريق الحضارة العربية الإسلامية فقط ، فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية ، والشروح التي وضعها العرب عليها ، والكتب التي ألفها العرب ، كل هذه كانت العامل القوي في النهضة العقلية الجرمانية ، وفي تغذيتها ودفعها إلى الحركة العلمية دفعاً» (١) .

ولم يدخر المسلمون جهداً في البحث عن تراث الأمم السابقة في العلوم المختلفة ـ رغم صعوبة ذلك ـ والعمل على ترجمة هذا التراث العلمي المتميز للحضارات اليونانية ، و الفارسية ، والهندية . ولم يكتف المسلمون بالترجمة فقط ، بل قاموا بالبحث في هذا التراث ، فصححوا وأضافوا إليه الكثير ، وهذا ما

---

١ ـ سيجريد هونكة ، شمس الله على الغرب ص١٢١ .

أعطى النهضة العلمية في الحضارة العربية الإسلامية أهمية بالغة ، ساهمت في بناء النهضة الأوربية الحديثة .

معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا :

من أبرز المراكز الحضارية الإسلامية التي ساهمت في نقل التراث الحضاري الإسلامي إلى أوروبا :

أولاً : مصر والشام زمن الحروب الصليبية :

أدت الحروب الصليبية إلى تكوين صلات سياسية وثقافية وحضارية وتجارية بين الشرق الإسلامي ـ مصر والشام ـ والغرب الأوروبي . وعرفت أوروبا فنون وعلوم الشرق الإسلامي منذ تأسيسهم الإمارات الصليبية في بلاد الشام أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فنقلوا الكثير من تلك الفنون والعلوم والمعارف ، كما حصلوا على الكثير من الكتب والمخطوطات العربية والإسلامية ، فساعد ذلك على ظهور روح البحث ، ودراسة علوم الحضارات القديمة وآدابها وفنونها [1] ، مما ترك أثاراً واضحة في الفكر الأوروبي خلال العصر الوسيط .

ثانياً : الأندلس :

عنى المسلمون في الأندلس بالعلوم والأداب والفنون ، ولم يكتفوا بما وصل إليه الشرق الإسلامي من تقدم ، بل أضافوا إليه مما ابتكروه من بنات أفكارهم لذلك ظهرت حضارة عربية إسلامية راقية في الأندلس ، تشع من مراكز متعددة مثل : طليطلة(Tolatum) ، قرطبة (Corduba) ، غرناطة (Granata) ، واشبيلية (Hispalis) ، وقد أتاحت هذه المراكز لأوروبا مورداً علميا هاماً ظلت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادي عشر ، حتى القرن الخامس عشر الميلاديين [2] .

١ـ أبو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ص٣٧٤ .
٢ـ سعيد عاشور ، الحضارة العربية الإسلامية ، طبعة الكويت ص٤٨٨ .

وجدير بالذكر أن بلاد الأندلس ساهمت في بناء حضارة أوروبا بشكل عام ، وغربها بشكل خاص بسبب قرب المسافة ، والازدهار الحضاري الذي شهدته الأندلس نتيجة لاستمرار الحكم الإسلامي قرابة الثمانية قرون ، كانت كافية لتحويل بلاد الأندلس من عصور التخلف والجهل قبل الفتح العربي الإسلامي إلى عصور البناء والتعمير والنهضة العلمية والثقافية التي إزدهرت بجهود العلماء المسلمين .

ومما ساعد على الانتشار السريع للحضارة العربية الإسلامية في غرب أوروبا ، أن ملوك أسبانيا المسحيين عندما استولوا على المدن الأندلسية . مثل طليطلة وغرناطة حفظوا ما فيها من تراث حضاري إسلامي ، وشجعوا علماء الأندلس على البقاء فيها وعدم الرحيل عنها . مما ساعد في بناء النهضة الأوروبية الحديثة بعد ذلك .

ثالثاً : صقلية وجنوب إيطاليا :

خضعت «صقلية» للحكم الإسلامي قرابة ثلاثة قرون (٢١٢ـ٤٨٤هـ) . كما خضعت جزر «كريت» ، و«مالطة» و«البالیار» ، و«سردينيا» ، و«قبرص» للسيطرة الإسلامية .وقد ظهرت معالم الحضارة العربية الإسلامية بتلك الجزر في شتى المجالات ، والتي من أبرزها الزراعة ، حيث أدخلوا زراعة الكثير من المحاصيل التي كانت مجهولة قبل الفتح الإسلامي ، كزراعة القطن وقصب السكر . وكذلك الصناعة مثل إنشاء مصانع الورق والحرير . إضافة إلى نقل التراث العلمي وفنون العمارة الإسلامية إلى هذه الجزر ، ومنها إلى أوروبا . هذا ولا تزال مدن وشوارع كثيرة في صقلية تحمل أسماء عربية .

ولم تنته الحضارة العربية الإسلامية بانتهاء حكم المسلمين في صقلية ، فقد وجدت في ملوك النورمان ـ وهم من تقلد أمور الحكم في صقلية بعد الحكم

الإسلامي خير مشجع لها ولعلمائها . كما اهتموا بترجمة الكتب والمؤلفات العربية والإسلامية . لهذه الأسباب كانت إيطاليا سباقة في ظهور النهضة بها قبل غيرها من الدول الأوروبية الأخرى .

وعن طريق هذه المراكز الإسلامية الحضارية ، إضافة إلى مجالات أخرى - مثل التجارة - انتقل تراث الحضارة العربية الإسلامية إلى الكثير من الشعوب الأوروبية لينتزع أوروبا من عصور الجهل والظلام والفوضى إلى شمس الحضارة العربية الإسلامية ، حيث النهضة العلمية المزدهرة والفنون الإسلامية الرائعة والأنظمة الإجتماعية والسياسية المتقدمة .

وسوف نستعرض بعض البراهين والشواهد للدلالة على تأثير الحضارة العربية الإسلامية على النهضة الأوروبية الحديثة في شتى العلوم والفنون .

ففي الأدب ، فقد تأثر الأدب الأوروبي تأثيراً واضحاً بموضوعات الأدب العربي الإسلامي ، فأخذوا عنهم فنهم القصصي . وقد اتضح ذلك في الكثير من القصص الأوروبية ، مثل قصة «روبنسن كروزو» المأخوذة عن قصة «حي بن يقظان» ، التي كتبها فيلسوف الأندلس (ابن طفيل) والتي ترجمت إلى اللاتينية والانجليزية (١) .

ومن أشهر مؤلفات الحضارة العربية الإسلامية في مجال الأدب ، والتي تم نقلها إلى اللغات الأوروبية ، وكان لها أثرٌ هامٌ في الأدب الأوروبي «كليلة ودمنة» و«ألف ليلة وليلة» ، التي تأثر بها فولتير (Voltaire) . أما في الشعر ، فقد ظهرت القافية في الشعرالأوروبي . والمعروف أن الشعر الأوروبي الكلاسيكي لم يهتم بالقافية بخلاف الشعر العربي الذي يرتكز على القافية ويعتبرها منذ نشأته ركناً من أهم أركانه .

---

١ - عصام الفقي ، معالم التاريخ الإسلامي - طبعة دار الفكر - القاهرة ص٣٩٧ .

كما أن اللغة العربية ، كان لها أثر هام في اللغات الأوروبية ، فعدد الألفاظ والمصطلحات العربية في اللغتين الأسبانية والبرتغالية كبير جداً ، مما دفع المستشرق «دوزى» إلى عمل معجم للألفاظ والمصطلحات ذات الأصل العربي والشائعة الأستخدام في هاتين اللغتين . كما وجد هذا التأثير في اللغة الانجليزية ففيها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة عن أصل عربي [١] .

أما علم التاريخ ، فقد اهتم المسلمون بهذا العلم وعنوا به عناية فائقة ، إتضحت من مؤلفاتهم التي وصلت إلينا ، والتي إستفادت منها أوروبا بمعرفة المهنج العلمي في التدوين والنقد والتحليل ، ليحل بديلاً عن المناهج الأوربية العقيمة عند مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى التي غلب عليها الطابع البطولي التمجيدي والأسطوري . وخير دليل على ذلك ، أن «أرنولد توينبي» يكتب صراحة في موسوعته «دراسة التاريخ» أنه أفاد من منهج ابن خلدون[٢] .

وتبرز أهمية كتاب «الكامل في التاريخ» (ابن الأثير) ، على ما حوى من أخبار كثيرة عن صقلية وجنوب إيطاليا ، حيث أفادت هذه الأخبار مسيو (ميشيل أماري) في تأليفه كتاب «سلطان العرب في صقلية»[٣] ، وقد اعتمد الكثير من المستشرقين على كتب التاريخ الإسلامي في نقل المعلومات الدقيقة والصحيحة ، وقد أشادوا بدقة وصدق المؤرخين المسلمين بنقل المعلومات التاريخية دون تغيير أو تزوير .

إما بالنسبة لعلم الجغرافيا ، فإن فضل الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا يبدو واضحاً ، فقد كانت المؤلفات الإسلامية في هذا المجال أساساً لدراسة ذلك العلم في أوروبا عدة قرون . وقد اعترف المستشرقون بأن الكشوف

---

١ ـ سعيد عاشور ، المرجع السابق ص٤٨٩ .

٢ ـ محمود اسماعيل ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة الفلاح ، الكويت ص٢٦٧ .

٣ ـ أحمد الملا ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ـ دار الفكر ـ دمشق ص١٨٧ .

الجغرافية البرتغالية والأسبانية جرت على هدى كتب الجغرافيين العرب والمسلمين . ولا شك أن ما كتبه العلماء المسلمون في هذا العلم في صقلية وبلاد الأندلس ، كان مادة استرشد بها البرتغاليون في كشف رأس الرجاء الصالح ، وخرستوف كولمبس في اكتشاف امريكا . ، وقد ساعد ابن ماجد الرحالة فاسكودى جاما في رحلته إلى الهند سنة ١٤٩٨م والكشف عن الطريق الموصلة إليها .

ومن المؤلفات الإسلامية الخالدة في هذا المجال ، كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي . وكتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للادريسي (ت ١١٦٠م) وقد ألفه في صقلية لملكها «روجر الثاني» سنة ١١٥٤م . وكتاب «المسالك والممالك» للبكرى وكتاب «المسالك والممالك» للأصطخرى .

أما علم الاجتماع ، فيعد ابن خلدون في نظر كثير من الدارسين واضع أسس هذا العلم ، وهو أقدم باحث في هذا المجال في الشرق والغرب . إذ ان ابن خلدون يعد أول من درس علم الإجتماع الإنساني والتطور في البيئة الإجتماعية . وقد نقلت أوروبا هذا العلم من «مقدمة ابن خلدون» ويقول الاستاذ (فارد) الأمريكي ، في كتابه «علم الاجتماع النظري» «كانوا يظنون أن أول من قال وبشّر في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو) أو (فيكو) ، في حين أن ابن خلدون ، كان قد قال بذلك ، وأشهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة» (١) .

وفي مجال العلوم الطبية ، كان للعلماء المسلمين أطيب الأثر في هذه العلوم ، حيث عرفوا علم الطب وبرعوا فيه ، ونقلت أوروبا الكثير من انجازات المسلمين في هذا المجال عن طريق مدارس العرب المسلمين في (صقلية

---

١ ـ أحمد الملا ، المرجع السابق ، ص١٩٥ .

وأسبانيا) . وظلت المؤلفات العربية الإسلامية المترجمة إلى اللغات الأوروبية هي أساس المعرفة الطبية في جامعات أوروبا [١] ، والتي كان من أبرزها جامعة نابولي ، واكسفورد ، ومونبيليه ، وبولونيا ، وكمبردج .

ومن أهم كتب الطب في الحضارة العربية الإسلامية ، والتي تم ترجمتها إلى اللغات الأوروبية ، كتاب «القانون» في الطب لابن سينا ، ونقله إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي المترجم الإيطالي جيرا ردودي كريمونا ، ويعد هذا الكتاب من أفضل الكتب الطبية لدقته العلمية وحسن تقسيمه حيث تناول فيه علوم ووظائف الأعضاء وعلم الأمراض وعلم الصحة ومعالجة الأمراض وعلم الأدوية . وكذلك كتاب «الشفاء» لابن سينا ويقع في ثمانية وعشرين مجلداً ، وقد تم نقله إلى اللغات الأوروبية أيضاً [٢] .

كما ترجم كتاب «الحاوي» للرازي سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٧٩م على يد أحد أطباء صقلية وهو أبو الفرج بن سالم اليهودي ، وبقي كتاب الحاوي كما بقي كتاب القانون يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السابع عشر الميلادي .

وكذلك تم ترجمة كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي الذي عاش بالأندلس ـ وهذا المرجع هو أهم مؤلف في علم الجراحة وتجبير العظام ، وقد ترجم إلى اللاتينية في القرن الخامس عشر الميلادي ، على يد جيرا ردودي كريمونا ، وجعلته جامعة اكسفورد بانجلترا المرجع لدراسة الجراحة حتى القرن الثامن عشر الميلادي [٣] . وكتاب الزهراوي يتكون من واحد وعشرين جزءاً ، وقد اشتمل على أكثر من مائتي شكل للالات والأدوات الجراحية . وأصبح بعد ذلك أحد الكتب السبعة ، التي قام عليها العلاج والصيدلية في

---

١ ـ أحمد الملا ، المرجع السابق ، ص١٣٤ .

٢ ـ عصام الفقي ، المرجع السابق ، ص٣٩٩ .

٣ ـ العدوى والسهيل ، الحضارة العربية الإسلامية ـ الكويت ص٢٣٣ .

أوروبا ، وهو أول من وفّق إلى ربط الشرايين لمنع النزيف ، حسب ما جاء في دائرة المعارف البريطانية . كما ترجم كتاب «الكليات» في الطب لابن رشد سنة ١٤٩٠م . وقد سبق العلماء المسلمون في الطب العلماء الأوروبيين في وصف مرض الجذام ، ومرض الجدري والحصبة ، وعلاج أمراض العيون ، وعلاج الجنون الذي كان يسمى عند الأوروبيين بالمرض الإلهي أو المرض الشيطاني ، لأنهم كانوا يحسبونه من اصابات الأرواح أوالشياطين[١] .

اما علم الفلك ، فقد عنى العرب المسلمون عناية كبيرة دلت عليها المراصد التي انتشرت في مختلف البلاد الإسلامية في دمشق والقاهرة وفاس وقرطبة والانجازات الرائعة لعماء الفلك المسلمين التي أفادت منها النهضة الأوروبية الحديثة . ومن أبرز انجازات الفلكيين المسلمين ، معرفة «الجداول الرياضية» ، التي وضعها الخوارزمي وساعدت على القيام بالحسابات الفلكية المطلوبة . وقياس «محيط الأرض» الذي قام به الفرغاني . وكذلك معرفة «المزولة» ـ التي هي في حقيقتها ساعة تعتمد على ظل الشمس لبيان الوقت والساعة المائية التي أهداها هارون الرشيد إلى الملك شارلمان . وكذلك معرفة «الاسطرلاب» عن طريق أبو عيسى الاسطرلابي ، ولكن أول من صنع اسطرلاباً في الإسلام هو محمد بن ابراهيم بن حبيب الفزاري (٧٧٧م) . وأهمية الاسطرلاب تظهر في تعيين زوايه ارتفاع الاجرام السماوية عن الأفق في أي مكان ، وكذلك ثم استخدامه في حساب الوقت ، وقياس البعد عن خط الاستواء (أي خط العرض) . وتطوير الاسطرلاب وتعدد استخدامه لا يجعلنا ننكر ان فكرة صنع الاسطرلاب فكرة اغريقية ترجع إلى «هبارخش» الاغريقي سنة ١٥٠ق .م[٢] ويقال أيضاً أنها فكرة صينية .

---

١ ـ إبراهيم الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ـ ذات السلاسل ـ الكويت ص٢٩٥ .

٢ ـ إبراهيم الكروي ، المرجع السابق ص٣١٩ .

ومن أبرز الفكيين المسلمين البتاني (٣١٧هـ) وهو الذي عرف طول السنة المدارية والفصول ، والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس ، وصحح جملة من حركات القمر والكواكب السيارة (١) . وابن يونس البصري مخترع «بندول الساعة» الذي سبق جاليليو بستة قرون في هذا الاكتشاف ، وقد أثبت ذلك العالم الانجليزي «تايلر» في كتابه تاريخ الرياضيات و«سيدو» في كتابه تاريخ العرب كما رصد كسوف الشمس وخسوف القمر . أما البيروني فقد صحح نظرية الأغريق الخاطئة التي تقول بأن الشمس تدور حول الأرض فتسبب الليل والنهار ، وأعلن أن الأرض هي التي تدور حول نفسها أمام الشمس كما أنها تدور في فلك حول الشمس ، وقد أثبت البيروني نظريته هذه علميا وعمليا قبل العالم الألماني (كوبر نيكس) بخمسة قرون (٢) .

وقد ظهرت في أوروبا في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي جمعيات عدة ، عكفت على ترجمة الكتب الفلكية لعلماء المسلمين إلى اللغات الأوروبية ، منها جامعة نابولي ، وجامعة طليطلة (٣) . هذا ولا تزال أسماء النجوم التي ترجع إلى أصل عربي تسمى بأسماء عربية لليوم . ومن أشهرها العقرب Akrabi ، السموت Sommet الطائر Altair .

أما العلوم الرياضية فهي العلوم التي ازدهرت في الدولة العربية الإسلامية ، وأصبحت كسبا للإنسانية جمعاء ، وذلك بسبب ما تحقق لعلماء الدولة العربية الإسلامية من انجازات خالدة في علم الحساب ، والجبر والمقابلة والهندسة .

من أهم هذه الإنجازات التي نقلتها أوروبا في علم الحساب نظام الأعداد الحسابية «نظام الترقيم» المأخوذ أساسا من الحضارة الهندية ، والذي تطور على يد المسلمين .

---

١ ـ المرجع السابق ص٣٢١ .

٢ ـ المرجع السابق ص٣٢٣ .

٣ ـ برونوفسكي ، ارتقاء الإنسان ، ترجمة د .موفق شخاشيرو . طبعة المعرفة ـ الكويت ص١٢٣ .

صفحة من كتاب للخوارزمي في الجبر والمقابلة

وفي هذا المجال يقول برونوفسكي ، أن أوروبا استبدلت الطريقة الرومانية القديمة ، بالطريقة العشرية الحديثة ، التي لاتزال بالطريقة العربية حتى الآن ، وقد كتب البيروني رسالة هامة في الأعداد ، وكذلك عرف علماء المسلمين تقسيم الكسور ، واستخرج الجذور التربيعية .

أما علم الجبر والمقابلة ، فإن مكتشف هذا العلم وواضع أسسه وقواعده هو العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي (١٦٤ ـ ٢٣٥هـ) بتشجيع من الخليفة المأمون العباسي . وارتبط اسم الخوارزمي بهذا العلم في الشرق والغرب بعد أن ألف كتابه «الجبر والمقابلة» وهو أقدم كتاب يشرح هذا العلم ويجعله مستقلا عن الحساب . وقد نقله إلى اللاتينية روبرت الشستر سنة ١١٤٥م . ولا يزال هذا العلم محتفظا باسمه العربي (Al-Gebra) في اللغات الأوروبية .

أما في الهندسة وعلم حساب المثلثات فقد ترجم العرب كتاب إقليدس في الهندسة ، وهي الترجمة التي حفظت هذا المؤلف من الضياع والتدمير ، حيث نقلها الأوروبيون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي . ولم يكتف العرب في دراساتهم على معلومات اليونان في الهندسة وحساب المثلثات بل جددوا وأضافوا الكثير من الانجازات العلمية . وخير مثال على ذلك ما قام به البتاني ، الذي توصل إلى حساب المثلثات بالصورة التي نستخدمها الآن . وقد ترجم الأوروبيون الكثير من المؤلفات الإسلامية في هذا المجال ، وأبرزها كتاب «جداول حساب المثلثات» للخوارزمي الذي ترجمه إلى اللاتينية «اديلارد الباثي» [١] .

أما بالنسبة لعلم الكيمياء ، فإن الفضل في تطويره يعود إلى جابر بن حيان (ت٢٠٠هـ) ، والذي اشتهر عند الأوروبيين باسم «Geber» ، وقد استخدم

---

١ ـ إبراهيم الكروي ، المرجع السابق ص٣٣٠ ـ ٣٣١ .

نظام التجربة المعملية للوصول إلى الحقائق العلمية ، وتمكن من استخلاص المعادن والقلويات ، وعدل نظرية أرسطو في تركيب المعادن . وترجمت الكثير من مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية ، وكذلك ترجم الأوروبيون بعض مؤلفات المسلمين في الكيمياء مثل : كتاب «العلوم البحتة» للمجريطي (ت٣٩٨هـ) ، وكذلك كتاب «الشفاء» لابن سينا (ت٤٣٨ هـ) .

وقد نقل هذا العلم باسمه العربي إلى اللغات الأوروبية (Al-Ckimie) ، وكذلك ثم نقل الكثير من الانجازات الاسلامية في مجال علم الكيمياء بنفس تسميتها عند العرب ، مثل الإكسير (Elixir) ، والصودا (Soda) ، والكحول (AlCohol) والقلويات (Alkali) والكفاور (Al-Camphor) والزمرد (Emerald) بالإضافة إلى أن علماء أوروبا اعتمدوا على دراسات جابر بن حيان في اكتشاف البارود الذي أدى إلى تطوير الأسلحة الحربية بعد ذلك .

أما علم الفيزياء فقد نقل الأوروبيون كل ما توصل إليه «ابن الهيثم» (ت ٤٣٠هـ) في مجال علم البصريات مثل قواعد انعكاس الضوء وانكسار وحساب زوايا السقوط ، وزوايا الانعكاس . وكذلك الاكتشاف الخاص بالتميز ما بين الظل وشبه الظل ومعرفة الغرفة المظلمة ، وهذا الاكتشاف أدى إلى معرفة التصوير . وكذلك دراسات الحسن بن الهيثم الخاصة بالعين والبصريات والضوء التي ساهمت باكتشاف النظارة الطبية في عصر النهضة الأوروبية . وكان ابن الهيثم يعرف عند الأوروبيين باسم «Al-Hazen» وترجموا كتابه «المناظير» أو «المناظر» .

وكذلك نقل الأوروبيون كتاب «البصريات» للخازن البصري (ت ١٠٧٨هـ) . وكان الخازن الاستاذ الأكبر لكثير من العلماء الأوروبيين في العصور الوسطى كما يقول مسيو «شاسل» . وعاصر الخازن البصري ابن سينا الذي قام بدراسات جديدة في الحركة والطاقة والفراغ والضوء والحرارة والكثافة النوعية .

وفي العلوم الزراعية ، نجد أن معظم علماء النبات والزراعة المسلمين قد ظهروا في الأندلس ، وكان لهم عظيم الأثر في نقل هذه المحاصيل الزراعية إلى البلاد الأوروبية . ومن أبرزهم ابن العوام الأندلسي الذي نقلت أوروبا كتابه «الفلاحة» في عام ١٨٠٢م . وعرف علماء أوروبا من هذا الكتاب دراسة التربة واختيار المزروعات والأسمدة المناسبة للتربة ، وزراعة البساتين والأشجار وطريقة سقيها وتلقيحها[١] .

أما ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ) ، وهو أعظم نباتي ظهر في الحضارة العربية الإسلامية ، وقد ترجم كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» للغات الأوروبية لما له من أهمية في مجال علم النبات .

ونجد كثيرا من المحاصيل ووسائل الزراعة تنتقل إلى أوروبا عن طريق الشرق[٢] ، وتلفظ كما هي باللغة العربية . وعلى سبيل المثال ، الزعفران «Safran» ، الأرز «Riz» ، والكافور «Campher» ، والخرشوف «Artichaud» ، والقطن «Coton» ، والمسك «Musc» ، والحنة «Henne» ، وقصب السكر «Sucre» ، والليمون «Lemon» ، والموز «Banane» ، والقهوة «Cafe» ، والسمسم والمشمش والثوم . . . الخ .

هذه أمثلة تدل دلالة قاطعة على أن أوروبا عرفت الكثير من المزروعات والمحاصيل الزراعية عن طريق الحضارة العربية الإسلامية وبخاصة من الأندلس وصقلية .

أما في مجال الصناعة ، فنجد أيضا أن هناك تطورات صناعية عديدة في أوروبا بمطلع العصور الحديثة يرجع الفضل فيها إلى الحضارة العربية الإسلامية . ومن أهمها صناعة الحديد التي نقلت من كرمان وفارس وشمال افريقية ،

---

١ ـ إبراهيم الكروي ، المرجع السابق ص١٦٨ .
٢ ـ أحمد عيسى ، معجم أسماء النبات ، القاهرة ١٣٤٨ هـ صفحات مختلفة .

والذهب والفضة ، والنحاس الأصفر ، وصناعة السكر من البصرة[1] . والحرير والقطن والعطور وأدوات الزينة والسجاجيد واستخدام الأخشاب في الصناعة مثل صناعة الأثاث ، وكذلك صناعة الورق التي نقلها العلماء المسلمون من الصين وطوروها في القرن الرابع الهجري واستخدموا مواد جديدة لصناعة الورق ، ونقل علماء المسلمين بدورهم هذا الانجاز المهم جدا لأوروبا لأنه أساس تطور العلوم .

تأثرت أوروبا بإنجازات الحضارة العربية الإسلامية في مجال الموسيقى ، إذ نقل علماؤها من الأندلسيين الكثير من الآلات الموسيقية العربية مثل القانون «Kanoon» ، والعود «Luth» ، والرباب «Rebec» ، والقيثارة «Guitar» ، والطبل «Timbal» .

بالإضافة إلى ما سبق عرضه من تأثيرات للحضارة العربية الإسلامية على النهضة الأوروبية الحديثة ، فقد امتدت تلك التأثيرات إلى مجالات عديدة شملت الفنون بعناصرها المعمارية والزخرفية[2] .

وبهذا يتضح لنا ، أن الحضارة العربية الإسلامية ، ساهمت في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة بفضل الانجازات الرائعة في مختلف الآداب والفنون والعلوم ، والتي أوردنا لها بعضا من الدلائل والبراهين التي تؤكد ذلك .

وأخيرا ، لا بد من ذكر بعض آراء العلماء الأوروبيين المنصفين للحضارة العربية الإسلامية والذين أكدوا على أهميتها بالنسبة لأوروبا . ومن هؤلاء غوستاف لوبون[3] الذي يقول : «أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة . . واستفاد الصليبيون من علوم العرب فائدة كانت أقل مما يجب ،

---

١ ـ آدم متز ، الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٣٠٥ .
٢ ـ ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ص٩١ .
٣ ـ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص٣٣٨ .

بسبب ، أن الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن تبالي بالمعارف ، ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر في ميدان البناء والعمران والصناعة أكثر منها في ميدان الفكر والفن» .

ويقول كيرك[1] : «إن للحروب الصليبية أهمية لا تقدر في تاريخ الثقافة بأوروبا ، بسبب ما كان لها من أثر عظيم في تفتيح أذهان الناس إلى مستوى الحضارة العربية الإسلامية . ذلك المستوى الذي كان يفوق حضارة الغرب بكثير» .

ويقرر أميرتون[2] : «إن الثقافة التي حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ورفعتهم قدما إلى عالم الحضارة»[3] .

ويقول ليبري[4] : «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الثقافية عدة قرون» .

تم بحمد الله

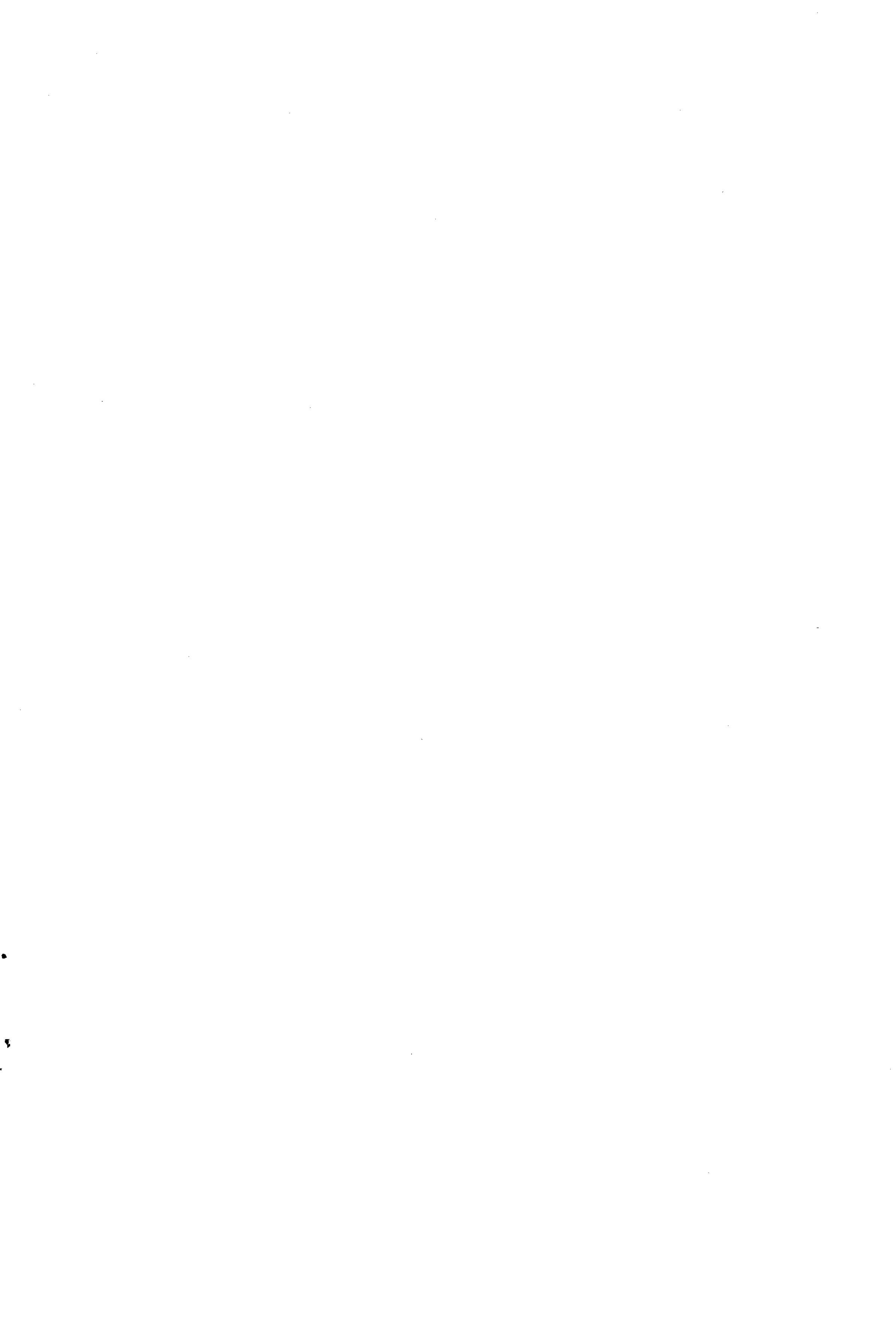
---

١ ـ Kurik, Ashort History of the Midle East p.71

٢ ـ Ementon, Midiaeval Euope p. 393

٣ ـ نقلا عن أحمد شلبي ، موسوعة تاريخ المناهج الإسلامية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٢ ص٥٦ و٥٧ .

٤ ـ نقلا عن حضارة الإسلام للدكتور جلال مظهر ، وأحمد شلبي ، المرجع السابق ص٥٧ .



المصادر والمراجع

١ - إبراهيم الكروي : طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول (الكويت ١٩٨٣) .

٢ - إبراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣م .

٣ - ابن الأثير ، علي بن أحمد : الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٤ - أحمد إبراهيم الشريف : دراسات في الحضارة الإسلامية (القاهرة ، بدون تاريخ) .

٥ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦م .

٦ - أحمد أمين : ضحى الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٩م .

٧ - أحمد فؤاد باشا : التراث العلمي للحضارة الإسلامية ، ١٩٨٣م .

٨ - آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (مترجم) ، بيروت ، بدون تاريخ .

٩ - أرنست كونل : الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، بيروت .

١٠ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٧٣م .

١١ - أوليري : Oleary

Arabia Befor Muhammed, London, 1927.

١٢ - أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٢م .

١٣ - البغدادي ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق ، بيروت ، ١٩٧٨م .

١٤ - البلاذري ، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، مكتبة النهضة المصرية .

١٥ - ترتون : أهل الذمة في الإسلام ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م .

١٦ ـ توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية مقارنة مع الحضارة الغربية (المنصورة ، ١٩٨٨) .

١٧ ـ جاك ريسلر : المدينة الإسلامية ، مترجم (طرابلس ، ١٩٩٤) .

١٨ ـ ابن جماعة ، أبو إسحق إبراهيم : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، ١٤٥٣هـ .

١٩ ـ جب : دراسات في الحضارة الإسلامية ، بيروت ١٩٦٤م .

٢٠ ـ جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام (القاهرة ، ١٩٥٦) .

٢١ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ، مترجم (القاهرة ، ١٩٤٥) .

٢٢ ـ حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م .

٢٣ ـ حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية ، مكتبة النهضة العربية .

٢٤ ـ حسن الباشا : التصوير الإسلامي في العصور الوسطى ، مكتبة النهضة العربية .

٢٥ ـ حسن جبر : رجال أسهموا في تأسيس حضارة الإسلام ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

٢٦ ـ حسن حبشي : أهل الذمة في الإسلام (القاهرة ، ١٩٩٤م) .

٢٧ ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٢٨ ـ الذهبي ، الشيخ محمد حسين : التفسير والمفسرون ، القاهرة .

٢٩ ـ ريفرز :

Rivers :

Social Organization, London 1926.

٣٠ ـ زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨م .

٣١ ـ زكي محمد حسن : أطلس فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨م .
٣٢ ـ سرجنت رب : المدينة الإسلامية (مترجم) منشورات اليونسكو .
٣٣ ـ ابن سعد ، محمد : الطبقات الكبرى ، بيروت ١٩٥٨م .
٣٤ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ذات السلاسل ، الكويت .
٣٥ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، عالم الفكر (الكويت) .
٣٦ ـ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر : الإتقان في علوم القرآن ، القاهرة ، ١٩٥١م .
٣٧ ـ الشافعي ، أبو عبد الله محمد : الأم ـ كتاب الشعب .
٣٨ ـ شكري الفيصل : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (بيروت ١٩٨٤م) .
٣٩ ـ شلتوت «الشيخ» : الإسلام عقيدة وشريعة ، بيروت .
٤٠ ـ صلاح الدين حسين العبيدي : الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي (بغداد ١٩٨٠م) .
٤١ ـ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، المطبعة الحسينية .
٤٢ ـ ظافر الصابوني : الحياة الاجتماعية عند العرب (بيروت ، ١٩٧٨م) .
٤٣ ـ عائشة عبد الرحمن : تراثنا بين ماض وحاضر ، دار المعارف بمصر .
٤٤ ـ عبد الحسين مهدي عبد الرحيم : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (طرابلس ، ١٩٩٤م) .
٤٥ ـ ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ليدن .
٤٦ ـ عبد الحق شمس الدين : التراتيب الإدارية ، الرباط ، ١٣٤٦هـ .

٤٧ ـ عبد العال الشامي : جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط ، الكويت ، ١٩٨١م .

٤٨ ـ عبد المجيد بدوي : التيار السياسي والفكري للمذهب السني ، جدة ، ١٩٨٣م .

٤٩ ـ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي (القاهرة ، ١٩٨٥م) .

٥٠ ـ عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية (القاهرة ، ١٩٧٨م) .

٥١ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، الهيئة العامة المصرية للكتاب .

٥٢ ـ عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية ، ١٩٧٨م .

٥٣ ـ عصام الدين عبد الرؤوف : الحواضر الإسلامية الكبرى (القاهرة ، ١٩٧٦م) .

٥٤ ـ عصام عرفة : تطور أساليب التكوين ، رسالة دكتوراه غير منشورة .

٥٥ ـ علي حسني الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية (القاهرة ، بدون تاريخ) .

٥٦ ـ غثيان بن علي بن جريس : بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية (الإسكندرية ، ١٩٤٤) .

٥٧ ـ غنيمة : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، المغرب .

٥٨ ـ قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٩م) .

٥٩ ـ ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، بيروت ١٩٦٧م .

٦٠ ـ قسطنطين زريق : في معركة الحضارة (بيروت ، ١٩٦٤) .

٦١ ـ قصي الحسين : من معالم الحضارة العربية الإسلامية (بيروت ، ١٩٩٣م) .

٦٢ ـ القفطي : تاريخ الحكماء ، مختصر الزوزني ، مكتبة الخانجي بمصر .

٦٣ ـ ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء : البداية والنهاية ، مطبعة السعادة بمصر .

٦٤ ـ الكرخي ، أبو إسحق إبراهيم الأصطخري : المسالك والممالك ، تراثنا ، ١٩٦١م .

٦٥ ـ كريزويل : Creswell: Early Muslim Architecture, 2vols Oxford 1932.

٦٦ ـ كريزويل : A Short Account of Early Muslim Architecture.

٦٧ ـ كمال الدين سامح : في العمارة الإسلامية ، معهد الدراسات الإسلامية بمصر .

٦٨ ـ الكندي ، أبو عمر بن يوسف : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨م .

٦٩ ـ لوي : Lowie : Primitive Society, London 1929.

٧٠ ـ مالك بن أنس : الموطأ ، كتاب الشعب .

٧١ ـ الماوردي ، ابو الحسن علي : الأحكام السلطانية ، المطبعة التوفيقية ، القاهرة .

٧٢ ـ محمد الصادق عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٧م .

٧٣ ـ محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٩٧٢م .

٧٤ ـ محمد جمال الدين سرور تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، دار الفكر العربي .

٧٥ ـ محمد حسين الزبيدي : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (بغداد ، ١٩٧٠م) .

٧٦ ـ محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الأموي ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
٧٧ ـ محمد حميد الله الحيدر أبادي : الوثائق السياسية ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
٧٨ ـ محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ، القاهرة .
٧٩ ـ محمد عبد الحميد أبو زيد : مكانة المرأة في الإسلام (القاهرة ، ١٩٧٩م) .
٨٠ ـ محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ، المكتبة الثقافية ١٩٦٣م .
٨١ ـ محمد عيسى صالحية : بحوث ومقالات في الحضارة العربية الإسلامية (الكويت ، ١٩٨٨) .
٨٢ ـ محمود إبراهيم : أعلام المصورين في العصور الوسطى ، دار نهضة الشرق .
٨٣ ـ محمود إسماعيل : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت ، ١٩٨٩م .
٨٤ ـ محمود عرفة : العرب قبل الإسلام ـ أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ، القاهرة ١٩٩٥م .
٨٥ ـ المسعودي ، أبو الحسن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ١٩٦٤م .
٨٦ ـ المقدسي ، شمس الدين : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، برن ١٩٠٦م .
٨٧ ـ المقريزي ، أحمد بن علي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، بولاق .

٨٨ ـ المقريزي ، أحمد بن علي : شذور العقود في ذكر النقود الإسلامية والقديمة .

٨٩ ـ ابن منظور : لسان العرب ـ دار المعارف بمصر .

٩٠ ـ مينورسكي «م .ف» : الجغرافيون والرحالة المسلمون ، الكويت ، ١٩٨٥م .

٩١ ـ ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية (بيروت ، ١٩٧٥م) .

٩٢ ـ ابن النديم : كتاب الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨هـ .

٩٣ ـ هشام بعيط : الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية (الكويت ، ١٩٨٦م) .

٩٤ ـ ابن هشام ، محمد بن عبد الملك : السيرة النبوية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

٩٥ ـ هيد :: Heyde

Histoire due Commerce de Levant au Moyen Age, Liepzig, 1925.

٩٦ ـ ياقوت ، شهاب الدين : معجم الأدباء ، مصر ١٩٣٦ـ١٩٣٨ .

٩٧ ـ ياقوت ، شهاب الدين : معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٧م .

٩٨ ـ يوسف القرضاوي : شريعة الإسلام ، القاهرة ١٩٧٣م .

٩٩ ـ يوسف القرضاوي : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، (القاهرة ١٩٧٧م) .

فهرس موضوعات الكتاب

دراسات في الحضارة العربية الإسلامية

مطبعة الفيصل
ت : ٢٤٤٦٧٤٠-٢٤٤٦٨٣٨